

طبع بأمر من صاحب الدولة الأمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الماء

في الفكر الإسلامي والأدب العربي

تأليف

الأستاذ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله

الجزء الأول

طبع بأمر من صاحب الخلافة الأمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الماء

في الفكر الإسلامي والأدب العربي

تأليف
الأستاذ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله

الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ
جَنَّةَ وَحْيٍ وَحَبَّ الثَّمَرِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ
لِّفَالِهَا هَلْعٌ نَّضِيدٌ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا
بِهِ بَلَدًا لَّمْ يَمُوتَا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ

(سورة ف، الآية 11)

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي المصطفى الأمين.

وبعد، فإن موضوع الماء يعتبر من أجل وأهم الموضوعات الجديرة بالبحث والعناية والإحاطة والتناول والدراسة، باعتباره مورداً طبيعياً أساسياً للحياة، ومادة ضرورية تركز عليها الحياة الإنسانية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾، كما أنه مورد هام يتميز توفره بعدم الانتظام في الزمان والمكان، وهو بالإضافة إلى ذلك شديد التأثير بالتقلبات المناخية وبالانعكاسات السلبية للأنشطة البشرية.

وعلى غرار مختلف الثقافات والأدبيات الإنسانية اهتم علماء الإسلام بهذا الموضوع، فبحثوا فيه واعتنوا به غاية الاعتناء، وأوردوا في تأليفهم وتصانيفهم كل ما جاء فيه من آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، ونصوص قانونية شرعية وعرفية، واجتهادات علمية شخصية. فتشكلت من هذه الحصيللة المعرفية المتنوعة ثقافة مائية متميزة قائمة الذات.

ومنذ شاءت العناية الربانية أن يصير أمر الأمة المغربية إلى الأسرة العلوية الشريفة والأرومة الهاشمية المنيفة، وملوك الدولة العلوية الأمجاد العظام يولون فائق العناية والاهتمام على مر الحقب والأزمان بتنظيم توزيع الموارد المائية، ومراقبة استعمالها، وضمان حمايتها، والحفاظ عليها، لإقرار سياسة مائية وطنية، مبنية على نظرة مستقبلية، تأخذ بعين الاعتبار تطور الموارد المائية، وتراعي الاحتياجات الوطنية وترشيد استعمال المياه، وتعميم الاستفادة منها في إطار برنامج وطني يهدف إلى تحقيق الأمن المائي على مستوى التراب الوطني، وتلكم من معالم السياسة الحسنية الرشيدة الرامية إلى نشر أولوية الأمن المائي، وتحقيق الاستقرار الاجتماعي والرخاء الاقتصادي، تثبيتاً لدعائم الدولة، وتشيداً لصرح المغرب الشامخ.

وإبرازاً لأهمية الموضوع، ولحاجته الملحة إلى الجمع والتقصي، والتخطيط والبناء والتوثيق، والدراسة والتحليل، والكشف عن جوانبه العلمية المتعددة اهتدى الأستاذ الباحث محمد بن عبد العزيز بنعبد الله إلى إعداد هذه الدراسة الجديدة في بابها القيمة في موضوعها، ووسمها بعنوان : «الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي».

وانطلاقاً من الرسالة الدينية والعلمية لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وحرصها الأكيد على تنويع منشوراتها.

يسعد هذه الوزارة أن تقوم بطبع هذا العمل العلمي الهام لتيسير تداوله، والانتفاع بما احتواه في أبوابه وفصوله ومباحثه من حقائق علمية جديرة بالعناية والدراسة حول مادة الماء، ومكانتها في الثقافة

والفكر الإسلاميين، إلى غير ذلك من الإفادات العلمية التي
سيجدها القارئ الكريم في ثنايا هذا المؤلف المفيد.

ونسأل الله عز وجل أن يجعله في سجل الأعمال الصالحة والمبرات
الكريمة لمولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني دام له العز
والتمكين، وأن يقر عين جلالته بولي عهده الأمير الجليل سيدي
محمد، وصنوه صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد،
ويحفظه في سائر أسرته الملكية الشريفة.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

مقدمة الكتاب

هل للماء ثقافة ذات خصوصيات، وَسِمَاتٍ وَشِيَّاتٍ، توفّر له دراساتٍ وأبحاثاً ومصنّفات، تمتاز بفضاء مَعْرِفي له موضوعات حية متجددة في علاقة الإنسان والأرض، بالماء؟..

ولماذا لا يكون «للماء ثقافة» متميزة، قائمة الذات، وهو سرُّ الوجود، وَمَنَاد الحياة، ومعجزة الطبيعة، وميدانها الرحيب الذي زخرت سُوحُه، قديماً، بعلماء نابهين، اهتموا بدراسة هذه المادة، وكانت لهم، بها، قَدَمٌ فَارِعَةٌ في «ثقافة الماء»، فخلّفوا لنا ثروة رائدة، تمثلت فيما تركوه من آثار، وألفوا من كتب، وصنّفوا من دراسات، ونشروا من أبحاث، ومازال ذلك الأثر حياً باقياً إلى يوم الناس هذا، وإلى يوم التّناد، يشهد لهم بالفلج والتفوق.

وليس الأدب العربي في هذا الميدان، فقيراً أو أَقَلَّ صلاحاً للبقاء، واستحقاقاً للعناية الخُصبة، والدرس المنتج، من الآداب الأجنبية مهما تكن، في دراسة الماء.

وعلى الرغم من تلك الثروة، الفكرية والعلمية الممثلة في «الثقافة المائية» - إن صح هذا التعبير - التي تحدث عنها القرآن في إسهاب، وأشاد بها الأدب العربي في استفاضة وإطناب، وترك تراثها الآباء والأجداد في كتبهم الطبيعية والشرعية، فإننا، اليوم، ننتهيّب، تناوَل هذا الموضوع، والإقدام على ممارسة دراسته، وهو الذي تعتبر مادته أعزّ مفقود، وأهُوَنَ مَوْجُود، مما جعل الطبقة المثقفة تُحجم عن الحديث عنه، والإقبال عليه، فلا يخلقون له ثقافة واعدة، موضوعها: الماء...

ولعل السبب، أيضاً، في هذا الإعراض، اليوم، لإحداث وتجديد «ثقافة مائية»، يعود إلى أَنَّ الماء بطبيعته يتميز بتناقض خَلَاب، من حيثُ إنه أَقْرَبُ المواد إلى المألوف، وأبعدها عن المألوف، فهو أَقْرَبُ إلى المألوف، لأنه موفورٌ وشائع،

وهو أبعدُ عن المألوف، لأن صفاته وخواصه ومميزاته غريبة ونادرة وفريدة في بعض الأحيان...

إن هناك قلةً من العلماء والأدباء، تحدثوا عن الماء باعتباره عنصراً ضرورياً للحياة، إذ لا يكادون يتحدثون عنه، ويُقبلون عليه، حتى يشعروا بفقده وغيابه، ونُصوبه وانعدامه، وهم بالتالي لم يضعوا له إطاراً علمياً ضمن أنساق الثقافة العامة، تخلد تراثاً حضارياً لهذه المادة التي هي عنصر الحياة...

* * *

فإلى أي حد تحدثوا عن هذا البحر المائي الذي يشغل حيزاً كبيراً من «كرتنا المائية»؟ كم تحدث عنه العلماء والأدباء، فأشادوا بنعمه وآلائه، وثرواته ومخزونه، وألفوا فيه الكتب والمصنفات استمداداً من كتابهم المقدس الذي تناوله في غير ما مناسبة، وبلغتهم العربية الراقية، مع أنه ما كان اللغة في دنيانا هذه، أن احتفلت بنعمة الماء، احتفال لغة التنزيل بها..؟

وما كان لأدب مما يضطرب فيه الناس، في عالمنّا، أن تُشرق فيه صفحات مباركة، على ما أشرقت الصُّور الوضيئة في الآيات الكريمة، في إكبارها للرحمة مُصَوَّرة... في الماء...

ويقرر دارسوا اللغات السامية، أن اللغة العربية، من أرقى لغات العالم، وأهلها يملكون «ثقافة مائية» تتجلى في وفرة المادة اللغوية في هذا الباب ولهذه الثقافة.

* * *

إن حضارتنا حضارة ماء... وهل هناك حضارة بلا ماء، إذ لا تتصور حضارة، بالتالي بدون ماء...

إن توفر الماء العذب الشروب شرط أساسي لأي تجمع بشري عمراني، والحاجة إليه تصبح أشدّ، مع زيادة حجم التجمعات الممثلة في كثافة السكان، واستبحار العمران، وتطور الحياة، ونُمو الحضارة والبنیان...

وليس ثمت شك في أن الحضارات التي بقيت في ذاكرة التاريخ، وخلّدها في أنصع صفحاته، هي الحضارات التي اهتمت بالإنسان، فكراً وصحةً ومعاشاً، ولعل الأوابد الأثرية الباقية إلى يومنا هذا من حضارات، هي تلك التي تشير إلى

أن الاهتمام الكبير لدى مَنْ بنوا تلك الحضارات، كان منصّباً على تأمين حياة رغبة للإنسان من خلال توفير المرافق العامة...
إن الحضارة البشرية انحصرت في الأماكن التي توجد فيها الجعافر والحمى والعيون والآبار، ولهذا السبب انحصرت الزراعة في الأماكن التي توجد فيها هذه الموارد المائية...

* * *

إن نقصان الماء يُضعفُ الرابطة ما بين الإنسان والأرض، وبين الإنسان والإنسان، وبالتالي، فهو يُضعفُ الاستقرار والتماسك الاجتماعي، وفي الأصل، فإن المجتمعات الإنسانية الأولى نشأت على ضفاف الأنهار والبحيرات، ولم تكن حضارتها سوى حضارة الزراعة... أي حضارة الأرض والماء...

* * *

لقد كان الشاعر العربي الجاهلي في شدة لهفته على الماء، وتامله له ولآثاره في بلاده، يعكس نفسية العربي في صحراء شبه الجزيرة العربية... ذلك الإنسان الذي كان في شوق مقيم، وهيام دائم إلى الماء، فنجده يكافح وينافح، ويناضل ويجالد من أجل قطرة الماء ينقع بها الغلة، ويشفي الأوام، ويبلّ الصدى... يلاحقها أينما وجدت، ويتبعها أينما حلت، فهو في ترحال دائم، وتنقل مستمر، عينه معلقة في السماء، يتتبع مواقع القطر، ويتسقط مواطن الماء، ويراقب حركة السحاب، وهو لا يتبعه بعينه وجسمه فحسب، وإنما يخفق له قلبه خفق المحبّ الولهان، فكان يشعر بالغبطة والرضى، والسعادة تغمره عندما يتأمل المطر نازلاً، بغزارة من السماء، أو متدافعاً على وجه الأرض، مما يعقبه الربيع الريان، الذي جعله الله نشوراً للحياة، ومتعة للحَي، وانتعاشاً للطبيعة، ومَعاداً للشباب، ومَبْعَثاً للحب، يهز الأرض هزاً، فتربوا وتهتز وتختلج، وتنبت من كل زوج بهيج...

فكم من غارة شنت، ونار حرب شبت، من أجل غدير، أو اغتصاب بئر، إذ كانت الآبار ثروة ورأس مال كبير في المجتمعات الإنسانية الأولى، تحي الأرض

وتميتها، وتفني الناس وتُنْعَشهم، فمن يملك الماء، يملك مَالاً يَقْدَر سَعَة تلك
البيير، ومقدار ناتجها من الماء...

وقد أنتج الشاعر الجاهلي أجمل النماذج الشعرية في وصف الماء، وفي
أحواله المختلفة، وكان أدق ملاحظة، وأكثر تنبهاً، إلى أسرار الجمال والجلال في
الطبيعة الأنيقة، ومن أهم ظواهرها، الماء...

فالشاعر الجاهلي كان ملتحماً مع طبيعة بلاده، دائم الملاحظة لدقائقها،
ومن هُنَا كان العربي البسيط يبدو تعلقه الواضح بالماء في لغته وأساليبه
وأمثاله وقصصه الشعبية...

* * *

والماء كان على الدوام، واحداً من أعظم مصادر الإلهام لشتى العلوم
والمعارف والفنون ولا سيما للهندسة العملية، كما أن جميع أنواع المهندسين،
تقريباً، لا بُدَّ لهم أن يتناولوا جانباً أو آخر من جوانب الماء...

فالمهندسون المدنيون، يقومون ببناء الجسور والقنوات.
والمهندسون الميكانيكيون يختصون أساساً، بعمليات ضبط البخار
واستغلاله له لإنتاج الطاقة...

أما مهندسوا الكهرباء والري، فيباشرون عمليات ضبط الفيضان
والمشروعات الكهربائية المائية...

فتأمين موارد المياه، اليوم، من أهم القضايا التي تشغل الحكومات وأوساط
الأعمال والمستهلكين، وهيات حماية البيئة في كافة أنحاء العالم، وخاصة في
المنطقة العربية التي تتصف بالجفاف وندرة المياه، وبظروف سياسية قاسية،
قد تؤدي إلى نشوب صراع حولها، فتفادي الأزمة في المجتمعات، يتطلب
تحسين إدارة الموارد المائية، والمحافظة على مصادرها، والمشكلة ليست في
كمية المطر، وغزارة المياه، وإنما في ترشيد استعماله واستهلاكه، وبرمجة هذه
الكمية والغزارة... وعلى سبيل المثال، فإن الساحل الإفريقي، وكما هو معلوم،
شهد فيما مضى جفافاً رهيباً، وفي أحيان أخرى أمطاراً غزيرة، لا تقل أضرارها،
وَصَرَاوَتُهَا بأية حال، عن ذلك الجفاف!.

* * *

وفي هذا القرن، ظهرت مشكلات عديدة وخطيرة، وأزمات مباغطة حادة تمثلت في ندرة المياه، ومشكلة الغذاء، والانفجار السكاني، وتلوث البيئة، وتضخم المدن، وكلها مشاكل باتت تهدد الإنسان، وتقلقه في كل مكان، وتقض مضجعه، وتؤرقه بعدما غفل، حيناً من الدهر، عن تأمين هذه المادة الحيوية، فلم يشعر بما يخبئه المستقبل المفجع، مما يحتم عليه أن يتخذ للأمر عُدته، وأن يتمسك ويلوذ «بالعواصم من القواصم».

فالامتلاء النفسي والفكري والإرادي بقضية الماء يتطلب وعياً متناهماً في الحِذْق والفطنة. وحسَّ التوقُّع والتدبير...

* * *

إن الماء العذب الشروب سيصبح في القرن الواحد والعشرين ثروة عالمية، وليست ثروة وطنية، تتحكم فيها دولة أو دول المنبع، وسوف تفرض دبلوماسية الكبار المائية، سياستها المائية والاجتماعية والاقتصادية على دول العالم، وسوف تستوجب على دول أخرى انتهاج سياسات زراعية أو صناعية محددة على ضوء حصتها من الماء... وتلك هي الصورة التي تقدمها استراتيجية دبلوماسية الماء التي تخطط لها الولايات المتحدة منذ أواخر الخمسينيات، والتي يدعمها النمو المتصاعد لتكنولوجيات الأقمار الصناعية، والاستشعار عن بُعد...

* * *

لقد كان «حسُّ التوقع» يخامر جلالة الملك الحسن الثاني، منذ أن تبوأ عرش أسلافه، فكان حفظه الله، دائم التيقظ، كامل الوعي، مُلْهِماً بالصواب، وهو يوجه، في إيمان وحماس، وفي كل مناسبة، مهندسي المياه إلى الاهتمام بمصادر الماء، لأنه، حفظه الله، يعي بأن على هذا العنصر الحيوي، وغزارته وجودته تتوقف صِحَّةُ الأجسام، ورفَاغَةُ العيش، وطيبُ الإقامة. وسبوغُ النعمة، ويُدرك بأن بلده تتوفر على مخزون هام من هذه المادة، لو استغلت بترشيد وعقلانية في حسن استعماله لو قَرَّ علينا الكثير... فلئن جاز التَّبَلُّدُ تُجَاهَ لقمة العيش، فإنه

لا يحتمل، قَطُّ، تجاه الماء، إذ الحاجةُ إليه أَشدَّ، والصبرُ عنه أَشَقُّ، والعطشُ أخطرُ وأدهى من الجوع، بكل تأكيد. وكثيراً ما يموت الإنسان عطشاً، وقلماً يموت جوعاً!..

فمنذ عقدين ونيف قال حفظه الله :

«وكما قلت، فإن المغرب والولايات المتحدة، هما البلدان الوحيدان اللذان يتوفران على المعطيات العلمية حول الماء، فإذا لم نتخذ، من الآن، التدابير اللازمة، لاكتشاف الماء الذي لم نكتشفه بعد، ونقوم بتخزين الماء المتوفر لدينا، سواء كان جوفياً، أو سطحياً، ونبحث عن أحسن طريقة لاستعماله، فإن لم نفعل، فسنكون مجرمين إلى أقصى ما يمكن الإجرام، لأننا، ندرك أن أماننا عشرين سنة للعثور على هذا الماء، وحتى نحافظ عليه، ونخزنه، ونستعمله أحسن استعمال، علماً منا، أن أماننا عشرين سنة، يجب أن نبدأ اليوم، إن لم نكن قد بدأنا أمس، مع العلم، أيضاً، أننا سنصبح أربعين أو أزيد من أربعين مليون نسمة».

وبعد ذلك، أليس هو القائل، حفظه الله، في مناسبة أخرى: «لقد أعلننا تحدياً على الزمن، وعلى أنفسنا، وقرّرنا أن نحقق سقي المليون هكتار».

* * *

إن نشاط المسلم يرتبط حول الماء بالدين الإسلامي بمبادئه وقيمه ومثله، سواء من حيث اتخاذُ هذا المصدر الحيوي، سبيلاً إلى التقرب إلى الله بإغاثة اللّهّافى، وتيسير سُبُلِهِ لهم، أو اتخاذ الماء مصدراً من مصادر التفكير العقلي في قدرة الباري، واتصال ذلك بالإيمان بإِلاهٍ عظيم، يُدَبِّرُ الأمر، وَيُسَيِّرُ الكون، ويسخر مصادر الطبيعة، أو في النظم والقواعد الشرعية التي سنّها الشريعة الإسلامية من أجل المحافظة على الماء، وجعل ملكيته عامة مُشاعة يشترك فيها الجميع.

* * *

وللأهمية العظمى التي لعنصر الماء، في مادة الحياة، وتكوين الكائنات الحية، ولِلْفَتْ نظر المومنين لأهمية هذا العنصر في سنن الكون، فقد ورد في

القرآن الكريم في نحو ثلاث وستين آية، وردت في صِيغٍ مختلفة، وصور رائعة، وكلها تندرج في إطار ما اُمتنَّ به الحق، سبحانه وتعالى على عباده وخلقه من نعم وآلاء...

وترتبط معظم هذه الآيات بين تنزيل الماء من السماء، واستمرار الحياة على الأرض، وازدهارها، مما يجعل منه نعمة كبرى للحضارة البشرية، يمتن الله بها على عباده، ويدعوهم إلى تأملها...

فالقرآن يستلفت أنظار المومنين إلى مظاهر الكون في العالم البيولوجي، فيذكر أن كل شيء خلق من ماء...

وعلماء الإسلام، اهتموا «بالثقافة المائية» وَعُنُوا بِهَا وعبروا عن اهتمامهم بالتأليف فيها، وبرعوا في علوم المياه، ونقلوا ما وجدوه من تراث الأمم السابقة، كما أضافوا إضافات إلى المحصول القديم، لعلمهم بأهمية هذا العلم، وإدراكهم غايته ومقاصده وأبعاده، ولا سيما في إثراء الحياة الإنسانية، وإنماء الثروة البشرية والحيوانية والنباتية...

* * *

وممن احتفلوا بالثقافة المائية، وأضافوا إلى ما وجدوه من نظريات هدروليكية قديمة، وابتكروا نظريات علمية مازال لها مقام معلوم إلى العصر الحاضر، أولئك العلماء الذين درسوا مادة الماء، لغةً، وحضارةً، وإنباطاً، وظواهرَ جوية، وسطحية وجوفية وفقهية ودينية أمثال ابن الأکفاني السنجاري، وأبي بكر محمد بن الحسن الكرجي، وأبي بكر أحمد علي قيس الكسداني ابن وحشية النبطي الكلداني العراقي، وأبي الوفاء محمد البوزجاني، وأبي بكر محمد بن العوّام الاشبيلي، وأبي عثمان سعد بن أحمد ابن ليون التجيبي، وابن بصال، وأبي الخير الاشبيلي، وأحمد الدمنهوري أحد شيوخ الأزهر، ومحمد بن حسين العطار، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي شهر بابن الرامي التونسي، وأبي عبد الله الشطبي، وابن الأعرابي محمد بن زياد، وأبي الريحان البيروني، وابن سينا، وابن الهيثم، وأبي إسحاق النقاش المعروف بالزرقالي الأندلسي، وأبي زيد اللجائي الفاسي، وأحمد بن محمد بن

الجليل السَّجَرِي، وعُزْرَام بن الأصْبغ السلمي، وأحمد بن محمد بن الطيب السرخسي، وابن الأجدابي، وعبد الغني النابلسي النقشبندي القادري، وابن الرَزَّاز الجَزْري، وقطب الدين محمد بن مسعود الشيرازي، ومحمد بن جابر البتاني، ونصير الدين الطوسي، وسهل بن بشر البغدادي الهروي، وثابت بن قرة الحراني، وأبي طالب المفضل الضبي، وابن الأعرابي، وابن عماد الثقفي البغدادي، والأخفش الأصغر البغدادي النحوي، وابن قتيبة، وابن خالويه، وابن السكيت، وابن سيده صاحب المَخْصَص، وأبي زيد الأنصاري، وأبي حنيفة الدينوري، وعبد الرحمن الصوفي، والنضر بن شميل، وابن السراج، وغالب بن أحمد بن سليم الرازي، وسيدي صالح بن المعطي، وعبد الرحمن الفاسي في الأقنوم وغيرهم مِمَّنْ ستقرأ لهم في هذا الكتاب، وقد تركوا، كلهم آثارا باقية إلى اليوم تزخر بها ثقافتهم المائنة، على مر العصور...

* * *

موضوع الكتاب أجملناه في عنوانه : «الماء في الفكر الإسلامي، والأدب العربي» وقسمناه إلى سبعة عشر بابا، جَلَوْتُ فيها طوائف من الحقائق العلمية والفكرية والأدبية، لم يهبها أحد، فيما أعلم، ما تستحقه من العناية والرعاية قبل اليوم... وكل باب تدرج تحته عدة فصول تسير في أنساق مترابطة منسجمة، فالباب الأول تحدثنا فيه عن «الماء صِنُو الحياة»، ثم أردفناه بالموضوعات التالية: «الماء... واللغة» و«الكوكب المائي»، و«تقديس الماء عند الشعوب والأمم» و«الشركة في الماء» و«الماء والمدينة والحضارة» و«هل الماء غذاء؟»، «السحاب»، «استسقاء المطر» «الظواهر الجوية»، «إنباط المياه»، «المياه الجوفية» ثم عقدنا باباً واسعاً حول «وقوف المياه حضارة راقية»، وختمنا هذه الأبواب بموضوع طريف يتحدث عن «خوارق كونية وكرامات مائية». ✕

* * *

وإنني لم أَشَأْ أن أثقل على القارئ الكريم، إراحةً لذهنه، وتعففاً لتطلعاته، بالتحدث عن عنصر الماء وطبيعته وتركيباته وتحليلاته وتقسيماته العلمية والنسب التي يهتم بها علماء المختصون الذين يقومون بتحليله، والإتيان بالأرقام المزعجة المضنية، أو الحاجة الكيماوية من الأوكسجين، أو الاستهلاك

الصافي، أو المواد القابلة لِلتَّكْسُد، أو محطة التطهير، أو تَخَاصُب مياه بحيرات السدود، أو المعالجة القَبْلِيَّة التي تتكون من عدد من العمليات الفيزيائية والميكانيكية، فليس ذلك من بابنا، إذ من الخطأ أن يتحدث المرء في مسألة من المسائل التي لا تدخل في اختصاصه، واندُب لِكُلِّ أمرٍ أهل بُلُوَاه، وإنما أنا مستهلك، كغيري من المواطنين، للطاقة المائية، ومن حقي أن أهتم بدراستها من زاوية خاصة للمحافظة عليها، وتقديم ما أعرفه عنها من رائع التراث، وجميل المعلومات التي سجلتها أثناء قراءتي والتي شهدت لعلمائنا المسلمين بعلوِّ الكَعْب، وقَدَمِ الصَّدْق في هذا المضمَار...

تلك هي الصورة، باختصار شديد، التي انتهى إليها بحثنا، وقد بذلتُ فيه من الجَهد اللَّذِّ، والتعب المُريح، وما استطعت فيه من دقه، وما تحرّيت فيه من إنصاف وصواب.

* * *

وقد كتبت، في غير هذا المكان، بأنني أقع دائماً تحت طائلة الاستطراد في مسار البحث قد يُخرج الكتاب عن سياقه، ويُبَعِّده عن حُطّه، وينأى به جانبا، وعُذري في ذلك أنني أميل إلى هذا النحو الموروث في التأليف، ولأن مؤلفاتنا القديمة كان أكثرها كذلك، وقد تحدث الإمام تاج الدين تقي الدين السُّبُكي في مستهل كتابه: طبقات الشافعية، فقال: «...ولا ينبغي أن يَمَلِّ الناظر في هذا الكتاب طُولَ الأسانيد، وكثرة الأناشيد، والاستطراد المزيد، فإنه لذلك وُضع، ولهذا المقصد جُمع، وعلى أعواد هذه القواعد رُفِع»... كما كان الجاحظ الذي يمتاز بأسلوب سَمَحٍ فضفاض، وتغلب عليه النزعة الأدبية، «إذا تَخَوَّف مَلَلَ القارئ، وسأمة السامع، خرج من جِدِّ إلى هُزْل، ومن حكمةٍ بليغةٍ إلى نادرةٍ طريفة... فهو تحرَّر من طريقة العلماء في قَصْر نفسه على الموضوع الذي يتكلم فيه، لأنَّهُ لا يومن بذلك، وأنت عرضةٌ، لأن تجد من كُتِبَهُ أدقُّ الموضوعات وأجلُّها، في أثْفه العناوين، وأسْخَفها في كل ما كتب، فهو يتخير خير الألفاظ وأحسن التعبيرات... وَيَفِرُّ سريعا من التحقيق العلمي، إلى مناحي الأدب من حكمة أو شعر أو نادرة...

والقارىء هو الغانم على أي حال ...

ولستُ أزعُم بأنني أصبتُ فيما أتيتُ من أبحاث، وما جَلَبْتُ من نَقُولٍ
ودراسات، فذلك مطلب عسير، وإنما كتبت ما أعرف، وجلبت ما يسره الله، فلم
أكتم علماً، وَلَمْ أَدْخِرْ فقهاً، وكنت كما قال أوس بن حجر:

ولست بِخَآبِيءٍ، أَبْدَأُ طَعَاماً
حَذَارُ غَدٍ، لِكُلِّ غَدٍ طَعَامٌ

وعسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً، وَيَمْنَحَ هذا الكتاب من الرِّضَى
والقَبُول ما يكافىء ما أضعت في جمعه وتأليفه من العمر والعافية، ويثيبني
على ما بذلتُ من جهد، وأنفقت من أتعاب...
والله عنده حسن الثواب

المؤلف

الباب الأول :

الماء... صنو الحياة

نتحدث في الباب الأول من هذه الدراسة المائية وثقافتها، عن أهمية الماء في الحياة... فالحياة والماء في هذا الكون شيئان متلازمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر... فالماء صنو الحياة التي نعرفها، فلا حياة بلا ماء، بل إنَّ بعض العلماء، يُعرِّفون الحياة، بأنها ظاهرة مائية... وأدرجنا تحت هذا الباب الأول عن «الماء صنو الحياة» ثلاثة فصول.

الفصل الأول : يتحدث عن أهمية الماء الذي هو عنصر الحياة، وحجر الزاوية لكل تنمية اجتماعية واقتصادية للبلاد... فالحياة إرادة كونية، والماء ضرورة للحياة، والحياة ظاهرة مائية...

والفصل الثاني : يتحدث عن العلاقة الحميمة بين «الماء والأرض»، هذه الأرض التي تستجيب لداعي الحياة، بقدرة الله ومشيتته، وتهتز وتتحرك بالنبات، فمفهوم الماء في القرآن، لا ينفصل عن القيم التي يجب أن يؤمن بها الإنسان، ويتخذها فكراً له، واعتقاداً في حياته، وطريقاً في سلوكه، ومنهجاً له مدى الحياة.

والفصل الثالث : يتحدث عن القرآن الذي يَعُدُّ أعظمَ عطاء يتنعم به المومنون يوم القيامة، هو عطاء الماء، فهو حينما يذكر الجنات، فالغالب أن يذكر الماء معها، سواءً عبّر عنها بالكوثر أو بالأنهار أو بالعيون... فالأنهار والعيون ترتبط غالباً بالنعيم سواء في الدنيا، أو الآخرة...

الفصل الأول :

الماء عنصر الحياة وسر الوجود

الماء ينبوع الحياة، وسرُّ الوجود، وروح الحضارة، وسيدُّ الشراب، ومعجزة الطبيعة، وعنصر أساسي لتكوين الكائنات الحية، وعامل جوهري لكل نشاط اقتصادي، يشكل حجر الزاوية لكل تنمية اجتماعية واقتصادية للبلاد... فهو الذي يُحيي البلد الميت، ويُفيد بشاشة المُصطاف، ويبعثُ الربيعَ الذي تتشقق عنه الأرض الخاشعة الجُرُوز... فيسري في العود، ويشيع في الجو، ويدبُّ في الأجسام، وينشأ عنه بعث ونشور... حيث سرُّ الحياة يستعلن في الأحياء، فتنتشي وتمرح، وطُيوف الهوى تَمسُّ القلوب، فتَهفو وتختلج، وحيثُ العالمُ كُلُّه يسبح في فيض سماوي من النشوة والغبطة، والجمال والجلال، فيشعر الإنسان - وحوله الماء سرُّ الحياة - بتدفق الحياة في جسمه، وإشراق الصفاء في نفسه، وأنبثاق الحبِّ في قلبه، إذ تطيب له الحياة، وترقُّ حواشي الأفق، ويُحس أنه هو، وفي وقت واحد، زهرة تفوح، وخُصرة تروق، وطائر يشدو، وطلاقة تفيض على ما حولها، البشرَ والبهجة والحبور...



ينظر الإنسان، إلى صفحة البحر، فإذا ماؤه الساكن الساجي، أو ذاك المتحرك العنيف، والذي يُعبُّ عُبابه. وتَصْطَخِبُ أمواجه، يُذيب الأحزان والأشجان، ويمتص الهموم والغموم، ويهدئ الأعصاب من الأوصاب... كما تسقي مياه، من جهة أخرى، وفي فضاء رُحْب الحدود، تلك التربة الهامدة الخاشعة، فإذا هي مروج ممرعة، ورواب خُضر، وزرْع أخرج شَطَاه، ونخلٌ وأكمام، وحقول أنبتت من كل زوج بهيج، وسُهُوبٌ تحولت إلى جنات معروشات وغير معروشات...

والماء سرّ الوجود، يخلق الحياة من العدم، وهو الذي قال فيه الأديب الحالم، أنطوان دي سانت اكزوبيري(1) Antoine de Saint - Exupery «أَيُّهَا الماء، ليس لك طعمٌ، ولا رائحة، وليس بالإمكان وصفُك، كم يتلذذون باحتسائك، وهم لا يعلمون من أنت؟. من المستحيل القول بأنك ضروري للحياة... لأنك الحياة ذاتها...».

* * *

لقد ورد في الملحمة الصوفية الشهيرة التي نظمها فريد الدين العطار أواخر القرن السادس الهجري بعنوان: «منطق الطير» (2) حيث وجدنا البطة، وهي تعيش دائماً كما نعلم، بين الغصون والمياه، تعتذر عن دعوة الهدد للبحث عن السعادة في حضرة العنقاء، وتعتذر بهذه الكلمات:

إني لا أجد طعماً للحياة بدون ماء...

فإن مولدي ووجودي إنما كان في الماء...
ولو أنه حدث أن نال نصيب من الغمِّ قلبي، لغسلته بالماء مادام لي رفيقاً...

إن الماء في ساقيتي هنا في متناولي دائماً...

(1) كاتب وطيار فرنسي، ولد بمدينة «ليون» عام 1900 وتوفي عام 1944، إثر بعثة حربية، بصحراء المملكة المغربية، قرب طنطان، له عدة مؤلفات منها «طيران الليل» 1931، و«أرض الرجال» 1939، كما أن له كتابات رمزية، ودراسات علمية تقنية... وقد أصدر المكتب الوطني المغربي للبريد والمواصلات السلوكية واللاسلكية طابعاً بريدياً خاصاً من فئة 4.08 درهما يحمل اسم الذكرى الخمسينية لوفاة أنطوان سانت اكزوبيري...

(2) «منطق الطير»، فارسي منظوم للشيخ فريد الدين العطار الهمداني، وهو في مراحقات الرمل المسدس، شرحه المولى شمعي، ألفه لاستدعاء «حسن أغا» المعروف بطرنقجي أغا المتوفى عام 1005، وكان متقاعداً عن المدرسة بثمانين... واختيارات «منطق الطير» للشيخ السيد علي الهمداني مختصر انتخب منه... ولشهاب الدين أحمد بن يحيى ابن أبي ججلة التلمساني (ت: 777هـ) «منطق الطير»، [نَفَحَ الطيب: ج : 5 / 200، كما أن هناك كتاباً آخر، بعنوان «منطق الطير»، بإرادة الخير» لزين الدين عمر بن مظفر ابن الوردی (ت: 849هـ).

فكيف أفكر في أن أنشد السعادة بمنأى عن الماء، الذي هو مصدر كل السعادات...

* * *

ومنذ عقود، صدر عددٌ جديد من مجلة «الرسالة» للمرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات يقول فيه عباس محمود العقاد في حديث له مع عباس عبد البهاء، زعيم الطائفة البهائية: «إنه حيث يكون الماء يكون الشجر، ولكن الأستاذ، قال له: بل حيث يكون الشجر يجب أن يكون الماء... والفرق بين الرأيين : أن عباس عبد البهاء يرى أنه مادام هناك ماء، فمن الطبيعي أن تكون حياة: أشجار، وحيوان، وإنسان، ولكن الأستاذ محمود العقاد يرى أنه ما دام الله قد قَدَّرَ أن يكون إنسان وحيوان وشجر، فلا بد أن يأتي لها بالماء... فالحياة إرادة كونية، والماء ضرورة للحياة(3)...

* * *

لقد بدأت الحياة بالماء، وكان الماء من أوائل ما خلق الله... وهذه حقيقة تعزز وتؤكد مصداقية المنهج وانتظام حجه واتساقها مضموناً وترتيباً. فالقرآن يقرّر: أن كل حيّ خلق من ماء... فافتضت هذه الحقيقة - بالترتيب الضروري - وجود حقيقة أسبق، ومن هنا، سبق وجود الماء، وجود الأحياء الذين من بينهم الإنسان أو الناس، فالشيء لا يسبق مصدره، فالحياة - من ثم - لا تسبق الماء.

* * *

وهذا نهر «بَرَدَى» الذي طالما تغنى به الشعراء، مع أنه نُهرٌ، ولكن صيته يملأ الأرض بفضل حسان بن ثابت، الذي لم يسبق له أن رأى نهراً في بلد كسوريا، فعمل قصيدته فيه، وقد قال المجاهد الأستاذ محمد علي الطاهر لما زار دمشق إنه حدّثه رفيق حضري خفيف الروح: «أهذا هو نهر

(3) في «صالون العقاد»، كانت لنا أيام ص: 87 للأستاذ أنيس منصور.

بَرَدَى الذي «دَوَّشَنَا» به الشوام، منذ قال حسان: إنه «يصفَّق بالرحيق السِّلْسَلِ»، والله يا أخي، إنه لا يساوي عندنا في مصر «سلسولا»، أو «بزبوزا» بالنسبة إلى النيل... إيه الكلام ده!! فقال له: إن حَسَّان جاء من الصحراء، ولم يَرِ الأنهُرَ قبل ذلك، فلما رآه، وارتوى من مائه المثلوج بعد العطش، هتف بما هتف به في شعره عن الرحيق السلسل (4)...

* * *

إن الماء في صحراء العرب لا يحتمل، وإن عذابه أفضع صُور العذاب وأقساها، وإنهم يستهينون بكل عذاب حين يقرن به...
وقد ذكروا أن أعرابياً أتى عينَ ماء صافٍ في شهر رمضان، فشرب حتى روى، ثم أوماً بيده إلى السماء، فقال :

إِنْ كُنْتَ قَدَّرْتَ الصَّيَّامَا
مَ، فَأَعْفِنَا فِي شَهْرِ آبِ
أَوَّلَا، فَإِنَا مَفْطُرُونَ وَصَابِرُونَ
ن عَلَى الْعَذَابِ (5)

ويشبهه ما قال ابن المعتز :

شَهْرُ الصِّيَامِ مَبَارَكُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي شَهْرِ رَآبِ
خَفْتُ الْعَذَابَ، فَصُمْتُ هـ
فَوَقَعْتُ فِي عَيْنِ الْعَذَابِ

(4) «ظلام السجن»، للمجاهد محمد علي الطاهر ص : 734.

(5) العقد الفريد ص 3/198.

وقد أجابهما العلامة الحسن اليوسي معارضاً هذا الأسلوب غير المذهب فقال:

شهر الصيام مبارك
يشفي صدَى يوم الحساب
وينيل وردَ السلسيل
ورشف معسول الرضاب (6)

* * *

إن حوادث العرب الضخمة، وأيامهم المعروفة، ارتبطت بظهور الماء... ذلك العنصر الهام وسط الصحراء العطشى، «فسد مأرب» هو علامة العمران القديم الذي كان يمتد ثلاثة أشهر، وانهايار السدّ هو بداية الهجرة والشتات، والبحث عن مسقر جديد... وتفجر ماء زمزم هو الاستقرار حول الكعبة، وبداية الملحمة العربية وسط الصحراء... وماء كُلاب هو الذي أشعل أكثر من حرب بين القبائل، وناقاة البسوس أشعلت الحرب أربعين عاماً حين شربت من ماء غير مائها... ورسول الله ﷺ سعى للنصر حين وضع جيشه أمام بئر بدر...

فالماء هو المعلم الحقيقي للزمن العربي وسط الصحراء، وهو الذي يخرج هذا اليوم من عداد الأيام العادية ليصبح يوماً من أيام العرب...

* * *

تحدث الأمير شكيب أرسلان عن الماء وأهميته في كتابه: «الارتسامات اللطاف، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» حيث قال، وهو يتحدث عن الجزيرة العربية التي عرفت بالقحولة واليبوسة، والتي كان الحاج يظماً فيها، قبل اليوم، إلى الموت: «إن شأن الحجاز في هذا المعنى، هو غير شؤون سائر البلاد، فالماء فيه يجوز أن يوزن بالمتقال، والماء فيه

(6) «زهر الأكمل، في الأمثال والحكم» للحسن اليوسي ص : 1/306.

هو الذهب، والماء فيه هو الماس، ونقط الغيث فيه هي اللآلي، وبالجملّة، فالماء فيه هو الحياة نفسها، وهي أعلى من كل هذه، ولو ألف حجازي، قاموس لغته، وعند تعريف الحياة قال: «إنها الماء... أو عند تعريف الماء، قال: إنه الحياة، لكن جديراً...

فمن أجل هذا، كان الماء يجري في الحجاز أثمن وأعلى منه في سائر الأقطار، وكان ألد وأبهج، وأعلق بالقلب، وأشرح للصدر، وكان الماء في الحجاز يساوي الماء خمسين مرة في الشام، ومائة مرة في سويسرة مثلاً، وكان الغصن الأخضر في الحجاز أحلى مائة مرة في أوروبا، وكم عين لو كنت في سورية، ومررت على مثلها، لم أقف دقيقة، ولا نظرت إليها، إلا كما انظر إلى التراب، فأما في الحجاز، فقد كنت أقبل إلى جانبها، وأحرق في قطرات مائها، ولا أبرح أحدث إلى الإخوان عن قسطة جريها، وصفاء لونها... وكم من مرة جلسنا في الحجاز، إلى ثمد وأوشال، لا تمر في غير الحجاز على بال، فكنا نستعذبها، ونتلذذ بالمقيل عندها كما لو كنا على نبع الباروك(7)، أو نبع الصفا في جبل لبنان...

لذلك أراني، أتلذذ بالماء والظل والخضرة في الحجاز، وفي الشرق كله، أكثر مما أتلذذ بها في أروبة، ولا سيما في القسم الشمالي منها... ففي أوروبا، مياه تتدفق، وأنهار تهدر، وشلالات تنحدر، ولكن كل ذلك في جوبارد، وكل ذلك في جو مطير متلبد بالسحب أكثر السنة، فأني لذة لماء الجداول والأنهار الجارية على الأرض حينما تكون المياه نازلة من السماء؟ وأية لذة يجدها الإنسان في الظل الظليل، والخرجات الملتفة إذا كانت الشمس في الغالب محجوبة بالغمام...

* * *

(7) الباروك : قرية في لبنان (الشوف) بالقرب منها نبع الباروك، وغابة الأرز.

ومن روائع وبدائع الأديب الفرنسي بول فاليري (8) Valéry Paul Ambroise الذي كان له عظيم الاهتمام بالفيزياء الحديثة والرياضيات، والذي يعد من صدور ومشاهير الأدباء الفرنسيين المعاصرين (1871 - 1945) مناجاته المتناغمة مع الماء، وهو يقف مسبوها ومشدوها أمام معجزاته وقُدساته، فيصفه وصفاً شاعرياً بلغ حدَّ الرَّوَعَة والجمال، إذ يقول:

«ما أكثر من تغنوا بالخمَر وأشادوا... ما أكثر الشعراء الذين رفعوا عقيرتهم بتمجيد العُقار، وسَقَّوا أربابهم من كؤوس المعتقد ما كانت نفوسهم تتوق إليه، حقاً، إن حُرَّ المُدام يستحق كل هذا التمجيد... ولكن ما أكبر عقوق الذين كفروا بالماء، وأعظم ذنبهم!

أيها الصفاء الإلهي، أيتها الصخرة الشفافة، أيا رسول الحياة، أيها الماء المطلق، يطيب لي أن أقيم لك على الدوام صلواتي المشفوعة بالحمد والتهليل.

سأمجّد الماء المطمئن في سكونه، سأشيد بهذا التَّرف الأعظم الذي يقطن مراعٍ الأرض وساحاتها، فينشر بها أبسطةً من السكون الشامل تبرز، على مرآتها الصافية الأديم، كل الأشياء المنعكسة عليها مكلّلة بالجمال، هناك تتحول الطبيعة بأكملها إلى «نرجس» (8م) لتعشق نفسها.

(8) بول فاليري، اشتهر بقصائده ومقالاته وأبحاثه في الأدب الفرنسي، وغني في كتاباته بالمكتشفات العلمية، والمشاكل السياسية، كما أحدث بقصائده ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية في فرنسا... اتجه إلى تمجيد العقل، وتخلص من معظم كتبه، وصار منذ عام 1894 ينهض كل يوم فجراً، ويقضي عدة ساعات في التأمل والتفكير العلمي في مسائل الوعي، وطبيعة اللغة، ويسجل خواطره وأفكاره وما يستنتجه من حكم وحقائق في «دفاتر» نشرت فيما بعدُ بعنوان: «الدفاتر» les cahiers في تسعة وعشرين جزءاً... والترجمة للأستاذ القدير السيد مصطفى القصري..

(8) مكرر - نرجس هذا، وقع أسيراً في غرام صورته المنعكسة على حافة الماء، وقادَهُ عشق الذات إلى حتفه، فلم يبق من ذكره، إلا زهرة بيضاء على حواف التُّرع، وعقدة نفسية في كتب علم النفس.

والماء المتحرك الجاري في لطف وعُنف، ينضح رشحه ويعمل عمله،
ببطء خارق، فهو بفضل وزنه وتياراته، وإعصاراته الجامحة، وضبابه
وأماطاره، وبفضل جداوله وشلالاته وسيوله، يكسو الصخر هيأته، ويصقل
حجر الصَّوَّان، ويفعل فعله في المرمر، ويعطي للخصب شكله، ويهدد
الرمال التي أحدثها، ويرتبها في صور شبكات مسترخية، وشفاف
ملساء...

الماء يعمل عمله، فينوع... وينحت، ويزين الوجه الصلب القاتم القاسي
الذي يكونه الأديم...

الماء المتعدد الصور والأشكال يسكن السحب، ويملاً الأغوار ويقع ثلجا
على القمم التي لوحتها الشمس، حيث ينحدر في صفاء، ليتتبع سبلا
يعرف وحده مسالكها، ليتتبعها أعمى، ولكنه واثق من يقينه الغريب، ثم
ينزل نحو البحر الذي يمثل أكبر حجمه...

* * *

أحيانا يفر من نفسه واضحا ظاهرا للعيان، يجري بسرعة أو بآناة، وفي
خرير مجهول الأسرار، خرير يتحول فجأة إلى هدير شلال ذي قفزات
متوالية، شلال ينزل ليزوب في الرعد المستمر، شلالات محطمة، تبهر
العقول، وتحمل في بخارها أقواس قُزَح...

وأحيانا أخرى يتملص مختفيا لينساب تحت الأرض، غامضا متعمقا في
انسيابه، فينقب على الكُتَل المعدنية التي يتخللها، ويرسم لنفسه أغرب
المسالك وأدهشها، يبحث عن نفسه في الليل البهيم، ليلتحق بها، ويتحد
معا، إنه يخرق وينضح ويُدَوِّب، ويفتت، ويتحرك عمله في الدهليز الذي
أحدثه دون أن يبلغ إليه، ثم يهدأ روعه عند البحيرات المدفونة في الأعماق
التي يغذيها بدموع مديدة تتجمد في صور أعمدة من الرخام لكاثيديات

مظلمة تنحدر منها أنهر شتى إلى درك من الأرض، ملؤه أسماك عمياء،
وحلزونات أكبر سنا من الطوفان...
ما أكثر ما اطلع عليه الماء في مغامراته الغريبة هذه! ولكن طريقة
معرفته للأشياء خاصة به وحده...

* * *

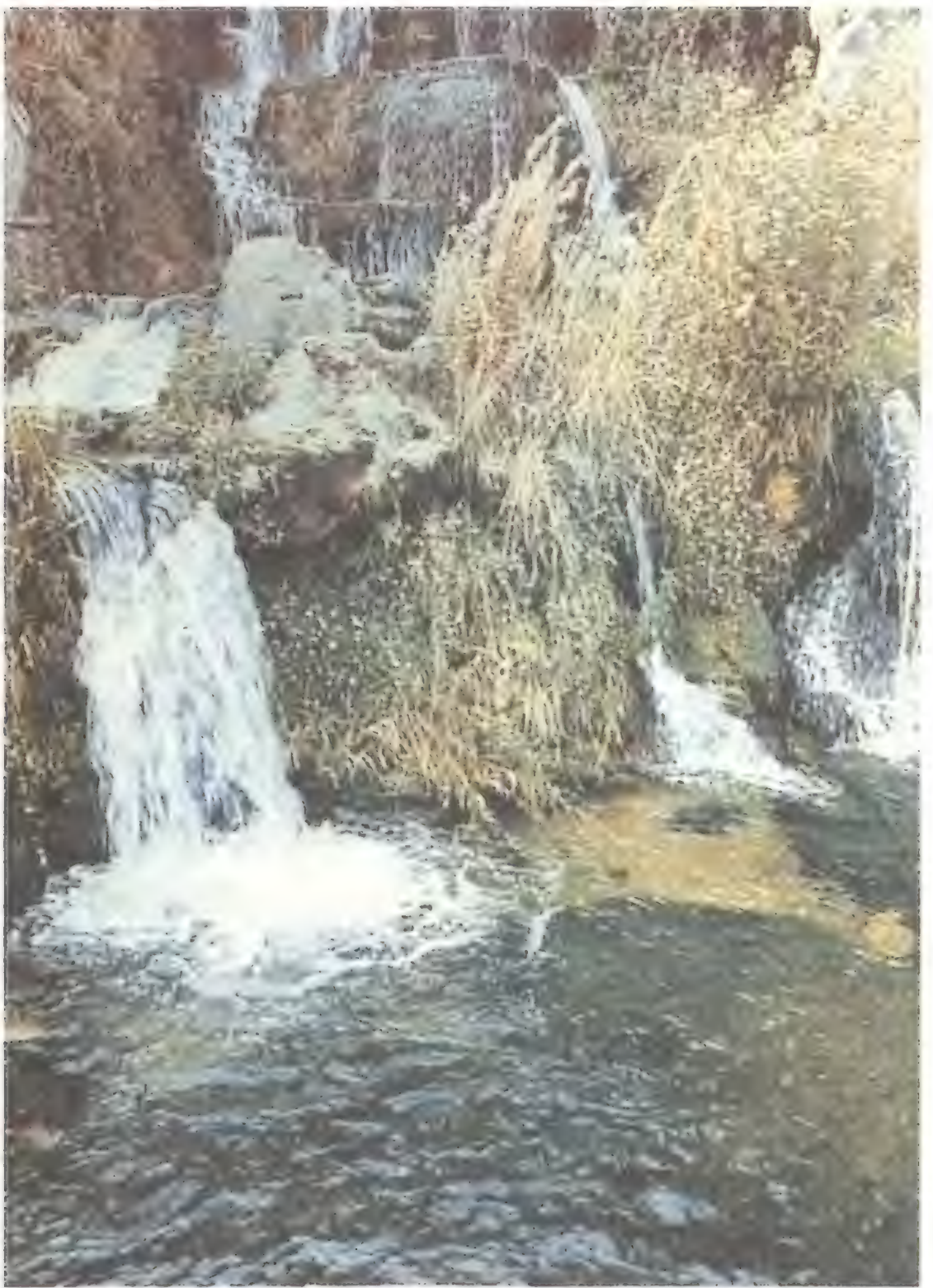
إن جوهر الماء يتحول إلى ذكرى، إنه يأخذ - مدمجاً في الذكرى - أثراً
من كل ما لمس، أو عام عليه أو كوره، من الكلس الذي حفره، والمآوي
التي غسلها، والرمال الثرية التي أدت مهمة تصفيته، فإذا هو نبع للعيان
حمل معه كل القوات القديمة الكامنة في الصخور التي مر منها، ونقل مع
هذه القوات فضلات من الذرات، وعناصر من الطاقة الصافية، وفقايع من
الغازات الجوفية، وأحياناً حرارة الأرض الدفينة، وأخيراً ينهمر، وكله مطبوع
بكنوز رحلته المقدمة لأغراض الحياة وحاجاتها.

كيف لا نقدر هذا العنصر الأساس الذي تقوم عليه الحياة، كلها؟.. إن
قلة من البشر، فقط، هي التي تعترف أن الحياة ليست سوى الماء
المنظم...

تصوروا نباتاً، شاهدوا شجرة سامقة، وتخيلوا أنها ليست أكثر من نهرٍ
انتصب ليرتفع ممتداً في جو السماء... الماء يتقدم عن طريق الشجرة
لملاقاة النور...

الماء يشيد لنفسه من بعض أملاح الأرض حياة مقيمة وامقة، تعشق
النهار... حياة تمد نحو الكون - لتعانقه - أزرعاً سائلة قوية ذات أيدٍ
رشيقة...

الإنسان يستقر حيث يتوفر الماء، أهنالك شيء أحوج للإنسان من عين
جارية؟ النبع وروح النبع، هما اللذان يرسمان البقيع المقدس الذي تنزل به
الحياة لتشاهد الدنيا من حولها...



تَكْسُرُ فَوْقَ الصَّخْرِ بِالْجَرِيِّ جَسْمَهُ
فَسَدَلُ عَلَى أَلَمِهِ بِخَرِيرِهِ

هنا يعترف الإنسان بوجود النشوة الكامنة في الماء... الشرب؟
الشرب؟ الإنسان يعلم بأن العطش الحقيقي لا يطفىء غلته إلا الماء
الصافي، فهناك شيء لا مرية فيه يكمن في الوفاق بين رغبة الجهاز
العضوي، والسائل الأول.

إنك لتصبح إنساناً آخر عند ما يُغَيَّرَ الظمأ: أي إن الفساد يتهددك،
فلا بد لك إذن من أن تطفىء صدك، لتصبح من جديد ما كنت قبل ظمئك،
وان تلتجئ إلى ما هو جزء من الحياة...
الكلم نفسه طافح بحمد آلاء الماء... نقول إننا «نتعطش» إلى الحقيقة،
ونتحدث عن «السلاسة» التي تطبع القول، «ونتدفق» أحياناً «بسيل» من
الكلام...

* * *

الحياة : ظاهرة مائية :

لقد جاءت الحياة من الماء، وما زالت مرتبطة به، يؤكد البروفيسور
«هولدغيت» بأن كثيراً من النباتات والحيوانات لا يمكنها أن تتكاثر إلا إذا
بقي حامل الجنيه (9) Gène، في حالة السيولة، وأن كثيراً من فصائل

(9) الجينات : les Gènes حبيبات متناهية في الصغر، لا ترى إلا بالمجهر، توجد على هيئة أزواج
داخل الكروموسومات، ويبدو أنها المسؤولة عن نقل إمكانيات وراثية معينة... وتنتقل الجينات
انتقالاً اعتيادياً بدون ما تغيير من جيل إلى الجيل الذي يليه، ويقدر بعض العلماء أن للإنسان
بين عشرة آلاف وثمانين ألف «جين»، ولكن بعضاً آخر منهم يقدرها بين عشرين ألف وأربعين
ألف «جين».

والجينات قدرة على التكاثر والتبدل... كما يقدر العلماء أن كل فرد من أفراد النوع البشري يملك
قاربة 90٪ من الجينات الخاصة بفصيلة الإنسان، وهذه متشابهة في كل أفراد الجنس البشري.
أما الـ 10٪ الباقية من «الجينات» فإنها تختلف من فرد لآخر، بالنسبة لجنسه. ذكراً، كان أم أنثى،
وبالنسبة لصفاته الطبيعية الظاهرة كلون البشرة، وشكل الجمجمة، ولون الشعر، وكثافته ولون
العيون، وما إلى ذلك من الصفات والشّيات.

ولقد اذاع 187 رجل دين يمثلون مختلف الطوائف والعقائد في الولايات المتحدة الأمريكية بياناً
يدين استخدام الجينات الوراثية الإنسانية في الاستخدامات العلمية والصناعية والتجارية...=

الحيوانات الدنيا تعود أدرجها إلى الماء من أجل النمو والتناسل، كما كان الشأن في مراحل الحياة المبكرة على الأرض...
فالماء صنو الحياة التي نعرفها، فلا حياة بلا ماء، حتى إن بعض العلماء يعرف الحياة بأنها ظاهرة مائية...
إن الحياة والماء في هذا الكون شيان متلازمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر...

والماء أعظم المذيبات، «فالبُروتوبلازم»، وهو مادة الحياة، ما هو إلا محلول ذائب أو معلق في الماء، ويتكون أكثر من ثلاثة أرباع أجسامنا من الماء، أما عالمنا فهو ما صنعه الماء... والواقع أن حياة الإنسان ورفاهيته مرتبطتان بالماء ارتباطا وثيقا لا ينفصم...
ويتميز الماء بتناقض خلاب، من حيث إنه أقرب المواد إلى المؤلف، وأبعدها عن المؤلف في نفس الوقت...

فهو أقرب إلى المؤلف لأنه موفور وشائع...
وهو أبعد عن المؤلف لأن صفاته وخواصه ومميزاته غريبة ونادرة وفريدة في بعض الأحيان.

إن مسلم بن قتيبة قال للشعبي، لما مديده، وهو على مائدته يلتمس الشراب، ما تشتهي؟ قال: أعزّ مفقود، وأهون موجود.. قال: يا غلام: اسقِه ماء (10)...

= وقع على البيان ممثلون لكل الأديان في سطر يقول فيه: «إننا نُؤمنُ أن البشر والحيوانات هي مخلوقات الله، وليس الإنسان، ولا ينبغي استخدامها في الاختراعات الإنسانية».
الأمريكيون بروحهم العملية، لديهم سوق ضخمة لهذه التجارة، كما أن المحكمة العليا، أصدرت حكما في عام 1980 بالسماح باستخدام «الجينات» في اختراع مادة لتنظيف بَقَع الزيت... أما الحدود الأخلاقية في استخدام الجينات صناعيا، ومن الذي يضع هذه الحدود، فهي أسئلة لا إجابة عليها في القوانين الحالية، وهي المشكلة.

(10) الحيوان للجاحظ ج : 5 ص 137 - عيون الأخبار 2/200 - والخبر، أيضا في كنايات الجرجاني ص : 96.

الماء جوهر الكائنات جميعا :

لقد كان الاغريق القدماء ينظرون إلى الماء والنار بوصفهما عنصرين أساسيين لهما طبيعة متنافرة، ففوائدهما لا تقف عند حد، إذا خضعا للإنسان... وضررهما لا يقدر، إذا سيطرا عليه..

على أن الماء في نظر شاعرهم «بيندار» (11) PINDARE جوهر الخير، فكتب يقول: «الماء أفضل الأشياء جميعا»، أما طاليس الفيلسوف والسياسي وعالم الرياضيات، وأحد حكماء اليونان السبعة، فكان يعتقد أن الماء جوهر الكائنات جميعا (12)...

والماء سواء كان صلبا، أو سائلا، أو غازا. قد يكون صديقا للإنسان أو عدواً له...

فالجليد يمكن أن يبرد المشروبات، ويحفظ الطعام، ويسد الموانئ أو يغرق عابرات المحيط؟.. والثلوج يمكن أن تجعل الحقول مثمرة، وتسد الطرق؟ وأن الأمطار تجعل الأرض صالحة للحياة، وتنتج كل ثمارها الطيبة، ولكنها تتلف الحقول، أيضا، وتجفف الخراب والدمار بمساحات شاسعة في حالة الفيضانات! والبُخار حين يخضع لإرادتنا يدفئ منازلنا، ويحرك أجهزتنا الخاصة بتوليد القوى؛ وحين ينفجر يمزق ويدمر! ومع أن بخار الماء على هيئة رطوبة عالية جدا، يؤدي إلى الضيق والوهن، فلولاه ما كان العالم مكانا صالحا للسكنى...

* * *

(11) شاعر إفريقي، ولد في «سينوسفال» Cynoscephales عام 518 ق.م، وتوفي عام 438. ق.م من عائلة ارسقراطية، قصائدهُ تَجْمَعُ جميع أنواع الشعر الغنائي، أناشيد وطنية، حربية، انتخابية، وهذه القصائد تفصل عبر روايات خرافية حقيقية دينية وأخلاقية، والمجموعة الوحيدة التي بقيت سليمة هي: Les epinicies.

(12) طومسون ص : 153، وص : 33.

الماء والحياة شريكان في تغيير وجه الأرض :

إن الماء ظل يعمل طوال مآت الملايين من السنين لإعداد الأرض لمجيء الحياة، فكان يقوم على الدوام بِنَحْتِ الصخور وتفتيتها لتكوين التربة، وحمل المواد لزيادة ما يحتويه من مَوَادَّ ذَائِبَةٍ في المحيطات، كما قام بدور المُلَطِّف الذي خفف من هذه الحرارة والبرودة المتطرفة، وهياً الطقس، والظروف الملائمة لِبِدَايَاتِ الحياة، ثم تولدت بذرة الحياة في الماء، وظهرت منه إلى عالم الوجود ومنذ ذلك الحدث الغامض السحيق في القِدَم، أخذت الحياة والماء، بوصفهما شريكين، في تغيير وجه الأرض، ومنحها ضروباً لا حصر لها من التنوع والجمال... وقاما معاً، بخلق كثير من السوائل الأخرى، وجميع الكائنات العضوية، كما قاما بكساء الأرض العارية بالحشائش والغابات والأزهار، ولولا هذه المشاركة (بين الماء والحياة) لظلت الأرض دائماً قاحلة مجذبة، كالقمر سواء بسواء(13)...

* * *

كلنا يعرف كمية الغذاء الهائلة التي نحصل عليها من الماء... ولكن هل فكرنا فقط، في بعض المنتجات الأقل وضوحاً التي ندين لها بالفضل فيها للحياة البحرية؟..

لقد استخدم أجدادنا القدماء زيت الحوت لإضاءة منازلهم... ولكن من أين جاء زيت النفط والغاز الطبيعي اللذان نستخدمهما في تدفئة منازلنا، والبنزين الذي يحرك سيارتنا؟...

من الواضح أن كل ذلك جاء من الأرض... ولكن كيف وصل إلى هناك؟ الواقع أنه كانت هناك، منذ عصور خلت، بحار ضحلة كانت تحتوي على أعداد لا يمكن تصورها من الكائنات النباتية أو الحيوانية، أو كليهما، وقد

(13) الماء معجزة الحياة - رقم : 10. «أساس الحياة : هواء وماء» إيلزورت توماس، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت. [الخزانة العامة حرف C، رقم 26185] - «الحياة والماء» : مارجيري، د. لورانس ميلي، ترجمة ثابت قصبجي [C: 24043]، الخزانة العامة.

ماتت هذه الأشكال البدائية، ثم دفنت في رواسب غطيت عندما هبطت المنطقة تحت الثقل المتزايد، بطبقة فوق طبقة من الرواسب الأخرى... وهذا ما نجده في بعض مناطقنا في المغرب، كمنطقة اخريكة ومنطقة الغرب... وقد وجد النفط على عمق يتجاوز اثني عشر ألف قدم من سطح الأرض الحالي، ذلك لأن الضغط، والحرارة، والزمن، كل هؤلاء غيروا بقايا الحياة التي كانت موجودة في البحار القديمة إلى نפט، وغاز، وإسفلت، ونحن نستخدم هذه المنتجات في أغراض كثيرة، وبكميات هائلة لدرجة أننا بدأنا نفكر بقلق فيما سوف نفعله عند ما تستنفذ هذه المنتجات، وهذه مشكلة من أهم وأصعب المشاكل التي سيتعين على الأجيال المقبلة حلها(14).

إن زيت النفط، ورواسب الفوسفات، وخام الحديد، فضلا عن كثير من المواد الأخرى، إنما هي هبات أو إرث بالأحرى، خلفتها لنا البحار القديمة، وأشكال الحياة الدنيئة التي عاشت فيها...

* * *

المحيطات المائية مخزن هائل للطعام :

لقد أصبحت المحيطات المائية مخزنا هائلا للطعام، ولم تعد، كما زعم الاغريق القدماء، بحرًا لا يمكن جني محصوله، ويمكن للإنسان عن طريق هذه البحار استخلاص كميات لا تستنفد من الأملاح والبروم والمغنسيوم. أما ظهور الآلات، والأجهزة البحرية الذي بدأ بالاسطرلاب والبوصلة، وانتهى بالراديو، والرادار، والأقمار الاصطناعية، فقد جرّد البحر من أسوأ أهواله... وهكذا أصبح بوسع السفن التجارية في أوقات السلم على الأقل، أن تغذو وتروح آمنة مطمئنة من شرّ القراصنة أو أخطار البحار المجهولة

(14) «الماء معجزة الطبيعة» ص : 133.

أو أذى الأمراض(15) التي كانت تشيع بصفة خاصة من الخضراوات والفاكهة الحمضية الغنية بفيتامين ج.(16)

ولما كانت قدرة الياسبة على إنتاج الطعام محدودة بالبرد في الشمال والجنوب، وبالمساحات الشاسعة من الصحاري أو المناخ الجاف، فليس أمامنا إلا الماء نلجأ إليه للحصول على هذا الطعام، إذ أن سبعة أعشار سطح الأرض مغطى بالماء كما يقال إنَّ تسعة أعشار الأحياء الموجودة بها تعيش في البحر(17)...

وهذا الطعام الذي ناكله، إنه من الماء، ولذلك كانت مشكلة الطعام ستظل دائماً مرتبطة بالماء ارتباطاً لا ينفصم.

إن تزايد عدد السكان بسرعة سيضطرنا إلى إيجاد مزيد من الطعام لهم... وإنسان المستقبل لابد له أن يتطلع إلى الماء من أجل المزيد من الطعام الذي سيكون في أمس الحاجة إليه...

وقد دلت التجارب الحديثة على أن بعض أنواع الكائنات العضوية التي تعيش في الماء، تتكون أجسامها حين تنمو في ظروف خاصة من 70 ٪ من المواد الدهنية، فتكون بذلك أغنى، كثيراً بهذه العناصر الغذائية الهامة من كثير من الأطعمة المعروفة...

* * *

المحيطات المائية هي صانعة الطقس :

فالماء وضوء الشمس من أكثر الموارد الطبيعية غزارة ووفرة على كوكبنا الأرضي، وبدمج هذين الموردين يامل العلماء في استنباط الوقود

(15) المصدر السابق ص 185.

(16) كالاسقربوط، وهو مرض ينشأ عن نقص فيتامين ج (حمض الاسكوربيك) في الغذاء أعراضه المميزة: نزيف في اللثة، والانيميا، والهزال، وكان هذا المرض يشيع بصفة خاصة بين البحارة بسبب نقص ما يتناولونه من الخضراوات والفاكهة الحمضية الغنية بفيتامين: ج.

(17) ص : 186.

لتشغيل الآلات والمصانع ووسائل النقل في المستقبل، والسّر يكمن في جزيء الماء الذي يتألف من ذرتين من الهيدروجين، وذرة من الأوكسجين، وباستخراج الهيدروجين من الماء يمكن الحصول على الوقود المنشود... ولكن المشكلة، التي تعترض الآن تحقيق هذه الفكرة على نطاق واسع تتمثل في صعوبة استخراج ذرتي الهيدروجين من جزيء الماء، إلا أن العلماء في جامعتين أمريكيتين، وهما جامعة «كاليفورنيا» في «باركلي»، وجامعة «تاكساس» الزراعية والميكانيكية، قد قطعوا الآن شوطاً كبيراً في بحثين منفصلين لاستخراج وقود الهيدروجين من الماء بتسخير الطاقة الشمسية، ومع أن الباحثين مختلفان من النواحي التقنية إلا أنهما يقومان على أساس واحد، إذ يغمس في الماء قطبان كهربائيان، وفي كلا البحثين يشحن الماء كهربائياً بواسطة تيار كهربائي، أو مواد كيميائية خاصة، ويؤدي الشّحن الكهربائي إلى بدء عملية انفصال جُزيئات الماء، ثم يعرض الماء لضوء الشمس كي يمتص المزيد من الطاقة، وينتج من هذه العملية تحلّل الماء إلى غازين منفصلين: الهيدروجين، والأوكسجين...

وقد أسفرت التجارب التي أجريت على الطريقتين، عن نتائج تبشر بخير كبير، ولكن البروفيسور «جون بوكريس» أستاذ الكيمياء، ورئيس قسم أبحاث الهيدروجين في جامعة تكساس الزراعية والميكانيكية يقول: «كي يمكننا أن نصنع جهازاً تجارياً لاستخراج وقود الهيدروجين من البحر، قد نحتاج إلى بضع سنوات أخرى لإكمال التجارب والأبحاث، وحتى بعد ذلك، لن يكون الهيدروجين المستخرج بطريقتنا أرخص كلفة من البترول بأسعاره الحالية، ولذا فإننا لا نتوقع أن يعتمد إنتاج الهيدروجين بالطاقة الشمسية على نطاق واسع قبل نهاية هذا القرن، ولكن نرى لهذا المصدر البديل للطاقة مستقبلاً كبيراً بعد اضمحلال موارد الطاقة التقليدية في الأرض...

والمحيطات المائية هي صانعة الطقس على الأرض، وواهبه الغذاء للإنسان، وهي عمق أبدي ممتد، يظل مستغلقا، ولزمن طويل على مفاهيمنا مهما تقدمت تقنياته...

فالمحيط المائي آلة جبارة متحركة باستمرار، قدرتها تصل إلى أكثر من مليار ميكائوات يوميا، يتحرك مستخدمة 1400 مليون كيلومتر مكعب من المياه لإدارة عمليات المحافظة على الأرض وحياتها، وهو يغطي، كما هو معلوم 71 في المائة من سطح الأرض باللون الأزرق الذي شاهده رواد الفضاء في المدارات الفضائية... وكتلته لا تصل إلا إلى 02.0 في المائة من كتلة الأرض، ويصل معدل عمقه إلى 4 كيلومترات في المتوسط.

وتعمل المحيطات المائية بوصفها حافظة للحرارة التي تمتص نهارا لكي تبعث ليلا، مخفضة التباين الشديد في درجات الحرارة... ففي حين تختلف درجات الحرارة على سطح الأرض من منطقة إلى أخرى بمدى يصل إلى 80 درجة، فإن التباين بين درجة حرارة المحيطات الواقعة على نفس الارتفاع لا يزيد عن 10 درجات مائوية، وتتدفق المياه البحرية بكميات كبيرة، وتتدفق معها الحرارة مساعدة على تلطيف الطقس....

الماء... والأرض

ينزل الماء، بأمر ربه، على الأرض الميتة الهامدة المُقحّلة التي لا ينبت فيها شيء، فإذا بها تستجيب لداعي الحياة، بقدرة الله ومشيبته، وتهتز وتتحرك بالنبات، وتحيا بعد موتها، وتربو وترتفع لما سكن فيها الثرى، ثم تُنبت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها...

وتعجبني صورة حية تدل على ما وراءها من القدرة المتحركة لذلك كله، قدمها الدكتور العراقي كاصد ياسر الزيدى عن العلاقة بين الماء... والأرض، فالماء والأرض بينهما علاقة حميمة، ويكونان منظراً من مناظر الحياة المتجددة، وسنة من سنن الله في الكون في إخراج شيء بسبب شيء... الماء كالرجل في علاقته بالأرض، والأرض كالمرأة في استجابتها له... وما ينبت منها أشبه بالنسل الذي يتولد من تزاوج الرجل والمرأة الإحياء بالماء، أيضاً ليس بعيداً عن تكوين الإنسان الأول من التراب الذي لا حياة فيه، ولكن القدرة الإلهية هي التي بثت فيه الحياة، وخلقت فيه الروح، فإذا هو بشر... هذه الصورة في إنبات النبات بالماء، وظهوره متدرجاً من طور إلى طور، ليست بعيدة، أيضاً، عن نشوء الإنسان وتدرجه من نطفة إلى علقة إلى مضغة، بقدرة الله ومشيبته...

أخذ المسيح عليه السلام في يده اليمنى ماءً، وفي يده اليسرى خبزاً، فقال: «هذا أبى، وهذا أمي» فجعل الماء أباً، لأن الماء من الأرض يقوم مقام النطفة من المرأة كما أشار إلى ذلك الجاحظ.

ولعل هذا المعنى الذي أتى به الدكتور العراقي وَغَيْرُهُ، يشير إلى قول الشريف أبي الحسن الرضى الموسوي في قوله:

أَرْسَى النَسِيمَ بِوَادِيكُمْ، وَلَا بَرِحْتُ
«حَوَامِلُ» المزن، في أجداتكم «تَضَعُ»
ولا يزال «جنين» النبت «ترضِعُهُ»
على قبوركم العَرَّاصَةَ الهَمْعُ

فاستعارة «الحوامل»، و«الوَضْع»، و«الإرضاع»، للمزن، والجَنِينِ للنبت، مع نُمُوّه عن «الماء» الذي يشرب من المزن، كما يُنَمَّى الطفل عن الرضاع... غاية في البراعة...

وهذا المعنى متداول عندنا في الأدب العربي فهذا حازم القرطاجني يصف سحابة حُرّة، كثيرة المطر، ترضع النبات، وتربيه حتى ينمو، بعد أن كانت الرُّبَى صُلْعاً من النبات، خالية من العشب، فاعتمدت بهذا النبت، وسترها كما تستر العمامة الرأس، فصارت به فُرْعاً، تامة النبات، فقال:

وَمُرَضِعٌ بِثُدَيَّ كُلِّ حُرَّةٍ
حَنَتْ عَلَى تَرْبِيَّتِهِ، حَتَّى نَمَا
أَضَحَّتْ بِهِ صُلْعُ الرُّبَى مُعْتَمَةً
وأصبحت فُرْعاً به، بعد الجَلَى
وسحابة حُرّة : كثيرة المطر، والمرضع : النبت.

لقد ربط القرآن، وبالتالي أحاديث الرسول بين هذه الصورة الماثلة، وصورة أخرى في عالم الغيب، هي صورة البعث والنشور، وإحياء الإنسان لملاقاة ربه، وما أعدّ له من ثواب أو عقاب...

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ، فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ، ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ، ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ، ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ، لَنَبِّئَنَّ لَكُمْ، وَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى

أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى، ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً، وترى الأرض هامدة (18)، فإذا أنزلنا عليها الماء، اهتزت (19)، ورَبَّتْ (20)، وأنبتت من كل زوج بهيج... ذلك بأن الله هو الحق، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور ﴿21﴾.

* * *

وبذلك نجد أن مفهوم الماء يمتد إلى آفاق بعيدة، ويدل على معان هامة خطيرة في الفكر القرآني، هذا المفهوم لا ينفصل عن القيم التي يجب أن يؤمن بها الإنسان، ويتخذها فكرياً له، واعتقاداً في حياته، وطريقاً في سلوكه، ومنهجاً له مدى الحياة.

وهذا المعنى القرآني، أيضاً، ورد في تمثيل الرسول عليه السلام لإمكان البعث والحشر والنشور، فعن أبي رزين العقيلي (22)، أنه قال: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادي أهلك مُمَجَّلاً؟» قال: «بلى». قال: «ثم مررت به يهتز خضراً؟» قال: «بلى». قال: «فذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه» (23).

* * *

لقد اختلفت الألفاظ التي وصفت بها الأرض، قبل إحيائها بإنزال الماء من السماء عليها، فوصفت مرات بأنها ميتة، ومرة بأنها خاشعة، ومرة بأنها هامدة...

(18) الهامدة : اليابسة لا تنبت شيئاً، وقيل دارسة، فالهمود : الدروس قال الأعشى :

قالت قَتِيلَةٌ : ما لجِسمِكَ شاجِباً وأرى ثيابَكَ بالياتٍ هُمْدًا

(19) اهتزت : تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها.

(20) ربت ارتفعت وزادت، أو انتفخت.

(21) سورة «الحج» رقم الآية : 5.

(22) واسمه لقيط ابن عامر.

(23) ابن كثير - تفسير - ج : 4 / ص : 618.

ففي المرات التي وصفت الأرض بأنها ميتة، وهو ما يجليه قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا﴾ (24)، ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (25) وقوله: ﴿فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ، كَيْفَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ ذَلِكَ لَمَحْيِي الْمَوْتَى، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (26)، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيحَ تُنْشِرُ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا، ثَقَالًا سَقْنَاهُ لَبَدًا مَيِّتًا، فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (27).

ووصفت الأرض مرة بأنها خاشعة، وهو ما يجليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا، لَمَحْيِي الْمَوْتَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (28).

ووصفت مرة، وكما قدمنا، بأنها «هامدة». ويجليه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ، اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ يَحْيِي الْمَوْتَى...﴾.

فصورة إخراج النبات من الأرض الهامدة الخاشعة والميتة التي لا حياة فيها، شبيهة بصورة إخراج الناس يوم القيامة من قبورهم التي لا حياة فيها من قبل البعث والنشور.

(24) سورة : «ق» آية : 11.

(25) سورة النحل. آية : 65.

(26) سورة الروم، آية : 50.

(27) سورة الأعراف، آية : 57.

(28) سورة فصلت : آية 39.

العيون والأنهار ترتبط بالنعيم

إذا كان القرآن يُعَدُّ أعظم عطاء يتنعم به المومنون يوم القيامة، هو عطاء الماء، فإنه يشير إلى أن أعظم حرمان يقاسيه الكافرون بصورة معبرة مؤثرة في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ، أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾ (29).

فإذا كان الماء أهم شيء بالنسبة للإنسان في حياته الدنيا، فهو أفضل نعيم يتنعم به في حياته الآخرة... ولأمر ما شاء الله تعالى أن تكون مساحة الماء في الأرض أكبر من مساحة اليابسة، ولأمر ما، أيضاً، أراد الإسلام أن يكون الماء آخر نعم الدنيا التي ينعم بها المسلم، وأول نعم الآخرة عندما أمر بغسل الميت...

* * *

وقضية الماء، في الفقه الإسلامي، تأتي بعد قضية التوحيد والإيمان: ترتيباً في الواجبات والأولويات، وتنظيماً فنياً للمنهج... فالواجب الأول - بعد الإيمان - هو : إقامة الصلاة... والصلاة لا تصح إلا بالطهارة. نتوضأ بالماء، فإذا أعضاء الوضوء وضیئة تقطر منها حَبَّاتٌ نَطَافٌ فِي نِصَاعَةِ الْبَلُّورِ.

والطهارة الأصلية إنما تكون بالماء. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ، وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا﴾.

(29) سورة الأعراف، رقم 50.

ومن حيث التنظيم الفني في التأليف، كان «الماء» هو الباب الأول في كتب الفقه، نقرأ مثلاً، في كتب فقهاءنا «المرشد المعين»، لعبد الواحد ابن عاشر، «والرسالة» لأبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، وهي تبتدي في أبوابها الأولى بالطهارة المائية، ثم نتناول مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، فقد خصص «المجلد الواحد والعشرون» الجزء الأول بموضوع الطهارة المائية، ونقرأ في «المغنى»، لابن قدامة، باب ما تكون به الطهارة من الماء، وهو أول باب في الكتاب، ونقرأ كتب الفقه والحديث فنجدها تتحدث عن الطهارة المائية، وتخصص لها كتاباً مستقلاً كما نجد ذلك في «مختصر خليل»، وما كتبه الونشريسي والوزاني في معياريهما، وهذا ما فعله الإمام مالك في الموطأ، والبخاري، كما نقرأ في «بلوغ المرام» لابن حجر العسقلاني، كتاب الطهارة، «باب المياه» وهو أول باب في الكتاب كذلك... وهذه أمثال فحسب...

* * *

والملاحظ أن القرآن حينما يذكر الجنات، فالغالب أن يذكر «الماء» معها سواء أعبّر عن ذلك: بالأنهار أم بالعيون، وهو ما تجلّى في عدة آيات قرآنية، ولعله لا يغيب عن ذهننا، ونحن نتحدث عن نعمة الماء، أن الله يجعل الماء من نعيم الجنة، بل من أطيب نعيمها، سواء كان للشرب، أم لإمتاع المنظر، وعندما أراد القرآن أن يبين لنا عظمة الجنات وجلالها وجمالها، وصفها لنا بأنها: ﴿جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار الماء طبعاً، وليست تلك الأنهار تجري من تحت هذه الجنات فحسب، بل إنها توجد داخل الجنات: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ (30)، ليس ذلك فحسب، بل: ﴿وَيُطَوَّفُ (على أهل الجنة) وَلَدَانِ مَخْلُودُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ كل ذلك ليبين الحق سبحانه لنا جليل قدر

(30) سورة محمد رقم الآية 15.

نعمة الماء في الدنيا وفي الآخرة، حتى قال بعض المفسرين: إن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (31)، أن المقصود بالنعيم: هنا الماء البارد... وقد قال رسول الله ﷺ: إن أول ما يُسأل عنه يوم القيامة - يعني العبد - أن يُقال له: ألم نُصِحِّحْ لك جسمك، ونُرويك من الماء البارد... وقال الترمذي في حديث: «هذا، والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، ورُطْبٌ طيب، وماء بارد...»

* * *

حَسْبُ الْفَتَى مِنْ عَيْشِهِ
زَادَ يَبْلُغُهُ الْمَحْـ
حُبْرٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ،
وَالظِّلُّ، حِينَ يُرِيدُ ظِلًّا

وما أحلى ما قاله الآخر :
دَعِ الدُّنْيَا مَذْمُومَةً، فَلَيْسَتْ
لِطَالِبِهَا، سِوَى نَدَمٍ وَحَسْرَةٍ
وَحُذُ مِنْهَا الْقَلِيلِ، يَكُنْ كَفَافاً
فَحَسْبُكَ مِنْ غِنَى مَاءٍ وَكِسْرَةٍ

* * *

إِنْ خُبِرَ الشَّعِيرُ بِالماءِ، والمـ
ح، لمن يطلب النجاة كثيرٌ

(31) سورة التكاثر رقم الآية 7. انظر القرطبي في تفسيره ص : 175 - 2/177.

ولشاعر آخر :

خُبْرٌ، وماءٌ، وظلُّ
ذَاكَ النِّعَمِ الْأَجَلُ
كَفَرْتُ بِاللَّهِ رَبِّي
إِنْ قُلْتُ : إِنْني مُقِلُّ

ولأبي العتاهية :

رَغِيفٌ خُبْزٍ يَابِسٍ
تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيَةٍ
وَكُوزٌ مَاءٍ بَارِدٍ
تَشْرَبُهُ مِنْ صَافِيَةٍ
خَيْرٌ مِنَ السَّاعَاتِ فِي
فَيْءِ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ

* * *

وما أنعم الله على رسوله ﷺ في الآخرة بنعمة أجل ولا أتم من نعمة الماء، بل إنه جعلها له خاصة دون غيره من الأنبياء عندما أعطاه له ولأمته الكوثر في الآخرة فيما يحكيه القرآن: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (32) والكوثر نهر في الجنة ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى مذاقاً من العسل، عدد كيزانه بعدد نجوم السماء من شرب منه لا يظمأ بعدها أبداً، وقال الرسول ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حَافَتَاهُ من ذهب، ومجرَاهُ على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج».

ويبين الرسول ﷺ أن ذلك خاصٌّ به، وبأتمته كما في صحيح مسلم ولكنه يقول فيما يقول: «إنه يأتي أقوام يوم القيامة إلى ذلك النهر أو

(32) سورة الكوثر الآية : 1.

الحوض، فتذوذهم الملائكة عنه، كما تذاذ الإبل الغربية، فيقول الرسول: ربي... ربي، إنهم من أمتي، فيقول الحق سبحانه وتعالى: لا يا محمد، إنك لا تعلم ماذا غيروا بعدك (33)، ولعل مما غيَّره هؤلاء بعد الرسول عليه السلام، أنهم لم يقدرُوا نعمة الله ونعمة الماء حق قدرها فحرمهم الله منها، ومن خيرها...

* * *

ثم، أليس يعرف المومنون في الآخرة بأنهم: «الغُرُّ المحجلون» (34)، يقول الحق سبحانه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ (35)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (36)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (37).

بيد أن أكثر الآيات التي ورد فيها ذكر الأنهار والعيون ارتبطت بنعيم الآخرة، وعدت العيون والأنهار في الجنة من أهم مظاهر النعمة والرغد التي يثاب بها المومنون الصالحون، «أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين» (38)، ويقول الحق سبحانه في آية أخرى: ﴿بَشَرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (39) أي ماء الأنهار، وروي أن أنهار الجنة ليست في أخاديد، إنما تجري على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها (40).

(33) تفسير القرطبي ص 217/20.

(34) الغُرُّ والتجليل: هذا سبب الماء والوضوء.

(35) سورة محمد - آية: 15.

(36) سورة الذاريات: آية 15.

(37) سورة الدخان، آية 52.

(38) سورة آل عمران: آية: 136.

(39) سورة البقرة، آية: 25.

(40) تفسير القرطبي ص 140/1.

ويبدو أن لذكر الجنات مقرونة «بالمياه» «والأنهار» أثراً كبيراً في تحقيق الغرض الديني... ذلك أن منظر الجنات لا يتم حُسنه، ويتكامل بهاؤه، ما لم تزينه المياه والأنهار الجارية، والعيون المتفجرة، فمنظر المياه والأنهار مع الجنات، أبلغ تأثيراً في النفس من منظر الجنات خالية من الأنهار، وهذا ما يشهد له الحس السليم، وبذلك يكون القرآن قد لاحظ ما يستهوي النفس، ويثير فيها البهجة والسرور، تحقيقاً لغرضه الخطير في الحث على الإيمان والتقوى وصالح الأعمال...

قال الزمخشري : «ولولا أن الماء الجاري من النعمة العظمى، واللذة الكبرى، وأن الجنات والرياض، وإن كانت آس شيء وأحسنه، لا تروق الناظر، ولا تبهج النفس، ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء، وإلا، كان الأنس الأعظم فائتاً، والسرور مفقوداً، وكانت كتماثيل لا أرواح فيها، وصور لا حياة لها، لما جاء الله تعالى الجنات مشفوعة بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قران واحد، كالشيئين لابد لأحدهما من صاحبه، ولما قدمه على سائر نعوتها(41).

وقد حفلت سور «الرعد» «والواقعة» «والرحمن» خاصة بأنواع من النعم في الجنة أبرزها «الماء»، فنقرأ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(42)، أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا، تِلْكَ عَقَبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَعَقِبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ(43)، ونقرأ في سورة «الواقعة» قوله تعالى: ﴿وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ، لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ(44).

(41) الكشف : ج : 1 / 199 - 200.

(42) تذكر الأنهار في القرآن الكريم في 54 موضعاً موضعها في السور المدنية، فقد وردت في 35 موضعاً، بينما ذكرت في السور المكية في 19 موضعاً... وذكر الأنهار في الغالب مرتبط بما يجده المومنون الصالحون من النعيم في الآخرة.

(43) سورة الرعد، رقم الآية : 35.

(44) سورة الواقعة، رقم الآية : 33.

وكانت العرب أصحاب بادية، وبلاذٍ حارة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة، لا يصلون إلى الماء إلا بالدَّلْوِ وَالرِّشَاءِ، فوعدوا في الجنة خلاف ذلك، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا، وهي الأشجار وظلالها، والمياه وأطرافها...

ففي سورة «الرحمن» : ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ : جَنَّتَانِ... فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، ذَوَاتَا أَفْنَانٍ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (45)، أي تجريان بالماء العذب الزلال... إحدَى العينين التسنيم، والأخرى السلسبيل...

لقد حفلت سورة الرحمن خاصة، أو «سورة جمال الطبيعة في القرآن» كما يسميها الغربيون (46)، بمناظر من النعم الأرضية التي تبهج النفوس، وتؤثر في الأحاسيس، ويصحبها موسيقى رقيقة مناسبة لذلك كله، وهي تدلُّ على ما جعل الله في الأرض من مظاهر النعم والمنافع للعباد مما سخر لمنفعتهم وخدمتهم، فمما جاء في سورة «الرحمن» قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (47).

فقد عُدَّ انتفاع الإنسان بما في الأرض من النعم تكريماً له، وإِعْلَاءً لشأنه، وإِظْهَاراً لمعنى الخلافة فيها التي اختصه بها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيْبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (48).

* * *

(45) سورة الرحمن، رقم الآية : 50.

(46) سيد أمير علي : «روح الإسلام» ص : 171.

(47) سورة الرحمن : آية : 20 - 21 - 22 - 24.

(48) «الإسراء» رقم الآية : 70.

ومن روائع الإيجاز قوله تعالى في صفة الأرض : ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (49) فقد أغنت لفظتا: الماء والمرعى عن أشياء كثيرة في الطبيعة... وقد دل بهاتين الآيتين على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنعام من العشب والشجر والحَب، والعِصْف والريحان واللباس والنار والملح، لأن النار من العيدان، والملح من الماء (50)... وفي روعة الإيجاز أيضاً، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا، وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (51)، فقد عبّر ببركات السماء والأرض عن أنواع من النعم السماوية والأرضية متعددة متنوعة... وتلك هي الأرزاق... والقرآن لا يعبر «بالرزق» عن شيء، إلا وذاك الشيء مما يحسن ويلذ، وهو كثير في القرآن. من أجل ذلك أشار فيلسوف الإسلام المجدد محمد إقبال، فقال: «والقرآن يجعل الأرض مستقر أو متاعاً للإنسان، ينبغي أن يشكر الله عليه: «ولقد مكناكم في الأرض، وجعلنا لكم فيها معاش، قليلاً ما تشكرون»..

والرزق عند أهل السنة، ما صح الانتفاع به، حلالاً، كان أو حراماً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن الحرام ليس برزق، لأنه لا يصح تملكه، وأن الله لا يرزق الحرام، وأن الله يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك (52)...

* * *

لذا، كان القرآن يلفت أنظار الناس إلى النعم التي أنزلها الله من السماء، أو المخرجة من الأرض كالغيث الذي به يستبشرون ويمرعون، وكالزرع الذي تنبته الأرض، فإذا هو بواسطة الماء زينة ورزق كريم لهم ولأنعامهم،

(49) سورة النازعات - آية رقم : 31.

(50) «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي ج : 2/55.

(51) «سورة الأعراف» رقم الآية : 96.

(52) القرطبي، ج : 1/ص : 177.

ويجعل تلك النعم من آيات الله الدالة على وحدانيته، وعلى دحض الشرك الذي كانوا به يدينون...

فالقُرآن يقول : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْهَوْا أَنْ تَكُونُوا تُوفِكُونَ﴾ (53)... ويقول الحق سبحانه في الدلالة على توحيده عز وجل: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَقْدِرُ لَهُ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (54).
قال الزمخشري : والرزق من السماء : المطر : ومن الأرض : النبات.

* * *

وترتبط الأنهار، غالباً، بالنعيم، سواء في الدنيا أو الآخرة، ففي الدنيا ترد في قصص القرآن التي يذكرها للعة والعبرة تتناول الأوامر السابقين، وما كانوا فيه من أفانين النعيم، وأفانين البذخ والترف، ولكنهم قابلوا ذلك بالجحود وعدم الإيمان بالرسول، فلقوا العقاب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا، وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (55).

وفي قصة طالوت يقول الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ...﴾ (56)، وهو نهر بين الأردن وفلسطين.

(53) سورة فاطر، رقم الآية : 3.

(54) سورة العنكبوت آية : 63.

(55) سورة الأنعام رقم الآية : 6.

(56) سورة البقرة رقم الآية 249. وعين جالوت : اسمها العبري اليوم: «عين حُرُود». «وعين جالوت» قال عنها ياقوت الحموي في معجم البلدان: «عين الجالوت اسم أعجمي لا ينصرف وهي بليدة لطيفة بين بيسان، ونابلس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولت عليها مرة ثم استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيوب عام 579 هـ [انظر التوراة في سفر صُمُوئِيل الأول في الأصحاح: 1/29 باسم عين يَزْعِيل التي نزل عليها شاوول بجيشه في الحرب التي قامت سوقها بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وانظر: سورة البقرة الآيات 249 - 250 - 251 - 252].

وقد أشار أبو العلاء إلى أصحاب طالوت الذين ذكرهم الله في الآية السابقة بقوله :

سَقِيَا لِدِجْلَةٍ، والدنيا مفرقةٌ
حتى يعود اجتماعُ النجم تشتيما
وبعدها لا أحب الشربَ من نهر
كأنما أنا من أصحاب طألوتا
نمَّ الوليدُ، ولم أذم بلادكم
إذ قال ما أنصفت بغداد، حُوشيتَا
وحُوشيتَا : معناها : نُزّهت. وهو دعاء.

وفي الحكاية عن غرور فرعون بما لديه من نعيم، يقول الله تعالى:
﴿وَنَادَىٰ فرعون في قومه قال: يا قوم، أليس لي ملك مصر، وهذه
الأنهار تجري من تحتي، أفلا تبصرون﴾ (57).

وفي قصة الرجلين صاحبي الجنة اللذين كان أحدهما شاكرا، والآخر
جاحداً، يظهر النهر كمثّل على النعيم الذي كان يحظى به كل منهما :
﴿كلتا الجنتين آتت أكلها، ولم تظلم منه شيئاً، وفجرنا خلالهما
نَهراً...﴾ (58).

* * *

ولعل أهم ما يميز ويثير اهتمام، ويلفت النظر في الاستفادة من نعمة
الماء هو ربط القرآن لسلوك الإنسان بنعمة الماء، وجعل نزولها وانقطاعها،
متوقفين على صلاح الإنسان في هذه الحياة، أو عدم صلاحه فيها، فجعل
ذلك المفهوم، مثلاً، حكاية على لسان نوح عليه السلام، وهو يخاطب قومه
قائلاً: ﴿ويا قوم، استغفروا ربكم، ثم توبوا إليه، يرسل السماء عليكم

(57) سورة الزخرف رقم الآية 51.

(58) سورة الكهف رقم الآية 33.

مدراراً، وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٩﴾ أو حديثاً عما سلف من الأمم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا، وَاتَّقَوْا، لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَكِنْ كَذَبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (60)...

* * *

يُمَثِّلُ هذه الآيات الكريمات نقل القرآن الفكر البشري نقلة واضحة، نقله من التدجيل بالسحر والطلاسم والكهانة التي يعتمد أصحابها إلى تحريك قوى الطبيعة وتسخيرها، إلى الإيمان، والعمل الصالح، والسلوك الصحيح، الذي هو مفتاح كل خير وبركة تنزل من السماء، أو تخرج من الأرض، وهو مفهوم يبدو على جانب كبير من الأهمية، إذا ما قيس بما سبقه من مفاهيم لدى الأمم الأولى (61)...

وقد وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أضرار الذنوب، وعن خسائس الصفات كالغل والحقد والحسد، فإذا شربوا هذا الشراب، يطهرهم الله من رخص الذنوب، وأضرار الاعتقادات الذميمة، فَجَاؤُوا إِلَى اللَّهِ بِقُلُوبٍ سَلِيمٍ، ودخلوا الجنة بصفات التسليم، وقيل لهم حينئذ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، طِبْتُمْ، فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (62)...

وقال على كرم الله وجهه في قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (63): إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة، مروا بشجرة يخرج من تحت ساقها عيان، يشربون من إحداها، فتجري عليهم بنصرة النعيم، فلا

(59) سورة هود رقم الآية : 52.

(60) سورة الاعراف رقم الآية : 96.

(61) «الطبيعة في القرآن» ص : 84.

(62) سورة الزمر آية 73.

(63) سورة الإنسان، آية : 21.

تتغير أبشارهم، ولا تتشعت أشعارهم أبداً، ثم يشربون من الأخرى، ثم تستقبلهم خزنة الجنة، فيقولون لهم: ﴿سلام عليكم، طبتم، فادخلوها خالدين﴾ (64).

و«الشراب الطهور»، هو البالغ في نقائه من القذى والشوائب المادية، أو المراد طهارته مما يكون في الأشربة الدنيوية من الأضرار، وسوء التأثير.

* * *

يصف أبو العلاء المعري (65) تلك الأنهار المائية التي تختلج من ماء الحيوان فيقول: «وتجري في أصول ذلك الشجر، أنهار تُخْتَلَجُ من ماء الحيوان، والكوثر يَمْدُّهَا في كل أوان، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا النُّغْبَةَ (66)، فلا مَوْتَ، قد أَمِنَ هنالك الفَوْتَ، وَسُعِدَ (67) من اللَّبَنِ مُتَخَرِّقَات، لا تُغَيَّرُ بأن تطول الأوقات، وجعافِرُ (68) من الرحيق المختوم، عَزَّ الْمُقْتَدِرُ على كل محتوم، تلك هي الرَّاحُ الدائمة، لا الذميمة ولا الدَّائِمَةُ، بل هي كما قال: «علقمة» مفترياً، ولم يكن لعفو مقترياً (69):

تشفي الصُّدَاعَ، ولا تؤذيه صَالِبُهَا

ولا يخالط منها الراس تدويم (70)

* * *

أما حديث الماء في آداب الأمم، فغاية في الاستفاضة، وموقعه في الأدب العربي جاهليته وإسلامه، في البداوة والحضارة موضع التصدر

(64) الجامع للأحكام القرآن، للقرطبي ص : 147/19.

(65) رسالة الغفران : ص : 141. وماء الحيوان : أي ماء الحياة.

(66) النخبة : الجرعة من الماء.

(67) سَعِدَ ج سعيد : مجرى الماء الصغير.

(68) الجعفر : النهر.

(69) المفترى : الكاذب، من الافتراء، والمقتري : الطالب القاصد. وعلقمة : هو علقمة الفحل، شاعر جاهلي عُمرَ طويلاً، مشهور بالمناظرة بينه وبين امرئ القيس.

(70) صَالِبُهَا : صُدَاعُ الحُمَى وغيرها، جعله هنا بمعنى شدة الخمر وفعلها في الرأس. التدويم : دَوْرَانِ الخمر في الرأس، أو هو السكر وسورته.

والتقدم، كموقع التشبيب بالنساء الحسان، وأوصاف الطبيعة الأنيقة فيه، وهو فيما تجري به الألسن أول: ثلاثة تنفي عن النفس الحزن، وهي: «الماء، والخضرة، والوجه الحسن».

ويبدو الافتتان به في الأدب العربي بالغ الروعة في هذه النعوت والتشبيهات والأوصاف، وفي مضافاته الكثيرة التي ابتكرها الكتاب والشعراء، فأبدعوا الإبداع كله (71).

وبديهي أن هذه «الثقافة المائية» غير محصورة في الأدب القديم، ولا سيما في المعلقات... فالشعر العربي - كما سنرى - رقراق بالماء، بوجه عام، فالنابغة الحارثي يقول:

ونحق حق شربينا في مائنا
حتى يكون كأنه أسقانا

ويقول زيد بن عمرو :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت
له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما رآها استوت
على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت
له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هي سيقّت إلى بلـدة
أطاعت، فصبّ عليها سجالا

وثلاثة يجلين البصر : النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن... (72)

✓ (71) «محمد بهجت الأثري» مقدمة لكتاب : الماء وما ورد في شربه من الآداب.

(72) «كشف الخفا» ص : 2/386.

وقد قال رسول الله ﷺ : ثلاث يزدن في قوة البصر: النظر إلى
الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن.
وقد ألف جمال الدين بن عبد الرحمن السيوطي كتاباً بعنوان :
«النضرة، في أحاديث الماء، والرياض، والخضرة». (73)
وأنشد الشهاب الخفاجي لأبي الوفا العرضي قوله :
بِوَرْدِ الخَدِّ، رِيحَانِ مَحِيطٍ
وَتَرَكِي حَبَّهُ لَا أُسْتَطِيعُ
وَقَلْتُ النَفْسَ خَضِرَا، يَا عَذُولِي
كَمَا قَدْ قِيلَ : وَالزَّمَنَ الرَّبِيعَ

وفي ذلك ما قال ابن الخطيب : مررت يوماً بشيخنا أبي البركات ابن
الحاج ببعض مسالك غرناطة، فأنشدني من نظمه :
غَرْنَاطَةُ مَا مِثْلَهَا خَضْرَهُ
المَاءِ وَالبَهْجَةِ، وَالْخُضْرَهُ
وَاسْتَجَارَنِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقُلْتُ :
سَكَانُهَا، قَدْ أَسْكَنُوا جَنَّةً
فَهُمْ يُلَقَّوْنَ بِهَا نَضْرَةً (74)

قال الخفاجي : وهذا مثل عامِّي يقولون : «النفس خضراء، تشتهي كل
شيء» وقولهم تشتهي إلى آخره مفسرة لخضراء، وكان أصله ما ورد في
الحديث أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر، ترتع في الجنة...

(73) وقد نسب السيد مصطفى بن عبد الله - حاجي خليفة في كشف الظنون، وجميل العظم في
عقود الجواهر، والبغداد في هدية العارفين... منه مخطوطة بالتيمورية مكتوبة بخط قديم
نقيس، وأخرى بخزانة ابن يوسف بمراكش ضمن مجموع.

(74) أزهار الرياض ص : 1/272 نفع الطيب ص : 6/482.

والأصوب أن يقال : إن أصله : ثلاثة تذهب عَنْكَ الْحَزَنُ : «الماء والخضرة، والوجه الحسن» ومعنى أن النفس خضراء، أي تميل إلى الخضرة بالطبع.(75)

* * *

غياب عنصر الماء : معناه الذبول والفناء...!

فغياب هذا العنصر الحيوي الذي يعتبر «إكسير الحياة»، وسر الوجود، معناه الذبول والموت والفناء! ولعل هذا المعنى، هو الذي المح إليه الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة من سورة «الملك» حيث يقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا... فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ؟﴾ إذ لم يشأ الله أن يختم آيات التهديد والإنذار، التي خاطب بها المشركين المكذابين بغير كلمة تذكير، يستميل بها قلوبهم، ويستلين عَرَائِكُهُمْ، فهو سبحانه يُمْنُّ عليهم بالماء الذي جعله يجري تحت مواقع أبصارهم، وعلى مقربة من تناول أيديهم، هذا الماء الذي فجره الله من الصخر الصلب، فخرج من الأرض، وانبسط من حولها، فنقع غلتها المحرقة، قبل أن ينقع غلة القوم الظماء، وسال على ظهرها بمحض قدرته تعالى، ومحكم تدبيره، فلو أراد الله تعالى أن يغيض ذلك الماء، ويذهب في الأرض، بحيث لا يمكنهم أن يتوصلوا إليه، فمن يقدر على إيجاد ماء لهم يسقي زروعهم، ويغذي ضرعهم، ويُطفئ عطشهم؟ فمن رحمته تعالى تسهيل أمر السقي عليهم بخلق الماء، وسلكه ينابيع في الأرض، ثم خروجه وجريانه على وجهها... وكما أن الماء هو مادة الحياة للبشر، مثال من أمثلة رحمته تعالى، هو أيضاً، مثال مما يتوكل النبي والصحابة عليه سبحانه وتعالى في تناوله من مجاريه والانتفاع به عن كثب...

(75) «خلاصة الأثر»، للمحبي ص : 1/150.

الحياةُ بالماء... والتعذيبُ بالماء !

قد يذيق الله عباده العاصين لباس الجوع والخوف، لعصيانهم وتمردهم، بإمساك السُّقْيَا، وتوقُّف الحَيَا، فتمسك السماء عن إنزال الغيث، أو يعذبهم الله بالطوفان والفيضان الذي يهلك الحرث والنسل، أو يذيقهم الماء الحميم بالإحراق...

فكما أن الماء صديق الإنسان، فإنه - أحياناً عدوُّ له، فالجليد الذي يحفظ الطعام يُغرق عَامِرَات المحيط، والثلوج يمكن أن تكون خيراً وبركة وتزكية لوفرة المياه في باطن الأرض، ولكنها تسد الطُّرُق، والطوفان الذي يعم الأرض، ويذهب بالماشية، ويخرب الدور والبيوت، كما حصل في الفيضانات المَهُولَة الخطيرة، التي أجمع الكل على أنها لم يسبق لها مثيل، وذلك يوم 17 غشت عام 1995 على إثر الكارثة المائية التي ضربت مناطق أوريكَة، و«ستي فاطمة» مولاي إبراهيم أسنى، وَرَغَان أَمْلِيل بإقليم الحوز بمراكش، والتي كانت بسبب الرعود والبروق وما أعقبَهما من فيضانات خطيرة، أودَّتْ بِوفاة أكثر من مائتي شخص ونحو من 300 شخص في عداد المفقودين، علاوة على الخسائر المادية والبشرية الجسيمة التي كانت بسبب طوفان الماء، وما إلى ذلك.

صور هذه المأساة والمُصَابِ الجلل الذي حلَّ بأوريكَة فطمس معالمها، الشاعر محمد الحلوي في قصيده الرائع حيث قال وهو يخاطب «أوريكَة»:

فَجِيعَتُكَ النِّكَرَاءُ، أَفْقَدَتِ الصَّبْرَا
ومَأْسَاءُ مَنْ ودَّعَتِ ضِيقَنَا بِهَا صَدْرَا

فكيف استحالت جنتي بعد أنسها
خراباً وعادت بعد بهجتها قبراً
وأية ريح صرصر عصفت بها
وسيل أتى جاء يقطع الصخرا
ورعد تميد الأرض من صعقاته
وموت يذيق الناس من كأسه المرا
كصيحة عاد دمرت كل عامر
فلم ينج منها من أقام ومن فرا
تهاوت مبانيتها العجاف كأنها
هشيم وقد كانت لساكنها قصرا
ومن لم يمت فيها غريقاً فقد قضى
بما أبصرت عيناه من هولها نعرأ
ولولا رجال من بنيتها بواسل
تحدوا هوادي السيل واقتحموا الوعرا
لما سلم الناجون من قبضة الردى
وخطب مهول كاد يطمرهم طمرا
فكم من غريق لم يجد يد منجد
هوى في مجاري الموت واستقبل القعرا
كما أن الماء يكون موظفا لعذاب العاصين في الدنيا والآخرة، ورحم الله
المعري إذ يقول:

وهل يجودُ الحَيَا أناساً
مُنْطَوِيّاً عنهمُ الحياءُ

* * *

في كتاب الله صُورَ حية ناطقة بعذاب الماء الذي يشوي الوجوه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ (76) وقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (77) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ (78) وقوله سبحانه: ﴿يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ، ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (79) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامٌ الْأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ (80) وفي قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا، فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (81) وقوله جل وعلاً: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ (82) ﴿فَنَزَّلُ مِنْ حَمِيمٍ، وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ﴾ (83) وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا، وَلَا شَرَابًا، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (84) ومنه قوله تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ (85)

* * *

ويقال بأن بعض القبائل المتوحشة، تعاقب مُذْنِبِيهَا بالشرب القسري للماء، وقد حكى آلهة الإغريق على «تتالوس» لأسباب ليست واضحة، بأن يموت عطشاً إلى الأبد، عندما وضعوه في بحيرة تحت الشمس، والماء

(76) سورة الكهف : آية : 29. المهمل : ضرب من القطران [انظر القرطبي ج : 10 / 394.

(77) سورة الحج : آية : 20. انظر القرطبي ج : 12 / ص. 27.

(78) سورة الصافات : 67. الشُّوبُ : الخلط - القرطبي ج : 15 / ص : 87.

(79) سورة «غافر»، آية : 72.

(80) سورة الدخان آية : 46.

(81) سورة محمد آية : 15.

(82) سورة الواقعة : آية : 55.

(83) سورة الواقعة : آية : 93.

(84) سورة : عم، آية : 25. الحميم : الماء الحار، ومنه اشتق الحمام، ومنه الحمى ومنه: «وظل من يحموم».

(85) سورة الغاشية، آية : 5. الآني : الذي انتهى حره، من الإيناء، بمعنى التأخير ومنه: آنيت، وأذيت، وفي التفاسير: «من عين آنية» : أي تناهى حرّها.

يرتفع حتى شفّتيه، فإذا انحنى يرتوي منه، انحسر الماء إلى قدميه... وإلى الأبد... أو أجلسوه عند مدخل كهف، وأسقطوا فوق رأسه حجراً، يكون له دَوِيٌّ هائل، ولكنه يتوقف بالقرب من رأسه، فيعيش «تالوس» في خوف أبدي!!! (86)

وصدق الله العظيم : ﴿إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ...﴾.

ويقول الإمام على : «هو كالعطشان، على شَفَةِ البئر، فلا يبلُغُ قَعْرَ البئر، ولا الماء يرتفع إليه...

ولقد قال الشاعر الرقيق سَنَاءَ الْمُلْكِ :
أَمُوتُ غَرَاماً، حِينَ أُحْرِمَ وَصْلَ مَنْ
هَوَيْتُ، وَأَحْيَا فَرَحَةً حِينَ أَرْزُقُ
وإن الفتى يحيا بما قد يُمِيتُهُ
فبالماء يَحْيِي، وهو بالماء يرزق

وبعض ماء المطر يكون، وفي وقت واحد، دُرّاً... وَسُماً...! باستعداد المحل، وعدم استعداده، ولعل المراد بذلك الماء، هو ما ينزل من السماء في شهر نيسان (أبريل)، وفي ذلك يقول شاعرهم:

أَرَى الْإِحْسَانَ عِنْدَ الْحَرِّ دَيْناً
وعند النَّذْلِ مَنَقْصَةً وَذَمّاً
كَمَا النِّيسَانُ فِي الْأَصْدَافِ دُرٌّ
وفي جَوْفِ الْأَفَاعِي صَارَ سُماً...!
أي كماء نيسان...

(86) «صالون العقاد»، لانيس منصور ص : 575.

وفي نفس السياق والمعنى يشير الشيخ محمد بن عيسى الخليفة
الوائلي البحريني، وهو يمثل الناس بالماء، فيقول: (87)

فالناسُ مثلُ الماءِ، عذبٌ سائغٌ
يُحي، وَيَشْفِي غُلَّةَ الْوُرَادِ
وَمِنَ الْمِيَاهِ، معادنٌ مَوْبُوءَةٌ
وحميمٌها يسري إلى الأكباد

* * *

وللماء مكانته وقدره العظيم، فليس أشرف «للماء» من أن جعل الله
تعالى عليه عرشه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾. (88)
وذكر المفسرون أن أول الأشياء وجوداً في الكون: هما: «العرش»
و«الماء»... وكلمة «كان» في الآية الكريمة، لا تمنع استمرارية هذا الحدث
العظيم... كما أن كلمة «على» تدل على أن أولهما وجوداً هو الماء...
وأضاف: وقد زاد الله الماء تشريفاً بأن يأتي الله سبحانه مُحاطاً بالغمام
يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ، فِي
ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (89)

* * *

وعودٌ على بدء، فبفضل الماء يتبدى البستانُ الناضر الذي يهتز
بصنوف الأشجار، وأفانين الأزهار، ويتراءى في ألوان من النبات،
مشتهيات وغير مشتهيات من هائج وعميم، وبأرضٍ وجميم، وكروم

(87) الديوان ص 157.

(88) سورة: «هود»، آية: 7 - القرطبي، ج: 9/ ص: 8.

(89) سورة: «البقرة»: 210 - القرطبي، ج: 3/ ص: 25.

وأعناب، وسنابل وأعشاب، تفيض أرجاؤها بالجداول والغدران، والقني
والخلجان، والرياض والغياض، حيث تتجلى الدنيا، بأبهج ما رأت عين،
وصورها خيال الشاعر..

* * *

وما أروع تلك الفلسفة الحياتية لذلك البدوي الطيب الذي اكتفى من قلق
الوجود بالتمر والماء، ومراقبة شروق الشمس وغروبها !!!..
وما العيش إلا نومة وتشرُّق،
وتمرُّ على رأس النخيل، وماء

الباب الثاني :

اللغة العربية... أغنى لغات العالم

«... الكلم نفسه طافح بحمد آلاء «الماء» نقول :

إننا «نتعطش» إلى الحقيقة... ونحدث عن «السلاسة»

التي تطبع القول، ونتدفق أحياناً «بسيل» من الكلام

«بول فاليري»

اللغة العربية من أرقى لغات العالم، وذلك بكثرة مُرونتها، وسعة اشتقاقها.... فالمرونة التامة، والاشتقاق والقلب والمجاز والنحت، والإبدال، هو الذي جعل اللغة العربية تستطيع أن تكون لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، وما فيهما من مَعَانٍ في منتهى السُّمو والرفعة، فهي بالنسبة لغيرها من اللغات، أَوْفَرُ وأغنى، وأكثر مُرونة.

والعرب هم الذين حملوا لغتهم معهم، حيث يسكنون، وحيث يفتحون، ويقرر دارسوا اللغات السامية أنها من أرقى لغات العالم، وأهلها يملكون «ثقافة مائية»، تتجلى في وفرة المادة اللغوية في هذا الباب، فهي في مقدمة اللغات جميعاً، تعبيراً ودلالة، وتصوراً للمجتمع الذي لهج - ويلهج بها...

وما كان لغة في دنيانا هذه، أن احتفلت بنعمة الماء، احتفال لغة التنزيل بها، وما كان لأدب مما يضطرب فيه الناس في عالمنّا، أن تشرق فيه صفحات مباركة على ما أشرقت الصور الوضيئة في الآيات الكريمة في إكبارها للرحمة مُصَوَّرَةً في الماء...

وقد قسمنا هذا الباب إلى فصلين :

الفصل الأول : ويتناول مادة الماء اللغوية.

الفصل الثاني : ويتحدث عن التراكيب والاستعمالات المجازية للماء.

الفصل الأول :

مادة الماء اللغوية

انتشرت لغتنا العربية انتشاراً رائعاً في العالم بالسرعة التي لم تعرف لأي لغة تنتشر من غير سلطة سياسية، ومن غير استعمار... لقد أصبحت اللغة العربية، لغة العلم، ولغة الثقافة، ولغة التأليف... وتغلغت في أحشاء العالم الإسلامي... وكان المسلمون في كل رقاع الأرض وبقاع الدنيا يتنافسون في تعلمها، وفي التضلع منها... كانوا عجماً بالثقافة، وبالوراثة، وباللغة وبالنشأة... ولكنهم كانوا يوثرون هذه اللغة للكتابة، والتفكير، والعلم والفلسفة...

* * *

ولقد كانت هذه اللغة العربية غنية بألفاظها وكلماتها وقواعدها ونحوها وصرفها... وقد عبر عن ذلك الأستاذ «نولدكه»(*) خير تعبير، إذ يقول: «إنا ليملكنا الإعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم، إذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها، وتوحد مناظر بلادهم، وأطرافها اطراداً يدعو إلى السآمة والملل... وهذا يستتبع، حتماً، ضيق دائرة التفكير، ولكنهم في داخل هذه الدائرة الضيقة، وضعوا لكل تغير، وإن قلَّ، كلمة تدل عليه...».

وهذا مستشرق آخر، هو أمين عبد الكريم (Michel Barbat)، الذي اعتنق الإسلام، ويدير اليوم معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة ستراسبورغ الفرنسية، وهو متخصص في اللسانيات العربية وفقه اللغة، تحدث عن اللغة العربية، فقال:

(*) نُولِيكِي (ثيودور) (NOELDEKE) (1836 - 1930) ولد في همبورغ، من مشاهير المستشرقين الألمان، اشتغل خصوصاً باللغات السريانية والعربية، والفارسية، «له تاريخ القرآن»، و«في نحو العربية الفصحى» و«أبحاث جديدة في علم اللغات السامية».

«...لقد تعلمت إلى جانب اللغة الفرنسية عدة لغات منذ الصغر، لكن، عندما تعاطيت اللغة العربية، اكتشفت أنني كنت أرى بعين واحدة، فصرت أرى بعيون الكون كله، والفضل لبديعها سبحانه وتعالى... توغلت في أعماقها، بحب وشغف، وصادفت المحاسن والدُّرر، إنها لغة غنية جداً، غدَّت فكري ووجداني، ودفعنتني إلى الخوض فيها بكل جهد وحماس، فجمعت طيلة حياتي حقائق علمية ثرية ومهمة، أكدت لي أن العربية الفصحى لغةٌ ليست، فقط، لماضي متألّق، وإنّما أيضاً، لمستقبل العالم بأسره، شرقاً وغرباً، إنها لغة فكر وروح وحضارة أفضل للبشرية جمعاء...

هذا رجل منصف يخالف ما يذهب إليه بعض المستشرقين الذين يجعلون من أهدافهم التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي، لنظلّ عالّةً على مصطلحاتهم التي تُشعِرُنَا بفضلهم وسلطانهم الأدبي علينا، وتشكيكهم في غِنَى الأدب العربي، وإظهاره مُجْدِباً فقيراً، لنتجه إلى آدابهم، وذلك هو الاستعمار الأدبي، الذي يبغيه، مع الاستعمار العسكري الذي يرتكبونه...

وتلك هي الأهداف العلمية التي يَعْمَلُ لها أكثرهم أو جمهورتهم السابّقة.

* * *

وأرى أن لغة العرب كانت غنية ذات دلالة على رقي وحضارة... وثروة وغناء... لأن وضع اللفظ على الشيء دليلٌ على وجوده... ولعمري، إنه لا يمكن أن يكون تمدُّن لغوي، إلا بعد تمدن اجتماعي، راقٍ في حقيقته، وإن لم يرقَ في شكله، عامٌّ في أثره، وإن لم يُعْمَ في أهله...

صحيح أن العرب في عصرهم القديم كانوا أغنياء في الحدود التي رسمتها لهم بيئتهم، فأنت ترى غِنَى في رحاب اللغة فيما يتعلق بالصحراء والخيّل والجمال، وما يتعلق بالمشاعر الجياشة، والأحاسيس الدقيقة،

كما ترى ثراء واسعا عريضا في اشتقاقها، وتصريف كلماتها بما يشعر شعورا تاما بغنى اللغة العربية وصلاحيتها للبقاء...
وإنّ الذي ملأ اللغات محاسناً
جعل الجمال وسِرّه، في «الضاد»

* * *

ومن يتتبع المعاجم اللغوية القديمة، ويتسقط ما ورد فيها من مادة لغوية لها علاقة بالماء، يدرك ما وصل إليه علم العرب في هذه المادة بالذات... فالمادة اللغوية مظهر كبير للحياة العقلية والاجتماعية للمجتمع البشري في أي عصر من العصور.

ولو أنك ذهبت إلى تجريد الماء في أدبنا القديم، لكان لك من ذلك سفر عظيم، فالعرب قد أدركوا حاجتهم إلى الماء إدراكا خاصا، فخلعت هذه الحاجة على أدبهم رُوءاً وبهاءً، تصرفوا إلى معاني الخير والجمال، وسائر ألوان الحياة...

ولارتباط حياة العرب بالمطر والماء كثرت الألفاظ المتعلقة به في لغتهم... ففي معاجم اللغة ألفاظ كثيرة في معنى المطر، مثلاً، وفي أمور تتعلق به في مثل السحاب وأنواعه، وأسماء قطعِه، وما شاكل ذلك من ألفاظ وأسماء، تمثل لك مدى عناية العرب بالمطر والماء لشدة حاجتهم إليه...

ولا أدل على ذلك، ذلك التعلق العربي القديم «بالماء» في شبه جزيرة العرب، من هذه الكثرة المطلقة من الألفاظ والتعبيرات التي يزخر بها المعجم العربي القديم، والتي تتصل بالماء، سواء في شكل أسماء خاصة، أو صفات معينة، تستعمل على سبيل الحقيقة أو المجاز، ومن المعروف أن الثروة اللغوية التي تضمها معاجمنا القديمة قد جمعت أول ما جمعت من أصقاع شبه الجزيرة العربية...

لقد راقب العربي القديم الماء في جميع أحواله، منذ نشأته سبحانه، ونزوله مطراً، وانسياحه في الأرض سيلاً، والتجائه إلى الأماكن الجوفية ماء مخزوناً، وظهوره في الآبار والعيون والمناهل والأحواض، وحتى وصوله إلى فم المخلوق الذي يرتوي منه، أو الزرع الذي يرويه... ولكل حالة من هذه الأحوال مئات الألفاظ والتعبيرات تستعمل حقيقة أو مجازاً، فإذا نظرنا إلى السحاب مثلاً، وجدنا العربي القديم يحدد النظر فيه؛ فيراقب السحابة منذ نشأتها ويتابع تطورها وحركتها في السماء حتى تسقط المطر، ويسجل كل موقف من مواقفها، وكل طور من أطوارها، وكل لون من ألوانها في أحوال النشأة والاكتمال، وفي أحوال التفرق والاجتماع، وفي أحوال الكبر والصغر، والرقّة والضخامة، ومن حيث علاقتها بالبرق، واشتمالها على الرعد، وخلوها منه، فلكل موقف من المواقف أسماء وصفات ولكل اسم مجاز يشتق منه ليدل على مواقف الحياة المختلفة (1)...

* * *

إن الباحث المختص في جغرافية الأنهار والوديان وضروبها وصفاتها ليجد مادة لغوية واسعة في موضوع: أسماء الوادي ونعوته، ومجاري الماء ومستقره، وأنواع السحب والغيوم في المعاجم اللغوية، ولا سيما في «المخصص لابن سيده» (2) الذي لم يجر على طريقة اللغويين الذين سبقوه، إذ لم يقتصر على المادة اللغوية، بل تجاوز ذلك، فصنف المادة اللغوية من حيث اتصالها بالعلوم الحضارية المختلفة، وكان له أن عرض مواد ذات ألوان علمية مختلفة إلى جانب قيمتها اللغوية.

* * *

(1) الإنسان والماء في جزيرة العرب... للأستاذ أحمد الضبيبي..

(2) المخصص ج : 10 / 101 - 112.

مادة «ماء» اللغوية :

ولناخذ، مثلاً وحيداً، على ذلك، وهو كلمة : «ماء»... فما عند العرب في مادة هذه الكلمة التي نحن بصدد دراستها...؟
«فالماء» كما هو معلوم : أصله «مَوَّة» أُعِلَّت عينُه بإبدالها ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها، وأبدلت هاؤه همزة لاتحاد مخرجيهما، فقلت «ماء»، الألف الأولى عين الفعل، وبعدها الهمزة التي هي بدل من الهاء، وبعد الهمزة ألف بدل من التنوين...

يقول الفراء : سمعت الكسائي يقول : إنه سمع : اسقني شربة ما (بالقصر) يريد شربة ماء.

قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب الا بالفين عند البصريين، وإن شئت بثلاث، فإذا جمعوا أو صغروا ردوا إلى الأصل، فقالوا «مُويه»، «وأمواء» «ومياه»، مثل جمال وأجمال... (3)

والدليل على أن لَامَهُ، هاء، جمعه على مياه، وأمواء، وربما أعلوها، أيضاً، في الجمع فقالوا: أمواء.

حكى ابن جني في جمعه «أمواء» قال : أنشدني أبو علي :

وَبَلَدَةٍ قَالَصَةِ أَمْوَاؤُهَا

تَسْتَنُّ فِي رَأْدِ الضْحَى أَفْيَاؤُهَا

كَأَنَّمَا قَدْ رُفِعَتْ سَمَاؤُهَا

وتصغير الماء مُويه، وفي الحديث : «كان موسى عليه السلام، يغتسل عند «مُويه»، والنسبة إليه مائي، وماوي، ويقال: مَوَّه الموضوع تمويها صار ذا ماء، والقدر أكثر ماءها، ومَوَّه الخبر على فلان: أخبره بما يخالف الحقيقة وبما سأل، وزَوَّرَه عليه ولَبَّسَه، فكأنه جعل له ماء ونضارة حتى قبله... ومَوَّه النحاس والحديد، طلاه بفضة أو ذهب... وَأَمَاهَتِ السماء: أسألت ماءً كثيراً، وأمأهت الأرض: نزت...

(3) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ص : 229 / 1.

وتقول : مَاهَت الركية، تماه، وتموه، وتميه مَوْهًا، ظهر مأوها وكثر...
وتقول: حَفَرَ البئر حتى أَمَاه وأَمْوَه، أي بلغ الماء... وأَمَاه الحَافِرُ: أي أنبَط
الماء، وَمَوْهَ الموضع: صار فيه الماء، قال ذو الرُّمَّة:
تَمِيمِيَّةٌ نَجْدِيَّةٌ دَارُ أَهْلِهَا
إِذَا مَوْهَ الصَّمَانُ مِنْ سَبَلِ الْقَطْرِ
[لسان العرب ج : 551/3]

* * *

وقد ألغز بعض الشعراء في «الماء» فقال :
أَيُّ شَيْءٍ إِذَا سَأَلْتُكَ مَا هُوَ ؟
كَنْتُ لِي كَالصَّدَى مَجِيئًا ... «مَا هُوَ»...

ومن لطائف شعر عبد البر الفيومي العوفي الحنفي أحد أدباء زمانه (4)
في الغزل: (ت: 1071هـ).

لِي حَبِيبٌ قَدْ سَأَلَ مَاءَهُ
عَذْبًا، وَطَرَفَاهُ سَالِمَاهُ
فِيَا خَلِيلَايَ عَذْرُ صَبٍ
جُودًا، وَالَا، فَسَالِمَاهُ
فَالطَّرْفُ هَامٌ مِنَ التَّجَافِي
طَوَّلَ اللَّيَالِي قَدْ سَالَ مَاءُهُ
وَسَاكِنُ الْقَلْبِ مَذْرَاهُ
يَهِيمٌ بِالْوَجْدِ سَالَ مَا هُوَ (5)

(4) «خلاصة الأثر» ص : 391 / 2.

(5) المصدر السابق ص : 294 / 2.

الأول : ساء بالهمز مقصور للشعر، ولمى، أي الريق فاعل، وإساءته
منعه لوأرده...

والثاني : ماض والألف للتثنية...

والثالث : أمر لاثنين...

والرابع من الاسالة... والماء قصر للضرورة...

والخامس من السؤال، سهلت الهمزة ضرورة... «وما» سؤال على سبيل
تجاهل العارف...

حقيقة الماء :

فما هو الماء ؟ وما هو الدور الذي يقوم به ؟ وما هي خواصه العجيبة،
وعلاقته بالأرض، وتأثيره عليها ؟...

فالقاموس يقول : إن «الماء» سائل شفاف لا لون له، ولا رائحة...
ويتكون من الإيدروجين والأكسجين...

لكن هذا التعريف كما يقول : «طومسون كينج» يفتقر إلى الإشارة
والتشويق، كما أن كل ما فيه معروف لديك، من قبل... وقد وصف بعض
العلماء «الماء» بقوله: إن الماء ينفرد من بين المواد اللازمة لقيام الحياة
على الأرض بأنه أعظمها أهمية، وأوسعها انتشاراً، وأعجبها شأنًا، ومع
ذلك، فما أقل ما يعرفه سواد الناس عنه...

وقد عرف ابن سينا «الماء» فقال : «الماء جوهر، أي جسم بسيط، يعين
في تسهيل الغذاء وترقيعه وبرقته، نافذاً إلى العروق، ونافذاً إلى المخارج،
لا يستغنى عن معونته هذه في تمام أساس الغذاء».

لقد وردت في بعض المعاجم الأجنبية القديمة والحديثة عدة تعاريف
«للماء»، نذكر منها على سبيل المثال، التعريف الذي أورده قاموس:

«ويبستر» WEBSTER الدولي الموسع، الصادر سنة 1935، أن «الماء» : هو السائل الذي ينزل من السحاب... والذي يشكل الأنهار والبحيرات والبحار...

أما التعاريف التي توردها المصادر الأخرى كدائرة المعارف البريطانية، «وموسوعة لاروس»، فإنها تنصب على تعريف الجانب العلمي، فتقول موسوعة: «لاروس الكبرى»: إن الماء مادة ليس لها لون، ولا طعم، ولا رائحة، سائل في درجات الحرارة الاعتيادية يتكون من الأوكسجين والهيدروجين؛ وتعرفه دائرة المعارف البريطانية، فتقول في بداية شرحها المفصل للماء، بأنه مركب كيميائي، يحتوي على ذرتين من الهيدروجين وذرة واحدة من الأوكسجين H_2 وهو واحد من أوسعها انتشاراً، ويوجد في الطبيعة على ثلاثة: صلب، وسائل، وغاز...

* * *

فأنت ترى، هنا، ومن خلال هذا النوع من المصطلحات المفسرة لماهية الماء، عدة تعاريف مختلفة ومتنوعة تحدد ماهية «الماء»، لأن لفظة «الماء» كبقية المفردات التي يعز تحديدها، والتي يختلف في تعريفها العلماء، ولا يتفقون، لأن كلاً يفسرها حسب مالهيه من معلومات وأدوات، ومن هنا يجب أن نلتمس العذر لذلك الأعرابي الذي سئل عن تحديد «الماء» وتعريفه، فَبَاتَ طُولَ الليل وهو يُجهد فكره، ويعصر ذهنه، وَيَنْتِفُ عُنُونَهُ من الجهد والهَوَسِ والعَنَاءِ، واهتدى في النهاية بأن الماء... هو الماء... فقل فيه :
وبات يقدح طول الليل فكرته،

وَفَسَّرَ الماء، بعد الجهد، بالماء !!

وكما عجز صاحبنا عن شرح لفظة «الماء»، وعز عليه التحديد والتوضيح والبيان، فكذلك نجد ذلك الأديب الآخر الذي ركب جملة، أو نظم بيتاً، وهو لا يعلم أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من

قوة وروح... ومن المتفق عليه أن لا يكفي أن يكون المعنى صحيحاً، ليكون الكلام بليغاً... ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول القائل:

كأَنَّنَا، «والماء» من حَوْلِنَا،

قَوْمٌ جُلُوسٌ، حَوْلَهُمْ مَاءٌ

ولكن من الذي يقيم وزناً لصدق هذا الكلام، إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها كما قال الدكتور زكي مبارك، وقد رأى بعض النحاث أن البديهيّات لا تسعى كلاماً كما قال ابن آجروم: «الكلام هو اللفظ المركب المفيد»، أو كما قال ابن مالك في ألفيته: كَلَامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ: كَأَسْتَقِم... ومن رأي ذلك البعض أن من يقول «السماء فوقنا، والأرض تحتنا» لم يقل شيئاً، ولا يضاف ما يلفظ به إلى الكلام المفيد.

ونوقش الشهاب الخفاجي (6) في البيت المشهور :

كَأَنَّهُ فَوْقَ شَقَّاتِ الرُّخَامِ ضَحَى

مَاءٌ يَسِيلُ عَلَى أَثْوَابٍ قَصَّارِ

بعد قوله :

لِلَّهِ يَوْمَ بَحْمَامٍ نَعَمْتُ بِهِ

والماء من حوضه ما بيننا جاري

فقل له : إنه عيب، حتى قيل في قائله :

وشاعر أوقد الطبع الذكي له

فكاد يحرقه من فرط لألاء

أقام يعمل أياماً رويته

وشبه «الماء» بعد الجهد بالماء (7)

(6) انظر ترجمته في «خلاصة الأثر» ج : 1 / ص 331.

(7) المصدر السابق ص : 336 / 1.

فقال هذا العيب ليس بشيء، فإنه شبه هذا الرخام في الحمام بشقة
قصار، جرى عليها الماء، ولم يرد تشبيه الماء، ولكن ما ذكر في الطرفين،
جاء بارداً، فأشار الشاعر إلى برودته في كلامه بما ذكره...

* * *

إن العرب قوم قد شغفهم الماء حبا، فهم يعشقونه عشقا عظيما، وبدافع
من هذا الحب العميق، تَفَنَّنُوا في وصفه وتسميته وتصوير حاله وحركته،
ونعت مواقعه وأماكنه، فهو الديمة، والهطل، والهتلان، والتهتان، والودق،
والغدق، والعز، والعُباب، والرجع، واليعلول، والقراح، ووصفوا منازلهم
ومواقعه بمثل النبع، والمعين، والعد، والغدير، والفليح، والجُدول، والربيع،
والخليج، والركية، والظنون، والرَّس، والمقرة، والجابية، والنزوع، بل إن
«الثقافة المائية» حاضرة دوما في الشعر العربي قديمه وحديثه...

ويكفي أن نقرأ لأحد شعراء المعلقات لبيد بن أبي ربيعة العامري الذي
يسوق في ثلاثة أبيات «معجما» للمفردات التي لها وشيخ الاتصال بالحقل
المائي.. فهو يصف مجاري المياه بأنها توحشت في وادي الرِّيان، فعزَّت
رسمها السيول حتى أصبح باليا، ولكنه لم يَمَحْ تماما، بل بقى أثره ظاهراً
كما تظهر الكتابة في الحجارة... وذلك حيث يقول:

فمدافع الرِّيان عُرِّيَ رسمُها

خَلَقًا، كما ضَمَنَ الوُجِّي سِلَامُهَا (8)

ثم يقول بأن تلك الديار أو الدَّمن رُزقت الأمطار الربيعية ثم أمطار
السحاب ذوات الرعد من غزير ولين.

رُزقت مرابيع النجوم وَصَابَهَا

وَدَقُّ الرَوَاعِد : جَوْدُهَا فَرِهَامُهَا (9)

(8) مدافع : ج مدفع : مجرى الماء. الرِّيان : وادٍ بالحمى. الخلق : القديم البالي. الوُجِّي : ج : الوحي :
الكتابة. السَّلام : ج سليمة : الحجر.

(9) مرابيع النجوم الأنواء الربيعية. الجود : المطر الغزير. الرهام : المطر اللين.

ثم يفصل في هذا البيت الأخير أنواع السحب التي أمطرت الديار،

فيقول:

من كل سارية، وغادٍ مُدَجِّن

وعشية متجاوبٍ إِرْزامها (10)

وهذا الحرث بن حِلْزة : يقتبس في تشبيهاته الماء الذي لا يغرب عن

أذهانهم، اسمعه يقول :

فَهَذَاهُمْ بِالْأَسْوَدَيْنِ، وأمر الله

بالغ، يشقى به الأشقياء (11)

فجبهناهُمُ بضربٍ، كما يخُـ

رَجُّ من خُرْبَةِ الْمَزَادِ «الماء» (12)

* * *

إن للعرب مصطلحات كثيرة في الإرواء بالماء، وفي سقيهم وسقي إبلهم، لارتباط حياتهم بالماء، ولأثر الحر والعطش والجفاف فيهم، وفي أحوالهم ومن جملة هذه المصطلحات: الشريعة: مورد الشاربة التي يشربها الناس، فيشربون منها ويستقون، وربما شرعوا دوابهم، فشرعت تشرب منها... والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عَدًّا، لا انقطاع له، ويكون ظاهراً معيناً لا يستقى بالرشاء، وإذا كان من السماء والأمطار، فهو الكرع، وقد أكرعوه إبلهم، فكرعت فيه، وسكوها بالكرع، وهو مذكور في موضعه كالمشركة.. (13)

(10) السارية : السحابة الماطرة ليلاً. الغادي : السحاب الممطر بالغداة. المُدَجِّن : المطبق حتى يغطي

أفاق السماء. الإِرْزام: الصوت، والمراد به صوت الرعد.

(11) هداهم : تقدمهم أو ساقهم. الأسودان : الماء والتمر، أي تقدمهم بزادهم، وأمرُ الله : أي أمرُ الله بالغِ مبالغة، لا يشقى به إلا الأشقياء، في حكمه وقضائه.

(12) جَبْهَهُ : ضرب جَبْهَتِهِ. المزاد : زق الماء، خُرْبَتُهُ : ثَقْبُهُ، أي ضربناهم فخرج الدم من جراحهم، كما يخرج الماء من أفواه القِرَب.

(13) «تاج العروس» مادة «شرع» ص : 395 / 5.

ومن أسماء الماء عند العرب : **النزيف**، (14) **والابيضان** : الماء واللبن
والأسودان : الماء والتمر. (15)

وقد ذكر علماء اللغة في تقسيم خروج الماء وسيلانه من أماكنه،
فيقال: **سَحَّ** السحاب، و**نبع** الينبوع، ومن الحجر **انبجس**، ومن النهر **فاض**،
ومن السقف **وَكَفَّ**، ومن القربة **سَرَبَ**، ومن الإناء **رشح**، ومن العين
انسكب، ومن المذاكير **نَطَفَ**، ومن الجرح **ثع**...

وفي رحلة ابن معصوم المدني، قال : كل ماء يجري فهو نهر، وحيث
ينبع فهو: عين، وهو حين يكون معظم الماء، فهو : بحر...

* * *

تفصيل أسماء المطر :

وقد وصف أئمة اللغة في تفصيل أسماء المطر ننقلها من كتاب فقه
اللغة لأبي منصور عبد المالك الثعالبي. (16)

إذا سقطت السحابة ماءها، تنوعت أسماؤها على الأرض، فوجدنا أسماء
كثيرة له تدل على قوته وضعفه، وفي حالة الانسكاب والنزول...

فالحيا : هو الذي يحي الأرض بعد موتها، **والغيث** : هو الذي يجيء
عقيب المحل أو عند الحاجة إليه، **والدَّيْمَة** إذا دام مع الغيث مع سكون،
والضرب فوق ذلك قليلا، **والهَطْلُ** فوقه، فإذا زاد فهو **الهَتْلَانُ** **والتهتهان**،
فإذا كان القطر صغارا كان **شَذْرُ** فهو **القطقط**، فإذا كانت مطرة ضعيفة،
فهي **الرَّهْمَة**، فإذا كانت ليست بالكثيرة فهي **الغَيْبَة** **والحشكه** **والحفشة**،
فإذا كانت ضعيفة يسيرة فهي **الذَّهَاب** **والهَيْمَة**، فإذا كان المطر مستمرا

(14) «الحيوان» للجاحظ : ص : 139 / 5.

(15) المصدر السابق : والصفحة...

(16) «فقه اللغة» : تحقيق مصطفى السقا إبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي - القاهرة، مصطفى
الباي عام 1954.

فهو **الْوَدْقُ**، فإذا كان ضخماً القطر، شديد الوقع فهو **الوابل**، فإذا تبعق بالماء فهو **البُعَاق**، فإذا كان يروي كل شيء، فهو: **الجود**، فإذا كان عاماً، فهو **الجَدَى** فإذا دام أياماً لا يُقْلَع فهو **العين**، فإذا كان مسترسلاً سائلاً فهو **المُرْتَعِنُ**، فإذا كان كثير القطر، فهو **الغَدَقُ**، فإذا كان شديداً كثيراً فهو **العِزُّ والعباب**، فإذا كان شديد الوقع، كثير الصوب فهو **السحيفة**، فإذا جرف ما مر به فهو **السحيفة**، فإذا قشرت وجه الأرض فهي **الساحية**، فإذا أثرت في الأرض من شدة وقعها فهي **الحريصة** لأنها تحرص وجه الأرض، فإذا أصابت القطعة من الأرض، وأخطأت الأخرى فهي **النَّفْضة**، فإذا جاءت المطرة لما يأتي بعدها فهي **الرَّصْدَة**، **والعهادُ** نحو منها، فإذا أتى المطر بعد المطر فهو **الْوَلِي**، فإذا رجع وتكرر فهو **الرَّجْع**، وإذا تتابع فهو **اليعلول**، فإذا المطر دَفَعَات فهي **الشَّابِيب...**

وعن الأصمعي في ترتيب المطر الضعيف : أخف المطر وأضعفه، **الطل**، ثم **الرذاذ** أقوى منه، ثم **البعش والدث**، ومثله **الرك** و**الزهمة**.

قال مالك بن المرحل :

والطلُّ ما قلَّ من الأمطار

والوابل الغزيرُ ذو انهمار

* * *

أسماء الآبار وأوصافها :

وقد ذكر أئمة اللغة تفصيلاً في أسماء الآبار وأوصافها، وما تحويه من ماء. **فالقليب**:(17) البئر العادية لا يعلم لها صاحب ولا حافر، **والجب**: البئر التي لم تطو **الرَّكِيَّة**: البئر التي فيها ماء، قلَّ أو كثر. **الظُّنُون**:(18) البئر

(17) كتاب البئر لمحمد بن زياد ابن الأعرابي ص : 58...

(18) «فقه اللغة» للثعالبي ص : 262.

التي لا يدرى أفيها ماء أم لا تقول بئر ظنون: إذا كانت قليلة الماء، قال
الأعشى:

مَا جُعِلَ الْجُدُّ الظَّنُّونُ الَّذِي
جُنِبَ صَوْبَ اللَّجْبِ الْمَاطِرِ
مِثْلَ الْفُرَاتِي إِذَا مَا طَمَا

يَقْذِفُ بِالْبُوصِيِّ وَالْمَاهِرِ⁽¹⁹⁾

العليم: البئر الكثيرة الماء. **الرس:** البئر الكثيرة الماء، **الضهل:** البئر
التي يخرج ماؤها قليلا قليلا، **المكول:** البئر القليلة الماء. **الجُد:** الجيدة
الموضع مع الكلاء **المتَّوح:** التي يستقى منها مدا باليدين على البكرة.
النزع: التي يستقى منها باليد. **الحُسيف:** المحفورة بالحجارة. **المعروشة:**
التي بعضها بالحجارة، وبعضها بالخشب. **المغواة:** البئر المحفورة
للسباع...

فإذا كانت البئر جديدة فهي البدي والقريح،⁽²⁰⁾ فإذا كان في حلقها
عوج فهي: «زوراء»،⁽²¹⁾ فإذا كانت ضيقة فهي: «سك»،⁽²²⁾ ونضوض
وبَرُوض ورشوح ومكول، إذ كان ماؤها يجتمع قليلا قليلا،⁽²³⁾ وهي
جَمُوم: إذ كانت سريعة رجوع الماء،⁽²⁴⁾ وهي «واتنة» إذا كان ماؤها يدوم
في المطر والقيظ،⁽²⁵⁾ وهي قَلِيْذَم إذا كانت كثيرة الماء،⁽²⁶⁾ وخِضْرَم إذا
كانت غزيرة الماء،⁽²⁷⁾ و«ناكز» إذا قل ماؤها...⁽²⁸⁾

(19) الجد : البئر تكون في موضع كثير الكلاء، الفراتي : المنسوب إلى الفرات. البُوصي : ضرب من
سفن البحر، والملاح أيضا. الماهر : السابح.

(20) ابن الأعرابي : ص 58.

(21) المصدر السابق ص : 61.

(22) المصدر السابق ص : 61.

(23) المصدر نفسه ص : 62.

(24) المصدر نفسه ص : 62.

(25) المصدر نفسه ص 63.

(26) المصدر السابق...

(27) المصدر نفسه ص : 64.

(28) المصدر السابق ص : 64.

وقد وصف أعرابي امرأةً عجوزاً بالضعف، وذَهَابِ المُنَّة، وهي تجذب
دلوها من البئر: فيقول: إنها تحركه حركة ضعيفة تشبه تحريك المرأة
العجوز لطفل تداعبه حيث قال:

باتت تُنَزِّي دلوها تنزياً
كما تنزي شهلة صبيها

والشهلة : المرأة العجوز

تلك أسماء الآبار عند العرب في لغاتها وأوصافها، ويمكن أن يقال عن
أماكن استقرار الماء الأخرى بالإضافة إلى أسماء أدوات السقي وما اشتق
منها من صفات وسمات وشيآت... سنتحدث عنها أثناء بحوثنا الآتية...

* * *

أجناس الأقداح :

وقد تفنن العرب في أسماء لأجناس «الأقداح» وما يناسبها من أواني
شرب الماء :

فالعُشُّ من خشب - والعُلبَة من أدم - والطَّرْجَهَالَة : من صُفر أو شَبَه
- المِرْكَن: من خزف - الصُّواع: من فضة أو ذهب، والسقاية والصُّوَّاع
شيء واحد: إناءٌ له رأسان في وسطه مَقْبِض. كان الملك يشرب منه من
الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر، وكل شيء يشرب به فهو
صُّوَّاع، وأنشدوا:

نشرب الإثم بالصُّوَّاع جهاراً

وترى المَتَكُ بيننا مستعاراً (29)

واختلف في جنسه، فروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن
ابن عباس قال: في قوله تعالى: ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية

(29) المَتَكُ : الأترج بلغة القبط. وقالوا : المَتَكُ : هو الطعام، قال تعالى : ﴿وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكًا﴾
[سورة يوسف 31] والإثم: الخمر.

في رَحْل أَخِيهِ» (30) كان صُوعَ الملك شيء من فضة يشبه المكوك، من فضة مرصع بالجوهر، يجعل على الرأس، وكان للعباس واحد في الجاهلية.. (31) وسأله نافع بن الأزرق ما الصواع؟ قال: الإناء، قال فيه الأعشى:

لَه دَرْمَكُ فِي رَأْسِهِ وَمَشَارِبُ
وَقِدَرٍ وَطَبَاخُ وَصَاعٌ وَدَيْسِقُ (32)

والقدح من زجاج، وعن ابن عباس، قال : كان لرسول الله ﷺ قدح من قوارير يشرب فيه.

ومما أخذه أهل الأندلس عن زُرِّيَابِ المغني علي بن نافع (ت: 230هـ) لما قدم الأندلس: تفضيله آنية الزجاج الرفيع عن آنية الذهب والفضة، وقد نص الأطباء على أن الشرب فيها أحسن من الشرب في غيرها من الأواني لمكان أمن النفس بظهور لون الماء وصفائه من وراء الزجاج الشفاف.

قال العلامة الحكيم عبد اللطيف البغدادي لدى شرحه لهذا الحديث في كتاب: «الأربعين الطبية»: (33) الزجاج فاضل للشرب، والهنود تفضله، وكذا ملوكها تختاره على الذهب والياقوت، لأنه قل ما يقبل الوُضْرُ والسُّهُوكَةُ، ويرجع بالغسل جديداً، وأيضاً، يرى ما في باطنه من ظاهره، فهو كالنَّمَامِ عن قَذَى الشراب وكَدَرِهِ، ويستمتع بصافيه، وقُلَّ ما يقدم الساقى أن يدس فيه السُّمَّ، وهذا أشرف الخلال التي دعت ملوك الهند إلى اتخاذه، وقد ذكرنا فضائله في كثير من كتبنا، ويسمى الزجاج من بين الأحجار، بالأحمق والمائق، لأنه يفشي أسرارهِ، ويقبل لون من يجاوره...

(30) سورة يوسف رقم : الآية : 70.

(31) القرطبي ص : 229 - 230 / 9.

(32) الدَّرْمَكُ : التراب الناعم من دَرْمَكِ البناء : مَلْسُهُ. مشارب : ج : مشربة : غرفة. عَلِيَّة. صاع : إناء،

ثم مكيال. ديسق: خِوان أبيض أو من فضة. وهي من قصيدة في مدح المخلوق..

(33) طبعتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتحقيق وتعليق المرحوم الأستاذ عبد الله كنون.

وأُشَدَّ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الْمُرْشَدِيُّ أَحَدَ فَضَلَاءِ مَكَّةَ، مَعْلَلًا تَسْمِيَةَ الْقَدَحِ،
قَدَحًا :

مُذْ صَبَّ سَاقِينَا الطَّلَا
حَتَّى تَنَاشَثَرَ وَانْتَضَحَ
قَالُوا : شَرَارًا مَا رَأَوْا
فَلَأَجَلَ ذَا، قَالُوا : قَدَحَ (34)

ثمَّ الكَأْسُ : وَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ اسْمٌ شَامِلٌ لِكُلِّ إِنَاءٍ مَعَ شَرَابِهِ، فَإِنْ كَانَ
فَارِغًا، فَلَيْسَ بِكَأْسٍ... قَالَ الضَّحَّاكُ وَالسَّيْدِيُّ : كُلُّ كَأْسٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ
الْخَمْرُ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْإِنَاءِ، إِذَا كَانَ فِيهِ خَمْرٌ كَأْسٌ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ خَمْرٌ،
قَالُوا : إِنَاءٌ وَقَدَحٌ...

قَالَ النُّحَاسُ : وَحَكَى مِنْ يُوَثِّقُ بِهِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لِلْقَدَحِ
إِذَا كَانَ فِيهِ خَمْرٌ كَأْسٌ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ خَمْرٌ، فَهُوَ قَدَحٌ.. (35)

أَوْعِيَّةٌ لِلْمَاءِ :

هَنَّاكَ أَوْعِيَّةٌ لِلْمَائِعَاتِ، فَالْسَّقَاءُ وَالْقَرْبَةُ لِلْمَاءِ، وَالزَّقُّ وَالرَّكْرَكَةُ لِلخَلِّ
وَالْخَمْرِ... وَالْوُطْبُ وَالْمَحْقَنُ : لِلْبَنِّ... وَالْعُكَّةُ : لِلسَّمَنِ، وَالْحَمِيَّةُ وَالْمَسَافُ :
لِلزَّيْتِ، وَالْبَدِيعُ : لِلْعَسَلِ، وَفِي الْحَدِيثِ : «إِنَّ تَهَامَةَ كَبْدِيعِ الْعَسَلِ، أَوَّلُهُ حُلُوهٌ
وَأَخْرَهُ...».

وَالْحَبُّ، مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْجَاهِلِيِّينَ، يَخْتَزِنُ فِيهِ الْمَاءَ لِلشَّرْبِ، يَعْمَلُهُ الْكَوَّازُ
وَالْفَخَّارُ، وَالْكَوْزُ إِنَاءٌ يَشْرَبُ بِهِ، ذَكَرَ أَنَّهُ يَكُونُ بَعُورَةً، أَمَّا إِذَا لَمْ تَكُنْ بِهِ
عُرْوَةٌ فَهُوَ «كَوْبٌ».. (36) وَهَنَّاكَ الْأَبَارِيقُ وَأَوَانٌ أُخْرَى اسْتَعْمَلَتْ فِي الشَّرْبِ.

(34) «خلاصة الأثر» للمحبي ص : 271 / 1.

(35) «الجامع لأحكام القرآن» ص : 77 / 15. وص : 68 / 17.

(36) تاج العروس ص 86 / 4. مادة : «كَازَ».

ومن أوعية الماء «المِهْرَس». حجر منقور ضخم لا يقله الرجال، ولا يحركونه لثقله، يسع ماء كثيراً، يوخذ منه الماء للشرب وللاستعمال، وقد استعمل في الإسلام للوضوء منه. (37) ومن ذلك الحَنْتَم، والمُرْقَت، والنَّقِير، والدُّبَاء، وقد قال رسول الله ﷺ لَوْفِدِ الْقَيْسِ : «أَنْهَاكُمْ عَنِ الدُّبَاءِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْمُرْقَتِ» فنبههم عليه السلام على ترك المعصية في شرب الخمر، دون سائر المعاصي... فالدُّبَاء : القرع اليابس، والحَنْتَم : الجَرَّة، والنَّقِير، أصل النخلة، ينقر، فيتخذ منه وعاء، والمُرْقَت : الإناء الذي طلي بالزفت.... [تفسير القرطبي، ج : 18 / 73].

* * *

وكان الأعراب يشربون الماء بأيديهم، بأن يمدوا أيديهم في عين الماء أو في مستجمعه، ثم يغرفوا منه، فيشربوه، وهكذا حتى يرتووا.. وقد ينبطح أحدهم على الأرض، ثم يمد فمه إلى الماء فيشرب منه... أما بالنسبة إلى الآبار، والقرب، ومخازن الماء، فإنهم قد يشربون من أفواه الدلاء أو القرب، وقد يستعملون أواني يشربون بها، منها: الغَمَر، وهو قدح صغير، والقدح، والتبن. والصحن، والقَعْب وغير ذلك من أسماء ذكرها علماء اللغة... (38) ولقد كان العربي يفضل أن يتناول شرب الماء بكفيه، قال بعض المفسرين: الغُرْفَة: بالكف الواحد، والغُرْفَة بالكفين، وقال بعضهم: كلاهما: لغتان، بمعنى واحد، (39) قال الإمام علي رضي الله عنه: «الأكْفُ انظف الآنية» ومنه قول الحسن:

لا يَدْلفون (40) إلى ماء بآنية
إلا اغترافاً من الغُدران بالراح

(37) اللسان ص : 248 / 6 مادة : «هرس».

(38) بلوغ الأرب ص 393 / 1.

(39) الجامع لأحكام القرآن ص : 253 / 3.

(40) الدليف : المشي الرويد.

الصَّوْت الذي يُحدِثه الماء :

وتحدث العرب في لغتهم عن الفرق الدقيق للصوت الذي يحدثه تحرك

الماء:

فالخرير : صوت الماء الجاري، والقشيب : صوته إذا كان تحت ورق
أو قماش، الفقيق: صوته إذا دخل في مضيق، البقبقة: حكاية صوت الجرة
والكوز في الماء... القرقرة: حكاية صوت الأنية إذا استخرج منها الشراب.
والشجب : صوت اللبن عند الحلب عن أبي عمرو، والشخيخ: صوت البول،
عن الليث، والنشيش: صوت غليان الشراب.

والحَوَات : صوت الماء، ومنه قول الحطيئة :

وَإِنْ عَبَّ فِي مَاءٍ، سَمِعْتَ لَجْرَعَهُ

حَوَاتًا كَتَثْلِيمِ الْجَدَاوِلِ فِي الدَّبْرِ(41)

وعند العرب أسماء خاصة للشراب، فالجاشرية : شرب السحر،
والصبوح: شرب الغداة، والقييل: شرب نصف النهار، والغبوق: شرب
العشي.

* * *

وفي تغير الماء : يقال : أَجِنَ الماء : إذا تغير، غير أنه شَرُوب، وأَسِنَ
الماء: إذا انتن فلم يقدم على شربه...

وما يمسك الماء من شفة الوادي يسمى بـ«الحاجر»، قال أبو حنيفة:
الحاجر شفة الوادي مِمَّا يلي بطنه، ينبت البقل...

والجرف : ما أكل الماء من شط الوادي من أسفله، فإذا لم ياكل الماء
من أسفله، فهو شط ولا يدعى جرفا...

والشط : سَنَدُ الوادي الذي يلي بطنه، والجمع شطوط..

(41) عَبَّ : شرب من غير مَصٍّ. الدَّبْرُ : ج الدَّبْرَة : البقعة المزروعة.

والإخاذا عند العرب : الموضع الذي يحبس الماء كالغدير... وعن مسروق قال: وجدت أصحاب محمد ﷺ مثل الإخاذا يُروي الواحد، والإخاذا يُروي الاثنين.. والإخاذا لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم، وأن عبد الله بن مسعود من تلك الإخاذا، (42) ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباري في كتاب الرد.. (43)

* * *

مناقع المياه :

والرّزون : أماكن مرتفعة يكون فيها الماء، واحدها : رزن.. والفقء : كالحفر في وسط الحرّة، وهو من مناقع المياه، (44) والسكر، وهو السداد الذي تجعله سداً للبتق ونحوه، والإمدان: الماء الناقع في السبخة؛ والنّجل: ما يستنجل في الأرض من الماء، والعِزمة: وهي السد يعترض به الوادي، والجمع عَرم، وفي التنزيل: «فأرسلنا عليهم سَيْلَ الْعَرِمِ» والصّناعة والصّنع، خشبة يحبس بها الماء..

* * *

الفرق بين الغيث والمطر، والريح والرياح :

وقد حدد القرآن الكريم استعماله لألفاظ الطبيعة تحديداً دقيقاً، لا نجده في غيره، فهو مثلاً، يفرق في الاستعمال بين: «الغيث» و«الرياح» و«الريح» والمطر..

فالغيث «مثلاً» مثله مثل الرياح في ذلك، لا يذكر في القرآن الا في مواطن الرحمة والنعمة.

(42) يعني أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

(43) القرطبي - تفسير ص : 35 / 1.

(44) المخصص : ص : 79 - 90 / 10.

فانظر إلى هذه الآيات في استعمال الغيث :

«إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام». (45)
«وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا، وينشر رحمته» (46) «كمثل
غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً». (47) «ثم يأتي من بعد ذلك
عام، فيه يُغاثُ الناس، وفيه يعصرون».. (48) على حين لا يذكر «المطر»، إلا
في مقام العذاب والتخويف، فهو كالريح تماما، فمن مثله قوله تعالى:
﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، (49)
«وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا، فساء مطر المنذرين..» «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ
سَجِيلٍ..» (50) «ولقد أتوا على القرية التي أَمْطَرْنَا مِنْ السَّيِّئِ». (51)

وقد وردت كلمة «مطر»، وهي مصدر في سبع آيات، كما وردت فعلا
في سبع آيات أخرى، وفي آية واحدة، جاءت اسم فاعل: ممطر من الرباعي،
وكلها ينصرف إلى العذاب، والنذر بالشر.

فالعرب فرّقوا بين «الغيث»، و«المطر»، فكان الغيث في الأغلب الأعم
خيراً وخصباً وبركة، ولن يكون عذاباً البتة، أما المطر، فينصرف إلى
العذاب، كما ينصرف إلى حقيقته، بيد أنه لم يرد في القرآن إلا في معرض
العذاب والشر.

* * *

والوشيجة بين الغيث والإغاثة التي تعني النجدة والعون وطيدة، ولذا
كان ذكره في موطن النعمة مناسباً كل المناسبة، وقد جعله القرآن في

(45) «لقمان» آية : 34.

(46) الشورى : آية : 28.

(47) الحديد : آية : 20.

(48) يوسف : آية : 49.

(49) الأعراف : آية : 84.

(50) الشعراء : آية : 173 - النمل : 58.

(51) الفرقان : آية : 40.

بعض المواضع في مقابل الجذب والقنوط، فالغيث: المطر، وسمي الغيث غيثاً، لأنه يغيث الخلق، وقد غاث الغيث الأرض، أي أصابها، وغاث الله البلاد يغيثها غيثاً، وغيثت الأرض تغاث غيثاً، فهي أرض مغيثة ومغيوثة، (52) وعن الأصمعي، قال: مررت ببعض قبائل العرب، وقد مطروا، وقد سألتُ عجوزاً منهم: أتاكم المطر؟ فقالت: غثنا ماشئنا، غيثاً، أي مطرنا.. وقال ذو الرمة: قاتل الله أمة بني فلان، ما أفصحها!! قلت لها: كيف كان المطر عندكم؟ فقالت: غثنا ماشئنا.. وربما سمي السحاب والنبات غيثاً.

قال قتادة : ذكر أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين: قحط المطر، وقَلَّ الغيثُ، وقنط الناس.. فقال: مطر تم إن شاء الله، ثم قرأ: «وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته» والغيث ما كان نافعا في وقته، والمطر قد يكون نافعا وضارا في وقته وغير وقته، قاله الماوردي..(53)

وقد ذكر علماء اللغة أن الغيث هو المطر الخاص بالخير الكثير النافع، ومن المجاز: الغيث بمعنى الكلاء، ينبت بماء السماء، وكذا السحاب، ورأى بعض العلماء أن الغيث اسم المطر كله... وإذا بكر الغيث في أول الوسمي قيل له باكور..(54)

الغيث الربيعي... والغيث الشتوي :

وهل الغيث الربيعي الطف من الشتوي؟ أو بالعكس؟..
ذكر العلماء فيه قولين، قال من رجح الغيث الشتوي: حرارة الشمس تكون حينئذٍ أقل.. فلا يجتذب من ماء البحر إلا أطفه، والجوصاف، وهو

(52) «الجامع لأحكام القرآن» ص : 205 / 7.

(53) «الجامع لأحكام القرآن» ص : 29 / 16.

(54) تاج العروس ص 157 / 3. المخصص : 11 / 8.

خال من الأبخرة الدخانية، والغبار المخالط للماء، وكل هذا يوجب لطفه وصفاء وخلوه من مخالط...

وقال من رجع الربيعي : الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة، وتوجب رقة الهواء ولطافته، فيخف بذلك الماء، وتقل أجزاؤه الأرضية، وتصادف وقت حياة النبات والأشجار، وطيب الهواء...

وقد ذكروا أن الغيث لذيذٌ على السمع، والمسمى على الروح والبدن، تبتهج الأسماع بذكره، والقلوب بوروده، ومأؤه أفضل المياه وألطفها وأعظمها بركة، ولا سيما إذا كان من سحب راعد، واجتمع في مستنقعات الجبال، وهو أرطب من سائر المياه، لأنه لم تطل مدته على الأرض، فيكتسب من يبوستها، ولم يخالطه جوهر يابس، ولذلك، يتغير ويتعفن سريعاً للطافته، وسرعة انفعاله... (55)

وذكر الشافعي رضي الله عنه عن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فأصابنا مطر، فحسر عنه، وقال: إنه حديث عهد بربه..

* * *

على حين، لا يذكر «المطر» ومشتقاته في القرآن الكريم إلا مرتبطاً بمواقف العذاب والعقاب في الدنيا، فهو، في ذلك كالريح تماماً، ويلاحظ أن كل هذه المواضع ترد في سور مكية ما عدا آية واحدة، وتتعلق كلها بقصص المخالفين والمنافقين والكفار من السابقين الذين تذكر قصصهم لتؤخذ منها العظة والعبرة.. ففي قصة لوط وقومه البغاة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، (56) فلفظ:

(55) «زاد المعاد» لابن القيم.

(56) سورة الأعراف رقم الآية : 84.

«الأمطار» لم يأت إلا للعذاب، فلم يرد فيه لفظ للخير.. حيث يتكرر تعبير: «وأمطرنا عليهم مطرا» في كثير من الآيات ليدل على العقاب، ففي قصة «هود» مع قومه ينظر، أولئك المكذبون، إلى السماء، فيرون العذاب مقبلا عليهم، فيظنونهم مطرا سيروي أو ديتهم، ولكنهم ما يلبثون أن يعرفوا أنه العذاب الذي يدمر مساكنهم قال تعالى: ﴿فلما رأوه عارضا، مستقبل أوديتهم.. قالوا: هذا عارض ممطرنا، بل هو ما استعجلتم به، ريح فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء بأمر ربها، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، كذلك نجزي القوم المجرمين﴾. (57) وقال تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم مطرا، فساء مطر المنذرين﴾ (58) ﴿وأمطرنا عليهم مطرا، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾، (59) ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ (60) ﴿ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء﴾ (61) ﴿وأمطر علينا حجارة من سجيل﴾ (62) ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ (63) ﴿ولا جناح عليكم، إن كان بكم أذى من مطر، أو كنتم مرضى، أن تضعوا أسلحتكم﴾.. (64)

ومن أسماء المطر : السماء؛ كما في حديث الموطأ : «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر «سما» كانت من الليل، أي مطر، ومنه قول الشاعر جرير :

إذا نزل «السماء» بأرض قوم،
رعيناه، وإن كانوا غصابا

(57) سورة الأحقاف رقم الآية : 24 - 25.

(58) «الشعراء» 173 - والنحل : 58.

(59) الأعراف 84.

(60) الحجر : رقم الآية : 74.

(61) سورة الفرقان آية 40.

(62) سورة هود، آية 82 - 83.

(63) سورة الأنفال، آية 32.

(64) سورة النساء، آية 102.

فقوله : «نزل السماء» أي المطر، وقوله : «رعيناها» أي رعينا السماء، بمعنى الكلاً والعشب الناتج عن المطر، كما في قوله تعالى: «يرسل السماء عليكم مدرارا» (65) أي المطر، وهذا الاستعمال معهود متداول لدى أهل اللسان، بل تطلق «السماء» كما قدمنا، أحيانا على الكلاً الذي ينبت بهطول المطر عليه، وكل هذا تجوز وتوسع في كلمة «السماء» التي معناها في الأصل، ما أظن الإنسان من جهة العلو...

فإعادة ضمير «رعيناها» في البيت السابق على «السماء» بغير معناها الأول نوع بديعي يسمى في علم البلاغة بالاستخدام، وهو أن يراد بلفظ له معنيان: أحدهما، ثم يراد بضميره الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما، ثم يراد بالآخر الآخر كقول البحري:

فسقى الغضا والساكنيه، وإن هُم
شَبُّوه بين جوانحي وقلوبِ

والسماء وردت، في كلام العرب مذكرة، قال شاعرهم :

فلو رفع السماءُ إليه قوماً

لَحِقْنَا بالسماء مع السحاب

فالسماء فاعل (رفع) ولم يقل : «رفعت» يريد الشاعر أن السماء لو كان من عاداتها ودأبها أن ترفع إليها قوماً لِفَضْلهم وعَزَّتْهم ومجدهم لرفعتنا إليها، ولكننا مقيمون فيها مع سحابها، أو يقال إن السماء مؤنث غير حقيقي، ويجوز في مثله تانيث فعله وتذكيره..

لقد تقع اللفظة الواحدة على معان كثيرة، تعرف في لغتنا العربية الجميلة من سياق الكلام، كلفظة «السماء» مثلاً التي تقع على معان مختلفة: فهي تعني الفضاء تارة: كما في قوله تعالى في صفة الشجرة

(65) سورة نوح : آية 11.

الطيبة: «أصلها ثابت وفرعها في السماء». (66) وتعني العلو وارتفاع الشأن، كما في قوله تعالى: «أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض» إخباراً عن قدرة الله وسلطانه، وعلو شأنه، ونفاذ أمره... (67)
وقد تكون بمعنى الغيث، كما في قوله تعالى: «وأرسلنا السماء عليكم مدراراً».. (68)

وقد عد صاحب كتاب: «الكون والقرآن» أن السماء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ يراد بها الطبقة الأثرية. (69)
وإذا ذكرت الأرض مع السماء المفردة أو المجموعة، فالمراد بها كوكبنا الذي نعيش عليه..

* * *

ونرى القرآن يستعمل ألفاظاً متباينة تلتقي في معنى واحد، كاستعماله مثلاً، الفعلين: «ساق» «وأزجى» اللذين هما بمعنى واحد مع السحاب، (70) كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا، سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ (71) ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرَ سَحَابًا فُسْقِنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ (72) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رِكَامًا﴾. (73)

وقلما ذكر القرآن إطلاق الرياح إلا عبّر عنه بفعل: «أرسل» «فالمرسلات»، وأطلقت هابةً بعد طول عُرفاً أي الرياح التي أرسلت ركودها

(66) سورة إبراهيم : 24.

(67) أمالي السيد المرتضى ص : 75 / 4.

(68) الأنعام : 6.

(69) محمد علي حسن، الكون والقرآن ص : 12 - 13.

(70) الكشف، للزمخشري ص : 391 / 2.

(71) الأعراف : 57.

(72) فاطر : 9.

(73) سورة النور : 43.

وسكونها؛ ففي سورة فاطر: «والله الذي أرسل الرياح»، وفي الحجر: «وأرسلنا الرياح لواقِحَ»، وفي الأحزاب: «فأرسلنا عليهم ريحاً»؛ وفي الأعراف: «هو الذي يُرسل الرياح...»، وفي الروم: «ومن آياته أن يرسل الرياح»، وفي آياتٍ أخرى غيرها..

ومن أسماء المطر : الصوب.. قال الشاعر :

فسقى ديارك «غير مفسديها»

صَوْبُ الغمام، وديمّة تَهْمِي

وقال كعب بن زهير :

تنفي الرياح القذى عنه، وأفرطه

من صَوْب سارية، بيضُ يَعَالِيلُ

وقد قلنا، أنفا، إن من أسماء المطر : الغيث، قال الأصمعي: قلت

لأعرابي: أي الناس أوصف للغيث؟ قال: الذي يقول: «يعني امرأ القيس»:

دِيمَة هطلاءً فيها وَطْفُ

طبق الأرض تحرّى وتدرّ

قلت فبعده مَنْ ؟ قال : «الذي يقول»، «يعني عبيد بن الأبرص» :

يا مَنْ لبرقٍ أبيتُ الليلَ أرقُبُه

في عارض مكفهر المُزَن دَلّاج

دانٍ مُسِفٍّ فَوَيْقَ الأرض هَيْدَبُه

يكاد يدفعُه، مَنْ قام، بالراح

* * *

فَجَرَّ... وانبجس :

يُلاحظ، أيضاً، أن القرآن حينما ذكر انبثاق الماء من الأرض عبّر عنه

بالفعل: «فَجَّر»، وحينما ذكر انبثاقه من الحجر، عبّر عنه، إما بالفعل

المذكور، أو بالفعل: «انبجس».

وقد أشار الراغب الأصبهاني في «مفردات القرآن» : «بَجَسَ» إلى ذلك، فقال: «يقال: بجس الماء، وانبجس: انفجر، لكن الانبجاس، أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق.. والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، ولذلك قال عز وجل: ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (74) وقال في موضع آخر: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (75) فاستعمل حيث ضاق المخرج للفظان، قال تعالى: ﴿وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ (76) وقال: ﴿وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عَيُونًا﴾، (77) ولم يقل «بجسنا»..

وهكذا نجد أن القرآن يحدد استعماله للألفاظ عند وصف الطبيعة تحديداً دقيقاً بحيث يستعمل الألفاظ في مقام ما لا يستعمله في مقام آخر. وأخيراً، فإن من أسماء المطر : «الرجع» لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ﴾ (78) أي ذات المطر، ترجع كل سنة بمطر بعد مطر، وقال أهل اللغة: الرجع : المطر... وأنشدوا للمتخلّ يصف - سيفاً شبهه بالماء :

أَبْيَضُ كَالرَّجْعِ، رَسَوْبٌ إِذَا

مَا شَاخَ فِي مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي (79)

قال الخليل : الرَّجْعُ : المطر نفسه، والرجع : أيضاً، نبات الربيع، وقد يسمى المطر: «أوباً» كما يسمى رجعاً قال: (80)

رَبَّاءُ شَمَاءٌ لَا يَأْوِي لِقَلَّتْهَا

إِلَّا السَّحَابُ، وَإِلَّا الْأَوْبُ وَالسَّبِيلُ (81)

(74) سورة الأعراف، آية 160.

(75) سورة البقرة، آية 60.

(76) سورة الكهف، آية 33.

(77) سورة القمر، آية 12.

(78) سورة الطارق، آية 12.

(79) تأخت قدمه في الوحل : تشوخ وتشيخ : خاضت وغابت فيه، قاله الجوهري.. الْمُحْتَفَلُ: أعظم موضع في الجسد.. يختلي : يقطع.

(80) للمتخلّ الهذلي.

(81) قال السكري في شرح هذا البيت : رَبَّاءٌ يربأ فوقها. يقول لا يدنو لقلتها، أي لرأسها أي لا يعلو هذه الهضبة من طولها. إلا السحاب والأوب... والأوب: رجوع النحل، والسبيل: القطر حين يسيل. [تفسير القرطبي ص: 10 / ج : 20.

ومطرُ أولِ الربيع يسمى بالوَسْمِي، لأنه يسم الأرض بالنبات، نسب إلى
الوسم. قال الشاعر :

وغِيثٌ من الوَسْمِي حُوٌّ تِلَاعُهُ
تَبَطَّنَتْهُ بِشِظْمٍ صَلَّتَانِ (82)

* * *

الحوض الذي يحوي المياه :

في كتب اللغة العربية ألفاظ عدة، أطلقت على الحوض الذي يحوي
المياه، شملت اتساعه وشكله وبناءه وهدمه وتنقيته.. وحددت هذه
الأوصاف بدقة، (83) إلى جانب ما ذكرته في المصانع، والصهاريج،
والأحباس، والقلات، والمداهن.

1 - فالمصانع، وكأنه جمع مصنع، الأبنية، وقد ذكر المفسرون في
قوله تعالى، و«تتخذون مصانع لعلكم تخلدون» أن المصانع: الأبنية
والقصور، قال لبيد: (84)

بَيْنَا، وما تَبَلَّى النجوم الطوالعُ
وتبقى الديار بعدنا و«المصانع»

وقال امرؤ القيس :

أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنَّ الدَّهْرَ غَوْلٌ
خَتُولُ الْعَهْدِ يَلْتَهُمُ الرِّجَالَا

(82) التلاع : ج : تلة، وهي أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل، ثم يدفع منها إلى تلة أسفل
منها. وهي مكرمة من المنابت. تبطنته: دخلته. الشِظْم: الطويل الجسيم الفتى من الناس
والخيل. الصَّلَتَان: النشيط الحديد الفؤاد من الخيل.
(83) الطبيعة في الشعر الجاهلي. ص 54، د. نوري حمودي القيسي.
(84) الديوان ص 168.

أزال من «المصانع» ذا رياشٍ
وقد ملك السهولة والجبالا (85)

والمصانع التي عناها امرؤ القيس في قصيدته اسم مخلاف باليمن كان
يسكنه، ذو رياش، وهو باقٍ على اسمه إلى يومنا هذا.. (86)
وقال عنتره :

وفي يوم «المصانع»، قد تركنا
لنا بفعالنا، خبراً مُشاعا

ويطلق هذا الاسم على عدة مواضع، فبأعمال صنعاء: حصن يقال له:
المصانع، والمصانع أيضا: قرية من قرى اليمامة التي لم تدخل في صلح
خالد بن الوليد أيام قتل مسيلمة الكذاب... قال ابن بلبيهد النجدي: «في
الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية قرية يقال لها «المصانع»،
ذكرها صاحب المعجم، ولا تزال باقية بهذا الاسم إلى هذا العهد، وتقع في
قرى الرياض الواقعة في جنوبية قريب منفوحه.. (87) والمصانع هنا موضع
يحتفر فيه بركة يحتبس فيها الماء.

2 - الصهاريج : مفردها : صهريج، وهي كالحياض يجتمع فيها
الماء.

3 - الحَبْسُ : حِجَارَةٌ أو خَشَبٌ تَبْنَى فِي مَجْرَى لِتَحْبِسَهُ، كِي يَشْرَبَ
الْقَوْمُ، وَيَسْقُوا، أَمْوَالَهُمْ. جمع : أَحْبَاسٌ، قال الأصمعي الحبس: جبل شرف
على السلماء، لو انقلب لوقع عليهم، وأنشد :

سقى الحبسَ وسُمِّيَ السماء، ولم يزل
عليه رَوَايَا الْمُزْنِ، والدَّيْمُ الْهُطْلُ

(85) معجم ياقوت ج : 8 / ص : 67.

(86) «صحيح الأخبار» ج : 1 / ص : 95.

(87) «صحيح الأخبار» ص : 2 / ج : 4.

ولولا ابنة الوهبي زبدة لم أبل

طَوَالَ اللَّيَالِي أَنْ يَخَالَفَهُ الْمَحَل (88)

وَجَبَسَ سَبَلٌ : حرة بنى سليم، على مسيرة يوم من السوارقية..
والحبس: ج: أحباس، فلوق في الحرة تمسك الماء، لو وردت عليها أمة
لوسعتها... روى أبو البداح بن عاصم عن أبيه، قال: سألنا رسول الله ﷺ
جِدْثَانِ مَا قَدَمَ؟ فَقُلْنَا: لَا نَدْرِي...! فمر بنا رجل من بني سليم، فقلت له: «من
أين جئت؟ قال: من حبس سَبَلٍ، فأنحدرت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت له:
«رَءِمَ هَذَا، أَنْ أَهْلَهُ مِنْ حَبْسِ سَبَلٍ»، فَقَالَ لَهُ: «أَخْرَجَ أَهْلَكَ، فَيُوشِكُ أَنْ
يُخْرِجَ مِنْهَا نَارًا، تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ مِنْهَا بِبُصْرَى».

4 - الْقَلَات : ج قلت، بإسكان اللام، وهو النقرة في الجبل يستنقع فيها
الماء إذا انصب السيل، (89) وقال الليث: القلت: حفرة يحفرها ماء واشل
يقطر من سقف كهف على حجر أير، فَيُوقِفُ فيه على مر الأحقاب وقبة
مستديرة. وَقِلَات الصَّمَان: نَقَرٌ فِي رُؤُوسِ قَفَافِهَا يَمْلُؤُهَا مَاءُ السَّمَاءِ فِي
الشَّتَاءِ، وَرَدَّتْهَا مَرَّةً وَهِيَ مَفْعَمُهُ، فَوُجِدَتْ الْقَلَتُ مِنْهَا يَأْخُذُ مَائَةً رَاوِيَةً وَأَقْلُ
وَأَكْثَرُ، وَهِيَ حَفَرٌ خَلَقَهَا اللَّهُ فِي الصَّخُورِ الصُّمِّ، وَقَدْ ذَكَرَهَا ذُو الرُّمَّةِ
فَقَالَ:

أَمِنْ دَمْنَةٍ بَيْنَ الْقِلَاتِ وَشَارِعٍ

تَصَابِيْتُ حَتَّى ظَلَّتِ الْعَيْنُ تَسْفَحُ (90)

والقلتين : البحرين، قرية من اليمامة لم تدخل في صلح خالد بن الوليد
أيام قتل مسيلمة الكذاب، وهما نخل لبني يَشْكُرُ، وفيها يقول الأعشى:
شربت الراح بالقلتين، حتى

حسبت دجاجة مرّت، حمارا (91)

(88) انظر: ياقوت ج: 3 / ص: 210، وصحيح الأخبار، عما في بلاد العرب من الآثار ج: 3 / ص: 84.

(89) معجم البلدان، لياقوت ص: 142 / 7.

(90) «صحيح الأخبار»، ص: 10 - 11، ج: 5.

(91) ياقوت، ج: 7، ص: 144، وانظر «صحيح الأخبار» ج: 3 / 121.

5 - والمداهن : فقرة في الجبل يستنقع فيها الماء، وقيل هو كل موضع حَفَرٌ سِيل. (92)

ألفاظ لها صلة بالبحر :

وقد وردت، في كتب اللغة ألفاظ عديدة لها صلة بمياه البحر... وهي تكون لنا فكرة عن مدى معرفة العرب بالبحار ومياهها. وكما سيأتي في غير هذا الباب.

فالبحر معروف سمي بذلك لاتساعه.. ويقال: فرس بحر إذا كان واسع الجري، أي كثيره، وفي ذلك قول رسول الله ﷺ في مندوب فرس أبي طلحة: «وإن وجدناه لبحراً».

والبحر الماء الملح، ويقال : أبحر الماء : مَلَحَ، قال نُصَيْب

وقد عاد ماء الأرض بحراً، فزادني

إلى مَرَضِي، أن أبحر المَشْرَبُ العَذْبُ.

ومن الألفاظ العديدة التي لها صلة بمياه البحر، «البرزخ»، وهو في اللغة الحاجز بين الشيئين.. (93) وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم، والقاموس: بمعنى وسط البحر، (94) وأسطمة البحر، بمعنى وسطه، (95) وعرض البحر، بمعنى وسطه، وبلدة البحر، بمعنى وسطه، (96) ولجة البحر، أي معظم الماء، ومنه: «بحر لجي»، (97) «والشرم»، لجة البحر، وقيل

(92) انظر ديوان أوس بن حجر ص : 67.

(93) القاموس : ص : 257 / 1، شرح القاموس : ص 252 / 2، المخصص : 10 / 16.

(94) القاموس : 243 / 2، شرح القاموس : ص 233 / 4.

(95) وأسمطة القوم كطربة، وسطهم وأشرفهم، القاموس ص 128 / 4، شرح القاموس ص 335 /

8 وما بعدها، المخصص: 10 / 16 وما بعدها.

(96) المخصص ص : 10 / 16 وما بعدها..

(97) القاموس ص : 205 / 1، واللج : معظم الماء، وخص به معظم البحر، وفي اللسان: لج البحر

الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه كاللجة، شرح القاموس ص: 92 / 2.

موضع فيه، (98) والعَوْطَبُ: لجة البحر كذلك، (99) والدردور : موضع في البحر يجيش ماؤه، قلما تسلم منه السفينة، قال الجوهري: المَاءُ الذي يدور، ويخاف منه الغرق، وقال الأزهري: هو موضع في وسط البحر يجيش ماؤه، لا تكاد تسلم منه السفينة، (100) والخليج، وهو من البحر، سمي بذلك لأنه يجذب من معظم البحر، وكذلك: خريص البحر: خليج منه، وفي التهذيب: الخليج نهر في شق من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به فيه، والخليج شرم من البحر، وقال ابن سيده: هو ما انقطع من معظم الماء... (101) والخَوْر: الخليج من البحر، وقيل الخَوْرُ مصب الماء فيه إذا جرى، وقيل هو مصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض، وقال شمر: الخور عنق من البحر يدخل في الأرض، والجمع: خؤور... (102) والغُب: الضارب من مياه البحر حتى يمعن في البر... (103) والجزيرة: ما جزر عن البحر، قال ابن دريد: سميت جزيرة لانقطاعها عن معظم الأرض، والعَالَة: ما ينقطع من ماء البحر، فيجتمع في موضع منه، والدبُر: قطعة تغلظ في البحر كالجزيرة يعلوها الماء، وينضب عنها... (104)

وقد ذكر علماء اللغة ألفاظاً عديدة عن تلاطم أمواج البحر واشتدادها، وعن ارتفاع مياهه وانخفاضها وانحسارها عن الساحل.. وألفاظاً أخرى تشير إلى الانفعالات التي تحدث للناس عند ركوب البحر، كما ذكروا ألفاظاً تشير إلى مواضع البحر، كالأماكن العميقة، والأماكن الضحلة، ومواضع دخوله في الأرض مثل الخليج، وغير ذلك.. وفي ورود هذه الألفاظ القديمة

(98) القاموس ص : 135 / 4.

(99) القاموس ص 106 / 1.

(100) شرح القاموس ص : 205 / 3.

(101) شرح القاموس ص : 34 / 2.

(102) شرح القاموس : ص : 192 / 3.

(103) القاموس ص : 109 / 1، شرح القاموس ص : 403 / 1.

(104) المخصص : 70 / 15 - 20.

التي لها علاقة بمياه البحر في كتب اللغة دلالة على أن للعرب قبل الإسلام وبعده علم وفقه بمياه البحر، فلا يعقل بالطبع، ورودها في اللغة دون أن يكون للمتكلمين بها، ولا سيما سكنة السواحل، علم البحر... (105)

ووردت لفظة «اليم» في القرآن الكريم، (106) ويراد بها البحر، وفي اللغة العربية ألفاظ أخرى مرادفة للبحر أيضاً، منها: القَلَمْس و«الد أماء» و«الكافر» و«الحضارة» و«السَّدر» و«البقيع» و«الحنبل» و«المُهَرَقَان» و«الخضم» و«الرجاف» و«العيلم» (107) وغير ذلك من ألفاظ ترد في كتب اللغة.

* * *

ومن أمارات الغيث عن العرب : الهالة التي تكون حول القمر، فإن كانت كثيفة مظلمة كانت من دلائل المطر، ولا سيما إذا كانت مضاعفة ومن أماراته وعلاماته، أيضاً، الندأة، وهي الحمرة التي تكون عند مغرب الشمس أيام الغيوث... ومن دلائله كذلك أن ترى القمر والكواكب في الصحو يحيط بها لون يخالف لون السماء، وكذلك إن رأيت القمر في الغيم، وإن كان قَرَعاً، كأنه تحيط به خطوط قوس المُنز.

* * *

-
- (105) د. جواد علي ص : 102 - 103 - 104 / 8.
- (106) طه : الآية : 39 - 78 - 97 - القصص، الآية : 7.40، الأعراف : الآية : 135، اليم : البحر، وقيل : هي لغة سريانية المخصص : ص : 163 / 10.
- (107) المخصص : ص : 15 / 10، «فالقلمس» كعَلَمَس : الكثير الماء من الركايا، والبحر : القاموس ص : 243 / 2. - والكافر : الليل والبحر والوادي العظيم، والنهر الكبير : القاموس : ص 128 / 2 والخُضارة بالضم : معرفة البحر «السَّدر» : كَكَيْف : البحر القاموس ص : 46 / 2، «البضيع» : كامير : الجزيرة في البحر، «والحنبل» : البحر، القاموس ص : 362 / 3، والمُهَرَقَان : كمسجلان وملكمان، وبضم الميم وفتح الراء : البحر، أو الموضع الذي فاض فيه الماء : القاموس ص : 290 / 3، الخضم : البحر.. القاموس ص 107 / 4، العيلم : البحر والماء التي عليه الأرض : القاموس ص 154 / 4.

من أسماء السحاب :

ولنعرض الآن لما جاء من باب السحاب وأنواعه في لغة العرب، فمن أسمائه: «الدَّجَن»: وهو السحاب إذا اشتد صوت رعده. «وبنات نحر ونجر»، وهو سحاب يخرج من البحر بين الخريف والربيع. و«الجهام»، وهو السحاب الذي قد هرق ماءه، و«الجفل» و«الصراد» و«الرهج» كل سحاب قد ساقته الريح قد صب ماءه. و«الحماء» وهي السحابة السوداء تضرب إلى الحمرة، و«الحمل» وهو السحاب الكثير الماء، و«الخسيف»: ما نشأ من السحاب من قبل العين، «الخال»: السحاب، «الحولاء» السحابة الكثيرة المياه، الحَبِّي من السحاب: القريب من سطح الأرض، «الخايل» هو السحاب الذي تستخيل فيه المطر، «الحير» الغيم ينشأ مع المطر، «الخلق»: ما يرجى أن يكون فيه مطر، «الديمة» السحابة الدائمة لا رعد فيها ولا برق، الدجن، اظلال السحاب الأرض، وهو اليابسة أياها أمطر أم لم يمطر، و«الدجنة» من الغيم، المطبق تطبيقاً، «الريف»، أول السحاب الممطر، الرَّمِي: قطع من السحاب صغار دقاق قدر الكف أو أكبر شيئاً والجمع أرماء، «الرباب»: السحاب المتعلق دون السحاب، وقد يكون أبيض، وقد يكون أسود، «الركام» إذا ركب السحاب بعضه بعضاً وكذلك «المكفر»، «الزبرج»: الغيم في عرض السماء، «السمي»: السحاب، «السد» السحاب الذي يسد الأفق، «والسبق والجيء»، الغيم في عرض السماء، «الشيق» من السحاب، ما طرأته الريح، «الظلة»، أول سحابة تظلل.. قال تعالى: «فكذبوه فأخذهم عذابٌ يوم الظُّلَّة» (108) قال ابن عباس: أصابهم حرٌّ شديد، فأرسل الله سبحانه سحابةً، فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا، وقيل، أقامها الله فوق رؤوسهم، والهبا حرا حتى ماتوا من الرَّمْد، ومن أسماء السحاب عند العرب: «الصبير»، وهو السحابة البيضاء

(108) سورة الشعراء رقم الآية : 189.

التي يراها الإنسان متراكبة في بياض - «الصيب»: إذا كان ذا صوت شديد، قال تعالى: أو «كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق»، (109) «طرة الغيم» أبعد ما يرى من الغيم، «الطخاف»: إذا ارتفع وحمل الماء وكثف وأطبق، «الطخارير»: السحاب الصغار، «الطخاء»: هو السحاب الرقاق - «العارض»: الذي يعرض في قطر من أقطار السماء من العشي، ثم يصبح وقد حبا واستوى، وإذا أقبل إليك، وأخذ يعلو فهي الحبي.. «العقر» السحاب ينشأ في عرض السماء، فلا تبصره، ولكن تسمع رعده، «العقاقة»: السحابة معها برق، «العين»، كل سحابة تبدأ من قبل القبلة، «العنان»: السحاب، «الغفارة» إذا كان سحاباً فوق السحاب، «القرد» إذا ارتفع في السماء وتَلَبَّدَ بعضه فوق بعض، «الغماء»: السحابة السوداء، «الغديق»: السحاب الكثير الماء، «الغمام»: إذا تغيرت له السماء، الكرفيء: السحاب المرتفع الذي بعضه فوق بعض، «كفاف السحاب» أسافله، «الكنهؤر قطع من السحاب مثل الجبال، واحدتها كنهورة، «النشء»: أول ما ينشأ من السحاب، «المحلوك»: السحاب الشديد السواد، «المحمومي» السحاب المتراكم الأسود، «المزن»: ذو الماء الريان، «المكفر»: السحاب المتراكب، «المعصرات»: ذوات المطر، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾، (110) والمعصرات الرياح، كأنها تعصر السحاب، أو أنها السحاب، أو السحاب التي تنعصر بالماء، ولما تُمطر بعد، كالمرأة المُعَصِر التي قَدَدْنَا حِيضُهَا ولم تَحِضْ، قال أبو النجم :

تمشي الهَوَيْنَى مائلاً خمارها

قد أَعَصَرَتْ، أو قد دَنَا إعصارها...!

(109) سورة البقرة رقم الآية : 19

(110) سورة «عم» رقم الآية : 14.

وقال عمر بن ابن ربيعة :

فَكَانَ مَجْنِي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَقِي
ثَلَاثَ شَخْوَصٍ : كَاعِبَانَ وَمُعْصِرُ (111)

ومن أسماء السحاب السُّدُّ وهو السحاب المرتفع السَّادُّ الأفق، والجمع
سُدُود. قال:

قَعَدْتُ لَهُ، وَشَيَّعَنِي رَجَالُ
وَقَدْ كَثُرَ الْمَخَالِيلُ وَالسُّدُودُ

ومن أسماء السحاب أيضا : «النضد» من السحاب الذي تراه متراكبا...
و«النقع»، وهو سحاب أبيض صيفي.. «النشاص» هو السحاب الذي يرتفع
بعضه فوق بعض، و«النمرة» السحابة كجلد من غيم صغار تكاد تتصل،
و«الفارق» السحابة تفارق معظم السحاب فتتفرد، وربما أمطرت بأماكن
أخرى.. و«قرعة» القزع: سحاب صغار يتطاير في السماء، وقيل، هي قطع
رقاق كأنها ظل من تحت السحاب، وقيل: السحاب المتفرق، ومنه قزع
الخريف، الواحدة قرعة... و«القنيف» إذا كان ذا ماء، «قلع»: إذا كانت
السحب متراكمة كأنها الجبال، «الهيدب» الذي يتدلى ويدنو مثل هذب
القطيفة، «الهزيم» السحاب لرعده صوت، ويقال سَحَابٌ صَلَفٌ: كثير الرعد،
قليل الماء، والراعدة: السحاب ذات الرعد، ومنه المثل: «رُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ
الرَّاعِدَةِ»، والصَّلف: قلة الماء، أي أن السحاب ربما رعدت ولم يكن منها
خير. وهذا مثل يضرب للبخیل مع سعة ذات يده.. وقيل للرجل يكثر الكلام
والمدح لنفسه ولا خير عنده، وقد اعترض على قائل الأول بأن السحاب إذا
كثر فيها الماء لم يُقَلْ لها صَلَفٌ، وقد أجاب العلامة الحسن اليوسي
قائلا: (112) «يعني، فلا يشبه بها الرجل الكثير المال لبخله، ويجاب بأن قلة

(111) الجامع لأحكام القرآن ص : 172 / 19.

(112) «زهر الأكم في الأمثال والحكم» للحسن اليوسي ص 42 / 3.

الماء المسمّى بالصِّلَف إنما هو باعتبار النزول إلى الأرض... فصح تشبيه
البخيل بذلك، وإن كثر ماله، باعتبار قلة ما يخرج من يده، وإن أريد
بالصِّلَف أن لا يكون ماء في السحابة نفسها أصلاً، فالمراد حينئذ التشبيه
باعتبار ما فيها من أصوات الرعود والبروق، فإنه مظنة السقي، كما أن
كثرة المال مظنة النفع...

وَضَمَّنَ هَذَا الْمَثْلُ ابْنَ الشُّبْلِ الْبَغْدَادِي إِذْ يَقُولُ :

صَحَّةُ الْمَرْءِ لِلْسِقَامِ طَرِيقُ
وَطَرِيقُ الْفَنَاءِ هُوَ الْبَقَاءُ
بِالَّذِي نَغْتَذِي نَمُوتُ وَنَحْيَا
أَقْتُلُ الدَّاءَ لِلنَّفْسِ الدَّوَاءُ
مَا لَقِينَا مِنْ غَدَرِ دُنْيَا، فَلَا كَا
نْتَ، وَلَا كَانَ أَخْذَهَا وَالْعَطَاءُ
صَافٌّ تَحْتَ رَاعِدٍ، وَسَحَابِ
كَرَعَتْ مِنْهُ مُومِسٌ خِرْقَاءُ
رَاجِعٌ جَوْدُهَا عَلَيْهَا فَمَهْمَا
يَهَبُ الصُّبْحُ، يَسْتَرِدُّ الْمَسَاءُ..!
لَيْتَ شَعْرِي حَلُمٌ تَمُرُّ بِهِ الْأَيَّامُ
أَمْ لَيْسَ تَعْقِلُ الْأَشْيَاءُ
مِنْ فُسَادٍ يَكُونُ فِي عَالَمِ الْكُو
نَ، فَمَا لِلنَّفْسِ مِنْهَا اتِّقَاءُ
وَقَلِيلًا مَا تَصَحَّبُ الْمَهْجَةُ الْجَسَدَ
مَ، فَفِيمَ الشَّقَا وَفِيمَ الْعَنَاءُ ؟
قَبَّحَ اللَّهُ لَذَّةَ لَشَقَانَا
نَالَهَا الْأُمَهَاتُ وَالْآبَاءُ

نحن لولا الوجود لم نالم الفقر
—د، فأيجادنا علينا بلاء

وقد ضمن المثل السابق في قصيدة العلامة الحسن اليوسي فقال:

ولربّ ذي رعيٍّ على صلفٍ
ومُهَدَّرٍ في العُنَّةِ الحِجْر

وسمّى ساعدهُ بنُ جُوَيْه الدّم ماءً فقال يهجو امرأة :

شروبٌ لماء اللحم في كل شَتْوَةٍ
وإن لم تجدْ مَنْ يُنْزِلُ الدُّرَّ تحلبُ

أراد، وإن لم تجد من يحلب لها، حلبتُ هي، وحلبُ النساء عار عند العرب.

التركيب والاستعمالات المجازية للماء

ذلك هو بعض من مادة «الماء» ومشتقاته مما عرف العرب في جاهليتهم.. وتلك هي الألفاظ المعجمية التي تحمل دلالات وظلالات كثيرة، على تعلق العربي بعنصر الماء، وشغفه بالمطر والحيا ولشدة حاجته إليه في صحرائه ذات الرمال الوعساء...

من جهة أخرى، فإنه يمكننا، بعد هذه الدراسة اللغوية «المائية» أن ننظر في التراكيب والاستعمالات المجازية، والجميل الاستعارية، والألفاظ الكنائية، لنجد في أمثال العرب وشعرهم وقصصهم أعداداً هائلة تستمد من مادة «الماء» وعنصره، وفي حالاته المختلفة سواء كان سحاباً أو سيلاً أو ثلجاً أو برداً.. وما إلى ذلك.

فقد قرن العربي القديم في صحراء شبه الجزيرة العربية «الماء» بكل معنى خَيْرٍ، وبكل منظر حسن، وبكل فعل جميل، ولوّن الماء تعابيرهم، فقالوا لما لا يستحسنونه: «لا ماء فيه» قال ابن قتيبة، (113) وهو يتحدث عن اللفظ والمعنى في قول لبيد الشاعر:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه

والمرء يصلحه المجلس الصالح

قال : «هذا، وإن كان جيد المعنى والسبك، فإنه «قليل الماء» والرونق.. وقالوا: «فلان ليس في وجهه ماء»، واستعاروا «الماء» في كلامهم لما

(113) «الشعر والشعراء» ص : 9.

يحسن وقعه ومنظره، ويعظم قدره ومحلّه من نفوسهم، قال أبو نواس: (114)

لما ندبتك للجزيل أجبتني :

«لبيك، واستعذبت «ماء كلامي»

يقول الثعالبي : «العرب تستعير في كلامها «الماء» لكل ما يحسن وقعه ومنظره، ويعظم قدره ومحلّه، فتقول: ماء الوجه، وماء الشباب، وماء السيف، وماء الحياة، وماء النعيم..

وحين اجتهدوا في تسمية امرأة بالجمال، والبركة، والحسن، والصفاء، والبياض، قالوا: «ماء السماء» (115) وقالوا: المنذر بن «ماء السماء».. وهو آخر ملوك الحيرة، قالوا: نسب إلى أمه وكانت تسمى: «ماء السماء» وهذا مذهب أبي العلاء المعري الذي يؤمن بأن ينسب الإنسان إلى أمه، فهو يقول:

ولحبّ الحقيقة، أثرت الرو

م، انتساب الفتى إلى أمهاته

جهلوا من أبوه، إلا ظنونا

وطلاً الوحش، لاحقاً بمهاته

ويقال : صبغ له ماء، ولون له ماء، وفلان ليس في وجهه ماء، وردني

فلان ووجهي بمائه، قال الشاعر :

ماء الحياء يجول في وجناته (116)

وإلى «ماء الوجه» يشير ابن الخياط :

لم يبقَ عندي ما يباع بحبة

وكفأك، شاهدٌ منظري عن مخبري

(114) الديوان ص : 110.

(115) «الحيوان» ص : 141 / 5.

(116) الحيوان للجاحظ : ص : 142 / 5.

إِلَّا صُبَابَةً «ماء وجه» صنتها
 من أن تباع، وأين؟ أين المشتري؟
 وإليه أشار الكاتب أبو المطرف بن عميرة :
 وأصعبُ من ماء يراق على الصدا
 بِيَهْمَاءَ، «ماء الوجه» حين يراق
 ولكن إذا ما كَاسَهُ عرضت على
 كريم، نباها عنه وهي دِهَاق

كما تستعير العرب، في كلامها، الاستقاء في طلب خير، وكذلك
 سموا السائل والمجتدي مستميحاً، وإنما الميح جمع الماء في
 الدلو. (117)

ويكفي أن نذكر أن العرب لفرط تشوقهم وتطلعهم للمطر والغيث
 وبحثهم عنه، وترحلهم في سبيله، قد لقبوا ببني «ماء السماء» كما جاء في
 حديث أبي هريرة: «أمكم هَاجِر يا بني ماء السماء». (118)
 كما استعملوا كثيراً من الكلمات المتصلة بالماء في شؤون حياتهم
 الخاصة فاستعملوا كلمة «الغوث» بمعنى العون والمؤازرة والمساعدة،
 واستخدم شعراؤهم تعبير: «أغثنِي» عندما يخاطبون ممدوحهم طالبين
 للرَّفد والنوال، كقول جرير:

أَغْثَنِي، يَا فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي
 بسيب منك، إِنَّكَ ذُو ارْتِيَا ح

وفلان طلب الغوث، واستغاث فلان، إذا طلب النجدة والعون...

(117) الثعالبي عبد الملك بن محمد، «ثمار القلوب، في المضاف والمنسوب» تحقيق محمد أبو الفضل
 إبراهيم ص : 563.

(118) يريد العرب، «لسان العرب» لابن منظور كلمة «موه».

وكان إذا نزل القَطْرُ بعد امتساک السقيا، وتوقف الحيا، يقول النبي عليه السلام : «اللهم اجعله غيثاً نافعاً».. وقد أخذ هذا المعنى أبو تمام فقال:

واعلم بأن الغيث ليس بنافع،

ما لم يكن للناس، في إبانِه..

وغاية دعائهم للمرجو والمشكور أن يقولوا: سقاك الله، فإذا تذكروا

أياماً طاف فيها الأُنس، وَصَفَتْ فيها النفوس، قالوا: سقى الله تلك الأيام..

والبخيل، عندهم، يشبه «خيرِه» بالبعد في قعر الحوض بحيث لا

يستطيع أحد أن يغترف منه فيقولون: «ماؤه لا ينال قَاضِجُهُ» (119) أي أن

خيرِه لا يصل إليه أحد، فيكنون بالماء البعيد، عن الخير البعيد.. ويشبهونه،

أيضاً، بالسحابة التي لا يسيل منها شيء ولا تنزل المطر، كقولهم: «ما هو

إلا سحابة ناصحة» (120) أو قولهم: «هل بالرمل وشال» (121)

أما الضعيف الذي لا عقل له يردعه ويمنعه من السقوط فهو كالبرء

التي لا جوانب صلبة لها تمنعها من الانهيار.. (122)

والإنسان الكريم الذي يقصده الناس يشبه «بالمورد» والمنهل الكثير

الورود.. كما في قول الشاعر:

تزدحم القصاد ببابه

و«المورد» العذب كثير الزحام

ومنه قولهم : «ثَوْبُ الماء» : الغُرْس الذي يكون على المولود، Liquide

Amniotique قال الراعي :

تشق «الطيرُ ثوبَ الماء» عنه

بُعَيْدَ حَيَاتِهِ إِلَّا الْوَتِينَا

(119) «مجمع الأمثال» للميداني ص : 90 / 1.

(120) «مجمع الأمثال» للميداني ص : 288 / 3.

(121) المصدر السابق ص : 460 / 3. والوشل الماء المنحدر من الجبال، ولا تحتفظ به الرمال.

(122) «ماله جول ولا معقول» الميداني، مجمع الأمثال ص : 295 / 3.

ويقولون في أمثالهم، وهم يتحدثون عن مورد من مواردهم اسمه «أضاح»، فيشبهون الإنسان الكريم الذي تتزاحم على أبوابه القصاد بذلك المنهل الذي يؤمه الناس، وينسلون إليه من كل حذب وصوب، فقالوا: إن أضاحاً منهل مورود». (123)

* * *

ولقبت أم المنذر بن امرئ القيس بن عدي بن ربيعة بن نصر اللخمي، «بماء السماء»، وهي ابنة عوف ابن جشم، من النمر بن قاسط، وسميت بذلك لجمالها، وقيل لولدها: «بنو ماء السماء» وهم ملوك العراق..
وقد لقب عامر بن حارثة الأزدي «بماء السماء»، وهو أبو عمرو مزيقياً الذي خرج من اليمن لما أحس بسيل العرم، فسمي بذلك، لأنه كان إذا أجذب قومه مانتهم حتى ياتيهم الخصب، فقالوا: هو «ماء السماء» لأنه خلف منه، وقيل لولده: بنو «ماء السماء» وهم ملوك السماء، قال بعض الأنصار:

أنا ابن مزيقياً عمرٍ وجدي

أبو عامرٍ «ماء السماء»

وسمي مزيقياً، لأنه كان يمزق كل يوم حلة يلبسها من أول النهار إلى آخره، ثم يمزقها ليلاً يلبسها أحد بعده...

وفي حديث لأبي هريرة: «أمكم هاجر يا بني ماء السماء» يريد العرب، لأنهم كانوا يتبعون قطر السماء، فينزلون حيث كان.

وقالوا: «ماء الشباب» واداروه في شعرهم، قال عمرو بن أبي ربيعة:

وهي مكنونةٌ تحير منها

في أديم الخدين «ماء الشباب»

(123) «مجمع الأمثال» للميداني ص 90 / 1.

وقال أبو العتاهية :

ظبي عليه من الملاحاة حلّة
«مَاءُ الشَّبَابِ» يجول في وجناته

وقال أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل :

أهيف : «ماء الشباب» يرعد في خد
يه، لولا أديمه قطرا
وما أجمل إشارة ابن الرومي إلى هذا، في قوله يرثى «بستان» المغنية:
يا حَرَّ صدري على ثلاثة أموا
ه، هُرِيقْتُ في التراب والمدر
«ماء الشباب» ونعمة مُزجا
«بماء ذاك الحياء» والخَفَر
تبطل العود بعد فقدكُم
وازدجر اللهو أيّ مزدجر
وغاض «ماء النعيم» يتبعكم
وانهمر الدمع أي منهمر

فتراه استعار الماء في أبياته هذه إلى كل ما يحب ويعظم، فيقول: «ماء
الشباب» و«ماء النعمة»، و«ماء الحياء»، و«ماء النعيم».

و«ماء الشبيبة» : نضارتها وحسنها، ومنه قول المتنبي :

وأحسنُ من «ماء الشبيبة» كلّهُ

حَيَا بَارِقٍ، في فَازَةٍ أَنَا سَائِمُهُ

وقال الرئيس أبو العباس أحمد بن أبي طالب العزفي في قصيدة من
قلائده:

لم تشتعلْ نارُ المَشْيِبِ بمفرقي
حتى أراق الدهر «ماء شبابي»

ويقول الوزير أبو عبد الله بن الخطيب :
سلام على تلك المعاهد، إنها
مَرَابِعُ الْأَفْي، وعهدُ صَحَابِي
وَيَا آسَةَ الْعَهْدِ انعمي، فلطالما
سكبتُ على مَثَوَاك، «ماء شبابي»
وقالوا في كلامهم: «ماء الحياة»، و«ماء المحيا» كما في قول الإمام
الشافعي:

إِذَا أَظْمَأْتُكَ أَكْفُ اللَّثَامِ
كَفْتُكَ الْقَنَاءَةَ شَبَعَا وَرِيَا
فَكُن رَجُلًا، رِجْلُهُ فِي الثَّرَى
وَهَامَةُ هَمَّتْهُ فِي الثَّرِيَا
أَيَّيًّا لِنَائِلِ ذِي ثَرَوَةٍ
تَرَاهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ أَيْيَا
فَإِنْ إِرَاقَةَ «مَاءِ الْحَيَاةِ»
«دُونِ إِرَاقَةِ «مَاءِ الْمَحْيَا»

ويطلق «ماء الحياة» أيضا، على مني الرجل كما أشار إليه ابن سينا في
قوله:

احفظ منيَّك، ما استطعت فَإِنَّهُ
«ماء الحياة»، يصب في الأرحام
«ماء الحياة»، يريد بالماء صفاء البشرة، ورقتها، ولألاء الوجه الذي
يتراءى كالماء، ونسبه إلى الحياة، إشارة، إلى أنه يحيي قربه، والنظر إليه،
كما قال :

لَوْ أَسْنَدْتُ مَيِّتًا إِلَى صَدْرِهَا
عَاشَ، وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

ولقد لَجَّ المنكرون الذين جردوا المتنبي من كل فضل في تصغير
نسبه، كما لَجُّوا في تصغير أدبه، فدعوه ابن السقاء، وبه قال قائلهم، وهو
يستعمل عبارة «ماء المحيا»:

أَيُّ فَضْلٍ لَشَاعِرٍ يَطْلُبُ الْفَضْلَ
لِ مَنْ النَّاسِ بَكْرَةَ وَعَشِيَا
عَاشَ حِينًا يَبِيعُ فِي الْكُوفَةِ الْمَا
ءَ، وَحِينًا، يَبِيعُ «مَاءَ الْمَحْيَا»

وقال أبو تمام :

رَدَدْتُ رَوْنَقَ وَجْهِهِ فِي صَحِيفَتِهِ
رَدَّ الصَّقَالُ لِمَاءَ الصَّارِمِ الْخَذِمِ
وَمَا أَبَالِي، وَخَيْرَ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ
حَقَنْتُ لِي «مَاءَ وَجْهِهِ» أَمْ حَقَنْتُ دَمِي (124)

وقالوا «ماء الحسن»، وما أجمل إشارة ابن المعتز إليه في قوله :

لِي مَوْلى لَا أَسْمِيهِ
كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٌ فِيهِ
تَصِفُ الْأَغْصَانُ قَامَتَهُ
بِتَنَنٍ كَتَنَنِهِ
وَيَكَادُ الْبَدْرُ يَشْبَهُهُ
وَتَكَادُ الشَّمْسُ تَحْكِيهِ
كَيْفَ لَا يَخْضَرُ عَارِضُهُ
و«مِيَاهُ الْحَسَنِ» تَسْقِيهِ

(124) الديوان ص : 219.

وقالوا في : «ماء الصبا»، ما قالوا : أنشد ابن السكيت: (125)

قد قلت إن «ماء صباك» يُرْعَشُ

وإن أهاضيب الشباب تبغش

وتحدث عشاقهم عن الوجه والبكاء، وكنوا عن الدموع، فقالوا: «ماء

الشوق»، و«ماء الجفن» و«ماء الصبابة»، و«ماء الهوى» قال العتّابي:

أكاتِم لوعات الهوى ويبينها

تخل «ماء الشوق» بين جفوني

ويقول أبو الطيب المتنبي في صباه يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد

ابن رأس بن معن الرضى الأزدي، وهو يتحسر على شبابه:

والمرء يامل، والحياة شهية

والشيب أوقر، والشبية أنزق

ولقد بكيت على الشباب ولمتي

مَسُودَة، «ولماء وجهي» رونق

حَذَرًا عليه قبل يوم فراقه

حتى لَكِدْتُ «بماء جفني» أشرق(126)

وقال ذو الرُّمّة :

أَنَّ تَوَسَّمتَ من خرقاء منزلةً

«ماء الصبابة» من عينيك مسجوم(127)

(125) أخبار أبي تمام للصولي ص : 36.

(126) ديوان المتنبي ج : 3 / ص : 76، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي...

(127) من العوارض التي تعرض لالسنّة العرب : العنّة، وتعرض في لغة تميم، وهي إبدالهم العين

من الهمزة، كقولهم: ظننْتُ عنك ذاهب، أي أنك ذاهب، وكما قال ذو الرُّمّة:

أعن تَوَسَّمتَ من خرقاء منزلة «ماء الصَّبابة» من عينيك مسجوم

ومنه قول الآخر :

إِنْ حُزْتَ عُلَا، فَاتَّخِذْ حِرْفَةً
تَصُونُ مَاءَ الْوَجْهِ، لَا يَبْدُلُ
وَلَا تُهْنُهُ، أَنْ تُرَى سَائِلًا
فَشَأْنُ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَنْ يَسْأَلُوا

وقال ذو الرمة أيضا :

إِدَارًا بِحُزْوَى، هَجَّتْ لِلْعَيْنِ عِبْرَةً
«فَمَاءُ الْهَوَى» يَرْفُضُ أَوْ يَتَرَقَّرُ

وقالوا، أيضا، «ماء الندى» و«ماء النوال»، يقول البحتري :

وَمَا أَنَا إِلَّا غَرَسَ نِعْمَتِكَ الَّذِي
أَفْضَتْ لَهُ «مَاءُ النِّوَالِ» فَأُورِقَا
وَقَفْتُ بِأَمَالِي عَلَيْكَ جَمِيعَهَا
وَأَرَاكَ فِي إِمْسَاكِهِمْ مُوَفَّقَا..

وأخذ النقاد على أبي تمام قوله :

لَا تَسْقِنِي «مَاءَ الْمَلَامِ» فَإِنِّي
صَبٌّ، قَدْ اسْتَعَذَبْتُ «مَاءَ بَكَائِي»
وَفِي إِضَافَةِ الْمَاءِ لِلْمَلَامِ غَرَابَةٌ، أَوْجِبَتْ بَعْضَ الْهُجْنَةِ وَالْبُرُودَةِ فِي
الْكَلَامِ...

ويحكى أنه عيب عليه ذلك حتى تحدث أن بعض عصره أرسل إليه
بشربة من «ماء الملام» فقال: حتى تبعث إليّ بريشة من جناح الذل...
وهذا خطيئة أبشع من الأولى، فإن الاستعارة في جناح الذل مأنوسة

الاستعمال قديما وحديثا، ومُدْرَكُ حسنِها وفصاحتها بالذوق دون ماء الملام، وقد وقع له في هذه القصيدة نفسها ما يقرب من هذا، حيث قال:

رأى لو استبقيت «ماء نصيحة»

لجعلته رأيا من الآراء...

غير أن هذا، وإن كان غريبا، يُحسِّنُه أن الرأي والنصيحة تحيا بهما النفوس، كما تحيا بالماء الأبدان، ولا كذلك الملام...
ثم إن لطف «الصنعة» في «جَنَاحِ الذل»، وما يتأتى فيها من تصوير للخفض وللعاطفة، التي تصحبها، لا يمكن أن تقابل بـ «ماء الملام».

* * *

ولما قدم الشاعر أبو تمام، البصرة، وكان بها عبد الصمد ابن المعدل الشاعر، فلما سمع بوصوله، خاف أن يميل الناس إليه، ويعرضوا عنه، فكتب إليه قبل دخوله البلد :

أنتَ بين اثنتين تبرز لنا

س، وكلتاهما بوجه مُذَالٍ

لست تنفك راجيا لوصول

من حبيب، أو طالبا لنوال

«أي ماء» يبقى لوجهك هذا

بين ذل الهوى، وذل السؤال

فصير لماء الوجه ماءً، (128) ولهذا قيل بأنه كان اظرف نقد وجه للشعر والشعراء ما قصه الثعالبي إذ قال: وقد أفصح عبد الصمد بن المعدل عن حقيقة الحال في انحطاط رتبة الشاعر لاشتغاله بخلاف المراشد حيث قال لأبي تمام، وقد قصد البصرة، وشارفها: «أنت بين اثنتين»، فلما بلغت الأبيات التي قالها ابن المعدل تصور حياة الشعراء أحسن تصوير قال:

(128) «أخبار أبي تمام» للصولي ص : 34.

صدق والله وأحسن، وثنى عنانه عن البصرة، وحلف أن لا يدخلها أبداً، (129) وهذه الأبيات التي قالها ابن المعدل تصور حياة الشعراء الأقدمين أصدق تصوير. (130)

وقولهم أيضاً، «مَاءُ السَّخَاءِ» كما أنشده حازم القرطاجني في مقصورته، بقوله:

سَنُؤَا عَلَى أَثْوَابِ أَعْرَاضِهِمْ
«مَاءُ السَّخَاءِ»، فَتَفَى عَنْهَا الصَّخَى

يقال : سننت الماء عَلَى وجهي : إذا أرسلته إرسالاً من غير تفريق، فإذا فرَّقته في الصب: قلت: شتته.

و«ماء السخاء»، جاء به الشاعر على جهة الاستعارة، وحسنه أن العادة جرت في الكلام، أن يقال: فاضت علي عطايا الأمير، وفلان يهمل جوده، وتصوب مواهبه، وغرقت في بحر نوالك، فحسنت لأجل ذلك استعارة الماء للسخاء... ألا ترى كيف حَسُنَ قول ابن اللبانة :

بروحي وأهلي جيرةٌ ما استعنتهم
على الدهر، إلا وانثنت مُعَانَا
وراشوا جناحي، ثم «بَلَّوْهُ بالندى»
فلم أَسْتَطِعْ من أَرْضِهِمْ طَيْرَانَا

لما كان العطاء يستعمل معه ما ذكرته من الأوصاف التي تستعمل مع «الماء»، كان موقع البَلَل هنا عَذْباً، وزيادة حسنة مع ما انضم إليه من التورية، بذكر الندى بعد قوله: «وراشوا جناحي...» فجاء غاية في البراعة، ومستطرفاً جداً...

(129) «نثر النظم»، ص : 14.

(130) النثر الفني، في القرن الرابع لزكي مبارك ص 22 / 1.

وليس ذكر «الماء» مع «السخاء» في لفظ حازم القرطاجني، «كماء الملام» في قول أبي تمام، فإن استعارة «الماء للملام» معلوم فيها ما ذكرت من هذا الاستعمال، لا سيما، وقد تمكنت الاستعارة لِمَا وصف به «ماء السخاء» من إزالة الصَّخَاء، وهو الدَّرَن، وذلك من أوصاف الماء...

* * *

وقالوا أيضاً، «ماء الجمال»، وقد أنشد ابن السمان عبد الباقي الدمشقي يوماً قصيدة غزلية يقول في مطلعها:

غصن رنَّحه شكرُ الدلال

ينثني رَيَّان من «ماء الجمال» (131)

كما تحدثوا عن «ماء الغيب»، فقال القاضي عبد الجواد بن شعيب بن أحمد ابن عباد بن شعيب القنائي الأصل، المصري الشافعي الأنصاري من علماء مصر، وأدبائها في «كشف الريب، عن ماء الغيب» «شرح الأبيات الثلاثة، وهي:

توضاً «بماء الغيب» إن كنت ذا سر

وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر

وقدّم إماماً كنت، أنت إمامه

وصل صلاة العُصْر في أول الفجر

فهذي صلاة العارفين برّبهم

فإن كنت منهم، فامزج البرّ بالبحر (132)

وتحدثوا، أيضاً عن «ماء المفاوز»، «وماء المكرّمات»، وقد جمعها الشاعر، فقال، ولعله ابن دراج القسطلي:

(131) «خلاصة الأثر» للمحبي ص 284 / 2.

(132) «خلاصة الأثر» ج : 2 / 301. والعجيب أن حاجي خليفة صاحب «كشف الظنون» ذكر هذا الكتاب بهذا العنوان «كشف الريب، عن عماء الغيب» وهو غلط يدل عليه سياق الأبيات.

تخوفني طول السَّفار، وإنني
لتقبيل كف العامري سفيرُ
ذريني، أَرِدُ «ماء المفاوز» آجنا
إلى حيث «ماءُ المكرمات» نمير
وإن خطيرات المهالك ضُمَّنْ
لراكبها، أن الجزاءَ خطير

ولعل البيت الثاني يشبه ما قاله أبو الطيب المتنبي :
وأظما فلا أبدي إلى الماء حاجةً
واللشمس فوق اليعُمَلاتِ لَعَابُ(133)

فهو يقول : إنني أعطش في الفيافي الحارة، التي يشتد فيها حر
الشمس، ويسيل لعابُها فوق الإبل، فلا أبدي حاجتي إلى الماء تصبُّرا
وتجلدا وحزماً، وقد أخذ هذا المعنى من قول أبي تمام :

جديرٌ أن يكرَّ الطرفُ شزرا
إلى بعض الموارد، وهو صادي
وقد تحدثوا عن «ماء الهوى»، حيث قال ذو الرمة :
أَدَاراً بِحُزْوَى، هَجَتِ للعين عبْرَةً
«فماءُ الهوى»، يرفض أو يترقرق

و«بناتُ الماء» قال عنها ابن أبي الأشعث : هي سمك ببحر الروم،
شبيهة بالنساء، ذوات شعر سبط، ألوانهن إلى السمرة ذوات فروج عظام...
وكلام لا يكاد يفهم، ويضحكن ويقهقهن، وربما وقعن في أيدي بعض
المراكب، فينكحوهن، ثم يعيدوهن إلى البحر... وحكى عن الروياني صاحب

(133) اليعملات : النياق النجبية المتعملة المضبوطة على العمل، ولعاب الشمس : ما يراه المسافر من
أشعة الظهيرة كأنه خيوط تتدلى فوق رأسه.

البحر، أنه كان إذا أتاه صياد بسمكة على هيئة المرأة، حلفه أنه لم يطأها. (134)

وجاءت كلمة : «بنات الماء» في شعر ابن شهيد أبي عامر أحمد ابن عبد الملك، يأتسي كثيرا على المعتمد حيث يقول :

وحملتني كالصقر فوق معاشر

تحتي كأنهم «بنات الماء»

ويقول الأفوه الأودي، وهو يصور حالة كلب ألحَّ عليه السماء بالمطر

أياما، ثم طلعت الشمس، فذهب يتشرق، فلم يشعر إلا بسحابة، قد أظلمته ففزع، ورفع رأسه، وجعل ينبح: (135)

له هيدب، دان، ورعد، ولجّة

وبرق تراه، ساطعا يتبلج

فباتت كلاب الحي، ينبحن مزنة

وأضحت «بنات الماء»، فيها تمعج (136)

و«إنسان الماء» يشبه الإنسان، إلا أن له ذنباً، وللقزويني كلام طويل

في «إنسان الماء»، (137) وقد ذكرناه في أساطير ومعتقدات وتقديس الماء...

ويسمى الماء، أيضا، ب«ابن السحاب»، ويشير إليه حافظ إبراهيم شاعر

النيل حيث يقول:

ألفت بين «ابن السحاب»، وبينها

فرأيت صحة ما حكاها الطائي :

صعبت، وراض المزج سيء خلقها

فتعلمت من حُسن خلق الماء

(134) «حياة الحيوان الكبرى» لكمال الدين الدميري ج : 1 / 157 و 43 / 1.

(135) الحيوان للجاحظ. ص : 73 / 2.

(136) الهيدب : السحاب المتدلي. اللجة : الجلبة. تتمعج : تسبح أو تنتثني.

(137) «حياة الحيوان» للدميري ص : 43 / 1.

وقالوا «ماء السرور»، ومنه قول الأعشى :

من ديار بالهَضْب، هَضْب القَلِيبِ (138)

فاض «ماء السرور»، فيض الغروب (139)

ويقولون : نساءٌ «مثلُ الماء»، وقد كتب عمر ابن أبي ربيعة لهند تلك
العينية الرائعة التي تذكر بعينية الصمة القشيري في الحنين إلى نجد:

ألم تسأل الأطلالَ والمتربِّعا

ببطن حُلِيَّات دوارسَ بلقعا

إلى السفح من وادي المغمَّسِ بَدَلتْ

معالمُه وبُلا، ونكبَاء زعزعا

لهندٍ، وأتراب لهند، إذا الهوى

جميع، وإذ لم نخش أن يتصدعا

وإذ نحن «مثلُ الماء» كَانَ مزاجُه

كما صفَّق الساقِي الرحيقَ المشعشعا

ولعل «نحن مثل الماء» من الفلتات الجديرة بالتوقف، خصوصاً أن
قائلها من المنقطعين لفضاء الأنوثة، ومن الذين يحيلونها إلى أقنوم
يختصر الزمان والمكان... ويعتقد فيلسوف المكان الأكبر «جاستون
باشلار» (140) أن طبيعة الأنثى أقرب إلى الماء والتراب... أما طبيعة الرجل،
فتختصر نفسها في الهواء والنار، وفي حين تأخذ المرأة بعض أشكال
الثبات والتجذر، يظل الرجل في منطقة الطارىء والعابر، ويظل يدور في
فلك المرأة ومجرتها دون أن يخلق فضاءه الخاص.. ومن هذا الاختلاف

(138) القليب : معروفة عند العرب، وقد يضاف إليها فيقال : هضب القليب، وهي التي أجريت فيها
داحس والغبراء.

(139) الغروب : ج : غرب الدلو.

(140) "GASTON BACHELARD" فيلسوف فرنسي، ولد عام 1884 - وتوفي 1962 بباريس، عالم
ابستمولوجي، له كتب : «الفكر العلمي الجديد» عام 1934 "Le nouvel esprit scientifique"
و«العقلانية التطبيقية» عام 1949، "Le rationalisme appliqué" وله أيضا : «الماء، والأحلام»
عام 1942 "L'eau et les rêves".

تنبع معظم عقد الحب، فنفسية الرجل بسيطة وواضحة ومحددة العناصر..
أما نفسية المرأة فمثل مغارة اللصوص التي تجد فيها كل ما يربك ويحير
ويخيف..

لهذا كان عددُ الذين يفهمونها من الشعراء قَلَّه، ومنهم عمر بن أبي
ربيعة الذي حصد من جراء تلك المعرفة والفهم اتهامات عديدة تشكك في
رجولته، وتضعه في بعض الأحيان بين المخانيث، وآخرُ مَنْ قال تلك التهمة
صراحة عباس محمود العقاد الذي يتبنى الرجولة بالمفهوم «الصعيدي»
الذي حمّله معه من أسوان.

وأخيرا يتحدث لنا أبو تمام عن «ماء الوصال» فيقول :

إن يفترق نسب يفرق بيننا

أدب أقمناه مقام الوالد

أو يختلف «ماء الوصال» فماؤنا

عذب، تحدر من غمام واحد

* * *

وختاما لهذا الفصل، المتعلق بالدلالات اللغوية العربية... والماء، فإننا
نشير إلى توصية الندوة العربية الثانية للموارد المائية التي انعقدت في
الرباط من 21 - إلى 24 سبتمبر عام 1981، وشاركت فيها 15 دولة عربية،
وعدد من المنظمات والمراكز العربية الدولية... التي أوصت بأعداد معجم
(عربي - إنجليزي - فرنسي) للمصطلحات الخاصة بالموارد المائية
بالتعاون مع مكتب تنسيق التعريب بالرباط، وتلك ضمن دعوتها الأقطار
العربية لدراسة الموارد المائية واستثمارها والعمل على تطوير الدراسات
المائية بها.

* * *

وبعد ألم يكن «الماء» الفَيَصَلَ القاطع في سَلْبِ القصيدة شعريتها
وشاعِريَّتْها، وخاصة حين كان الناقد العربي القديم يصدر حكمه على
القصيدة عُلْنِيّاً وحُضُورِيّاً بأنه «لاماء فيها»، فتذُبُّلُ كلماتها، فتُحْرَمُ من
الانتشار والتداول؟

ألم يكتب أعظم الشعر العربي بـ «ماء الذهب»، كما تذهب إلى ذلك
الروايات.

الباب الثالث :

الماء في القرآن ... ظاهرة فريدة في كتاب الله ...

إذا كانت عناية كتاب الله، بالطبيعة من أجل تحقيق أهدافه الكبرى فائقة هادفة مؤثرة؛ فهي تَتَسِمُ بالأهداف النبيلة التي تَوَخَّاهَا الكتاب العزيز، وهي أهدافٌ تتصل عن كَثْبٍ بقضية الإنسان وتكوينه الفكري والأخلاقي والنفسي، وهو يقطع شَوَاطِطَ في هذه الحياة، ويستعدُّ لاستقبال مصيره في الحياة الأخرى...

وقد كانت آياتُ الطبيعة التي تربو على السبعمئة آية، محققة لهذه الأغراض المهمة التي جاء من أجلها كتاب الله الذي كان محوراً لتصحيح فكري على نطاقٍ واسع، وذلك حين حَوَّلَ الفكر الإنساني من الميثولوجية الحائرة، إلى الحقيقة المطمئنة.

في إطار هذه المعاني يشتمل هذا الباب على فصلين...

الفصل الأول : يتناول التركيز على نواميس الوجود وأسراره.

والفصل الثاني : القرآن، ومظاهر الكون البيولوجي.

التركيز على نواميس الوجود وأسراره

إننا لنلاحظ في كتاب الله العزيز ظاهرةً فريدة، طالما استوقفت ذوي الفكر والنظر، وحفزتهم للتأمل والاعتبار، وهي اهتمامه بسنن الله الكونية، في غير ما آية من كتاب الله، وتركيزه على نواميس الوجود وأسراره، أكثر من ذكره للأحكام الدينية، والتشريعات الدنيوية، إذ نجده في غير ما آية ينبه المومنين إلى ما في هذا الكون الرحيب من عجائب وغرائب، ويلفت أنظارهم إلى مخلوقات الله، في السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من ماء... فأحيا به الأرض بعد موتها، وبثَّ فيها من كل دابة، وتسخير الرياح والسحاب، والفلك التي تجري في البحر، وكلها تدل على آلاء الله ونعمه على مخلوقاته، وهي لا تحصى ولا تعد، ولا تستقصى ولا تحد...

* * *

لقد وهب الله للإنسان عقلاً ليبحث به، ويتفكر ويتأمل ويخترع، أي ليستخدمه في ميدانه، ويفيد منه بما يحقق سعادته وخيره في هذه الحياة، وليتدبر بعقله هذا وبصيرته في حكمة الله وقدرته، وبديع صنعه: «إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر، بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء، من ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المُسَخَّرِ بين السماء والأرض... لآيات لقوم يعقلون».(1)

(1) سورة البقرة، آية : 164.

ففي هذه الآية، نجد أمر الله الحكيم للناس، هو أن يتأملوا ويتدبروا في خلقه السماء والأرض، وفي اختلاف الليل والنهار، وفي «النظرية الطبيعية» التي تجعل السفن تسير على الماء، فتحمل الناس ومتاعهم ومتاجرهم، «والظاهرة الطبيعية» التي تنزل الماء من المطر، فتنبت الحب والزرع والشجر، وتجعل من الماء كل شيء حي، وكذلك مَسِير السحاب، وَسَوْقَه من مكان إلى مكان، وتسخيرَه بين السماء والأرض، وتصريف الرياح...

* * *

لقد كان المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوي، صاحب «في سنن الله الكونية» دقيقاً حين فصل بين ما جاء في القرآن من الشرعيات والكونيات... إذ أن الشرعيات من حيث الاعتقاد والأحكام، لابد أن يتضح الحق فيها قبل وفاة الرسول، وإلا فقد فاتت فرصة التوضيح والتصحيح... أما الكونيات فتصحيح خطأ معتقد الناس فيها مما يظهره الزمن أنا بعد آن، لأن آيات الله الكونية من العظم والجلال بحيث لا يحول تصورها الكامل دون الاهتداء بها إلى الله... والزمن في سيره المتواصل يسير نحو هذا التصور شيئاً فشيئاً... لذلك جاءت كشوف العلم كاشفة لبعض حقائق الكتاب المبين...

* * *

إن ترك التفكير في مظاهر آيات الله في الكون، والاستهانة بشأنها، بحيث لا تتضح حقيقتها على وجهها، يرادف الإعراض عنها! ومعنى ذلك، أن المسلم مأمور، بأن لا يصرف النظر عن آية من آيات الكون إذا واجهته، بل ويجب عليه أن يقوم بمشاهدتها والتفكير فيها بجد وصرامة، ويتبين حقيقتها بغاية الاهتمام حتى يطلع على حكمة صنع الله التي تختفي فيها تمام الاطلاع.. كما أن المسلم مأمور من قبل الله سبحانه وتعالى، بالتفكير في هذه الآيات والمظاهر لتتكشف عليه الحقيقة، وما لم تتبين الحكمة في

قدرة الله، لا يمتنع عن التفكير، بل يستمر فيه حتى يتضح له الحق والحكمة....

وقد علم النبي ﷺ أمته دعاء يؤيد هذه الفكرة، وهو : «اللهم أرنا الحق حقا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا، وارزقنا اجتنابه، اللهم أرنا الأشياء كما هي...» فهذا الدعاء يؤيد فكرة التحقيق العلمي للأشياء، لأن فكرة التحقيق العلمي التي تركز جهودها على الأخذ بالحيطة في تنظيم نتائج المشاهدات الكونية، تهدف إلى أن تبدو الأشياء على حقيقتها كما خلقت...

* * *

إن آيات قرآنية معدودات من قوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾، مثلا، أحوجت آباءنا الأولين إلى تدوين علم يسمى «علم الفرائض» أدخلوه ضمن علم الفقه، فأبانوا العَصَبَةَ، وذوي الفرائض، وأصحاب الثلث، والنصف، والسدس، والثلث، وكيف يجب أحدهم الآخر، فدخلوا في بحرٍ لُجِّي، وتغلغلوا في الفروض والاحتمالات... ولما كانت التَرَكَات يُعَوِّزُهَا نوعٌ من الحساب، جاسوا خلال العلوم، وبحثوا في كل الفنون، وجدُّوا في المسير، حتى استنبطوا حسابا للفرائض، واشتقوه من علم الحساب العام... وعلم الحساب العام مشتق من علم «الارثيماتقي»، أي علم خواص الأعداد كما هو معلوم، كل ذلك ليسهل عليهم قسمة التَرَكَات، وحفظ نظام الأُسَر، وإيفاء حقوق الأبناء والبنات... ضربوا في كل علم بسهم، وسلکوا سُبُلًا، وذَلَّلُوا طرقًا، وَعَبَّدُوا مناهج، ومدُّوا أيديهم إلى فرع من فروع العلم الرياضي الذي هو أحد أقسام علم الفلسفة الشاملة لسائر العلوم حتى استظلت به سهام التَرَكَات، وانتظمت به الأسُرات... هذا ما صنعه فقهاؤنا الذين استنبطوا علما قائما بذاته هو «علم الفرائض» من آيات معدودة في سورة النساء...

لقد كانوا بعيدي النظر، واسعي الأفق، فاستعانوا بالعلوم على الاستنباط من القرآن، ولم يدخروا وسعا في استنباط العلوم، واستخدام ما يحتاجون إليه من علوم الحكمة العامة آيات معدودة في الفرائض اجتذبت فرعاً من علوم الرياضيات... فكيف والقرآن يضم سبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها...

فلماذا لا يعمل المسلمون في آيات العلوم الكونية ما فعله آبائنا في آيات الميراث؟

إن هذه القطيعة الموحشة، بين الدين من ناحية، وبين الكون والحياة من ناحية أخرى، ينكرها الإسلام كل الإنكار، ويطلب من عباده الصالحين مسلكاً يُناقضها كل المناقضة.

* * *

وقد التفت المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، إلى هذه الناحية من الإعجاز العلمي، فأيد ما ذهب إليه العالم التركي باشا في كتابه «سرائر القرآن» ونقل قدراً منه في الجزء الثاني من «تاريخ أدب العرب»، (2) ثم قال الرافعي: (3) «ولعل متحققاً لهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن الكريم، وأحكم النظر فيه، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم، ولا يلتوي عليه أمر من أمره، لاستخرج منه إشارات كثيرة، تومئ إلى حقائق العلوم، وإن لم تبسط من أنبيائها، وتدل عليها، وإن لم تسمها بأسمائها، بلى، وأن في هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونا على تفسير بعض معاني القرآن، والكشف عن حقائقه، وأن فيها لجماما ودربة لمن يتعاطى ذلك، يحكم بها من الصواب ناحية، ويحرز من الرأي جانباً، وهي تفتق له الذهن، وتواتيه بالمعرفة الصحيحة على ما يأخذ فيه،

(2) ص : 127، ط، س 1953.

(3) ص : 125، ط، س 1953.

وتخرج له البرهان، وإن كان في طبقات الأرض، وتنزل عليه الحجة وإن كانت في طباق السماء»!!

إن دراسات العلوم الكونية، كما قال العلماء، أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما علم سنن الله الكونية ونواميس الطبيعة، فإنها للازدياد في معرفة الله، وهي فرض عين على كل قادر، كما هو مقرر في باب الشكر للإمام أبي حامد الغزالي، وهي نفس علم التوحيد الحقيقي، والمعرفة والشكر يكونان على كل امرئ بقدر طاقته.. إن كتاب الله يكرر الحديث عن سنة الله في الطبيعة والإنسان، إثارة للعبرة، وحفزاً للفكرة، ودعوة إلى التأمل والتفكير.

يقول المفسرون في الآية الكريمة وتفسيرها : «**قد خلت من قبلكم سُنَنٌ، فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**»، (4) سنن من الله في الأمم السالفة، إذ كذبوا رسله، وجحدوا نبوتهم بالاستئصال، وتبقيّة آثارهم في الديار للاعتبار والاتعاظ... فعن الحسن وابن إسحاق: «...**فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**»: أي تعرفوا أخبار المكذبين، وما نزل بهم، لتتعظوا بذلك، وتنتهوا عن مثل ما فعلوه، ولا تسلكوا في التكذيب والإلحاد طريقهم، فيحل عليكم من العذاب ما حلّ بهم...».

فكتاب الله، لم يعول على المعجزات، أو على الخرق في الطبيعة كوسيلة للإيمان والتصديق، بل جعل التأمل في جمال الكون، وصفحته القائمة البينة، أو الهالكة الدارسة، وسيلة للإيمان، وطريقاً للخضوع للواحد الديان..

ونلاحظ في الاستفهام التوبيخي في قول الحق تعالى: «**أَفَلَا تبصرون**»، (5) ازراءً بأولئك الذين يصدون عن هذه الآيات

(4) سورة آل عمران، آية : 137.

(5) «الذاريات» آية : 21.

المنتشرة في أرجاء الأرض، وحث لهم على النظر إليها، وتأملها تأملاً فكرياً مُوحياً دالاً.

وهذا جار الله صاحب الكشف يقول في قوله تعالى : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يريد ما سنه الله في الأمم المكذبين من وقائعهم.. «هذا بيان للناس»: إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم، والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم...» والإنسان لا يزال ينتقل، كل لحظة ولمحة، من برهان إلى آخر، ومن دليل إلى دليل آخر، فكثرة الدلائل، وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين، وإزالة الشبهات، فإذا كان الأمر كذلك، ظهر أنه تعالى، جَدّ ربنا، إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار، لا لتكثير النحو الغريب، والاشتقاقات الخالية من الفوائد، والحكايات الفاسدة كما قال الرازي في «مفاتيح الغيب»، والذي كان يرى رحمه الله أن القرآن، إنما أنزل لأغراض سامية، ومقاصد عالية، في جملتها، إثبات الخالق سبحانه، وأنه كان ينحي على أولئك المفسرين الذين يعنون بمسائل النحو والصرف، وقواعد البلاغة والبديع حين غفلتهم عن هذه الأغراض القرآنية الخطيرة.

وكما قال الأستاذ محمد الغزالي : إنني أكره التدين المحجوب عن جمال الكون وعظمته، المشلول عن فهم أسرارهِ وتسخيرها لمصلحته...

ويساورني - وأنا أتلو القرآن - شعور بأن الله، يُريد لفتنا إلى إبداعه في الأنفس والآفاق، يريد إشعارنا بما في كونه من دقة ورقة، ولطافة واقتدار، يريد من الناس أن يطالعوا آيات عظمته في هذا الكون، الدال على ربه، الموجّه إليه بالليل والنهار...

إنه مثير للعجب أن يعيش جمهور المسلمين من بضعة قرون، لا يعرفون عن الكون شيئاً يذكر. وأن تكون علومه ثانوية في ثقافتهم

الخاصة والعامة، وأن يكون التعرف على أسرارهِ وقواه شيئاً كماليا خفيف الوزن عند البعض، وضرباً من اللغو والعبث عند البعض الآخر...

* * *

وفي الوقت الذي صدّ فيه المسلمون عن الدراسات الكونية، أوغل آخرون، من غير المسلمين، في طريقها، وحققوا مآرب رهيبة، ثم طوعوها لنصرة عقائد باطله، وفلسفات وضيعة..

إن تقدم العقل الإنساني مما يزيد في ضرورة هذا التحليل والبيان على نحوٍ تطمئن إليه البصائر المخلصة، والضمائر المنصفة... وإذا كنا نرى «النصوص الدينية» في أوروبا تؤلف لها المجامع المختلفة، من ذوي الثقافات المتعددة، فيقومون بتوضيح ألغازها، وتفسير مضمونها، كل حسب اختصاصه ومنحاه، فهذا مؤرخ يستعرض ما جاء في التوراة والإنجيل من قصص وأنباء، وذاك طبيب يستنبط من شتى النصوص ما يؤيده تقدم الطب، وتفوق التشريح... وذاك اجتماعي يستخلص مما بين يديه قواعد ثابتة لازدهار العمران وانقراضه، وارتفاع الأمم وانخفاضها، حتى تضخمت المكتبة الدينية تضخماً لا يمنع مستقبلاً من اطراد البحث، ومواصلة الاستنتاج.

* * *

وقد جاء الدين الإسلامي بالتدبر في ملكوت الأرض والسموات، ويدلك لذلك أن ثلث الشريعة الإسلامية عبادات، وأسرار تلك العبادات تتضمن سعادة البدن وحياة الروح، زيادة على إخلاص العمل لوجه الله... وبقية الثلثين معاملات دنيوية، وكيفية الأخذ منها، والرد بالقسط، انظر إلى أجزاء الزرقاني، مثلاً، على المختصر، الثمانية... فإن أحكام العبادة منها لا يزيد على جزئين، وبقية الأجزاء الستة أحكام المعاملات الدنيوية، بل قال بعض الكاتبيين: إن في القرآن من آيات العلوم الكونية ما يزيد على سبعمائة

وخمسين آية، أما علم الفقه تزيد آياته الصريحة على مائة وخمسين آية.. (6)

* * *

وكان من الطبيعي أن يتفاوت اجتهد المسلمين في فهم أي القرآن بتفاوت معارف عصورهم، وبتفاوت إدراك أشخاصهم مع حد أساسي من الفهم الصحيح للقرآن الكريم عرفه المسلمون منذ سمعوه يتلى عليهم أول مرة، أدركوا بمفطور حسهم البلاغي اللغوي الدقيق، وبما تعلموه في مدرسة النبوة الأولى...

وإذا كانت عناية كتاب الله المبين بالطبيعة من أجل تحقيق أهدافه الكبرى فائقة هادفة مؤثرة، فهي تتسم بالأهداف النبيلة التي توخاها الكتاب العزيز وهي أهداف تتصل عن كَنَبِ بقضية الإنسان وتكوينه الفكري والأخلاقي والنفسي، وهو يقطع شوطه في هذه الحياة، ويستعد لاستقبال مصيره في الحياة الأخرى.

* * *

وكانت آيات الطبيعة التي تربو على السبعمائة آية، محققة لهذه الأغراض المهمة التي جاء من أجلها كتاب الله الذي كان محورا لتصحيح فكري على نطاق واسع، وذلك حين حوّل الفكر الإنساني من الميثولوجية الحائرة، إلى الحقيقة المطمئنة...

بل إن القرآن الكريم، في وضوح بيّن، قد جعل الإيمان لحمَةً في نسيج، سداه معارف العلوم الطبيعية الكونية، وقد شاءت إرادة الله وحكمته أن يكون إرشاد الناس وهدايتهم بوسائل متنوعة، وهو سبحانه خبير بعباده، فهو تارة يخاطبهم بما يمس قلوبهم مساً رقيقاً رقيقاً، وهو تارة أخرى يُقرّع عقولهم قرعاً قويا شديداً...

(6) لابن المتوج أحمد بن عبد الله بن علي الشيعي (ت: 810هـ) : «كتاب النهاية»، في خمسمائة من آيات القرآن التي فيها مدار الفقه، [إيضاح، ج : 4، ص : 347].

ولقد اهتدى الأسبقون إلى تفاوت الناس في فهمهم للقرآن، فمن ذلك ما اقتبسه أحمد الشرباصي رحمه الله عن الراغب الاصفهاني من كتابه: «مقدمة التفسير»: «...ثم إن القرآن - وإن كان في الحقيقة هداية للبشرية، فإنهم لن يتساووا في معرفته، وإنما يحظون به بحسب درجاتهم، واختلاف أحوالهم، فالبلغاء تعرف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه، وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه»، وقد علّق الأستاذ عبد الحافظ حلمي محمد في مقال له على هذه المقولة: «ولعله من فضول القول أن نقول بعدما قدمنا. إن علماء الطبيعة ليسوا بدعاً من هؤلاء الذين ذكرهم الأصفهاني.

* * *

إن الإسلام يريد منا أن نكون نحن أعلم الأمم لا في التفسير والحديث والفقه وعلوم الدنيا وحدها، لا، بل أن نكون أعلم الأمم بعلوم الأبدان، وعلوم الأذهان، وعلوم الأكوان، وعالم الحيوان والبلدان، بل في كل علم توصل إليه الإنسان...

هكذا كان المجتمع الإسلامي الأول... كان المسلمون هم سادة الدنيا، وهم قادتها، وهم أساتذتها، وهم أغنيائها، ولكن كان مقصدهم منها رضى الله، واتخاذ هذه الدنيا مزرعة ليوم الحصاد في الآخرة، ومدخرا للربح يوم الحساب، أي أن الدنيا كانت في أيديهم، ممتلئة بها، لكن لم تكن في قلوبهم، لأن قلوبهم ممتلئة بحب الله وخشيته، وابتغاء ثوابه، وخوف عقابه... لقد مدح شاعر المامون بقوله:

أضحى إمام الهدى المامونُ مشتغلاً
بالدين، والناس، والدنيا مشاغلي

فلم يلتفت إليه، فشكا ذلك إلى صديق له، وقال له : «إن المامون على علمه وفضله لا يقدّر جيّد الشعر... أنشدته هذا البيت، فلم يئجّ له، ولم يحفل به، فقال له صديقه: يا أحمق، مازدت على أن جعلته محجوزاً في محرابها! هلاً قلت له مثل الذي قاله عمك في الوليد:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه

ولا عرض الدنيا عن الدين شاغلُه

هذا هو الإسلام : توازن بين مطالب الدنيا، وبين أسباب النجاة في

الآخر....

* * *

إن الذي يقرأ كتاب الله الكريم بتمعن، في محاولة للإلمام بطبيعة موقفه من «العلم» يجد نفسه أمام حشد من الآيات البينات ممتدة، وفق أبعاد أربعة، توازي المسألة العلمية في اتجاهاتها كافة، يتناول أولها مسائل تتعلق بحقيقة العلم وأفاقه وأهدافه، في ما يعرف بفلسفة العلم، ونظرية المعرفة، ويتناول ثانيها منهج الكشف عن الحقائق العلمية المختلفة، ويعرض ثالثها لمجموعة من السنن والقوانين في مجالات العلم المختلفة، وخاصة الطبيعة والجغرافيا وعلوم الحياة، فيما يسمى بالعلوم المحضة أو الصّرف، ويدعو رابعها لاستخدام هذه السنن والقوانين التي كشف عنها منهج تجريبي في البحث، من أجل ترقية الحياة وتنميتها على طريق خلافة الإنسان لإعمار العالم فيما يعرف بالعلوم التطبيقية.

* * *

وما من شك أن هناك ارتباطاً وثيقاً ومحكما بين هذه الأبعاد، يقود أحدها إلى الآخر، فالفلسفة تحلّل أهداف العلم، والمنهج يطرح طريقة عمل للكشف عن الحقائق: السنن والنواميس التي تحكم الكون والعالم والحياة، وتمحي صيرورتها الزمنية ذات النظام المعجز... وهذه السنن والنواميس

تمنح الإنسان - بدورها - المعادلات التي يمكن بها من أن يدخل إلى صميم التركيب المعجز هذا لبنية الكون والعالم والحياة من أجل اعتماد تلك السنن والنواميس لتنفيذ قدر من التطبيقات العلمية تمضي بالحضارة البشرية قد ما صوب الأحسن والأرقى، وتتيح للإنسان أن يتحرر من شد الضرورات لكي يكون أكثر قدرة على رفع رأسه إلى فوق ومحاوره السماء، وتلبية حاجاته الروحية التي بها يتميز الإنسان عن سائر الخلائق، ويمكن من تنفيذ أكثر امتداداً لمقتضيات خلافته العمرانية في العالم... (7)

* * *

إن مبدأ الاستخلاف الذي يطرحه الإسلام في كتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، هو واحد من المبادئ التي يرفدها العلم ويمكن لها في الأرض...

إن الإنسان المسلم هو خليفة الله في العالم بعث لتطويره. وإعمارهِ، وتذليل صِعَابِهِ وَعِقَابِهِ، والاستجابة لتحدياته، من أجل تسوية أرضيته كي تكون أكثر ملائمة لحياة مطمئنة راضية تعلو على الضرورات، بعد أن تتحرر منها، وتكون أكثر قدرة على التوجه إلى فوق، إلى خالقها جل وعلا، دون أن تُنَغِصَ رؤسها، أو تحني ظهورها ثقلَ الجاذبية أو ضرورات التراب...

وهكذا فإن تنفيذ مهام الاستخلاف، ومنحها الضمانات الكافية، وإعانتها على تحقيق أهدافها في التقدم الدائم، لن يتأتى بدون اعتماد طرائق البحث العلمي ومناهجه للكشف عن سنن العالم والطبيعة ونواميس الكون من أجل الإفادة من طاقتهما المذخورة، وتحقيق قدر أكبر من الوفاق بين الإنسان وبين محيطه، وبدون هذا... فإن مبدأ الاستخلاف لن يكون بأكثر من نظرية أو عقيدة تسبح في الفراغ.

(7) الدكتور عماد الدين خليل.

لقد أصيب الشرق بركود طويل، وسُبات عميق، في بعض فتراته، دفع ببعض بلاد الإسلام إلى الانكماش داخل حدودها، كما تنكمش القوقعة داخل صدفتها... حتى أصيبت بالضعف والهوان...

ومما يكشف عن عمق التخلف منذ فترة غير بعيدة نسبياً، ولا سيما في مصر في هذا الوقت الذي كان مجرد عينة من التخلف العربي ككل، ما ذكره المؤرخ المصري الجليل: الجبرتي بعد زيارته لبعض معامل الحملة الفرنسية، ومشاهدته لبعض التجارب الكيميائية التي عرضها عليه علماء الحملة: «هذه أشياء لا تقوى على فهمها عقول أمثالنا».

يقول الجبرتي هذا، وهو سليل الحضارة العربية الإسلامية الأصيلة التي انجبت من قبل عشرات العلماء الأفاضل الذين ملأوا العالم بأفكارهم ونظرياتهم، ويكفي أن كتب ابن سينا في الطب، ظلت تدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر، ولكن الشقة كانت حقا بعيدة بين عهد الازدهار، ومرحلة التخلف والانهار...

وقد وصف الرحالة الأوروبيون الذين وفدوا على مصر والشام وسائر بلدان الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر أمثال «سافاري» Savary، و«فولني» Volney وغيرهما، بعض البلدان الإسلامية قال «فولني» يصف الحالة العلمية في مصر وقتذاك: «الجهل عام في هذه البلاد مثل سائر تركيا، وهو يشمل كل الطبقات، ويتجلى في كل العوالم الأدبية والطبيعية، وفي الفنون الجميلة... أما العلم، فوجود الأزهر فيها جعلها مقصد الطلاب من الشرق الإسلامي».

وحتى هذا العلم، وحتى هذا الأزهر، لم يكونا في القرن الثاني عشر (الثامن عشر الميلادي) في حالة طيبة مبشرة، بل شملتها موجة من الركود والجمود، وقد وصف المؤرخ المصري الشيخ عبد الرحمن الجبرتي مدى ما وصلت إليه الحالة العلمية في مصر من تأخر وجمود في ذلك القرن،

فذكر أن أحمد باشا الوالي التركي على مصر (1162هـ - 1163 - 1749 - 1750) كان: «من أرباب الفضائل، وله رغبة في العلوم الرياضية، ولما وصل إلى مصر، واستقر بالقلعة، وقابله صدور العلماء في ذلك الوقت، وهم: الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ جامع الأزهر، والشيخ سالم النفراوي والشيخ سليمان المنصوري، فتكلم معهم، وناقشهم وباحثهم، ثم تكلم معهم في الرياضيات، فأحجموا، وقالوا: «لا نعرف هذه العلوم!!! فتعجب وسكت»... (8)

ثم ذكر الجبرتي أن الشيخ الشبراوي طلع على عادته إلى القلعة في يوم جمعة، «واستأذن، ودخل عند الباشا يحادثه، فقال له الباشا: «المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها، فلما جئتها وجدتها - كما قيل: «تسمع بالمعيدي، خير من أن تراه...».

فقال له الشيخ: «هي يا مولانا - كما سمعتم - معدن العلوم والمعارف» فقال: «وأين هي؟ وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم، فلم أجد عندكم منها شيئاً، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل، ونبذتم المقاصد»، فقال له: «نحن لسنا أعظم علمائها، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم، وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام... وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب والغبار...».

فقال له: «وعلم الوقت، كذلك من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم والأهلة... وغير ذلك!!

(8) «عجائب الآثار» للجبرتي ص: 244 / 1. ط: الأنوار المحمدية بالقاهرة.

فقال : «نعم؛ معرفة ذلك من فروض الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقيين الطلب، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية، كرقعة الطبيعة، وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل، والأمور العطاردية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، وأخلاق مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك...».

فقال : «وأين البعض؟» فقال : «موجودون في بيوتهم، يسعى إليهم» قال الجبرتي المؤرخ: «ثم أخبره عن الشيخ الوالد (يقصد والده الشيخ حسن الجبرتي العالم الرياضي الفلكي الكبير في ذلك الحين) وعرفه عنه، وأطنب في ذكره».

ثم ذكر الجبرتي بعد ذلك أن الباشا أرسل إلى الشيخ حسن الجبرتي فاستدعاه لمقابلته، وأنه : «سُرَّ برؤياه، واغتبط به كثيرا، وكان يتردد إليه يومين في الجمعة... وهما السبت والأربعاء، وأدرك منه مأمولَه.. ولازم المطالعة عليه مدة ولايته، وكان يقول: «لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني».

وأخيرا يختم الجبرتي قصة والده وعلماء مصر مع الباشا بجملة لطيفة فيها نقد ساخر لاذع فيقول:

«وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوي كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول: «سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا، فإنه لولا وجودك كنا جميعا عنده حميرا...» (9)

الأمير شكيب في مصر :

لما زار الأمير شكيب أرسلان مصر عام 1890م، واجتمع مع الشيخ الإمام محمد عبده، قال لرفيقه وخليفه الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان،

(9) الجبرتي : «عجائب الآثار، في التراجم والأخبار» ص : 244 - 245 / 1. مطبعة الأنوار المحمدية.

بأن يذهب معه إلى كبار مشايخ الأزهر، كالشيخ العباسي، والشيخ الأنباري، والشيخ عبد القادر الرفاعي، حتى يتعرف الأمير شكيب على حال هؤلاء العلماء... فلما زار الشيخ الأنباري، وجد الأمير شكيب عنده عالما جليلا اسمه الشيخ الظواهري، فلما ذكر الشيخ عبد الكريم اسم الأمير شكيب، وقال بأنه من جبل لبنان، قال هذا الشيخ المسمى بالظواهري: وأين جبل لبنان؟ أمن العرب؟ فأجابه الشيخ عبد الكريم، بل في سورية... فكاد الأمير شكيب أرسلان يصعق من الدهشة لجهل هذا الشيخ إلى هذا الحد معرفة البلدان، ولما رجع الأمير إلى البيت، أخبر الأستاذ الإمام محمد عبده بما وقع، فقال لنا: «نعم، وهذا الشيخ الظواهري الذي يجهل أين جبل لبنان، هو من علماء الطبقة الأولى.. وهذا، وأشباهه كان من أسباب نعي الشيخ الإمام على جمود العلماء الأزهريين، ونفورهم من العلوم العصرية، وحصرهم جميع قواهم العقلية في دروس معلومة يجهلون كل شيء، سواها، حتى أصبحوا كأنهم ليسوا من أهل هذا العصر، بل ليسوا من أهل هذه الدنيا... وما جعل الإمام محمد عبده يتأوه على فراش موته، رحمه الله، ويقول:

ولست أبالي أن يقال محمد
أبل، أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين، أردت صلاحه،
أحاذر أن تقضي عليه العمام!!

* * *

لقد كان العلماء في الصدر الأول يهتمون بالنظر في آلاء الله، وأسرار الكون، ونواميس الطبيعة، ويحضون طلابهم أثناء تفسير كتاب الله على التأمل والنظر والاعتبار... ثم خَلَفَ من بعدهم خَلَف، فوجهوا اهتمامهم إلى العلوم العربية والمنطق والعلوم الآلية. وقد وصف ما آلت إليه حالة العالم

الإسلامي من تخلف وإهمال في هذا المضمار العالم المصري رفاعة رافع الطهطاوي الذي أرسله والي مصر محمد علي، إلى باريس مع بعثة علمية مصرية، وعاد ليكتب عن تجربته الغنية ويقول في معرض حديثه عن العلماء في العالم الغربي، وعلمائنا في المشرق الإسلامي فقال: «وكما أن البلاد الإسلامية قد برعت في العلوم الشرعية والعمل بها، وفي العلوم العقلية، وأهملت العلوم الحكيمة بجملتها، فلذلك احتاجت إلى البلاد الغربية في كسب ما لا تعرفه... ولهذا حكم الافرنج بأن علماء الإسلام، إنما يعرفون شريعتهم ولسانهم، يعني ما يتعلق باللغة العربية، ولكن يعرفون لنا بأننا كنا أساتذهم في سائر العلوم، وبِقَدَمِنَا عليهم. ومن المقرر في الأذهان، وفي خارج الأعيان، أن الفضل للمتقدم، أو ليس أن المتأخر يغترف من فضالته، ويهتدي بدلالته؟ وما أحسن قول الشاعر:

ومما شجاني أنني كنت نائما
أعلل من فرط الكرى، بالتَّسُّمِ
إلى أن بكت ورقاء في غصن أيكة
تردد مبكاهها بحسن الترنم
فلو قبل مبكاهها، بكيث صباة
بسُعدي، شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا
بكاهها، فقلت، «الفضل للمتقوم» (10)

وقال في جهة أخرى من كتابه الأنف الذكر يشرح معنى العلماء عندهم وعندنا فقال: «... ولا تنوهم أن علماء الفرنسيين هم القُسوس، لأن القسوس إنما هم علماء في الدين فقط، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا... وأما ما يطلق عليه اسم العلماء، فهو من له معرفة في العلوم

(10) «تخليص الابريز، في تلخيص باريز» ص : 16 - 17.

العقلية... ومعرفة العلماء في فروع الشريعة النصرانية هينة جدا... فإذا قيل في فرنسا هذا الإنسان عالم، لا يفهم منه أنه يعرف في دينه، بل إنه يعرف علما من العلوم الاخر، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عَمَّن عداهم، وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها... وأن الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة، وجامع بني أمية بالشام، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، ومدارس بخارى، ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية وبعض العقلية كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية... (11) ولقد أدت هذه الكشف والمخترعات والإضافات العلمية ونظارها إلى تمكن الإنسان من تسخير ما خلق في الكون للتسخير والانتفاع... إذ مهدت الاكتشافات العلمية الأجواء والأرضين والبحار لوجود حضارة علمية ممثلة في الطيران والصواريخ ومركبات الهواء، والوسائط الفضائية القادرة على نقل الصور والكلمات «والفاكس» عبر القارات الممثلة في هندسة حركة الأجسام الضخمة الطافية على سطح البحر، والساربة فيه، والممثلة في تطوير الزراعة، وهندسة المعلومات، والسيطرة على معظم الأوبئة والأمراض...

* * *

ومبدأ التسخير ملمح إنساني من ملامح الرؤية الإسلامية للكون والحياة، يحتم، ولا ريب، اعتماد العلم لتحويله على أرض الواقع، والتحقق بعطائه الكريم...

(11) المصدر السابق ص : 161، من الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، وأحمد رافع الحنفي الطهطاوي (مدينة في مصر) ولد عام 1858، تعلم في الأزهر على عlish والخضري والأنبائي، له مؤلفات دينية منها: «كمال العناية، بتوجيه ما ليس كمثله شيء من الكناية» في الكلام... [انظر : «الرحلة إلى الغرب، والرحلة إلى الشرق» لناجي نجيب دراسة مقارنة - رحلة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا، ورحلة «إدوار دلين» إلى مصر في مطلع القرن التاسع عشر، وانظر، أيضا: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي لمحمود فهمي حجازي...]

إنَّ العالم والطبيعة، وفق النظرة الإسلامية، قد سُخِّرَا للإنسان تسخييراً...
والله سبحانه قد جَدَّدَ أبعادهما وقوانينهما ونظمهما وأحجامهما بما يتلاءم
والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم، وقدرته على التعامل مع
الطبيعة تعاملًا إيجابيًا فاعلاً...

فثمة ذلك المبدأ الأساسي من مبادئ الحياة والفكر الإسلامي: التوازن
بين الحاجات الروحية والمادية، وهي مسألة عميقة في نسيج القرآن
الكريم...

* * *

ويتبين، بوضوح، أن الآيات القرآنية التي تحدثت عن التسخير الكوني،
إنما خوطب بها مطلق إنسان، سواء أكان هذا الإنسان مسلماً، أم يهودياً، أم
نصرانياً، أم بوذياً، أم لا دين له - من سماء أو أرض - لأن الخطاب في
الكتاب العزيز متعلق بالبشرية المطلقة...

إنَّ التقدم العلمي والتقني في الغرب هو من عطاء الرب، منحه لأولئك
الأقوام الذين استجابوا لمقتضيات سننه في كونه العظيم...

فهذه الحضارة الإنسانية هي جهد عقلي علمي منهجي استطاع أن
يكتشف من قوانين الكون، ومن سنن تسخيرها ما مكنه من أن يبني نشاطه
العلمي على أساس صحيح في هذا المجال...

ولئن تقدم الغرب بسبب فهمه لقوانين الكون، وتفاعله معها، وبناء
حضارته العلمية على أساس ذلك، فإن المسلمين لما فرطوا تفريطاً طويلاً
في مُباشرة هذا السبب، قَلَّ حظهم من مفهوم الربوبية هذا، كما قلت، أو
انعدمت حظوظ الذين أرادوا عملاً بلا طلب، ونسلاً بلا زواج، وصحة
نُصرة، بلا غذاء صحيح، وبلا اعتدال في طعام وشراب، ونوم وصحو...

وما دام أنه لا حياة إسلامية، بمعنى الكلمة أن لم يتحقق ذلك التوازن
العادل بين طرفي التكوين الإنساني، بل في نسيج التكوين الإنساني بشكل

أدق، وما دام قد أريد للتجربة الإسلامية أن تتحرك على أرض الواقع، وتصوغ إنساناً متوازناً قديراً على الفعل والحركة والتغيير، غير متأزم أو جانح أو مكبوت، فلا بد من طرائق العلم وحقائقه وتطبيقاته، هذه الرؤية التعادلية التي لا نجدها في أي مذهب أو عقيدة أخرى في هذا العالم بهذا القدر من الشمولية والالتزام.

إن هذا القرن قد تألق بملايين الكشوف والاختراعات منها أربعة ملايين براءة اختراع في الولايات المتحدة وحدها... معظم هذه الكشوف والمخترعات قد أنجز بعقول، وبأيدي غير إسلامية من شتى المِلَل والأعراق منذ بواكير النهضة العلمية الحديثة، وإلى يوم الناس هذا...
أليس من المفارقات المذهلة، أن ميزانيات البحث العلمي في العالم الإسلامي، لا تكاد تبلغ 4٪ من ميزانيات البحث العلمي في اليابان...
ويكفي أن نقول بأن الحملة التي قادها «الكفار» كانت الشرارة الأولى لانطلاق الفكر العربي من إسهاره، نحو المسيرة العلمية الحاضرة...

* * *

إن المواجهة بين الحملة الفرنسية والمجتمع المصري رغم قصرها، إلا أنها كانت بمثابة الشرارة التي أطلقت عنان الفكر العربي الحديث، وذلك أنه بعد الاحتكاك المباشر والرؤية العيانية للغرب المتقدم ممثلاً في الحملة الفرنسية... ثارت التساؤلات حول ما هي أسباب التخلف العربي؟ وكيف يمكن أن نكتسب أسباب التقدم؟

هذه هي الإشكالية الرئيسية التي تصدى لها رائد الفكر العربي الحديث الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الذي أرسله والي مصر محمد علي إلى باريس مع بعثة علمية مصرية، وعاد ليكتب عن تجربته الغنية كتابه المعروف: «تخليص الإبريز، في وصف باريز» الذي سجل فيه بالتفصيل ملاحظاته الثاقبة عن المجتمع الفرنسي، وتعليقاته الذكية على النظريات

السياسية والاقتصادية والفكرية التي كانت تموج بها أوروبا في ذلك العهد...

ولا نريد أن ندخل، هنا، في الجدل الذي يدور في الوقت الراهن بين المؤرخين والمنظرين حول ما إذا كانت الحملة الفرنسية هي التي وضعت العالم العربي على طريق العصرية والتحديث... أم أنها كانت هي بذاتها التي أجهضت عملية تطور تحديثي بطيء، وتدرجي وأصيل، كان يأخذ مجراه في بنية المجتمع العربي... ونقتنع بالإشارة إلى أن جمهرة المؤرخين العرب ظلوا إلى وقت قريب من أنصار النظرية الأولى... إلى أن ظهرت مجموعة من المؤرخين العرب وبعض المؤرخين الأجانب من أبرزهم المؤرخ الأميركي الشهير «بيترجران» مؤلف: «الجدور الإسلامية للرأسمالية» لقد زهبت هذه المدرسة الثانية من المؤرخين إلى أن حركة الإحياء كانت تأخذ مجراها في بنية المجتمع العربي في أواخر القرن الثامن عشر، كما يؤكد «بيترجران» من خلال تحليل متعمق لبنية المجتمع المصري الاقتصادية والفكرية... إنه نشأت في مصر - نشأة محلية خالصة - ضرب من ضروب الرأسمالية التجارية أثر على الإبداع العقلي والانتاج الفكري الذي ظهرت بوارده في حركة تجديد فكرية الأزهر قادها الشيخان حسن العطار والزبيدي وغيرهما من كبار العلماء وصدور الإعلام.

فكانت الحملة الفرنسية بما ضمته بين صفوفها كانت إعلاناً بارزاً عن الغرب: التقدم التكنولوجي ممثلاً في السلاح الحديث، الفكر العلمي ممثلاً في فريق العلماء، والمطبوعة رمزاً للفكر وأهمية إذاعته ونشره بين الناس، ولم يضيع علماء الحملة الفرنسية وقتهم، فقد قاموا بعملية مسح شاملة للمجتمع المصري بجوانبه المادية والفكرية، كان حصادها العمل الموسوعي الشهير «وصف مصر» الذي خرج في عدة مجلدات.

* * *

على أن الفريق الأول لا ينسى ما قامت فرنسا إزاء العلماء ومطاردتهم وملاحقاتهم وإيداعهم السجون وديار المنفى، بل إننا لا ننسى ما فعله الاستعمار الفرنسي عندما دخل مصر ووصل إلى أعظم مقدساتها ومعاهدها، «لقد دخلوا إلى الجامع الأزهر، وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصرحه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب، والخزانات، وشتتوا الكتب والمصاحب، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه، وتغوطوا وبألوا، وتمخطوا وشربوا الشراب، وكسروا أوانيّه، وألقوها بصرحه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه، ومن ثيابه أخرجوه... فانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع، ويرغب الناس في سكنائها، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع، والأجانب لا يمرون بها إلا في النادر، ويحرمونها...» (12)

تلك هي الحضارة التي أتى بها الفرنسيون إلى الشرق، وذلك هو الجواب المفحم الذي نرد به عما أخذ به بعض الذين يردون التطور الذي حصل في مصر إلى الفرنسيين.

* * *

هذا عن مصر. فماذا عن غيرها من الأقطار والديار فيما يتعلق بالحركة الفكرية، والنهوض العلمي في هذه الفترة... ولا سيما في الشام والمغرب؟ تحدث الأمير شكيب أرسلان أيضا عن بعض هؤلاء العلماء، أنه قيل له، وهو في بيروت صحبتة الشيخ محمد عبده، أن الشيخ سيدي إبراهيم التادلي الرباطي المغربي يريد أن يقرأ درسا في الجامع العمري الكبير في

(12) تاريخ الجبرتي ج : 3 / 36 - مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة.

بيروت، فأقبلت الناس لسماع درس هذا الشيخ المغربي الكبير، وذهبنا مع الأستاذ الإمام، ونحن نرجو أن نسمع شيئاً جديداً، أو بحثاً عائداً إلى أمراض العالم الإسلامي الحاضر، وطرق علاجها، مما هو مقدم على كل شيء، فإذا بدرس الشيخ التادلي في شرح: «البسمة»، وما تضمنته من العلوم والمعارف مما هو مستفيض في كتب علمائنا رحمهم الله... ومما لا شك في أن الأستاذ التادلي أتقنه إتقاناً تاماً، ولكنه دَلَّ بهذا على أنه غير مطلع على أحوال زمانه، ولا مكانه، ولا عارف بما يوجب الدين والعلم على العالم المسلم في مثل هذه الأحوال... وكان الشيخ محمد عبده يسمي هذا النوع حفظاً لا علماً، ويقول : إن العلم الذي لا يمتزج بالنفس، ولا يصير جزءاً من أجزائها لا يسمى علماً...

* * *

وقد روى عنه الشيخ «علي يوسف» (13) صاحب «المؤيد» مجلساً جرى بينه وبين جمال الدين أفندي شيخ الإسلام في الاستعانة من جملة ما ذكر الشيخ فيه، أن أمثال هؤلاء، لا يقال لهم علماء، وإنما يقال لهم حفاظ، لأنهم يحفظون عن ظهر القلب أصولاً وقواعد، لا يطبقون منها شيئاً على فروعها، وقال أيضاً، إنه جاء في تعريف بعض السادة المالكية للعالم إنه «الخبير بأمور قومه، المطلع على أحوال زمنه»...

وقد كان الإمام الشيخ سيدي إبراهيم التادلي عندما عاد من الحجاز، عرَّج على المسجد الأقصى، وألقى به درساً أبان فيه عن مقدرته العلمية، ثم انتقل إلى بيروت حينما كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيها... فذهب الأستاذ للسلام عليه، وذهبنا معه، أنا والأستاذ «الشرتوني» صاحب

(13) علي يوسف الشيخ البلفوري، مؤسس الصحافة الإسلامية العصرية بمصر، وصاحب جريدة «المؤيد»، له ديوان شعر، «نسيم الحر» (ت: 1912م).

«أقرب الموارد»، (14) قال شكيب أرسلان : ولم تكن لي ألفة يومئذٍ بلهجة إخواننا المغاربة، فقلما فهمت شيئاً مما كان الشيخ التادلي يقوله، وإنما روى لنا الشيخ بعد انصرافه مآل حديثه..!

فقال لنا : إنه عالم على الطريقة المعهودة بالأزهر، والتي ابتلي بها العالم الإسلامي كله، فالأزهر والأموي والزيتونة وجامع القرويين كلها واحد، ولم يفهم منه شيئاً جديداً، إلا أنه أعجبه من كلامه شيء واحد، وهو أن الشيخ الإمام سألته : «هل في المغرب، اليوم، مؤلفون، في أصناف العلوم المختلفة؟! فأجابه التادلي: نعم، يوجد مؤلفون في المغرب، إلا أن العلم لا ينتشر بقوة التأليف، وإنما ينتشر بقوة التدريس، وكثرة المذاكرة الشفوية... قال الأمير شكيب: أستاذنا وجد هذا المعنى صحيحاً، وقال لنا: هذا أحسن ما سمعته من كلامه...» (15)

* * *

وللحقيقة والتاريخ أقول بأن الشيخ سيدي إبراهيم التادلي كان أعرف الناس بزمانه، فكانت له مواقف حاسمة في جميع ما يمس العقيدة، أو يخذش كرامة المسلمين الذين يلحقهم الحيف والظلم، يجاهر بالتنديد، ويرفع عقيرته لكل من سَوَّلَ له نفسه المساس بحرمة المواطن، فها هو موقفه المنددُ «بالمُكُوس» حيث بعث للسلطان الحسن الأول، بواسطة المتصلين به، بالنكير ضد هذه الضريبة، وله في هذا الصدد كلامٌ طويل سجله محمد مصطفى بوجندار في كتابه: (16) فيما يلي : «في ليلة 27 رمضان عام 1302 طلب السلطانُ مولاي الحسن، أن أحضَرَ معهم بمسجده

(14) «أقرب الموارد، في فُصَحِ العربية والشوارد» قاموس اللغة العربية، أخذاً عن أئمتها لسعيد الشرتوني. طبع في بيروت بمجلدين، وذيّل (1889 - 1893).

(15) مجلة «المقاصد»، ع : 5 / س : 1 / أيام 1982، مقال للأمير شكيب أرسلان، «عندما عاش محمد عبده في بيروت منفياً».

(16) الاغتباط، خ.ع.ج : 2 ص : 18 - 20.

بالرباط، على العادة عنده في تلك الليلة، بواسطة قاضي الرباط حينه السيد أحمد ملين، فامتنعتُ، واعتذرتُ له بأنني غير صحيح، ونويت أني غير صحيح مما يفعلونه من المظالم، كالمكوس وغيرها»، وبعد هذا، يقول عن الحاجب أحمد بن موسى : «وقد كان السيد أحمد المذكور قبل ذلك، طلب الإذن في زيارتنا، فَإِذْنَا له، فلما أراد الانصراف، وضع بيدي ضَبْلُونَيْنِ ذَهَباً»، فقلتُ له : «زيارتكم عندنا، أن ترغبوا سيدنا، حتى يعطف الله قلبه لزوال المكس»... مما يدل على حضور هذا العالم، ومُلاحَظَتِهِ لأحوال وقته، واستماعه إلى نَبْضِ مجتمعه... كدلالته على تعرف أحوال العالم الإسلامي في زيارته لأقطارهم وديارهم، وإلقاء محاضرات أمام جلة علمائهم، ومبتعداً عن السياسة داخل المساجد، ولا سيما وهو زائر غريب.

* * *

لقد أهم المفسرين ربط الآيات القرآنية التي تصف الطبيعة، كما أهمهم ربطها ببقية المقاصد والأغراض... فالرازي، رحمه الله كان يرى أن القرآن، إنما أنزل لأغراض سامية، ومقاصد عالية في جملتها إثبات الخالق سبحانه، وأنه كان ينبغي على أولئك المفسرين الذين يعنون بمسائل النحو والصرف حسب غفلتهم عن هذه الأغراض القرآنية الخطيرة...

وقد أشار إلى ذلك بقوله: «...ومن الناس من اعتقد أن جملة هذا العالم محدث، وكل محدث، فَلَهُ محدث، فحصل له بهذا الطريق إثبات الصانع تعالى، وصار من جملة المستدلين، ومنهم مَنْ ضَمَّ إلى تلك الدرجة البحث عن أحوال العالم العلوي، والعالم السفلي على سبيل التفصيل، فيظهر له في كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة، وأسرار عجيبة، فيصير ذلك جارياً مجرى البراهين المتواترة، والدلائل المتوالية على عقله، فلا يزال ينتقل كل لحظة وَلَمَحَةً من برهان إلى آخر، ومن دليل إلى دليل آخر. فكثرة

الدلائل، وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين، وإزالة الشبهات، فإذا كان الأمر كذلك، ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب، لهذه الفوائد، والأسرار، لا لتكثير النحو الغريب، والاشتقاقات الخالية من الفوائد والحكايات الفاسدة...» (17)

ولقد قال فرعون لسيدنا موسى : أسمعني علم التاريخ، فقال موسى: كَفَى، كَفَى، هلم بنا نقرأ تاريخ الطبيعة... هلم بنا نقرأ ما كتبه الله في الطبيعة، وما خطه في قراطيس السماء، وألواح الأرض، وهي العلوم الحق التي تعطي قوة الاستبصار والاستنتاج والذاكرة والجمال والحب والإخلاص هذا هو كلام الله، وهذا هو مقصود القرآن، ولهذا أنزله الله، فإن لم يعرفه من قبلنا من الأجيال المتأخرة، بعد عصر الصحابة، فسيعرفه الأجيال الغابرون والأمم المتأخرون.

فالقُرآن قد أحاط بالمثل العليا كلها، فكان كتاب حق وجمال.

كتاب علم... ولكنه لا يعرض نظريات ولا يسرد قوانين، بل يوجه الناس إلى أعمال عقولهم في فهم أسرار الحياة الدنيا، ويؤكد لهم أن لهذه الحياة سنناً محكمة، وقوانين ثابتة، ويشير، وبمقدار ما يستطيع المجتمع الذي نزل فيه القرآن، إلى بعض هذه القوانين والسنن، يشير إليها إشارة، ويدعوهم إلى اكتشافها في أنفسهم... في أجسادهم وعواطفهم، وفي الحيوانات من حولهم، في إبلهم وأنعامهم، وفي النباتات كيف تتجرد ثم تكتسي، وكيف تموت في الشتاء، وتحيا في الربيع في الأرض وما فيها، والسموات وما يرى منها، في البحار والأنهار، والعيون والغدران، في الآبار والأمطار... ويخبرهم أن كل شيء في الكون محدد المقادير قائم على نسب مضبوطة، وعلاقات ثابتة...

يشير كتاب الله، دائماً، إلى قوانين الطبيعة التي طبع الله الكون عليها، وينبه أتباعه إلى استشمال كل ما فيها، وإلى أنه سخره لنا لنتنفع به، إذا أعملنا عقولنا، وأفكارنا في الوصول إلى هذا الانتفاع.

(17) «مفاتيح الغيب» للرازي 4 / 230.

هناك أنصار التفسير العلمي للقرآن التي بسطها العالم المتمكن الأستاذ محمد أحمد الغمراوي غير مرة في أعداد مختلفة من «الرسالة»، (18) وجاء كتابه العلمي النفيس: «في سنن الله الكونية» تطبيقاً عملياً لما يرتئيه، وقد احتاط احتياطاً مفيداً حين وضع القيود المحكمة لهذا التفسير العلمي، فقال نقلاً عن الرسالة: (19) «وقبل أن نورد بعض الأمثلة التوضيحية، يجب أن ننبيه إلى أمرين مهمين: الأول: أنه لا ينبغي في فهم القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز، إلا إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ، ويحمل على مجازه، لأن مخالفة هذه القاعدة الأصلية قد أدى إلى كثير من الخلط في التفسير... أما الأمر الثاني، فهو أنه ينبغي ألا نفسر كونيّات القرآن إلا باليقين الثابت من العلم، لا بالنظريات ولا بالفروض، لأن الحقائق هي سبيل التفسير الحق، هي كلمات الله الكونية ينبغي أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية... أما الحَدُسِيَّات والظنّيات، فهي عرضة للتصحيح والتعديل... إن لم تكن للإبطال في أي وقت.

* * *

وهكذا كان علماءنا الأقدمون يحثون على انتهاز تفسير الآيات الكونية وغيرها من الآيات التي تحكي خلق الله سبحانه وتعالى للإنسان وغيره من الحيوانات والنباتات، إذ العلماء المتقدمون قد اهتموا بتفسير الآيات المشتملة على الأحكام، ولم يهتموا بتفسير الآيات الكونية، وقد قال طنطاوي جوهري رحمه الله عقب تفسيره لآيات الفرائض، وبيان اهتمام العلماء بعلم الفرائض: «يا أمة الإسلام... آيات معدودات مع الفرائض اجتذبت فرعاً من علم الرياضيات... فما بالكم، أيها الناس، بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها... الله أكبر، جَلَّ العلم، وجَلَّت الحكمة... ياليت شعري، لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات

(18) «الرسالة» الأعداد : 705 - 706.

(19) «الرسالة» الأعداد : 705.

الميراث... ولكني أقول: «الحمد لله، الحمد لله، إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما هذه، فإنها للزيادة في معرفة الله، وهي فرض عين على كل قادر... إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق... والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. (20)

ويقول أيضا في مكان آخر : «لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه؟

وعلم الفقه ليس له في القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية؟

فلماذا كثر التأليف في علم الفقه ؟ وقل في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة؟ بل هي تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة... وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة... فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم، آياته قليلة، ويجهلوا علما آياته كثيرة جدا...؟!

إن آباءنا برعوا في الفقه، فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات... لنقم به... لترقى الأمة. (21)

(20) الجواهر : ج : 3 / 19.

(21) «الجواهر» ج : 25 / ص : 53. الشيخ طنطاوي جوهرى، الذي كان أستاذاً بدار العلوم، كما اختير ضمن هيئة التدريس في الجامعة المصرية القديمة حين إنشائها، ثم كان هدفاً لدسائس كثيرة من بعض الجامدين انتهت به إلى المدارس الثانوية التي ظل فيها أستاذاً حتى أحيل إلى المعاش، وهو أحد أصحاب التفاسير القيمة التي ظهرت طبعته الأولى في عام 1918.

الفصل الثاني :

القرآن، ومظاهر الكون البيولوجي

التأكيد على أهمية الماء :

إن القرآن يستلفت أنظار المومنين إلى مظاهر الكون في العالم البيولوجي، فيذكر أن كل شيء خلق من الماء، ويذكر نبات الأرض الحي، والمروج الخضر، والروابي الناضرة، وإنبات الحبوب والثمار والفواكه ذات الألوان الزاهية، وهي صنوان وغير صنوان تسقى من ماء واحد، ويفضل بعضها على بعض في الأكل... والإشارة إلى أن النسل البشري مصدره الأرض، وانتشار كل حيوان في الأرض، وطيران الطيور في الهواء، ووجود زوج من كل شيء حتى النبات، وخلقة الإبل العجيبة، وخلقة الإنسان الأعجب التي هي أعقد وأعجب من كل شيء... ثم تنظيم هذا الكون تنظيمًا محكمًا في دقة وتنظيم واتقان... وصدق الله العظيم: «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ.. فارجع البصر هل ترى من فطور...؟» (22)

* * *

وفي كثير من الآيات الكريمة نرى تأكيدًا على أهمية الماء، والنتيجة العلمية لوجودها على تربة الأرض وخصوبتها، ولا شك أن الماء في البلاد الصحراوية وغيرها يمثل العنصر الأول الذي عليه بقاء الإنسان... ولكن ذكر القرآن لهذا يتخطى تلك الخاصية الجغرافية.. إن الآية تبرز ميزة ثراء الكوكب بالماء.. تلك الميزة الفريدة في النظام الشمسي على حسب أحسن معطيات المعارف الحديثة ثبوتًا، فلولا الماء لكانت الأرض كوكبًا ميتًا مثل القمر...

(22) سورة تبارك، آية : رقم : 3.

وللأهمية العظمى التي لعنصر الماء في مادة الحياة، وتكوين الكائنات الحية، وَلِلْفَتْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نظر المومنين لأهمية هذا العنصر في سنن الكون، ونواميس الطبيعة، فقد ورد في القرآن الكريم في نحو ثلاث وستين آية، وردت في صيغ مختلفة، وصور رائعة وكلها تندرج في إطار ما اُمتنَّ به الحق سبحانه وتعالى على عباده وخلقه من نعم وآلاء...

وترتبط معظم هذه الآيات بين تنزيل الماء من السماء، واستمرار الحياة على الأرض وازدهارها مما يجعل منه نعمة كبرى للبشرية يمتن الله بها على عباده، ويدعوهم إلى تأملها...

والملاحظ أن لفظ «الماء»، في القرآن الكريم يرد في ثلاث وستين موضعاً، معظمها يذكر في السور المكية، في نحو ثمان وأربعين موضعاً، وهذا في حد ذاته دليل على أهمية الماء في جدل القرآن مع مخالفه، ففي هذه الفترة كان النبي عليه السلام يحاور الكفار، ويحاول إقناعهم، ويدعوهم إلى التفكير والتأمل في ملكوت الله...

والجدل مع منكري البعث في الفترة المكية من البعثة يستلزم تقريبه إلى أذهانهم، وتذكيرهم بأن البعث يشبه إنبات الزرع الذي يحدث كل يوم، والذي يجري بأمر الله وحكمته، فالله يُنْشِئُ السحاب، ثم يسوقه إلى البلد الميت، وينزل فيه الماء فيحييه، ويخرج به من كل أنواع الثمار والغلال...

وتتنوع أساليب القرآن الكريم في عرض الماء، ودعوة الكفار إلى تأمل معجزة الله فيه، وفضله عليهم... ومن تلك الأساليب البديعة، الاستفهام تارة للتقرير وذلك كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ، أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. وتارة للتنبيه: «كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ،

ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه، ثم يهيج، فتراه مصفراً، ثم يجعله حطاماً، إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾، وإذا كان المقام مقام تبيين لفضل الله على الإنسان، وامتنان له عليه، كان وصف الماء مرتبطاً بالصفاء والبهاء والعذوبة، والكثرة والبركة : ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً، أحياء وأمواتاً وجعلنا فيها رواسي شامخات، وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾ وقوله : ﴿وانزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً﴾. ﴿ونزلنا من السماء ماءً مباركاً، فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد﴾..

وإذا كان المقام مقام ذكر وتوعد للكافرين بما ينتظرهم يوم الدين كانت صفة الماء صفة منفرة، كقوله تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمُهل يشوي الوجوه﴾.. وقوله: ﴿كمن هو خالد في النار، وسقوا ماءً حميماً﴾ وقوله تعالى: ﴿من ورائه جهنم، ويسقى من ماء صديد، يتجرعه ولا يكاد يسيغه، ويأتيه الموت من كل مكان، وما هو بميت، ومن ورائه عذاب غليظ﴾.

ونلاحظ أن صفات الماء في القرآن الكريم يختلف باختلاف الموقف والسياق، فإذا كان المقام مقام تحقير للإنسان، وتذكير بأصله ذكر بأنه خلق من ماء مهين، ففي أربعة مواضع من القرآن، الظاهر أن معناها النُّطْفَةُ: في سورة الفرقان: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصهراً، وكان ربك قديراً﴾ وفي سورة السجدة: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالَةٍ مِنْ ماء مهين﴾ وفي سورة المرسلات: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين، فجعلناه في قرار مكين﴾.. وفي سورة الطارق: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق..﴾.

* * *

ولعل من بديع الإيجاز في القرآن ما ذكره الشيخ بدر الدين محمد ابن عبد الله الزركشي (794هـ) في كتابه: البرهان، في علوم القرآن (23) في قوله تعالى: ﴿يَسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنَفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ فدلّ على نفسه، ولطفه، ووحدانيته، وقدرته، وهَدَى للحجة على مَنْ ضل عنه، لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة لوجب في القياس ألا تختلف الطعومَ والروائح، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد، إذا نبت في مَغْرَسٍ واحدٍ، ولكنه صنع اللطيف الخبير...فالماء واحد، والزهر ألوان.

وفي قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ : يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ، وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي، وَغِيضِ الْمَاءِ وَقْضِيَ الْأَمْرُ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَقِيلَ : بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كيف أمر، ونهى، وأخبر، ونادى، ونعت، وسمّى، وأهلك، وبَغَى، وأسعد، وأشقى، وَقَلَّ من الأنباء ما لو شرح، لا ندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان، ما لو كتب، لجفت الأقلام، وانحسرت الأيدي... وطُوِيَتْ الصحف...

* * *

ونسوق بين يدي نجوى هذه الدراسة المائتة بعض تلك الآيات البينات التي ورد فيها لفظ: الماء... وَأَنَّ من أراد أن يجدد إحساسه وشعوره بالماء. وبفضيلته المتجددة، فهما وتقديرا وانتفاعاً وحرصاً وحراسة وحماية وقتالا دونها إن تعيّن القتال - من أراد ذلك، فليفتح المصحف الشريف إن شاء، وليقرأ فيه أو منه إن شاء... مع الإشارة إلى السورة، والمدينة: مكية أو مدنية ورقم الآية:

(23) البرهان، في علوم القرآن، جمع فيه الزركشي ما تكلم الناس في فنونه، ورتب على سبعة وأربعين نوعاً. قال: ما من نوع منها إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه، لاستفرغ عمره، ثم لم يحكم أمره.

يقول الله تعالى :

﴿وإن منها لما يشقق فيخرج منها الماء﴾ (البقرة : م. 24).
﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض﴾
(البقرة : م. 164).

﴿وأنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾ (البقرة :
م. 22).

﴿فلم تجدوا ماء، فتييموا صعيداً طيباً﴾ (النساء : م. 43).
﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شيء﴾
(الأنعام : ك. 99).

﴿أن افيضوا علينا من الماء، أو مما رزقكم الله﴾ (الأعراف : ك. 50).
﴿سقناه لبلد ميت، فأنزلنا به الماء﴾ (الأعراف : ك. 57).
﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾ (الأنفال : م. 11).
﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ (يونس : ك. 24).
﴿قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ (هود : ك. 43).
﴿يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء اقلعي﴾ (هود : ك. 44).
﴿وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي﴾ (هود :
ك. 44).

﴿وكان عرشه على الماء ليلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (هود : ك. 7).
﴿ونخيل صنوان وغير صنوان تُسقى بماء واحد﴾ (الرعد : م. 4).
﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه﴾ (الرعد :
م. 14).

﴿أنزل من السماء ماء، فسالت أودية بقدرها﴾ (الرعد : م. 17).
﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾ (إبراهيم : ك. 16).

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ (إبراهيم: ك. 32).

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (الحجر: ك. 22).
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ (النحل: ك. 10).

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (النحل: ك. 65).

﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ!﴾ (الكهف: ك. 29).

﴿أَوْ يَصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا﴾ (الكهف: ك. 41).
﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (الكهف: ك. 45).

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ (طه: ك. 53).

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ك. 30).
﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (الحج: م. 5).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ (الحج: م. 63).

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (المؤمنون: ك. 18).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ (النور: م. 39).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ (النور: م. 45).

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (الفرقان : ك. 48).
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ (الفرقان : ك. 54).

﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزِلِ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (النمل : ك. 60).

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (العنكبوت : ك. 63).

﴿وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم : ك. 24).

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان : ك. 10).

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ (السجدة : ك. 27).
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهَا﴾ (فاطر : ك. 27).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الزمر : ك. 21).

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ، اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ (فصلت : ك. 39).
﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ، فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا﴾ (الزخرف : ك. 11).

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ (محمد : ك. 15).
﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ (محمد : م. 15).

﴿وَنَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا، فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (ق : ك. 9).

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (القمر : ك. 11).
﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (القمر :
ك. 12).

﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ (القمر : ك. 28).
﴿وَوَظَلٌ مَمْدُودٌ، وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ﴾ (الواقعة : ك. 31).
﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (الواقعة : ك. 68).
﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (الحاقة : ك. 11).
﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (الج :
ك. 16).

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (المرسلات : ك. 20).
﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِي شَامِخَاتٍ وَأَسْقِينَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ (المرسلات :
ك. 27).

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾ (النبأ : ك. 14).
﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (النازعات : ك. 31).
﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (عبس :
ك. 25).

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (الطارق : 5. 6).

الباب الرابع :

الكوكب المائي

إن كوكبنا، يمكننا أن نطلق عليه «الكوكب المائي»، ولا يضارعه في ذلك أي كوكب آخر في المجموعة الشمسية، وقد أطلق أجدادنا اسم «الأرض» على كوكبنا، حيث كانوا يرون اليابسة تحيط بهم من كل جانب، وعلى قدر علمهم عن الكوكب الذي يعيشون فيه، كانوا يعتقدون لعدة قرون من الزمان، أن سطحه يكاد يتكون كلياً من صخور وتربة، فيما عدا جسيمات صغيرة من الماء مثل البحر المتوسط...

والنشأة الأولى للماء، لم يرد بها نص، ولكن الذي ورد هو وجوده كأول مخلوقات الله تعالى.

وفي هذا المجال نتحدث في موضوع البحار المائية، وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : علوم البحار..

الفصل الثاني : البحر في حياة الرسول.

الفصل الثالث : حديث البحر في الأدب العربي.

علوم البحار

إنَّ كلَّ ما يمكن لِلسَّان أن ينطق به، ويتحدث عنه، ويلفظه تسبيحاً وترتيلاً وتقديساً لآلاء الله وآياته، سوف يكون غاية في النقص والتقصير، ونهاية في العجز والإبلاس، فمهما عدَّد الإنسان تلك الآيات، وأسهب في تفسيرها وإحصائها، فسيخرج آخر الأمر مقتنعاً بأنه لم يُحِط بها علماً، وإنما تناول منها بعض جوانبها...

والحق أنه لو قُدِّر للإنسان أن تنكشف له جميع العلوم الكونية، ثم يجلس سكان المعمور، جميعهم، وقد هُيئت لكل فرد منهم جميع الوسائل في أكمل صورها، فإن هؤلاء جميعاً لن يستطيعوا تدوينها أبداً... فالقلم يحقِّق دون توفيقها بعض حقِّها، والتعمق في كنهها وأسرارها، ومجالات التعبير، تضيق عن تصوير شَطْرٍ من حقيقتها، وعزَمَاتُ الرُّويَّة تكِلُّ عن خوض لُججِ سُوْجِها وباحاتها... فالأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مداداً فكتب بها عجائب صنع الله، الدالة على قدرته ووحدانيته، لم تنفذ تلك العجائب... (1) أليس هذا هو مصداق قوله تعالى: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلامٌ، والبحر يمُدُّه من بعده سبعة أبحر، ما نفذت كلماتُ الله إن الله عزيز حكيم﴾ (2) وقوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماتُ ربي ولو جئنا بمثله مداداً﴾. (3)

* * *

(1) تفسير القرطبي ج : 14 / ص : 76.

(2) «سورة لقمان» رقم الآية : 27.

(3) سورة الكهف، رقم الآية : 102.

ولعل أكثر فروع علوم الأرض، تخلفا، كان تلك المادة المعقدة: «علوم البحار» التي تحاول أن تُمد معرفتنا لتشمل واحداً من أهم المجالات المحيطة بنا، وهو ذلك الجزء من عالمنا المغطى بالماء.

فمنذ أخذ الماء يعمل في وجه الأرض، والتغيرات والتعديلات هي التي هيأت لنا نوع الأرض التي نعيش عليها، وهي التي سوف تحدد نوع الأرض التي سَتَرِثُها سلالَتنا بعد مليون عام من الآن... (4)

* * *

وكلما تعمقنا في معرفة تاريخ الأرض عن طريق الدراسة للسجلات المسطورة بين طيات الصخور، ازددنا اقتناعاً بأن هذا العالم، كان، وما يزال، وسيكون عالماً متغيراً لفترةٍ طويلة جداً، والواقع أن التغيرات الدائمة في سطح هذا الكوكب إنما هي من عمل الماء أساساً، ولكن المناطق الشاسعة التي تغطيها المياه هي أقل المناطق تغيراً، فالماء من فوقها ساكن، والرواسب التي تسقط فيها قليلة جداً... أما الشمس والرياح والصقيع التي تعمل دائماً في اليابسة، وتؤثر فيها، فهي غير معروفة في الأعماق السحيقة المظلمة...

فالأرض حية، وليست جامدة، وهذه الحيوية ناجمة عن الطاقة الحرارية الكبيرة الموجودة بين جَنَبَاتِهَا، والتي تَنَقُّثُ من آن إلى آخر، وبدرجات مختلفة الشِدَّة، على شكل براكين، أو حركات زلزالية....

* * *

كان الله، ولا شيء معه في الأزل... ثم برأ هذا الكون، وذراً هذا الوجود، وخلق من السديم شمساً وأقماراً ونيازكاً وسحباً... ثم أوجد هذه الأرض التي نعيش فوقها... وليس هناك من يعلم عن يقين، كيف جرت الأمور، في

(4) طومسون ص : 44.



انفجرت هذه النجمة من آلاف السنين مضت

الفصول الأولى من تاريخ الأرض... هناك عدة مدارس وروايات في هذا الصدد...

ولا بُدَّ من التعرف، ولو قليلاً، على أَصْلٍ وَمَنْشَأِ الكُرَّةِ الأرضية، لأن هذه المعرفة بيانٌ لكثير من خصوصيات الأرض بأعماقها المختلفة، والتي يمكن من خلالها إلقاء الضوء على كثير من الجوانب المبهمة لظاهرة المياه الجوفية والزلازل...

فما هي أقوال العلماء في الموضوع :

أقوال العلماء تضاربت، قديماً وحديثاً، في أصل ونشأة الأرض، فالعالم لفرنسي «لابلاس» (5) LAPLACE والعالم الألماني «عيمانويل كَانت» (6) KANT: ونظرية «لوكير»، ونظرية «بويل Boyle روبرت»، (7) والعالمان الفرنسيان «بوانكريه» POINCARÉ وكامي فلاماريون FLAMMARION، وغيرهم كلهم له نظر علمي في الموضوع، وكل له وجهة هو موليتها، ومع ذلك، فقد آبوا وقنعوا بالغنيمة بالإياب، ولم يأتوا إلا بعلوم ظنية... لكن الذي نريد البحث عنه في هذه الدراسة التي تمس موضوعنا في الصميم، هو كيف نشأت المياه على هذه الكرة الأرضية؟ باعتبار أن كوكبنا بحق وصدق، يمكننا أن نُطلق عليه «الكوكب المائي»، ولا يضارعه في ذلك أي كوكب آخر في المجموعة الشمسية... وقد أشار ابن خلدون في مقدمته بأن شكل الأرض

(5) لابلاس Laplac، (1749 - 1827) من مشاهير علماء الفلك الفرنسيين، وصاحب الرأي السائد أن العالم تكون في بدئه كرة ضبابية، وصدرت منها الأجرام السماوية، ومنها أرضنا...

(6) عما نويل كانت Kant (1724 - 1804) فيلسوف ألماني له : «نقد العقل» و«نقد الحكم العقلي»، وهي مؤلفات فلسفية خطيرة، ذهب «كانت» إلى القول بأننا لا ندرك ماهية الأشياء، ولكن ظواهرها الحسية في الزمان والمكان... قال بالحرية وخلود النفس، وبوجود الله» وإن ما جاء به «كانت» في عام 1755 يعتبر لبنة حقيقية في صرح المعرفة البشرية عن أصل الشمس وكواكبها المختلفة.

(7) بويل روبرت Boyle. (1627 - 1691) فيزيائي كيميائي إنجليزي، اكتشف وظيفة الأكسجين في الاحتراق...

كروي، وأنها محفوفةٌ بعنصر الماء كأنها عنبَةٌ طافية عليه، فانحسر الماء عن بعض جوانبها، لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرهما». (8)

ويشير القزويني... (9) «بأن الماء محيط بالأرض، إلا بالقدر البارز الذي جعله الله تعالى مقرّاً للحيوان...».

كما أن ابن تيمية يتحدث عن قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ويقول: ﴿اعلم أن الأرض قد اتفقوا على أنها كُرِيَّة، وهي في الماء المحيط بأكثرها، والماء، أيضاً، مقبَّبٌ من كل جانب﴾ قال ذلك، وهو يتكلم عن صفات الله، ويفسر تلك الآية...

المطر أو البحر ؟

فالمطر، مازال لغزاً، حتى بالنسبة للعلماء، فهم، إلى يوم الناس هذا، لم يتأكدوا بعد، عن أيهما كان أسبق في الوجود... المطر... أم البحر...
وينفرد كوكب الأرض بوجود المحيطات دون كواكب المجموعة الشمسية الأخرى، وفي الواقع، فإن ذلك يعتبر أمراً عجبياً، أدّى إلى حدوثه أن درجة حرارة سطح الأرض تقع في المدى الضيق جداً الذي يمكن أن يحتفظ الماء فيه بالحالة السائلة، أي بين درجة الصفر المئوي الذي يتجمد الماء دونها، وبين درجة 100 مئوية التي يتحول الماء فوقها إلى الحالة الغازية، أما في أجواء الكون الفسيحة - خلا الأرض - فإن درجة الحرارة تتراوح بين نهايتين، تقترب إحدهما من درجة الصفر المطلق في الفضاء

(8) مقدمة ابن خلدون ص : 1/424.

(9) «عجائب المخلوقات»، ج : 1 / 247 على هامش : حياة الحيوان للدميري.

بين النجوم، بينما يصل الحد الآخر إلى عشرات الملايين من الدرجات داخل النجوم ذاتها...

ويندر الوصول إلى درجات حرارة بين هذين الحدين يمكن أن تسري فيها السوائل، ومن ثم، فإن الجزء الأعظم من المادة في الكون، توجد إما على هيئة غازات ملتهبة، أو مواد صلبة متجمدة...

* * *

إن ميركاتور⁽¹⁰⁾ الجغرافي الهولاندي، راسم الخرائط، وأول من أطلق اسم «الأطلس» على ذلك الكتاب المحتوى على الخرائط الجغرافية (1512 - 1594) كان حتى 375 عام مضت يعتقد أن الأرض تنقسم نصفين متكافئين تقريبا، أحدهما اليابسة، والآخر الماء، وأن هناك كتلا ضخمة من اليابسة في نصف الكرة الجنوبي، توازي كتل أوروبا وآسيا وأميركا الشمالية، التي تقع في النصف الشمالي، ولم تتجل المعرفة الحق عن كيف وكَم المياه في عالمنا إلا نتيجة للرحلات البحرية التي قام بها كل من الرحالة الهولاندي «آبل تاسمان» (11) (TASMAN ABEL JANS 200 N) الذي سميت «تازمانيا باسمه، وهي جزيرة جنوب أستراليا (TASMANIE) والقبطان الإنجليزي ذائع الصيت» جمس كوك (12) (1728 - 1779) الذي اكتشف المحيط الهادي...

وقد أثبت «تازمان» و«كوك» أن البحار الجنوبية تبلغ من الضخامة والاتساع، ذلك المدى الذي قد يؤدي بسفينة سيئة الحظ، أن تدور من حول العالم في المدارات العرضية الجنوبية، دون أن تصادف براً أبداً...

(10) ميركاتور جيرارد علامة وجغرافي فُلْمَنْكِي (1512 - 1594).

(11) تاسمان، ولد عام 1603، وتوفي في «جاكارتا» عام 1659، رحالة هولاندي، خلال رحلته الاستكشافية لعام 1642، اكتشف أرض: «فان ديمن» La Terre de Van Diemen الجزيرة التي سميت بعد ذلك في عام 1853 «بجزيرة تاسمانيا» (TASMANIE)، والتي توجد في جنوب زيلاندة الجديدة، «الطيونكا» وجزر الفيدجي. Nouvelle Zèlande, les tonga et les Fidji.

(12) كوك : Cook، (1728 - 1779) نُوتِي ورائد انجليزي، تجول «أوقيانا»، قتله المتوحشون من سكان «جزر سندويش» وكان من أوائل الذين فتحوا الطرق للأسفار العلمية.

لقد تعددت وجهات أنظار العلماء، واختلفت آراؤهم في أصل ومنشأ المياه على وجه هذه الكرة الأرضية، تلك المياه التي تغمر أحواض البحار والأنهار والمحيطات والبحيرات...

فهناك رأي للعالم «جيمس James»، والعالمين الأمريكيين الأستاذ الجيولوجي تشمبرلين، chamberlain ومولتون Molton، (فلكي)، فالعالم «جيمس» يرى أنه قد يكون سطح اليابسة، حينما كانت القشرة الأولى في دور التكوين، يحتوي على كمية قليلة من الماء الناتج عن برودة الصخر الذائب الخارج من باطن الأرض إلى سطحها العلوي...

وقد بنى «جيمس» رأيه هذا، على أساس أن الصخر الذائب يمكنه الامتزاج بالماء بأية نسبة كانت مما أدى إلى احتواء باطن الأرض على كمية هائلة من المياه، بدليل أن كثيراً من بخار الماء ينطلق من باطن الأرض مع الثورات البركانية، وعلى ذلك، فإن مقدار الماء في البحار والمحيطات كان يتزايد خلال العصور الجيولوجية، كما خرج من الصخر الذائب إلى السطح، وبرد وتجمد تحت تأثير العوامل الجوية...

أما «تشمبرلين» و«مولتن» فقد جاءاً بنظرية تدعي بأن مياه البحار والمحيطات، جاءت من مصدرين، هما: الغلاف الغازي، والأجرام الكوكبية، فلقد استطاعت الكرة الأرضية جذب الغلاف الغازي نحوها، بعد أن كبر حجمها، وزادت قوة جذبها من جراء توالي سقوط الأجرام الكوكبية عليها، ولما كان الغلاف الغازي حينذاك، مكوناً من جزيئات من بخار الماء، وثنائي أوكسيد الكربون والنتروجين، فإن بخار الماء يعتبر المصدر الأساسي لمياه البحار والمحيطات...

* * *

ومن جهة أخرى، فإن العلماء يشيرون إلى أن الأجرام الكوكبية، أيضاً، تحمل جزيئات من بخار الماء، وثنائي أوكسيد الكربون، والنتروجين ما

يظهر سطح الشمس في شكل حبات وحبيبات مبرقشة



يعادل حجمها عدة مرات طبقاً للتركيب العنصري للشهب التي تشابه إلى حد كبير الكويكبات التي تحمل قدراً من الغاز. ولقد بدأ بخار الماء الموجود في تلك الأجرام الواصلة إلى الأرض بالتكاثف والتجمع في الفراغ، وبذلك تكونت المحيطات والبحار تحت سطح اليابسة، أولاً، ثم تلا ذلك تكاثف بخار الماء في الغلاف، وتجمعه على هيئة مسطحات مائية كانت أقرب إلى البحيرات منها إلى المحيطات، ولكنها أخذت تملأ التجاويف التي كانت على سطح الأرض آنذاك... غير أن المياه الباطنية لم تلبث بعد ذلك أن اتصلت بالبحيرات السطحية، فأخذت البحيرات والمحيطات شكلها الحالي...

وقد صادفت هذه النظرة عدة اعتراضات... ولعل أبرزها اعتراض «جيفرن» الذي يتلخص بما يلي :

1 - إن جميع الكويكبات تتلاشى عند اصطدامها مع بعضها في الفضاء.

2 - إن نظرية «مولتن» لم تبين كيفية خروج المياه إلى السطح.

3 - إن الكويكبات تشابه إلى حد ما الشهب، وتتصف معها بالجفاف ولذلك، قالوا، بأن احتواء الكويكبات على نسبة كبيرة من بخار الماء مردود أصلاً...

ولذلك ظهرت نظريات وآراء أُخرى، منها أن برودة القشرة الأرضية أدت إلى سقوط أمطار غزيرة لفترة طويلة من الزمن، مما أدى إلى تكوين المجاري المائية على اليابسة، وبالتالي المسطحات المائية الواسعة كالمحيطات والبحار...

* * *

ولقد اعترض بعضهم حول ملوحة مياه البحار بالمقارنة مع عذوبة المياه الجارية، وقد رد الاعتراض هذا، نظراً، لأن المياه الجارية بمرورها

على صخور اليابسة تعمل على إذابة أملاح اليابسة، وتنقلها بالتالي إلى المسطحات الواسعة الراكدة (المحيطات) وبتراكم هذه الأملاح خلال الأزمنة الجيولوجية المختلفة ازدادت نسبتها في مياه تلك المسطحات...

* * *

لقد اتخذ كوكبنا اسماً خَاطئاً، فقد أطلق عليه أجدادنا اسم «الأرض» حيث كانوا يرون اليابسة تحيط بهم من كل جانب، وذلك لنظرهم الساذج، ولقلة علمهم بأطراف الأرض، وعلى قدر علمهم عن الكوكب الذي يعيشون فيه، كانوا يعتقدون لعدة قرون من الزمان، أن سطحه يكاد يتكون كلية من صخور وترتبة، فيما عدا جسيمات صغيرة من الماء مثل البحر المتوسط، والبحر الأسود، وبالطبع كانوا يعرفون شيئاً عن الأطلنطي، ولكنهم كانوا يعتبرونه كنهر ضيق نسبياً يجري من حول أطراف العالم... ولو أن القدماء كانوا يعلمون حقاً كنه الأرض، لكانوا قطعاً أطلقوا عليها اسم «المحيط». تبعاً للمساحات الهائلة من المياه التي تغطي 70,8٪ من سطح الكوكب...

* * *

لقد قال الكاتب الإنجليزي «ولز»: «إن العرب عرفوا أيضاً هذه المباحث من القرن العاشر بعد الميلاد»... يؤكد هذا ما ذكره الإمام الفخر الرازي فقال: «الأشبه أن هذه المعمورة كانت في سالف الزمان معمورة في البحار، فحصل فيها طين لزج كثير، فتحجر بعد الانكشاف، وحصل الشقوق بحفر السيول والرياح، ولذلك كثرت فيها الجبال، ومما يؤكد هذا الظن أننا نجد في كثير من الأحجار إذا كسرناها أجزاء الحيوانات المائية كالأصداف والحيتان...» [من شرح المواقف] وهذا مهم جداً... جداً... من الإمام الفخر الرازي...

* * *

وصدق الله العظيم حيث قال عز وجل : ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (13) أن
السموات والأرض كانتا رتقاً، (14) ففتقناهما (15) وجعلنا من الماء كل
شيء حي، أفلا يؤمنون ﴿﴾. (16)

قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة يعني أنها كانت شيئاً
واحداً ملتزقتين، فَفَصَّلَ الله بينها بالهواء... وكذلك قال كعب: خلق الله
السموات والأرض بعضاً على بعض، ثم خلق ريحاً بوسطها، ففتحها بها،
وجعل السموات سبعة، والأرضين سبعة، وقول ثان قاله مجاهد والسدي
وأبو صالح: كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة. ففتقها، فجعلها سبع
سموات... وقال عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس، أيضاً، فيما ذكر
المهدوي: إن السموات كانت رتقاً لا تمطر، والأرض كانت رتقاً لا تنبت،
ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات، نظيره قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ
ذَاتَ الرَّجْعِ، وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّدْعِ﴾، واختار هذا القول الطبري، لأن بعده:
﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. (17)

ونفسر الآية السابقة الذكر بآيات أخرى من كتاب الله، فقال تعالى :
﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاها﴾، ويمكن أن نعتبر «طَحَا» بمعنى اقتطع، فعن ابن
عباس : «طحاها» : قسمها، وقيل : خلقها، قال الشاعر :

وما تدري جزيمة مَنْ طَحَاها ولا مَنْ ساكِنُ العرشِ الرفيع
فإذا كان ذلك كذلك، فإن الله يقسم باقتطاع الأرض التي كانت جزء من
المجموعة الشمسية ثم انفصلت عنها، وكانت في أول أمرها، قطعة من
سديم، فمعنى هذه الآية، تعزيزٌ لمعنى الآية السابقة، ولا تختلف
عنها في شيء..

(13) أي أو لم يعلموا.

(14) ذو اتي رتق أو مرتوقتين، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول، أي ملتحمتين متصلتين.

(15) ففصلناهما وأزلنا اتحادهما.

(16) سورة «الأنبياء» رقم الآية : 30.

(17) تفسير القرطبي ج 1 : 283 - 284 / 11.

يقول العلامة طنطاوي جوهري في تفسيره، تعقيبا على الآية السابقة: ﴿أَو لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثبت عن أهل أوروبا في هذا العصور إذ هم الذين قرّروا هذا العلم، وقالوا إن الشمس كانت كرة أشبه بالنار دائرة ملايين من السنين، والأرض والسيارات وتوابعها كانت معها، ثم إن أرضنا انفصلت كما انفصل غيرها من السيارات، انفصلت جميعا من خط الاستواء الشمسي أثناء سرعة سير الشمس وجريها حول نفسها، فتباعدت أرضنا والأرضون الأخرى وهي السيارات فإن شمسنا والسيارات الأخرى كلها سيارات وكلها أرضون، وهكذا كل الشموس التي نراها كأنها كواكب ثابتة على هذه الحال لها سيارات وقد اشتقت منها وقد قدروا على سبيل الظن أن الأرضين في العوالم كلها لا تنقص عن ثلاثمائة مليون أرض مسكونة ويقولون ليست جميع السيارات حول شمسنا يظن أنها مسكونة بل المسكون منها أرضنا وربما كان المريخ وسيار آخر إلخ.

فثبت أن أرضنا مشتقة من الشمس، والشمس أيضا من شمس أكبر منها وتلك من شمس أكبر منها وهكذا، وكل شمس من هذه دائرة حول ما اشتقت منه إلى ما يقف عنده الفكر ويدهش العقل. هذه قصة العالم الذي نسكنه. وهذا هو القول المشهور الآن في العالم الأوروبي الكافر بسيدنا محمد ﷺ جهلا به فقوله تعالى على سبيل الاستفهام التقديري: «أَو لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» من المعجزات، لأن هذا العلم لم يعرف عند العرب ولا عند الأمم المعاصرين لهم وإنما عرف في عصرنا الحاضر، فعليّ أن أعلن المسلمين به، وأقول لهم: إن هذه معجزة واضحة في القرآن، فإن الله قد استدّل بحسن صنعه وإتقانه على تفردّه بالقدرة والحكمة، إذ جعل الحرارة سببا في حركات تلك العوالم التي كانت نارا محترقة ثم بواسطة هذه الدورات أزمانا برد ظاهر الشمس فانفصلت منه الأرض وغيرها من السيارات وأرضنا منها وكان هذا

الحساب المدهش في سيرها والخلق البديع على ظهرها واتقان كل شيء عليها. هكذا كان ذكره في القرآن مع جهل المسلمين وغير المسلمين من فرس وروم وأمم أخرى بهذه النظرية التي لم تكن إلا حديثاً معجزة مدهشة، فإن أهل أوروبا وهم الكافرون بنينا محمد ﷺ عرفوا هذا الرأي، فالله تعالى يوبخ الأمم الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ويوبخنا أيضاً لجهلنا. يقول: أو لم يعلم هؤلاء الكافرون بعقولهم أن العالم الأرضي قد فصل من العالم السماوي أي أن العقل البشري مستعدٌ لمعرفة هذا من اتباع الأسباب ومن قراءة الكتب ومن درس العجائب فكيف لا يؤمن الناس باله واحد. (18)

* * *

وقد أتى عالم أمريكي في بداية القرن الأخير، وهو السيد «جورج غامو» GAMOW، بثابتة علمية عندنا وعند أكثر علماء الفلك والكونية، والمعروفة بالانفجار الكبير "big - bang"، والتي نادى بها، تلك النظرية التي تقول بأن الكون قد يكون، قد تكون منذ عشرة ملايين سنة على إثر انفجار ضخم (البيغ - بانغ) تسربت على إثره بروتونات، ونوترونات، وإلكترونات وفوتانت على درجات عالية من الحرارة.

ومن العلماء الذين اشتهروا، كثيراً، بنظرية، «الانفجار الكبير» المتعلقة بنشوء الكون، عبقرى العصر، وعالم الفيزياء البريطاني الدكتور «ستيفن هاوكنج»، الذي يشغل، اليوم، كرسي الأستاذية لمادة الفيزياء في «جامعة كامبردج»، ويحاضر في جامعات مختلفة، بالرغم من عدم قدرته على النطق والحركة، إلا أن نظاماً «كومبيوترياً»، صُمم خصيصاً له، لأداء مهامه العلمية والحياتية.

ويعد هذا العالم أشهر عالم فيزياء حيّ، بعد «نيوتن» «وأنشتاين» فهو معجزة بكل ما في الكلمة من معنى، فلا شيء حيّ في هذا العالم، سوى

(18) كتاب الجواهر، ص : 190 / 10.

دماغه المذهل الذي كرّسه لفهم ألغاز الكون، عبّرَ قوانين الفيزياء.. كتابه الأخير هو: «قصة موجزة للزمن».. وللعلامة الألماني «ألفرد فغنر» Wegner، كتابٌ: «أصل القارات والمحيطات» (1912 - 1918) كما أن له نظرية الأرض المتصدعة...

* * *

فالله سبحانه وتعالى هو الذي فصل الأرض عن الشمس، وكانتا ملتحمتين، والله جَلَّ عُلَاه هو الذي خلق كل الدواب من الماء وفي البحر، ثم ارتقت إلى أن ارتفعت في الهواء، وهو سبحانه نظم السماء، وجعلها سقفاً محفوظاً، فحفظ الشموس في مداراتها، بحيث لا تختلط ولا تختبط، بل جعلها سالمة في أماكنها الخاصة بها، وبقوة الجاذبية، لأنه سبحانه رفع السماوات، بأعمدةٍ غير مرئية، وهي الجاذبية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾ فالقمر والشمس والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها، وإلا لاختل الكون، وتداعى هذا العالم، وبهذا الحفظ، ونظام الدوران، كان الليل والنهار الحادثان من جري الأرض حول الشمس، وصدق الله العظيم: «ما تَرَى في خلقِ الرحمن من تفاوت... فارجع البصر هل ترى من فطور». (19) ورحم الله الأستاذ شبلي الجُمَيْل حيث يقول في هذا المعنى :

هُوَ الْحَبُّ إِكْسِيرُ الْحَيَاةِ، بِلَا مِرَا (20)

ولولاه ما كان الوجود كما ترى..

فالكون والوجود قائم على الحب والتعاطف، والتمازج والتآلف، وكذلك الكواكب والمجرات في مداراتها، لا تختلط ولا تختبط... وإنما هي في تعاشق وتمازج وحب وانسجام... فما ترى في خلق الرحمن من تفاوت؟؟؟

(19) سورة تبارك : آية : 3.

(20) الرجاء كسرٌ ميم : بلا «مرا» ليلا تحدث لنا مشكلة، إذا فتحناها.

وعود على بدء، فإن أنظار العلماء، اختلفت آراؤهم، وتعددت مشاربهم في أصل ومنشأ الماء على وجه هذا الكوكب المائي، تلك المياه التي تغمر أحواض البحار والأنهار والبحيرات والمحيطات... المملوءة بالتيارات البحرية، منها أحد عشر تيارا مائيا ساخنا، ومن هذه التيارات تيارٌ يمرُّ في المحيط الأطلسي قرب مدينة الرباط يعرف بالانجليزية «كُولْفَ اسْتَرِيم»، Gulf Stream وهو دافىء، وفيها خمسة عشر ألف بركان، بين مشتعل وبارد، وعشرون لجة تصل أعماقها إلى 11516 مترا، وهي مملوءة، أيضا، بالجبال، وأضخمها، كما يقولون، السلسلة الجبلية الممتدة حتى مسافة 70 ألف كلم في المحيط الأطلسي، والمحيط الهندي والمحيط الهادي.

ولقد كتب عالم البحار الموسوعي: إيف كُوسْتُو Cousteau، صاحب: «عَالَم المحيطات» والذي عايش البحار، ومارس التعامل معها طوال حياته ما فحواه: «إن البحار - عدا المخلوقات الحية التي تعيش فيها - هي في الحقيقة كائنٌ حيٌّ يجب علينا احترامه، حتى نتعامل معه».

* * *

ولنتأمل، هذه الأبيات الجميلة لأمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله يتناول فيها مصادر المياه وينابيعه الأصلية، مخاطبا نيل مصر، فيقول وهو يشير إلى بعض النظريات التي سقناها.

مِنْ أَيِّ عَهْدٍ فِي الْقُرَى تَتَدَفَّقُ ؟
وَبَأَيِّ كَفٍّ فِي الْمَدَائِنِ تَغْدُقُ ؟
وَمِنَ السَّمَاءِ نَزَلَتْ ؟ أَمْ فُجِّرَتْ مِنْ
عَلِيَا الْجَنَانِ جَدَاوِلًا تَتَرَقَّرِقُ ؟
وَبَأَيِّ عَيْنٍ، أَمْ بِأَيِّ مَزْنَةٍ ؟
أَمْ أَيُّ طُوفَانٍ تَفِيضُ وَتَفْهَقُ ؟

وبأي نَوَلٍ أنتِ ناسِجُ برديّةٍ
للضفتين، جديدها لا يخلق ؟
تعيّ منابِعُ العقولِ ويستوي
متخبط في علمها ومحقق !!

عمر المحيطات...

مياه البحر هي التي تشكل سطح الأرض، وتنظم المناخ، وهي مهد الحياة.. وخضم مائي واسع كبير... ولم يعرف بعد، بصورة مضبوطة، عمرُ بحار ومحيطات العالم... ولكن جرت بعض المحاولات لمعرفة عمر المحيطات، ومنها معرفة معدل إرساب الأملاح في البحر عن طريق الإحصاء، وعن طريق تقدير مجموع كميات الأملاح الموجودة الآن بالمحيطات، ومجموع ما تضيفه الأنهار والمجاري المائية سنويا، ثم قسمة الأولى على الثاني، فتظهر المدة التي استغرقتها ارساب هذه الكميات من الأملاح في البحر... وقد جاء بهذه الطريقة «أدموندهالي»، فقد قدر مجموع أملاح البحار بحوالي 15.4 طن، وقدرت الأملاح التي تنقلها الأنهار سنويا بحوالي 400 مليون طن، وبتطبيق تلك القاعدة يقدر عمر المحيطات بحوالي 1000000000 سنة، إلا أن بعض الباحثين يرون أن هذه المدة غير كافية، وقد قدرت بأضعاف تلك المدة...

وفي غيمة كبيرة نشأت الأرض منذ أربعة ملايين سنة، ونصف، تقريبا، كما تقدر الدراسات الجيولوجية بأن الأرض تكونت، كما قلنا، منذ أربعة مليارات ونصف من السنين، أي بعد نشأة الكون بعشرة مليارات عاما... والله أعلم...

[أنظر : «جغرافية البحار، والمحيطات» للدكتور حسنين جودة، خ: 31265: C، وانظر أيضا: «تطور علوم البحار ودورها في النمو الحضاري» تونس، وزارة الثقافة].

في شهر ديسمبر عام 1962 عقد في «إماره موناكو» المؤتمر الدولي الأول لتاريخ «علوم البحار»، تحت رعاية أمير «موناكو» الذي كان والده «البرنس اليوت» رائداً من رواد العلم البحري، إذ قام ببحوث مبتكرة على ظهر يخوته في الربع الأول من هذا القرن، وأسس معهد موناكو البحري ومتحفها الشهير الذي يؤمّه كل عام جمع كبير من الباحثين، ومحبي المعرفة، حضر المؤتمر المذكور صفوة من أساتذة علوم البحار، وأمير البحر من مختلف الدول، ومن المهتمين بتاريخ علوم البحار .

ظلمات... في بحر لجي...

تحدث الأمواج بفعل الرياح والضغط، وكثيرا ما تحدث نتيجة لارتفاع قاع المحيط أو انخفاضه... وهي تتفاوت من مجرد تموجات خفيفة، إلى تلك الأمواج الهائلة المكتسحة التي يبلغ طولها ميلا، والتي تعبرُ عبر: «كاب هورن» Cape Horn... ففي المحيط المتصل الذي يحيط القارة القطبية الجنوبية توجد أكبر أمواج يمكن أن يحدثها المحيط، باستثناء تلك التي قد توجد في الأعاصير المدارية... وتدفع الرياح والعواصف الغربية القوية التي تهب على هذه المنطقة الموحشة التيار الوحيد الذي يدور حول العالم مكتسحا في طريقه الذي يسير في دائرة لا تنتهي قط. (21)

وإن اضخم أمواج المحيط، وأشدّها رعبا، هي أمواج غير منظورة، تتحرك في خطوط سيرها الغامضة بعيداً في أعماق البحر... وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثات إلى القطب الشمالي، كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى «بالماء الميت»، والذي عرف الآن أنه أمواج داخلية...

(21) أي رأس القرن، وهي لسان من الأرض يمتد في المحيط الأطلسي الجنوبي الشيلي، وتعد أقصى نقطة جنوبية في أمريكا اللاتينية.

وفي أوائل 1900 لفت الأنظار كثير من مساحي البحار الاسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء، والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التي ترتفع وتهبط بعيداً أسفل السطح، فإن حدوثها على نطاق واسع في المحيط، قد أصبح أمراً معروفاً جداً، فهي تقذف بالغواصات في المياه العميقة كما تعمل شقيقتها السطحية على قذف السفن، ويظهر أن هذه الأمواج، تنكسر عند التقائها بتيار الخليج، وبتيارات أخرى قوية في بحرٍ عميق... (22) ومن المعلوم أن في البحار العميقة، وعلى عمق 3.000 متر، أمواجاً عاتية قد يصل طولها إلى بضعة كلم، وارتفاعها إلى مائة متر، وأنه على عمق ستين متراً على سطح البحر يصبح كل شيء مظلماً، في البحار، وصدق رب العزة إذ يقول: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ، يَغْشَاهُ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذُ بِرَأْيِهَا، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا، فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. فهذه الآية تقول: يغشاه موج من فوقه موج، (23) تشير إلى الأمواج الداخلية والسطحية، ويؤيد هذا، ما وصفه القرآن للبحر، بأنه: «لُجِّيٌّ»، أي كثير الماء عميقه، وفي هذا إشارة، أيضاً، إلى المحيطات، وليس إلى الشواطئ والسواحل، والجدير بالذكر أن هذه المواضع يقل فيها وهج الشمس، فما بالك باجتماع السحاب الذي تكثر فيه الظلمة، ويصبح الواقع، «إذا أخرج يده، لم يكذ يراها...».

وفي معنى قوله تعالى : يغشاه موج، أي يعلو ذلك البحر اللجي، موج، ومن فوق هذا الموج الثاني سحاب... إذ أن هناك، في المحيطات، أنواعاً من السُّحُب التي تعكس ضوء الشمس بكامله، فيجتمع خوف الموج! وخوف

(22) «البحر المحيط بنا» تأليف : راشل. ل. كارسو.

(23) قال النابغة يصف بحراً :

يماشيهنَّ أخضرٌ ذوٌ وظِلَالٍ على حافاتِه فَلَقُ الدَّانِ

وصدق الله العظيم : «وإذا غشيهم موجٌ كالظلل».

الريح! وخوف السحاب!، والمراد بهذه الظلمات: ظلمة السحاب... وظلمة الموج... وظلمة الليل... وظلمة البحر، فلا يبصر من كان في هذه الظلمات شيئاً ولا كوكباً... (24)

تذكرني هذه الظلمات الثلاث بما كان يعانيه أبو العلاء المعري من ظلماتٍ ثلاثٍ آخر، هي عَمَى العين! وغمُوض الدين! وحلوكة الليل! فهو، رحمه الله، يعاني من ثلاث ظلمات، أشار إليها في مطلع قصيدة من لزومياته حيث قال:

عَمَى العينِ ! يتلوه عمى الدين! والدجى!

فَلَيْلَتِي الْقُصْرَى، ثلاثٌ لِيَالِي

وقد ضرب الله سبحانه، مثلاً آخر للكفار حيث قال : «أو كظلمات في بحر... أي أعمالهم كسراب، أو كظلمات... فإن شئتَ مَثَلٌ بالسراب، وإن شئتَ مثل بالظلمات... «فأَوْ» للاباحة... (25)

* * *

وقد ذكر الشيخ يوسف الدجوي في كتابه : «رسائل السلام» الذي وضعه لأهل أمريكا: أن بعض الأروبيين اعتنق الإسلام، لما وجد من وصف القرآن البحر، وصفا شافيا مع كون النبي عليه السلام لم يركب البحر طول عمره، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ كظلمات في بحر لجي، يغشاه موج، من فوقه موج، من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض... إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾. (26)

صدق الله العظيم...

(24) تفسير القرطبي ج : 12 / ص : 285.

(25) المصدر السابق ج : 12 - ص : 283.

(26) سورة النور آية : 40.

هذا عذبٌ فُرات سائغ شراؤه... وهذا ملحٌ أجاج !!

هناك ظاهرة طبيعية معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور، وهي أنه إذا التقى نهران في ممر مائي واحد، فلا يذوب أحدهما في الآخر... فهناك على سبيل المثال نهران يسيران في «تشاتغام» بباكستان الشرقية إلى مدينة «أركان» في «بورما» ويمكن مشاهدة النهرين مستقلا أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيطا يمر بينهما حداً فاصلاً، والماء عذبٌ في جانب، وملحٌ في جانب آخر... وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث «المَدَّ البحري»، ولكنهما لا يختلطان، ويبقى الماء عذبا تحت الماء الأجاج...

وهكذا عند ملتقى نهري «الكنج» و«الجامونا» في مدينة «إلاه آباد» في الهند، فهما رغم التقائهما، لم تختلط مياههما، ويبدو أن خيطا فاصلا يميز أحدهما عن الآخر...

* * *

وهذه الظاهرة معروفة لدى الإنسان القديم، ولكنها لم تكشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين، فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانونا ضابطا للأشياء السائلة يسمى «قانون المطّ السطحي»، وهو يفصل بين السائلين، لأن تجاذب الجُزَيئات يختلف من سائل لآخر، ولذلك يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله..

وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ، هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحَجَرًا

محجورا». (27) وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾، (28) وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾. (29) ولعل أحد الأسباب التي جعلت عالم البحار الشهير السيد «كوستو» يعتنق الإسلام قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾. (30) كما ذكرت ذلك مجلة «جواب على كل شيء» بالفرنسية (ع: 6، عام 1990، ص: 13).

وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء، كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة، ونستطيع بكل ثقة، وتأكيد أن نقول: «إن المراد من «البرزخ» إنما هو المَطَّ أو التمدد السطحي الذي يوجد في المائين، والذي يفصل أحدهما عن الآخر»...

ويمكن فهم هذا «المط السطحي» بمثال بسيط، وهو أنك لو ملأت كوباً بالماء، فإنه لن يفيض إلا إذا ارتفع عن سطح الكوب قدراً معيناً... والسبب في ذلك، أن «جزيئات السوائل» عندما لا تجد شيئاً تتصل به فوق سطح الكوب تتحول إلى ما هو تحتها، وعند ذلك توجد «غشاوة مَرِنَة» على سطح الماء، وهذه الغشاوة هي التي تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة، وهي غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها إبرة من حديد، فإنها لن تغوص... وهذه الظاهرة هي التي تسمى «بالمط السطحي» الذي يحول دون اختلاط الماء والزيت، والذي يفصل بين الماء العذب، والملح... (31)

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ، هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتُسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً

(27) سورة «الفرقان» آية : 53.

(28) سورة «الرحمن» آية : 20 - 21.

(29) سورة «النمل»، آية : 61.

(30) سورة «الرحمن» آية : 19 - 20.

(31) «الإسلام يتحدى» ص : 142 - 143، ط : 2. «دار البحوث العلمية - الكويت».

تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَآخِرَ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلِعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٣٢﴾

* * *

المياه المالحة :

إن من أهم أسباب البقاء لحياة الأرض وَمَنْ عليها، وجود البحر المالح، واكتساحه ثلاثة أرباع المساحة الأرضية، فلو فرض أن البحر فَقَدَ ملوحته، وتحول ما فيه مِنْ ملايين ملايين الأطنان المائية إِلَى عذوبة، فَإِنْ ذلك سيؤدي حتماً إِلَى تعفن في جو الأرض، هذا الجو الذي يتماسك بفضل ما يكتسب إِلَى ما فيه من غازات عدة من مواد وجدت في المحيط خصيصاً لتتعاقد مع ما في جو الأرض من أوكسجين، وخلافه فَإِنْ مصير الأحياء حتماً سيكون الفناء...!!

وقد تحدث القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات» عن الماء العذب، والماء المالح، فقال: «واعلم أن الماء عذب ومالح، وكل منهما له فائدة لا توجد في الآخر، أما المالح فملوحته من الأجزاء الأرضية السبخة التي احترقت من تأثير الشمس، واختلطت بالمياه، وجعلتها مالحة، فلو بقيت على عذوبتها لتغيرت من تأثير الشمس وكثرة الوقوف، لأن من شأن الماء العذب أن يُنْتِنَ من كثرة الوقوف، وتأثير الشمس فيه، ولو كان كذلك لسارت الرياح بِنْتْنِهَا إِلَى أطراف الأرض، فأدت إِلَى فساد الهواء، ويسمى ذلك «طاعونا»، فصار ذلك سبباً لهلاك الحيوان، فاقتضت الحكمة، أن يكون ماء البحر مالحاً لدفع هذا الفساد، ومن فوائد الماء المالح، الدر، والعنبر. وأنواع ما يُوتَى به من البحر...

(32) سورة «فاطر» آية : 12.

والمياه المالحة في الحَمَاءَ فيها شفاء للأمراض الصعبة، ثم قال: «وأما العذب، فمعظم فائدته الشرب، وفيه قوة إذا نعت فيه مطعوما كالزبيب مثلاً يمص جميع حلاوتها حتى لا يترك فيها شيئاً من الحلاوة، وإذا خالط شيئاً يأخذ طبعه ولونه، فيصير عسلاً وزيتاً وخلاً ولبناً ودماً يقبل جميع الألوان والطعوم، ولا لون له ولا طعم... ومن عجيب لطف الله تعالى أن كل مأكول ومشروب يحتاج إلى تحصيل، أو معالجة، حتى يصلح للأكل، إلا الماء فإن الله تعالى أكثر منه، ولا حاجة إلى معالجته لعموم النفع والحاجة إليه، فإن الله تعالى كفى الخلق معالجة إصلاح الماء بتأثير الشمس في مياه البحر، وارتفاع البخار منها... ثم إن الرياح تسوق ذلك البخار إلى الموضع التي شاء وينزلها مطراً... ثم يخزن ذلك في الأوشال والكهوف في جوف الجبال تحت الأرض، وتخرج منها شيئاً بعد شيء، وتجري الأنهار والأودية، وتظهر من القُنْيِ والآبار بقدر ما يكفى العباد لعامهم... فإذا جاء العام المقبل، أتاهم مطر... وهكذا مثل الدولاب يدور حتى يبلغ الكتاب أجله».

وأردأ المياه المرّ... ثم المالح الأجاج، وهما يصلحان للرجلة، وهي البقلة والاسفاناخ والخس، والهندبأ، والسوسي الأبيض، وهو الزئبق والملوخية... ومن أردأ المياه أيضاً القابض العفص، ثم ما غلبه عليه طعم المعدن، والماء المالح الذي ينعقد منه الملح، وماء البحر يفسدان ولا يصلحان لسقي شيء البتة... (33)

وقد طرح أبو حيان التوحيدي ومسكويه في كتابه «الهوامل والشوامل» مسألة موضوعها: لم صارت مياه البحر ملحاً؟ فكان الجواب»، قال أبو علي مسكويه رحمه الله:

(33) «علم الملاحة، في علم الفلاحة» لعبد الغني النابلسي النقشبدي القادري (ت: 1143 هـ).

«إنما ذلك لأجل قرب الشمس من سطح الماء، وتمكنها من طبخه... ومن طبيعة الماء إذا ألحّت عليه الحرارة بالطبخ إن يتحلل لطيفه إلى البخار، ويقبل الباقي أثرا من الملوحة، فإن زادت الحرارة، ودامت صار ذلك الماء شديد الملوحة، ثم انتهى في آخر الأمر إلى المرارة. وأصحاب الصنعة يدبرون ماءً لهم بالنار، ويدبرونه حتى يكثّر تردده على النار، فيصير - بذلك - الماء حاراً مالحاً يضرب إلى المرارة. (34)

خصائص مياه البحر...

تحدد نوعية الصخور والظروف المناخية الخواص الكيماوية للمياه الباطنية، فالعناصر الكيماوية التي تدخل في تركيب الصخور تختلف في درجة قابليتها من الذوبان في الماء، إذ تزداد درجة تركيز هذه المواد المذابة في المناطق الجافة، حيث ترتفع نسبة التبخر، بينما تقل درجتها في المناطق الرطبة والمطيرة والباردة، ولذلك نجد أن معظم الآبار والينابيع في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية تتميز بارتفاع نسبة الأملاح... وقد ألف ابن قرة الحراني الصابئ رئيس المنجمين والأطباء (ت258هـ) كتاباً في «السبب الذي جعلت من أجله مياه البحر مالحة». (35) ويذكر الطبري طريقة نسبها إلى الفيلسوف (أرسطو) لإثبات أن الماء العذب أخف من الماء المالح فيقول: «إنك لو أخذت شمعا، فاتخذت منه أنية مجوفة ليس لها فم، ووضعتها في البحر يوماً وليلة، لوجدت في جوفها ماء عذبا، لأن الماء العذب ينفذ إلى جوفها لِحِفَّتِهِ ولطافته، ولا ينفذ الماء المالح لغلظه».

* * *

(34) «الهوامل والشوامل» لأبي حيان التوحيدي ص : 359 تحقيق المرحوم أحمد أمين.

(35) «هدية العارفين» ج : 2 / 227.

لقد جعل الله ماء البحر ملحا أجاجا، مُراً زعاقاً لتمام مصالح من هو على وجه الأرض من الادميين والبهائم، فإنه دائم راكد كثير الحيوان، وهو يموت فيه كثيرا، ولا يقبر، فلو كان حلواً لأنتن من إقامته وموت حيوانه فيه وأجاف، وكان الهواء المحيط بالعالم يكتسب منه ذلك وينتن، ويُجيف، فيفسد العالم... فاقترضت حكمة الله سبحانه أن جعله كالملاحه التي لو بقي فيه جيف العالم كلها وأنتأنه وأمواته لم تغيره شيئا، ولا يتغير على مكثه من حين خلق، وإلى أن يطوي الله هذا العالم، فهذا هو السبب الغائي الموجب لملوحته، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال في البحر: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته...».

وبدورة التبخير بالشمس، والتكثيف في السحب الباردة، نظم الله سبحانه للإنسان والحيوان والنبات استعمالاته للماء، وحاجاته إليه، مياه البحار والمحيطات مالحة، فإذا شربها الحي أضرته... وإذا خلقت من الملح، فسدت وتعطنت، لذلك فإن الشمس تبخرها، فتصعد إلى أعلى كبخار يتكثف، ويتساقط كمياه عذبة تجرى بها الأنهار حيث يستعملها الأحياء، وهذه السحب التي ينزل منها الماء متراكبة، ترتفع ارتفاعات تجعل درجة حرارة قاعدة السحاب التي نراها فيما لو نظرنا إلى السماء تختلف عن درجة قمته العالية، ولما كانت الحرارة تنخفض كلما ارتفعنا، كان السحاب الذي تتجمع قطراته أكثر، كلما ارتفع حتى يأخذ شكل الجبل تماما، قاعدته هي التي تواجه الأرض، وقمته إلى أعلى، وهذا ما يراه راكب الطائرة فيما لو ارتفع فوق السحاب، وقد سبق القرآن العلم إلى تقرير ذلك في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّامًا، فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا

مِنْ بَرْدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ، يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ
يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ... ﴿٣٦﴾

وتكتنز مياه البحر في طياتها مقادير كثيرة من الأملاح والمعادن
المتنوعة في حالة ذوبان، كما تحتوي على الأوكسجين، وثاني أوكسيد
الكربون، والنتروجين من الجو مذابة فيها...

أما الأكسجين المذاب فهو عماد تنفس الأحياء المائية...

ويستخدم ثاني أوكسيد الكربون المذاب بوساطة النباتات الخضراء في
البحر لتكوين الغذاء...

ويعتبر ماء البحر من أهم المصادر التجارية لملاح الطعام، وفِلِزَّ
المغنسيوم، والبروم، وعدد من المواد الأخرى ذات الاستخدام الصناعي
الواسع... كما هو معروف... وكما سيأتي في موضوع آخر.

من أين يجيء الملح الموجود في البحار ؟

إن بعضا من هذه الأملاح، جاء نتيجة تفتت الصخور بفعل الجليد
وعمليات النحر التي تصاحب التآكل التدريجي لسفوح الجبال، مما ينشأ
عنه بعض الكيماويات التي يذيبها ماء المطر، ويحملها معه إلى المحيط...
أما باقي أملاح البحر فتأتي من الصخور الموجودة في قاع المحيط....

وهناك من الشواهد ما دل على أن ملوحة البحر ظلت تعاني زيادة
بطيئة ومستمرة طوال مآت الملايين من السنين... ومن الدلائل الطريفة
على ذلك أن خلايا الجسم في الحيوانات بما فيها الأسماك أقل ملوحة من
ماء البحر، مما يؤدي إلى استنتاج أن ماء البحر في الأزمنة التي بدأت فيها
الخليقة كان أقل ملوحة مما هو الآن....

(36) سورة «النور» آية : 43.

الفصل الثاني :

البحر في حياة الرسول... والعهد الإسلامي

الصلة بين الإنسان... ونعمة الماء :

لقد وثق القرآن الصلة بين الإنسان، ونعمة الماء، فراح يقربها إلى نفسه بالأوصاف الدالة على المنفعة والخير، فالبحر الذي كان يخشاه الإنسان الأول، ويحسبه مصدراً للشر والرهبة والغموض، ومَكْمَنًا للحيوانات الأسطورية المخيفة، صار في القرآن محبباً إلى النفس، مقرباً إليها، فعبر عنه باليم،(1) كما عبر عن ماء السماء «بالغيث»، لأن فيه إغاثة الناس من القحط والجذب.

ثم راح القرآن يعرض للحس مظاهر تلك المنفعة في البحر، فالفلك تجري فيه بما ينفع الناس مسخرة بأمر الله، والأنهار التي لا تنقطع صلتها بالبحر، لم تعد كما كانت في التصور القديم آلهة، وقوى مستعلية على الإنسان، بل هي في القرآن مسخرة كذلك، نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾.(2)

وقد وضع القرآن حداً لمكانة الطبيعة من الإنسان، فليست الطبيعة فيه إلا مظهراً من مظاهر تكريم هذا الإنسان، وإعلاء شأنه، وإشعاره برأسته لهذا العالم المحسوس الملموس، وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله: «ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً».(3)

(1) مشتق منه التيمم، وهو القصد، لأن المستنفعين به يقصدونه.

(2) سورة «إبراهيم» رقم الآية : 32 - انظر الكشف : ج : 1 / ص : 571.

(3) سورة الإسراء : رقم الآية : 70.

ولعل من المدائح المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال ابن عباس : في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل،
وفي البحر على السفن، وهذا، أيضاً، من مؤكدات التكريم، فتسخير الله
تعالى المياه والسفن وغيرها ليركبها، وينقل عليها، وينكسب بها، مما
يختص به ابن آدم...

فالأرض للإنسان كالأم الرؤوم الحاضنة، منها خلقناكم، وفيها نعيدكم،
وهي لهم فراش ومهاد، فالماء ينتفعون به في الشرب والزراعة والعمارة.
وماء البحر ينتفع به في التجارة واستخراج الحلي منه كما هو معلوم.

البحر في حياة الرسول والعهد الإسلامي :

عن المغيرة بن أبي بردة أنه سمع أبا هريرة يقول : «جاء رجل إلى
رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: إنا نركب في البحر، ونحمل معنا
القليل من الماء، فإن توضعنا به عطشنا، أفنتوضأ به؟» فقال رسول
الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه، الحل مئيتُهُ..» (4) وفي هذا الحديث دليل واضح
على ركوب البحر في الجهاد للرجال والنساء، وإذا جاز ركوبه للجهاد،
فركوبه للحج المفترض أولى وأوجب، فهو سبحانه، سخر البحر، ومكن
البشر من التصرف فيه، وتذليله بالركوب، والإرفاء وغيره، وهذه نعمة من
نعم الله علينا... قال تعالى: ﴿وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ (5) دليل
أيضاً على جواز ركوب البحر مطلقاً لتجارة كان أو عبادة كالحج والجهاد.

وبالإضافة إلى هذه الآيات، هناك آيات أخرى أشارت إلى بعض منافع
البحر، وذلك كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ، بِنِعْمَةِ
اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (6) وقوله عز

(4) «تنوير الحوالك، شرح على موطأ مالك» ج : 1 / ص : 45 ط : دار الكتاب العلمية.

(5) سورة البقرة آية 164.

(6) سورة الشورى آية : 23.

وجل: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات، وليذيقكم من رحمته، ولتجري الفلك بأمره، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون﴾، (7) وقوله عز من قائل: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك، وجرين بهم بريح طيبة﴾ في هذه الآية معنى مهم، يدل على إحاطة الجاهليين بالبحر، وركوبهم فيه، وتسييرهم لها بفعل الرياح، وتقدمت آيات وإشارات في القرآن الكريم... إلى صنع الفلك وإلى سيرها مواخر في البحر... ويظهر أن تلك السفن كانت صغيرة مكشوفة الجوانب، ولم تكن تتسع لعدد كبير من المسافرين، حتى إن حركات المسافرين كانت تؤثر فيها... روي أن جعفر بن أبي طالب، سأل رسول الله ﷺ كيف نصلي في السفينة، إذا ركبنا في البحر؟ فقال صل قائماً... إلا أن تخاف الغرق، أو يصلى قائماً، إلا أن يضر بأهلها... وصلى أنس في السفينة جالسا... (8)

* * *

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمعه يقول: كان رسول الله ﷺ، يدخل على أم حرام بنت ملحان، فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ، فأطعمته، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ، وهو يضحك، قالت، فقلت، وما يضحك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون هذا البحر، ملوكا على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة، قالت: فقلت يا رسول الله: أذع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله ﷺ، ثم وضع رأسه، ثم استيقظ، وهو يضحك، فقلت: وما يضحك يا رسول الله؟.. قال: «ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة، في سبيل الله، كما قال في الأول، قالت: فقلت: يا رسول الله: أذع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين، فركبت البحر،

(7) سورة الروم آية 46.

(8) الروض الأنف ج : 1 / ص : 215.

في زمن معاوية بن أبي سفيان، فصرعت عن دابتها!! حين خرجت من البحر... فهلكت... (9)

* * *

وفي رسالة ابن حزم في فضل الأندلس وذكر رجالها، وعدم تقصيرهم في تخليد أخبار علمائهم، ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم... قال: «وأنا أقول: لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله ﷺ بشر به، ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرة في الحديث الذي روينا من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبي الوليد عبادة ابن الصامت رضي الله عنه وعنهم أجمعين حدثته به عن النبي ﷺ أنه أخبرها بذلك، لكفى شرفاً بذلك يسراً عاجله، ويغبط آجله... فإن قال قائل: فلعله، صلوات الله تعالى عليه، إنما عنى بذلك الحديث أهل صقلية وإقريطش، وما الدليل على ما ادعيته من أنه ﷺ عني الأندلس حتماً؟ ومثل هذا من التأويل، لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح، وبيان لائح، لا يحتمل التوجيه، ولا يقبل التجريح، فالجواب - وبالله التوفيق - أنه ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، وفصل الخطاب، وأمر بالبيان لما أوحى إليه، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبج هذا البحر غزاة واحدة بعد واحدة، فسألته أم حرام أن يدعوه به تعالى أن يجعلها منهم، فأخبرها ﷺ، وخبره الحق بأنها من الأولين، وهذا من اعلام نبوته ﷺ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه، وصح البرهان على رسالته بذلك، وكانت من الغزاة إلى قبرس، وخرت عن بغلتها، هناك، فتوفيت!! رحمها الله تعالى، وهي أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر، فثبت يقينا أن الغزاة إلى قبرس هم الأولون الذين

(9) صحيح البخاري ج : 2. ص 98 كتاب الجهاد والسير. المطبعة الخيرية بحوش عطا عام :

بشّر بهم النبي ﷺ، وكانت أم حرام منهم، كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه، ولا سبيل أن يُظنَّ به، وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين، قد سمى إحداهما أولى، والتالية لها ثانية، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد، وهذا يقتضي طبيعة صناعة المنطق، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية، ولا الثانية ثانية إلا لأولى، فلا سبيل إلى ذكر ثالث، إلا بعد ثان ضرورة، وهو ﷺ إنما ذكر طائفتين، وبشر بفئتين، وسمى إحداهما الأولين، فاقترضى ذلك بالقضاء الصدق آخرين، والآخر من الأول، هو الثاني الذي أخبر ﷺ أنه خير القرون بعد قرنه، وأولى القرون بكل فضل، بشهادة رسول الله ﷺ بأنه خير من كل قرن بعده... ثم رُكِبَ البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية، وكان الأمير بها في تلك السفن هُبيرة الفزاري، وأما صقلية، بإنها فُتحت صدر أيام الأغالبة عام 212هـ، أيام قاد إليها السفنَ غازياً أسد بن الفرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى، وبهامات، وأما إقريطش فإنها فُتحت بعد الثلاث والمائتين، افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ، من أهل قرية بطروج من عمل فحَص البلوط المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس... (10)

ونقل الحافظ عن موطأ ابن وهب عن ابن لهيعة أن معاوية أول من ركب البحر للغزاة... (11) وكان عمر بن الخطاب لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً كراهية للتغريير بجنده، فلما فتح الله الشام، ألح معاوية بن أبي سفيان، وهو يومئذ، على جند دمشق والأردن عمر في ركوب البحر... ففي جامع العُتْبِيَّة، قال مالك: استأذن معاوية بن أبي سفيان عمر بن الخطاب في ركوب البحر، فأبى أن يأذن له، فلما ولي عثمان، كتب إليه يستأذنه، فأبى، ثم ردَّ عليه، فكتب إليه عثمان، إن كنت تركب بأهلك وولدك، فاركب،

(10) نفح الطيب ج : 3 - ص : 161 - 162.

(11) التراتيب الإدارية.

فقد أذنت لك، فركب معاوية، ومعه امراته بنت قريظة... ومعلوم أنه لم يكن البحر يركب للغزو في حياة رسول الله ﷺ، وخلافة أبي بكر وعمر، كما في الخطط للمقريري، وأول من ركب البحر للغزو العلاء بن الحضرمي، وكان على البحرين من قبل أبي بكر وعمر، فأحب أن يؤثر في الأعاجم أثراً، يعز الله به الإسلام على يديه، فندب أهل البحرين إلى فارس، فبادروا إلى ذلك، وفرّقهم أجناداً على أحدهم الجارود بن المعلى، وعلى الثاني سوار بن همام، وعلى الثالث خُليد بن المنذر بن ساوى، وجعل على عامة الناس خليداً، فحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر رضي الله عنه... يقول ابن نوفل الطرابلسي في كتابه: (12) لما كان عهد معاوية بن أبي سفيان، أذن للمسلمين في ركوب البحر، والجهاد على أعدائه، فاستخدموا، حينئذ، من النوتية في حاجاتهم البحرية أمماً تكررت ممارستهم للبحر، وأنشأوا السفن والشواني، (13) إلى أن بلغت في أيامه ألفاً وسبعمئة مشحونة بالرجال والسلاح... وفي «تسريح الأبصار، فيما يحتوي لبنان من الآثار» للقس «لا مانس» اليسوعي (14) ذكر تاوفان المؤرخ في تاريخ 1640، للعالم، أن معاوية أول خلفاء بني أمية، ابتنى 1700 سفينة شرعية، واتخذ أعوادها من جبل لبنان، ولم تمر سنوات قليلة بعد ذلك حتى جهز أيضاً أسطولا ثانياً أكثر عدداً، وأشد هولا من الأول.

* * *

(12) «صناعة الطرب، في تقدمات العرب» ص : 327.

(13) ج : شونة، وهي مركب البحر المعد للجهاد، وجمعها : الشواني وتعرف بالأغربة تطلق بالقار مع قلوغ بيضاء وهو مركب طويل له مائة وأربعون مجذاقاً، مزود بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وقد وصفها ابن حمديس الصقلي مخاطباً الحسن بن علي من أمراء بني زيري في المغرب الأدنى:

أنشأت شواني طائفة
وبنيت على ماء مُدْنا
ببروج قتال تحسبها

في شم شواقهها قننا

(14) لا منس الأب هزى - اليسوعي (1862 - 1937) LAMMENS مستشرق بلجيكي : اشتهر بأبحاثه عن عرب الجاهلية والعهد الأموي، من مؤلفاته العديدة: «الإسلام» و«الجزيرة العربية الغربية قبل الهجرة»، و«خلافة يزيد الأول»، ص : 138.

ولما استقر الملك للعرب، وشمخ سلطانهم، وصارت أمم العجم خولا لهم، وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية (15) في حاجاتهم البحرية أمما، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بُصراء بها، فَشَرَّهوا (16) إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر، وعلى حافته مثل الشام وافريقية، والمغرب والأندلس. (17)

وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد... (18)

* * *

وأحكم العرب خلال فتوحاتهم في المدن الساحلية سيطرتهم البحرية في حوض البحر المتوسط وأدت فتوحات هذه الجزر إلى تأسيس دور لصناعة السفن في الخالصة، وبالرم، ومسينا، ومشنت ماركو وفي قوصرة ومالطة، وإقامة قواعد بحرية في تلك الجزر، وذلك لشن غاراتهم المتواصلة على سواحل إيطاليا الجنوبية والغربية والشمالية الغربية والشمالية الشرقية وعلى سواحل فرنسا الجنوبية... (19) وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون في مقدمته: «والمسلمون خلال ذلك كله، قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة. والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدو»

(15) النواتي : هم الملاحون في البحر، الواحد : نوتي.

(16) شَرَّه، كفرح : غلبه جِرْصُه، فهو شره، وشرهان.

(17) مقدمة، ج : 2 / 628.

(18) مقدمة ج : 2 - ص 628.

(19) انظر «غزوات العرب في البحر الأبيض المتوسط...» للأمير شكيب أرسلان.

الشمالية، فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن في ممالكهم، كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها، وأساطيل المسلمين قد ضُرِيت عليهم ضِرَاءَ الأسد على فريسته، وقد ملأت الأثر من بسيط هذا البحر عُدَّةً وَعَدَدًا، واختلفت في طرقه سلما وحرباً، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح... (20)

* * *

ولقد قام الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط ببناء دار الصناعة في اشبيلية عام 230هـ وقد عرف عن موسى بن نصير أنه اهتم كثيراً بإنشاء عدد كبير من السفن في دار الصناعة (21) في تونس، نقل بواسطتها الجند الذين عبروا إلى سواحل الأندلس، وعلى الرغم من أن ولاية بني أمية في الأندلس لم يهتموا بالأساطيل، فإن شهرة الأندلسيين في صناعة السفن، وخبرتهم بركوب البحر، وخوض غماره أدت إلى تكوين جماعات بحرية تقيم في السواحل الشرقية في الأندلس، تمارس الغزو البحري بمفردها في جنوب فرنسا، وجزر البحر المتوسط الغربي، أو تمتن التجارة ما بين المغرب والأندلس... وقد ذكر ابن القوطية القرطبي أن أبا فريعة الذي عبر البحر مع بدر مولى عبد الرحمن الداخل، وتمايم بن علقمة لنقل الأمير الأموي عبد الرحمن إلى الأندلس كان له بصر في ركوب البحر لتصرفه فيه، وكان لبعض الأفراد مراكب تجارية أو قوارب من بينها المركب الذي حمل عبد الرحمن إلى الأندلس، والمركبان اللذان أرسلهما زياد بن عمرو

(20) مقدمة ج : 2 / ص : 630.

(21) «الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط»، للدكتور إبراهيم أحمد العدوي، «وتاريخ الأسطول العربي» لمحمد ياسين الحموي... «وسفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتاتها في الإسلام» لعبد الفتاح عبادة.

واللخمي مشحونين بالميرة إلى جند بلج بن بشر القشيري وأصحابه الشاميين المحصورين في سبتة... (22)

لقد كانت القوة البحرية العربية الإسلامية في النصف الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط تشكل مركزاً أساسياً من مراكز الحضارة الإسلامية في القرنين الثالث والرابع للهجرة، وكان لاتصال المغرب الإسلامي ببحراً، بثغور البحر المتوسط الشرقية عن طريق التبادل التجاري والعلمي له أكبر الأثر في توثيق الصّلات الحضارية بين سائر أنحاء العالم الإسلامي وتداخل التقاليد الشرقية والغربية في حضارة الإسلام في العصور الوسطى.

* * *

وقد كان لبناء السفن في مصر، وفي فجر الإسلام، شأن عظيم، وقد أظهرت أوراق البردي التي كشفت في كوم اشقاو - والتي ترجع إلى العصر الأموي أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادي النيل في جزيرة الروضة، وفي القلزم (السويس الحالية) وفي الاسكندرية، ولم يقتصر نشاط المصريين على إعداد السفن والأسطول المصري، بل كان والي مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل في أسطول المغرب، أو أسطول المشرق، والمساهمة في المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية... (23)

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة في مصر في العهد العباسي أيضاً، فيذكر المقرئزي (24) أنه بعد أن نزل الروم دمياط في عام 238هـ (852م) في خلافة المتوكل العباسي، وفي ولاية عنبسة بن إسحاق على

(22) «تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس» تأليف الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور عبد العزيز سالم - 1969.

(23) «مصر في فجر الإسلام» سيدة كاشف ص : 91 - 92.

(24) الخطط ج : 2 - ص : 191.

مصر وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول، وأنشئت الشواني برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية، وجميع أنواع المحاربة، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمر الحرب، هذا، وللناس إذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله، وإقامة دينه، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة، ولكل واحد من الناس رغبة في أنه يعد من جلستهم، فيسعى بالسؤال حتى يستقر فيه، وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ، فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالات، ينال المسلمون من العدو، وينال العدو منهم، ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الإسلام، بلاد العدو، فإنها كانت تسير من مصر والشام ومن إفريقية!

في المملكة العربية السعودية، توجد كلية «علوم البحار» في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، يقول عميدُها، د. عثمان عبده هاشم : الكلية تهدف إلى تأهيل الخريجين في مجالات علوم البحار المختلفة والاستزراع المائي وأمراض الأحياء المائية والمساحة والملاحة البحرية والقيام بالبحوث الأساسية والتطبيقية الهادفة لتنمية الثروات الطبيعية البحرية واستشعارها وخاصة الثروات المعدنية في مكامنها البحرية، ودراسة البيئة البحرية ومشاكلها واقتراح الحلول المناسبة لها، وفتح مجالات تدريبية وإعداد المستويات العلمية والفنية المختلفة اللازمة للمساهمة في برامج التنمية والبرامج البحثية والتقنية والتطبيقية في مجالات علوم البحار المختلفة، والتعاون مع المؤسسات العلمية والهيئات الوطنية والعربية والدولية وعقد المؤتمرات والندوات العلمية على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية.

حديث البحر في الأدب العربي

تَقَدُّمُ العرب في علوم البحر...

إن المرحوم الدكتور مصطفى جواد العلامة الكبير في اللغة العربية، كان في حقله اللغوي: «قُلْ، وَلَا تَقُلْ»، ينتقد سائر الاستعمالات الحديثة في اللغة العربية... ومن اعتراضاته الطريفة، رفضه للقول السائر: «وصلت السفينة شاطئ السلامة»، كإشارة مُجَاوِزة لزوال المشكلة، كأن يقول: إن هذا استعمال غير عربي، فالعرب كانوا لا يركبون البحر، ولكن كانوا يركبون الجمل! ولحسن الحظ لم تستجب البشرية لآراء العلامة مصطفى جواد وأمثاله، وفرضت سنة التطور نَفْسَهَا على اللغة... آراء مصطفى جواد تبعد عن الواقع بُعْدَ الأرض عن السماء...

* * *

ومعلوم، أن بجزيرة العرب سواحل طويلة تحيط بها من جميع جهاتها الثلاثة، فالمياه تحيط شبه الجزيرة العربية، فمن الجنوب مياه بحر العرب، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق، الخليج العربي، وكان لهذا الموقع إلى جانب تلك الصحراء القاحلة أثر كبير في تعامل العرب مع المياه، وركوبهم البحر منذ الأزمنة القديمة، حيث برعوا في الملاحة،⁽¹⁾ وفي بناء السفن، رغم ندرة الأخشاب ببلادهم.

ولا يعقل، ألا يكون لسكان سواحل جزيرة العرب، علم بالبحر، وألا تكون لهم سفن، مهما كان حجمها، كانوا يركبونها في اتجارهم مع

(1) انظر : «الملاحة وعلوم البحار» للدكتور أنور عبد العليم.

السواحل الأخرى، فإن من العرب من كان يسكن جزيرتهم سواحل بحر القلزم، ومن جهة الشرق بحر فارس الخارج من بحر الهند إلى جهة الشمال إلى بلاد البحرين، وهناك بلاد كثيرة من اليمن والحجاز وعمان والبحرين، وغير ذلك مما يطول ذكره، وكان سكنة هذه الأمصار والبلدان كلهم من العرب، ولهم متاجر في الهند والحبشة والروم وغيرهم، فكانوا ممن تمس حوائجهم إلى ركوب البحر، ومعاناة سيره، والقيام بما يعين على ذلك وهو علم الملاحة...

وإننا لا نعرف إلا القليل من ذلك الجانب المضيء المشرق من حيوية العرب على عهودهم الزهر، في شرق إفريقيا... لهم في إفريقيا تاريخ يمتد لصبا الزمان أول الدهر، أشار إليه الرحالة الإغريقي مؤلف كتاب: «الكشاف البحري» Periplus، في القرن الأول الميلادي، حيث كتب يعجب لكثرة السفن العربية على الساحل الشرقي للقارة، ويؤكد بقدرة العرب على العيش الجميع، مع الأهليين حتى في ذلك الزمان البعيد... (1م)

على أنه بظهور الإسلام، حدث تحول واضح في الجزء الأوسط من البحر الأحمر، إذ غدت تلك المنطقة معبرا قويا للأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، مما أدى إلى ازدياد النشاط التجاري في هذه المنطقة...

* * *

وقد عرف أهل السواحل البحر وعركوه، وعملوا على استغلال ثرواته، قدر طاقتهم، وتعاملوا مع أهل السفن الذين كانوا يقصدونها في مسافات بعيدة، وركب جمع منها السفن لالتجار مع السواحل المقابلة لهم، فباعوا في أسواقها، واشتروا، وقد أظهر أهل السواحل نشاطاً في ركوب البحر... فكان طبيعياً أن يعرفوا البحر وجماله وجلاله، وسفنه وشراعه، كما أقام عرب من صيادي الحيتان، في منتصف الساحل العربي المطل على البحر

(1) مكرر : «إفريقيا، تحت أضواء جديدة» لبازيل دافدن ص : 11.

الأحمر، النواة الأولى لمدينة «جدة» الساحلية، بل، واستقر قُصَاة الابن الثاني لِمَعْدُ بن عدنان، في «جدة»، وسميت باسم أحد أبنائهم، وهو «جدة» بن جرم بن ريان، وكان هذا قبل الإسلام بنحو خمسة قرون...

* * *

ولقد كان أهل الجاهلية يكرهون ركوب البحر، ويتهيبون منه، وأنهم لم يكونوا يملكون سفنا لعبوره، حتى إن المهاجرين الأولين من المسلمين، لما هربوا من مكة إلى الحبشة، ركبوا سفنا بدائية حبشية، أوصلتهم إلى الحبشة... وأن الخليفة عمر بن الخطاب كان يتهيب ركوب البحر، وكان يوصي قواده بتجنب جيوشهم مخاطره، والابتعاد عنه قدر الامكان، وبضرورة وضع أرض آمنة، وراء الجيش ليكون في وسعهم الرجوع إليها عند المهالك والمآزق... (2) وأنه لما ملك المسلمون مصر، كتب عمرو بن العاص، يسأله عن البحر، فقال: «إن البحر خلق عظيم، يركبه خلق ضعيف، دُودٌ على عود... كتب إليه عمر أن لا يركبه أحد طول حياته، ولم يركبه أحد من العرب إلا من افتات على عمر في ركوبه، ونال من عقابه، كما فعل بعرفجة بن هرثمة الأزدي سيد بجيله لما أغزاه عثمان، فبلغه غزوه في البحر، فأنكر عليه، وعَنَّفَه أنه ركب البحر للغزو، ولعل السبب في ذلك كما يقول ابن خلدون. إن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مَهَرَةً في ثقافته وركوبه، والروم والافرنجة لممارستهم أحواله، وَمَرَبَاهُمْ في التقلب على أعواده، مرنوا عليه، وأحكموا الدراية بثقافته»... (3)

ولم تكن الصحراء الشاسعة، ذات الرمال الوعساء، هي عالم العربي الوحيد، لم يتعدوه إلى عالم البحر. مكتفين بركوب الخيل والبغال والحمير، بل عرف عَرَبُ الخليج البحر، وخاضوا ثبحه، وهو يُعَبُّ عُبَابَه، وتضطخب

(2) إرشاد الساري ج : 4 / ص : 14.

(3) مقدمة، ج : 2 / ص 628.

أمواجه، وأقاموا عليه المراكز التجارية الثابتة، وعبرت سفنهم المحيط الهندي، ونقلوا تجارة الهند، وصنعوا سفنهم من أخشابها... وقد ضرب لبيد بن ربيعة العامري، مثلاً بسفينة الهندي في طولها وعرضها، وفي إحكام عملها، عملها صاحبها وصانعها من صفائح مشبوحة، ودهنها، وسد المسافات التي تكون بين صفائح الخشب، حتى لا ينفذ منها ماء البحر، (4) مما يدل بالطبع على وقوفه عليها، وعلى شهرة تلك السفن في تلك الأيام... وكانت بالأبلة التي عاشت قبل البصرة جاليات جاءت إليها من الهند، فقد كان الاتجار بين الهند وجنوبي العراق، وسواحل جزيرة العرب اتجاراً قديماً... (5)

ويكفي نظرة إلى المعجم اللغوي العربي القديم، (6) لنجدده عامراً بالمفردات ذات الوضع البحري، والدلالات القاطعة التي تشهد للعربي بأنه خاض مياه البحر، فإنَّ وَضَعَ اللفظ على الشيء دليل على وجوده، ولا يكون التمدن اللغوي، إلا بعد تمدن اجتماعي، راقٍ في حقيقته، وإن لم يرق في شكله، عامٌّ في أثره، وإن لم يُعمَّ في أهله... فإن اللغة مظهر من مظاهر الحياة العقلية والعلمية لكل أمة، وهي لم تخلق دفعة واحدة، ولم يأخذها الخلف عن السلف كاملة، وإنما خلقت بالتدريج، وعلى قدر الحاجة، فإذا ظهرت أشياء جديدة، خلق المتكلمون بها لها ألفاظاً جديدة، وإذا اندثرت أشياء، فقد تندثر ألفاظها... واللغة مثل الناطقين بها في حياة وموت مستمرين، وإذا حصرنا الألفاظ التي أطلقها الجاهليون على البحر (7) وعلى

(4) شرح ديوان لبيد ص : 142.

(5) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» ص : 256 / 7. تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا

حتى أواخر القرن السابع الهجري، لعادل محي الدين الألوسي.

(6) «السُّننُ الإسلامية، على حُرُوف المعجم»، للدكتور درويش النخيلي.

(7) «معجم المراكب والسفن في الإسلام» لحبيب زيات [مجلة الشرق، س: 43 - كانون 1949.

وسائل ركوبه، وعلى ما فيه، نستطيع، إذن، أن نعرف ماذا كانوا يعرفونه عنه، وماذا كانوا يجهلون من أمره... (8)

* * *

والمقام، هنا، لا يتسع لذكر الألفاظ والمصطلحات التي لها علاقة بالبحر، فهناك أسماء لمختلف أنواع السفن، وأسماء أدوات كثيرة استعملت في السفن، وأسماء للساحل وللجزر، وللنباتات البحرية وغير ذلك وردت في كتب اللغة، وإليها يجب أن يرجع من يريد المزيد من هذه الألفاظ والمصطلحات...

* * *

فكلمة، البحر، في رأي علماء اللغة العربية، الماء الكثير ملحاً كان أو عذبا، وقد وردت لفظة اليم في القرآن الكريم، ويراد بها البحر، وهناك ألفاظ أخرى، مرادفة للبحر، أيضاً، منها: الخضم، والعيلم، والقلمس، والدأماء، والكافر، والحنبل، والقاموس، وكذلك استعملوا لركوب البحر: السفينة، والفلك، والزورق، والقارب، والخلية، والمركب، والجارية، والجواري، والجاريات، واستعملوا الساحل، والشاطئ، والسيف، والعَدان، والفرضة، والجَوْجُو، والمَلَّاح أو السَّفَّان، كذلك، والنوتي، (10) والسكان، والمجداف، والصاري، والدَّقْل، والدردور، والخليج، والمرفأ، وهو الموضع الذي ترَفَأَ إليه السفن من أصل رَفَأَ، بمعنى أدنى، وورد في حديث تميم الداري، أنهم ركبوا ثم أرفأوا إلى جزيرة «وفي حديث أبي هريرة في القيامة، فتكون الأرض كالسفينة المرفأة في البحر تضربها الأمواج». (11)

(8) د. جواد على ج : 7 / ص 245. المفصل...

(9) تاج العروس ج : 3 / 27، بحر، المفصل : ج 7 / ص 243.

(10) لسان العرب، ج : 2 / ص : 600، والجمع نوتية، ونواتي.

(11) تاج العروس، ج : 1 / ص : 211.

وكذلك تسمى لجة البحر، بالشرم، وقد ذكر أمية بن أبي الصلت «الشروم في وصفه جهنم فقال:

فَتَسْمُو لَا يَغْيِرْهَا ضِرَاءٌ

ولا تخبو، فتبردها الشُّروم

* * *

بل إن بعض الألفاظ الهندية، أخذ طريقه إلى اللغة العربية على لسان الملاحين العرب فيما يتعلق بمهمتهم وصناعتهم، فكلمة البارجة أصلها بالهندية، وفي لسان العرب، البارج: الملاح الفاره، ويقول الأصمعي: البوارج: السفن الكبار، واحدها بارجة، وهي من مراكب الهند عربها العرب عن لفظ «بيرة» (12) كما دخلت بعض المصطلحات البحرية الفارسية إلى اللغة العربية... (13)

والقرآن الكريم ذكر ألواح الخشب التي تستعمل في صنع السفن، «والدُّسُر»، وهي المسامير، والسفن في ذلك العهد من صنع النجارين، وآلات النجارة المذكورة في التوراة، وفي الأنجيل، معروفة ومستعملة عند الجاهليين... في القرآن: «ذات ألواح وُدُسُر».

* * *

فالسَّفينة، وهي واسطة النقل على وجه الماء في الأنهار والبحار، والتي أشار إليها شعر عمرو بن كلثوم :

ملأنا «البحر»، حتى ضاق عنا

و«موج» البحر نملأه «سفينا» (14)

(12) لسان العرب ج 1 / ص 244.

(13) «انظر» : « العرب والملاحة » د. أنور عبد العليم.

(14) لسان العرب مادة «سفن» ص 209 / 13.

ويعرف سُكَّان السفينة بـ«الخيزرانة» وبـ«الخيزران»، قال النابغة
يصف الفُرات وقت مده :

يظَلُّ من خوفه المَلَّاحُ معْتَصِماً

بالخيزرانة بعد الأَيْن والنَجْدِ⁽¹⁵⁾

والخَلِيَّة، وهي العظيمة من السفن، والجمع خَلَايا، قال فيها طرفة ابن
العبد الذي يلقب بشاعر البحر، لأن شعره عني بلوحات البحر، وصوره
أكثر من أي شاعر سواه: (16)

كَأَن حُدُوجَ المَالِكِيَّةِ غُدُوءَ

خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ

* * *

وقال أيضاً :

وَأَتْلَعَ نَهَّاضٌ، إِذَا صَعِدَتْ بِهِ

كَسُكَّانٍ بُوصِيٍّ بِدَجَلَةٍ مُصْعِدِ⁽¹⁷⁾

* * *

وأواخر القرن السابع عشر يشرح لنا السيد مرتضى (18) الهندي الأصل
والمولد في «تاج العروس» كلمات بحرية في معجمه اللغوي، ولا سيما

(15) اللسان ج : 4، ص 238. والملاح : سُمِّيَ بذلك لملازمته، الماء المالح.

(16) طرفة ولد بالبحرين عام 564 م، فتفتحت عيناه على عالم البحر والسفن.

(17) الأتلع : المشرف، وأراد عنقها الطويل. والسكان : ذنب السفينة الذي تقوم وتسكن به. البوصي: السفينة، فارسي معرب.

(18) الشيخ مرتضى البكرامي نجل السيد محمد بن سيد قادري، ولد في «بكرام»، حوالي قنوج بالهند عام 1145هـ. وقد أعرب السيد مرتضى بخطه عن أصله من «بكرام» في آخر إجازته لعمر بن حمودة الصفار التونسي، كما ورد مصرحاً في ترجمته بأخر المجلد العاشر «تاج العروس» خلافاً لما ذهب إليه السيد الكتاني، والمحقق الضليع الأستاذ عبد الستار أحمد فراج في تقديم كتاب: «تاج العروس»... وقضى باليمن نحو سنتين، أو تزيد، حيث أقام في زبيد اليمن. ويسند الحديث على الشيخ عبد الخالق الزبيدي... وتلمذ في الهند على الشيخ الشاه ولي الله الدهلوي، وتوفي بالقاهرة عام 1205، بعدما جاور عدة مرات الحرمين الشريفين، كان يصف نفسه «بالحنفي مذهباً. القادري إرادة، النقشبندي سلوكاً، الأشعري عقيدة [انظر: مجلة «الرائد»، العددان: 18 - 19، السنة: 26، 14 - 20 شوال عام 1415هـ - 16 مارس - أبريل عام 1995].

كلمة «الرهمانج»، وهو الذي يرجع أصله، كما نعلم جيداً، إلى «الهند وعاش نحو العامين في زبيد باليمن وعرف عنه ميل شديد إلى البحر، وقد جاء، مثلاً، في «تاج العروس» في شرح القاموس (ص: 51 ج 2) مانصه: «الراهنامج» بسكون الهاء، وفتح الميم، فارسية، استعملها العرب، وأصلها: «راه نامه»، ومعناها: كتاب الطريق، لأن «راه» هو الطريق، ونامه «الكتاب»، وهو الكتاب الذي يسلك به الربابنة، ويهتدون به في معرفة المراسي، وغيرها كالشعب ونحو ذلك، بل إن القاموس يورد هذا اللفظ، فقد جاء فيه: الراهنامج، كتاب الطريق، وهو الكتاب الذي يسلك به الربابنة البحر، ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها...

* * *

ويقص علينا المقدسي بحيوية فائقة عن ملاحظاته على سواحل جزيرة العرب من القُلزم إلى عبّادان، وعن آثارٍ مدونة كان يستعملها الملاحون، وعن محادثة له مع شيخ عارف بصورة البحر، فهو يقول: «... ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها، ويعولون عليها، ويعملون بما فيها، فعَلَقْتُ من ذلك صدرًا صالحاً بعدما ميزت وتدبرت، ثم قابلتُ بالصور التي ذكرت، وبينما أنا يوما جالس مع أبي علي بن حازم انظر في البحر، ونحن بساحل عدن، إذ قال لي: «مالي أراك متفكراً؟ قلت: «أَيَّدَ الله الشيخ، قد حار عقلي في هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه، والشيخ اليوم من أعلم النَّاس به، لأنه إمام التجار...

* * *

وتتناثر صور البحر والزبد، والأنهار والسفن في بعض أبيات المعلقات وهي تموج بالحركة والحيوية وبراعة الوصف، وذلك مثل ما أنشده عمرو ابن كلثوم حيث يقول:

ملأنا البحر حتى ضاق عنا
وظهر البحر نملاًه سفينا

ومثل البيت المشهور من معلقة أمير الشعراء امرئ القيس :

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدُوله
عَلَيَّ بأنواع الهموم ليبتلي

وهذا النابغة الذبياني يصف الفرات :

فما الفُراتُ - إذا هبَّ الرياحُ له
ترمي أوأذيَّه العبرين بالزَّبد (19)
يمسده كلُّ وادٍ مُتُّرع لَجِب
فيه زُكامٌ من الينبُوت والخَضد (20)
يظلُّ من خوفه الملاح مُعتصماً
بالخيزرانة، بعد الأين، والنجد (21)

ويقول أيضا في وصف البحر :

يماشيهنَّ أخضرُ ذو ظلالٍ
على حافاتِه فلقُ الدَّنان

وقال كعب :

فجئنا إلى موج من البحر، وسطه
أحابيش منهم حاسر ومقنع (22)

(19) إذا هب الرياح له، في رواية : إذا جاشت غواربه، الأواذي، ج : أذى : الموج، العبران: الضفتان.

(20) يمدّه : يزيد فيه بإخصاب مائه، الركام، الحطام المتكلف المجتمع بعضه فوق بعض. الينبوت: شجر الخشخاش. الخَضد: الشجر المنكسر.

(21) خوفه : الهاء راجعة للفرات، الخيزرانة : السكّان، دفة السفينة، الأين: التعب والعياء. النجد: الكرب والشدة.

(22) القرطبي : تفسير ج : 14 / ص 80.

وهذا الشاعر الأعشى الأكبر، يقول :

وما مزبد، من خليج الفرا
ت، جَوْنٌ غَوَارُبُهُ تلتطم (23)
يَكْبُ الخليفة ذات القِلا
ع، قد كاد جَوُّها ينحطم (24)
تَكَأْ ملاحها وسطها
من الخوف، كوثلها يلتزم (25)

ويقول طرفة، شاعر البحر، في تصوير موكب رحيل الحبيبة، وتشبيهه
بصور واقعية منقولة من عالم البحر :

كأن حُدوج المالكية، غدوة
خلا يا سفين بالنواصف مِنْ دَر (26)
عَدُولِيَّة، أو من سَفِين ابنِ يامن
يجور بها الملاح، طورا، ويهتدي (27)

(23) الجون : الأسود. الغوارب. ج : غارب كل شيء : أعلاه.

(24) الخلية : السفينة الكبيرة. القلاع : الشراع، الجَوُّ : الصدر.

(25) تكأ، تمايل. الكوثل : مؤخر السفينة أو سكانها.

(26) الحُدوج : ج : الحدج : مركب النساء على الجمل. المالكية : نسبة إلى قومها بني مالك، وهي خولة الكلبيّة، فالمالكية تنصرف إلى الحبيبة، وإلى القبيلة معا في هذه الأبيات، خلايا: ج: خلية: السفينة العظيمة. سفين: ج سفينة. النواصف ج: الناصفة أماكن تتسع من الأوية كالطرق، مجاريبي الماء إلى الأودية. دَر: واد في الطريق من البصرة إلى البحرين ترسو فيه السفن، وإن كان النواصف اسم مكان في عمان.

(27) عدولية : نسبة إلى عدُولى : مرفأ بالبحرين اشتهر ببناء السفن ابن يامن: ملاح مشهور من هجر، ورد اسمه أكثر من مرة في الشعر بذكره الأعشى أيضا:

فلما استقلت قلت نخل ابن يامنِ أهنُّ أم اللاتي تربت يترب

وهو يقصد بنخل ابن يامن : سفين ابن يامن، وشبه سفته بالنخل في علوها، وتربّت: تربّى، يترب : يغتني، ويفتقر، وهو من الأضداد.

يشق حباب الماء، حيزومها بها
كما قسم التربة، المفائل باليد(28)

ففي هذه الأبيات الثلاثة تشبيه جميل مركب، شبه فيه الشاعر أولاً
مراكب صاحبه وصواحبها بالسفن العظام، يديرها الملاح، طورا في سواء
السبيل، وتارة خارجاً، فتشق صدورها معظم الماء... ثم علق بهذه الصورة
الأخيرة، فشبه شق السفن للماء، بقسم اللاعب بالفئال ترابه قسمين
متوازيين...

* * *

وقد اشتهر سكان مدينة الشَّحْر، (29) على الساحل الجنوبي لحضرموت
منذ القدم بالمهارة في الملاحة، ولعل الممثل العربي للجغرافية الملاحية
الذي أصبح معروفاً بفضل أبحاث الكاتب المؤرخ «فيران» (30) هو سليمان
المهري الذي له كتاب: «العمدة المهرية، في ضبط العلوم البحرية» (31) الذي
يرجع تاريخ تأليفه إلى عام 917 - 1511م، وجميع المصنفات الخمس التي
تبقت من مؤلفات سليمان المهري مكتوبة نثراً، ومحفوظة بأجمعها في
إحدى مخطوطتي باريس المشار إليهما رقم 2559. - والمصنف الثاني
لسليمان المهري يحمل عنوان: كتاب «المنهاج الفاخر، في علم البحر
الزاهر.....».

وعندما وضع فرامورو، (32) مصوره الجغرافي في عام 1458، ذكر أن
ملاحاً عربياً أبحر حوالي عام 1420، من المحيط الهندي حول القارة
الافريقية فظهر بالمحيط الاطلنطيقي...

(28) حباب الماء : أمواجه معظمه فقائعه التي تطفو، الحيزوم: الصدر. المفائل: الذي يلعب بالفئال،
وهو ضرب من اللعب يكون بأن يجمع المفائل: الذي يلعب بالفئال، وهو ضرب من اللعب يكون
بأن يجمع التراب أو الرمل فيه شيء، كالخاتم وغيره، ثم يقسم الفائل التراب بيده نصفين،
ويسأل صاحبه عن الدفين في أيهما هو، فإن أصاب ربح، وإن أخطأ خسر.

(29) الشَّحْر : بلاد ساحلية في حضرموت.

(30) فيران غبريل : G.Ferrand مستشرق فرنسي خبير بالجغرافيا العربية، (1864 - 1935).

(31) «كشف الظنون» ج : 2 - ص : 1172.

(32) كوزموغرافي، وكارتو غرافي إيطالي (ت : 1459م).

وقد أبصر فاسكو داغاما(33) في عام 1497 - 1498 سفناً عربية إلى الشمال من موزمبيق تحمل البوصلة «بيت الإبرة» وخارطات بحرية، وهو يؤكد ذلك بقوله: «ويحمل الربانة بوصلات لتوجيه السفن، وآلات للرصد، وخارطات بحرية»، وعلى إحدى هذه السفن، وجد «فاسكو داغاما» مخطوطات عربية بعث بها إلى الملك «مانويل». (34)

* * *

أما مواطنه الشهير ألbuquerque (35) فإنه يدين بفتوحاته في منطقة عمان والخليج الفارسي ليس بالقليل إلى خارطة بحرية من عمل ربان عربي يدعى عمر، بل ويقول في مذكراته: «إن ملاحاً مسلماً وقع في أسر البرتغاليين عند جزيرة سَقَطْرَه، (36) كان رباناً عظيماً، ذا معرفة جيدة بهذا الساحل، وقد أعطاه مرشدا للطرق البحرية مبينة عليه جميع موانئ مملكة «هرمز» وهو من وضع ربان آخر يدعى عمر كان قد صاحبه ذلك الربان في البحر. (37)

إن «فاسكو داغاما» نفسه قد وفق في الاستفادة من تجربة العرب العملية.

* * *

ولعل من أعظم الملاحين العرب أبو العباس شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي النجدي. فهو بهذا ينتمي إلى نجد، وولد بجلفار على الساحل العربي لخليج عمان، ويقع نشاطه البحري، كما يستدل من تاريخ

(33) Vasco de GAMA (1469 - 1524) برتغالي من مشاهير النُوتيين، اكتشف طريق الهند عن رأس الرجاء الصالح (1498) استعان بالعرب ليهتدي طريقه في مجاهل المحيط الهندي.

(34) «مانويل» الأول، الكوميني امبراطور بيرنطة (1143 - 1180).

(35) البورك (1453 - 1515) بحار برتغالي أسس المستعمرة البرتغالية القديمة في الهند كان يستعين في أسفاره بربانة العرب.

(36) سَقَطْرَه : جزيرة في الأقيانوس الهندي، واقعة شرقي خليج عدن (SOCOTORA).

(37) الأدب الجغرافي ص : 563 ج : 2.

تأليف مصنفاته - في النصف الثاني من القرن الخامس عشر... فهو ينحدر من صلب أسرة اشتغل أفرادها بقيادة السفن، فجده وأبوه كانا معلمين، أيضاً، وخلفا اسمهما في عالم الملاحة وفي الأدب وفي الأسطورة كذلك... (38) ويقص المؤرخ الرحالة الشهير «برتون» أن ملاحى عدن كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة إلى ولي من أهل الشام يدعى الشيخ ماجد، ويقرأون الفاتحة على روحه قبل ركوبهم البحر... (39)

وأثار ابن ماجد كثيرة، ويبلغ عدد الموجود منها في الآونة الحاضرة الأربعين ومعظمها قد تمت صياغته شعراً وفقاً للمنهج التعليمي القديم، غير أن واحداً من مصنفاته الكبرى الهامة، قد كتب بالنثر، ويحمل عنوان: «كتاب الفوائد، في أصول علم البحر والقواعد»، وفيه يفصل المؤلف الكلام على الجانبين النظري والعملي للمسائل الملاحية معتمداً من جهة على من سبقوه في هذا المضمار: ومن جهة أخرى على تجاربه الشخصية بصورة خاصة، وميدان هذا الكتاب الرئيسي هو البحر الأحمر، والخليج الفارسي، والمحيط الهندي وأرخبيل الهند الشرقية (الماليو)... (40) فرغ من تأليفه عام 795هـ 1489م، وظل يدرس هذا الكتاب في مدارس أروبة البحرية حتى أواخر القرن التاسع عشر، وترجم إلى الانجليزية، حققه إبراهيم خوري، وعزة حسن، ونشره «مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1971»، أما بقية مصنفات ابن ماجد فمنظومة شعراً، وتحمل عادة اسم «الأراجيز» رغماً من أنها لم تنظم في كل الحالات ببحر الرجز، وإحدى هذه الأراجيز قد تم

(38) المصدر السابق ص : 573 ج : 2. انظر : «ابن ماجد، أسد البحر الهائج»، قدرى حافظ طوقان «الرسالة» للزيات، ع: 93 - 15 / 4 / 1935، وانظر: مجلة المجمع العلمي العراقي ج: 1 / 282. 284.

(39) المصدر السابق ص : وانظر : «الملاح العربي أحمد بن ماجد»، لمحمد بن ياسين الحموي.
(40) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي ج : 2. ص : 574.

تأليفها، قبل: «كتاب الفوائد»، تلك هي أرجوزته الكبرى الواقعة في «ألف بيت» بالتقريب والتي تحمل عنوان: «حاوية الاختصار، في أصول علم البحار»، التي فرغ منها بمسقط رأسه جلفار عام 866هـ - 1462م، وهي تقع في أحد عشر فصلا.

وتعد هذه الأرجوزه من أفضل أرجوزاته، وهي حاوية لكل ما يحتاج إليه الملاح، وما يجب أن يعرفه، وهي من 1082 بيت، ونسخة الحاوية الخطية في مكتبة باريس الوطنية ضمن مجموعة برقم 5 - 2559 كما ذكر بروكلمان...[.

وهذان المصنفان، أهم مادونه يراع ابن ماجد من بين مصنفاته الموجودة، اليوم، سواء من حيث الحجم أو المضمون. (41)

وقد أشار ابن ماجد إلى ثلاثة مؤلفين في العصر العباسي من السابقين له في هذا المضمار، وهم محمد بن شاذان، وسهل بن أبان، والليث بن كهلان... (42)

وفي مكتبة ملحقة شعوب آسيا (43) «بسان بيترسبورك» (44) بقايا من مصنفات ابن ماجد، وهي ثلاثة أراجيز.

الأرجوزة المسماة بالمُعَلَّقِيَّة - من بَرِّ الهند، إلى بَرِّ سيلان، وهي وصف للملاحة في سواحل الهند وأندونيسيا وجنوب الصين. (45)

(41) المصدر السابق ج : 2 ص 576. ومخطوطات ابن ماجد ومصنفاته على جانب كبير من الجودة، فالمخطوطة الرئيسية بباريس تمثل نسخة مأخوذة من الأصل، وترجع إلى عام: 984 - 1576، أما مخطوطة دمشق، فقد نسخت بمكة عام 1001هـ - 1592م كما وأن نسخ المصنفات الثلاث الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية ترجع إلى منتصف القرن السادس عشر.

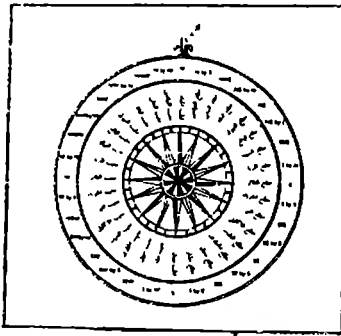
(42) المصدر السابق ج : 2. ص 565.

(43) المتحف الآسيوي سابقا. «وسان بيترسبورك» جامعة انطلق منها تعليم اللغة العربية عام 1818م.

(44) ليننكراد، سابقا. SAINT - PETERSBOURG.

(45) (808) 992. B. وهي تتألف من 273 بيت، وصف فيها المجاري وقياساتها من بر الهند إلى سيلان، وجاوة وسومطرة، ومطلعها:

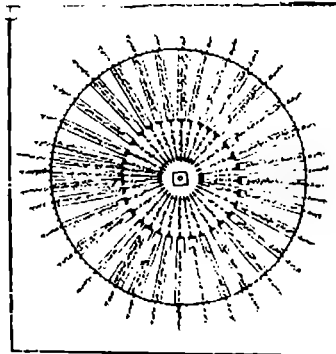
عزمت، والعزم حميد السفر لا سيما من بلدة فيها ضرر



البوصلة كما طورها ابن ماجد



آلة الكمال أو خشبات ابن ماجد وهي الطريقة التقليدية في معرفة خطوط العرض



الأخنان : أي أقسام الإبرة مفردتها :
خن، وهو جزء من 32 جزء من
أقسام البوصلة

الصفحة الأولى من الأرجوزة السفالية

صفحة من الأرجوزة السفالية لأحمد بن ماجد
(عن مخطوط لننجراد الذي نشره شومسكي سنة 1957)

بسم الله الرحمن الرحيم
نحمد الله رب العالمين والصلوات والسلام على محمد وآله كجبه أجمعين فبما لا ريب
السما بالسفالي وسما ما بقني معرفته فليجاري في القياسات من ملبسها وكان
وجوز ذات السند والاطلاع إلى السيد الطويل ومنه إلى نواحي السواحل
والريخ وأرض المسفل والقرو جزره ونوادير علوم جميع ما في تلك النواحي إلى
أحرار الأرض من بحروب وذكر قيات يعرف بهم العلم فتعلمان والزيادة في
جميع الاحسان وصف نواذير تلك الطريق من القياسات والبرود الحار
وسكان الأرض وملوكها ومواسمها وسفرها على ما يلين يدرك لما كان وسفرها
راجع الصلاة حاج الحرمين الشريفين سحاب الدين أحمد بن ماجد نعمه الله

من عدم جل تعالى علا
وكم زوايا البحر من العفاف
غربي عليها في صباح وعمر
وجوزات من الدبول
فانفل مضح حالي يا صاحبي
إلى سفاله استمع وبعبر
من جاء أصبعين كالثلاث
على قدر ريجك في المسير
فالتفهم كيتي محض اصادقا
يتولى بل الحواش ربح المعز
فذاك سبب الغار في المن
مناقاة على ذوي المار
فذاك بالتدبير في الاسفار
كون له فيه تحفه وشعر
ان لم تنزل عن ثلاث كمال
وساقله نراه بايتين

نحمد لله الذي انشا الملا
فذلكت اللسن من اوصافه
لو لم يكن الا القياس والدير
من ارض كاليكوت معاد ابولي
ثم هه اميز مع الاطواح
إلى السواحل ونواحي القمر
من ارض كاليكوت إلى الغالات
مجرأ في البحر زامعا والشير
ان كان زجاجا ماسوا ففقا
عمر زاماجه فاحجب
من حذر الغالات شام وبعين
فان بكر انك من المعارب
ادرض او طوفان او امطار
ما حاجه يوصف للمعلم
لاتتبط لبحاه وقالب مشر
قياس كيتي على البين

الأرجوزة المسماة بالسفالية، وهي حول رسالة الملاحة البحرية في سواحل افريقية الشرقية. (46) والأرجوزة السَّفَالِيَّة، نسبة إلى إقليم «سفالة» على شاطئ افريقية الشرقي، وهي من 701 بيت، وفيها وصف كوزموغرافي لهذا الشاطئ والمجاري والقياسيات من ميناء «مليبار» في الهند إلى آخر أرض الجنوب (إقليم سفالة) وأخبار ملوكها، وعادات أهلها ومواسمها ومعادنها وثرواتها، ومطلعها:

الحمد لله الذي أنشأ الملا

من عدم، جل تعالى وعلا

[انظر «ابن ماجد» ملاح جغرافي وشاعر، مجلة القافلة: الظهران 1988 للأستاذ عصام ميداني] وقد نشر هذه الأرجوزة وحققها عن نسخ خطية في معهد الاستشراق التابع للمجمع العلمي السوفياتي المستشرق تيودور شوموفسكي عام 1957، ثم ترجمها إلى الروسية.

ويقول النهروالي : إن ابن ماجد قد التقى «بفاسكودي غاما» في منطقة «سفالة» أوفي ملندي أو في غيرها من مرافئ إفريقيا الشرقية.

الأرجوزة التائية، وهي في الملاحة بين جدة وعدن. (47) وهي الأرجوزة التائية على البحر الطويل، وتتألف 155 بيت، وصف فيها المجاري والطرق وقياساتها من ميناء جدة إلى عدن، ومطلعها:

سرتُ نسمة الفردوس من أرض مكة

بربح الصِّبَا، فاشتأقت السيرحلبتي

* * *

ونعيش مع الشريف الإدريسي في «نزهة المشتاق» ساعات غير قليلة في قراءة أوصافه الممتعة الغريبة للبحار وغرائبها، مما يؤكد لنا اهتمامات

(46) رقم المخطوط (807) B 992.

(47) رقمها : 809 - B 992. عن الصديق الفاضل الدكتور عبد الرحيم العطوي الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في بحثه عن «الدراسات العربية في روسيا».

هذا الرجل بهذا العالم الغني العجيب... فقد ركب لجة البحر الأبيض المتوسط غير مرة، وأنه ركب لجة المحيط في جولة حَوْلَ الشاطئ الغربي للأندلس، ولا نعرف أن عبر البحر الأحمر أو المحيط الهندي، ومع هذا، فإننا نجد من الإدريسي اهتماماً بالغاً بصفة البحار، وما يكتنفها من مظاهر طبيعية، وما يسكنها من عجائب البحر، ومن يعيش في الجزر من أقوام غربيي العادات والطباع...

* * *

ووصف ابن رشيقي البحر، وقد اشتدت الرياح فيه في يوم عاصف، وعلت الأمواج وارتطمت بالسفين، والليل يغشى بظلامه كل شيء، فقال، ولم ينس محبوبته برغم ذلك كله:

ولقد ذكرتِك في السفينة، والرّدى

متوقع متلاطم الأمواج

والجو يهطل، والرياح عواصف

والليل مسود الذُّؤابة داج

والأدب العربي غني «بأدب البحر» والأساطيل، وقد خصه الأدباء والمؤرخون بدراسات واسعة تشهد للعرب بتقدمهم في رُكوب البحر. وإقامة الأساطيل الضخمة..

وقد تحدث في هذا المعنى مسلم بن الوليد وهو يصف سفينة يقول في مطلعها:

كشفت أهـاويل الدجى عن مَهْـولِهـ

بجارية محمولةٍ حَامِلٍ بِكْر(48)

إذا أقبلت رَاعَتْ بِمَقْلَةٍ قَرْهَبٍ

وإن أدبرت راقـت بقادمتي نسر

(48) زهر الآداب، وثمر الألباب، للحصري ج : 4 : ص : 1072. «رفع الحجب المستورة» 141/2.

أطلت بمجدافين يعتورانها
وقَوَّمَهَا كَبُحُ اللِّجَامِ مِنَ الدَّبْرِ
كان الصَّبَا تحكي بها حين واجَهَتْ
نسيمَ الصَّبَا مَشْيَ العروسِ إلى الخدرِ

والقرهب : الثور.

ومما قيل أيضا، في وصف الأساطيل، ما أنشده أبو القاسم ابن هانيء،
وهو يصف أسطول المعز بالله حيث يقول في مطلع قصيدة:

أما والجواري المنشآت التي سَرَتْ
لقد ظاهرتها عُدَّةٌ وعديدٌ (49)

قَبَابٌ كما تُرَخَّى القِبابُ على المَهَا
ولكنَّ من ضُمَّتْ عليه أَسْوَدُ

وهذا علي بن محمد الإيادي يصف أسطول القائم، فأجَادَ مَا أَرَادَ: (50)

اعجبْ لأسطول الإمام محمد

ولحسنه وزمانه المستغرب

وانظر تمامها في : «رفع الحجب المستورة، في محاسن المقصورة»

[ج: 2 / ص: 141].

وقد أطنب الناس في وصف السفن وأطابوا، وقَرَطُسُوا القريضَ
وأصابوا، كما ذكر ذلك المقرئ في نفحه.

فهذا أبو عمرو يزيد بن عبد الملك بن أبي خالد اللخمي الاشبيلي (51)
الكاتب (612هـ) أورد له ابن الأثير في «تحفة القادِم» هذه القصيدة في
وصف الجواري المنشآت من الأسطول العربي فقال:

(49) نفس المصدر والصفحة.

(50) نفس المصدر ج : 4 ص : 1073.

(51) نفح الطيب ج : 4 / ص 55. انظر : «الاسطول في اللغة والتاريخ» لمحمد الشاذلي النيفر. مجلة:

«الثريا» التونسية، مج: 2 / ع: 1/1945.

ويا للجواري المنشآت وحُسنها
طوائِرَ بين الماء والجوِّ عُوْماً
إذا نشرتْ في الجوِّ أجنحةَ لها
رأيتَ به روضاً ونوراً مكمّماً

إلى آخر القصيدة... التي أجاد ما أراد في هذا الوصف، وإن كانت
معانيها تنظر إلى قول أبي عبد الله ابن الحداد يصف أسطول المعتصم بن
صُماح:

هَامَ صرف الردى بهَامَ الأعادي
أَنْ سَمَتَ نحوهم لها أَجْيَادُ
وتراءت بشرعها كعيونٍ
دأبها مثلُ خائفِها سُهَادُ
حُمَمٌ فوقها من البيض نَارُ
كل مَنْ أرسلت عليه رمادُ

وما أحسن قولَ أبي الحسن ابن حريق في هذا المعنى من قصيدة
أنشدها...

وكأنما سكن الأراقم جوفها
من عهد نوح خشيةَ الطوفان
فإذا رأين الماءَ يطفحُ نضنضتُ
من كل خرقٍ حيّةً بلسان

وهذا محلي بن محمد الإيادي التونسي في قصيدة طويلة، تُعدُّ من غُرر
القصائد، وقد سرد جملة منها صاحب المناهج، ونقل بعضها صاحب
النفح: يقول:

أعجبُ بأسطول الإمام محمدٍ
وبحسنه وزمانه المستغربِ

لبستُ به الأمواج أحسن منظرٍ
يبدو لعين الناظر المتعجب

ومنها :

جو فاءُ تحملُ موكباً في جوفها
يومَ الرهانِ وتستقل بموكب

ومن هذه القصيدة الفريدة في كـر الشراع :
ولها جناحٌ يُستعارُ يُطيرُها
طوعَ الرياحِ وراحة المتطربِ
يعلو بها حَدَبُ العُبابِ مطاره
في كل لُجٍّ زاخر معلوبٍ
إلى آخر القصيدة :

ويقول أبو عمر القسطلي :

و حال الموج بين بني سبيل
يطيرُ بهم إلى الغول ابنُ ماء
أغرَّ له جناحٌ من صباح
يرفرقُ فوق جُنحٍ من سماء
وقد أخذ هذا المعنى أبو إسحاق ابن خفاجة فقال :
وجارية ركبَتْ بها ظلاماً
يطير من الصباح بها جناحُ
إذا الماء اطمأنَّ ورقَّ خصرا
علا من موجِه ردفُ رداح
وقد فغر الجِمامُ هناك فاه
وَأَتْلَعَ جِيْدَه الأجل المُتاح

ولابن الأَبَّار في وصف السفينة :

يا حبذا من بناتِ الماءِ سابحةً
تطفُّو لما شبَّ أهل النار تطفئهُ
تطيرها الريحُ غرباناً بأجنحة الـ
حمام البيض للأشراك ترزؤه (52)

وقد أنشأ المنصور بن أبي عامر أسطولا تحدث عنه ابن دراج القسطلي
في قصيدة، منها...

تحملُ منه البحرُ بحرًا من القنا
يروعُ بها أمواجه ويهولُ
بكل مَمَالَاتِ الشراع كأنها
وقد حملت أسدَ الحقائق غيلُ
إذا سابت شأوَ الرياح تَخَيَّلْتُ
خيولاً مدى فرسانهن خيول (53)

وهي طويلة...

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول الحسن بن هانئ، في سفينة، أمر
الأمين بإقامتها ليركبها في دجلة.

بنيت على قــــــدر ولأءَم
طبقان من قَيْرٍ ومن ألواح
فكأنها، والماء ينطح صدرها
والخَيْرُ زُرانة في يد الملاح
جَوْنٌ من العُقبان يبتدر الدجا
يَهْوَى بصوتٍ، واصطِفاق جناح

(52) نفح الطيب ج 4 / ص : 58، وانظر مقطعات لابن حمديس الصِّقلي «حول البحر» في النفح»
ج : 4/ص 271.

وَلِمَهْيَارِ الدَّيْلَمِيِّ :

من الغادي تحط به وتعلو
نجائب، من أزمتهما الرياحُ
فَمَرَّتْ كُلُّ شَائِلَةٍ زَفُوفٍ
لها من غيرها اليدُ والجنح
ملممة لها ظهرٌ مصونٌ
وبطنٌ تحت راكبها مُبَاحُ
ترى صوتَ الشَّمالِ يَسُلُّ منها
طرائدٌ لا يَكُفُّ لها جَمَاحُ
تراوح رجل سائقها يديه
ولا التَّعْرِيسُ منه ولا الرواح

ولأبي بحر صَفْوَانِ بنِ إدريسِ رحمه الله، يصف ليلةً ركب فيها البحر،
لصيد الحيتان، وكان ساكناً أو لها، ثم أفرط في ارتجاج آخرها.
وفتيان كما انتقيت لئالٍ
يلوح الدهر منهم في حلاه

ولأبي عبد الله بن الحداد يصف أسطول ابن صَمَادِح، وهو حسن جدا:
وتراءت لناظر كعيون

دابها مثل خائفها سهاد
ذات هُدْبٍ من المجاديف تحكي
هُدْبٌ بَاكِ لِدَمْعِهِ إِسْعَادُ
حُمَمٌ فَوْقَهَا مِنَ الْبَيْضِ نَارُ،
كل من أرسلت عليه رماد
ومن الخط في يدي كل زمر
ألف خطه على البحر صاد

واللقسطلّي :

وَحَالُ الْمَوْجِ دُونَ بَنَى سَبِيلِ
يَطِيرُ بِهِمْ إِلَى الْغُولِ ابْنُ مَاءٍ
أَعِيرَ لَهُ جَنَاحٌ مِنْ صَبَاحٍ
يَرْفَرُ فَوْقَ جُنْحٍ مِنْ مَسَاءٍ

* * *

دراسة المصطلحات البحرية العربية :

دراسة المصطلحات البحرية العربية ليست بالأمر الهين، بل هي أمر في غاية الدقة والتعقيد، نظراً لشموله واتساعه، بالإضافة إلى الاختلافات الكبيرة التي طرأت على المصطلحات، وحتى المفاهيم نفسها نتيجة التطور التقني والحضاري العام الذي انعكست آثاره فيما انعكست على البحرية، وكل ما يتعلق بعلم البحار... وقد فطن العرب كغيرهم من الأمم البحرية إلى أهمية هذه الوسيلة الطبيعية التي تحيط ببلادهم على اتساعها، فسرعان ما وجهوا اهتمامهم إليها، إلى درجة جعلت الأمم البحرية تسميهم بحق: أمراء البحار. (54)

* * *

عِلْمُ السَّمَاكِ :

لعل علماء «الإكتيولوجيا» (علم السماكة) وعلماء المؤسسات الدولية الذين اهتموا بمنتجات البحر الغذائية بوضع معاجم لأسماء الأسماك، بغية تفادي أدنى التباس بين المختصين في علوم البحر، وألوان غذائه... فهناك عمل ضخم أنجزته أكاديمية العلوم للاتحاد السوفياتي عام 1980 تحت عنوان: «أسماء أسماك البحار في العالم» الذي جمع أسماء السمك في

(54) هدية العارفين ج : 6 / ص 145.

عدد كبير من مناطق الكرة الأرضية، وقد ساهم، شخصيا، أخونا الدكتور عبد الرحيم العطاوي أستاذ اللغات الأجنبية بكلية الآداب بالرباط، بلائحة الأسماء المتداولة في بعض المدن الساحلية المغربية، وخاصة منها مدينة أسفي، ويعد هذا المعجم من أغنى المعاجم وأدقها في بابهِ... ثم هناك معجم عربي - فرنسي للسماكة والأسماك للأستاذ أخينا عبد العزيز بنعبد الله الذي أشرف على طبعه عام 1969 المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي، ثم هناك عمل منظمة التغذية العالمية (F.A.O)، الذي يعتبر فقيرا بالنسبة للأسماء المتداولة، وذلك كَجُذَاذَات التي طبعتها في سلسلة

Fiches d'identification des espèces par les besoins de la pêche.

وهناك كتب ومقالات متخصصة في مصطلحات وعادات الصيادين، وسكان المناطق الساحلية بالمغرب، وأهمها:
«البحر في عادات وصناعات الرباط وسلا».

"Louis Brunot" "La Mer dans les traditions et les industries de Rabat et Salé" للأستاذ

"Brunot" الصادر في باريس 1920، ولنفس المؤلف: «معجم المفردات البحرية في الرباط وسلا»:

"Notes lexicologiques sur le vocabulaire maritime de Rabat et Salé" صدر هذا

الكتاب في باريس 1920... ونجد في العملين المشار إليهما الأستاذ «برونو» Louis Brunot حوالي 100 اسم لمختلف الأسماك، مع وصفها وترجمتها إلى الفرنسية، ومقارنتها بالأسماء المتداولة في مدينة «مستغانم» بالجزائر.. و«أسماء السمك في مدينة تطوان» الموجودة ضمن مقال "A. Joly" «الصناعة في تطوان» الذي صدر عام 1912 في المجلد الثامن عشر من مجلة Les Archives Marocaines [انظر بحثا في الموضوع للدكتور عبد الرحيم العطاوي: «مدخل إلى معجم مقارن لأسماء الأسماك بأسفي» [أعمال الملتقى الفكري الأول لمدينة أسفي].

لقد كان علماء المسلمين يعرفون بأن هذا الكون الأرضي البديع يحيط به الماء من جميع جوانبه، وكان كما قال ابن خلدون محفوفاً بعنصر الماء، وكأنه عنبَةٌ طافية، فاهتموا به أيما اهتمام، وأولوه في بحوثهم العناية. وألفوا فيه من المؤلفات التي تشهد لهم، بالتفوق والفَلَج، وبأنهم كانوا يدركون بأن هذا الكوكب المائي خليقٌ بأن تُولف فيه المؤلفات ذات البعد العميق.

* * *

مؤلفات في عجائب البحر وغرائبهِ :

لقد شاع في تاريخ الكتابة العربية نوعٌ من المؤلفات يعرف «بالعجائب أو الغرائب»، وقد تعدد هذا النوع من الكتابة، فهناك على سبيل المثال نجد لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي، شيخ الربوة (ت727هـ)، «نخبة الدهر، في عجائب البر والبحر» وهو مجلد على تسعة أبواب ككتاب عجائب المخلوقات، (55) وابن الوردي، له: «فريدة العجائب، وفريدة الغرائب»، والقزويني في «عجائب المخلوقات، وغرائب الموجودات».

فهذا نوع من الكتب الذي يعد من مصادر البحث، عرف بكتب العجائب، وهذا النوع من الكتب عبارة عن كتب وصفية للبلدان التي تتناولها... ولكن تختلف عن باقي الكتب التي لا تحمل هذا الاسم، إلا أنها حفلت بكثير من الغرائب والعجائب التي يحار العقل في تفسيرها، ثم إنها لم تكتب بأسلوب علمي، أو كتاب علمي، فقد كتبت لعامة القراء أو للتسلية في المحافل والمنتديات.

فهذه الكتب كانت تروي ما يشاهده الكاتب أو يسمعه ويعجز عن تفسيره، وهذا لا يقلل من قدرها، لأنها اشتملت على حقائق ومعارف تفوق

(55) الحرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة، وأوائل العصور الوسطى، لجورج فضل حوراني، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر - 48 - كشف الظنون ج : 2 / ص : 1936.

ما فيها من عجائب وغرائب، وقد أدرك مؤلفوها قدر ما فيها من الغرائب،
ولذلك اطلقوا عليها هذه التسمية...

* * *

والعرب، منذ القديم، اهتموا بعلوم البحر، وألفوا فيه عدة تأليف منها
«عجائب البحر» لهشام بن محمد السائب الكوفي الشيعي المعروف بابن
الكلبي (ت 204هـ - 819م)، ولا يعرف ما محتوى الكتاب، بل ما حلّ به. (56)
ولأحمد بن الطيب السرخسي (ت : 286هـ) تلميذ الفيلسوف الكندي
وصديقه رسالة: «في البحار، والمياه، والجبال» وذكر المسعودي أن
السرخسي إلى جانب هذا، قد صنف كتاباً حسناً في «المسالك والممالك،
والبحار وأخبار البلدان وغيرها: (57) «وتحفة الفحول، في علم البحر»، (58)
مختصر على سبعة أبواب، مشتملة على أحوال مسالك البحر الهندي...
«وثلاثة أزهار، في معرفة البحار»، لشهاب الدين أحمد بن ماجد (59) تحقيق
ونشر تيودور شوموفسكي، ترجمة وتعليق د. محمد منير موسى.
وكتب علي بن محمد بن الشاه الظاهري (ت : 252هـ - 963م) أحد
الإخباريين وجماعي القصص والطرائف كتاب: «عجائب البحر»، كما ذكره
صاحب إرشاد الأريب: 5 - 328، (60) وألف الماجن المعروف أبو العنبر
محمد بن إسحق الصميري (212هـ - 828م) كتاباً بعنوان: «عجائب البحر»،
وهو كتاب ضاع فيما ضاع من كتبه، وكتب علي بن عيسى الحراني (كان
حياً قبل 279هـ كتاباً بعنوان: «عجائب البحر»، (61) وهناك كتاب ذكره محمد

(56) «هدية العارفين» ج : 6، ص : 508.

(57) كتاب الأدب الجغرافي عند العرب ص 131 / 1.

(58) كشف الظنون ج : 1 / ص : 371.

(59) «ابن ماجد الملاح»، للأستاذ أنور عبد العليم.

(60) مجلة المورد ص : 236.

(61) «كشف الظنون»، ج : 3 ص : 1126.

ابن يحيى الصولي (ت: 335هـ - 964م) بعنوان: «عجائب البحر»، لا نعرف مؤلفه، ولا نعرف ما حل به، (62) وكتب أبو حامد الغرناطي، أيضاً: «تحفة الألباب، ونخبة الاعجاب»، وهو سفر مقسم إلى أربعة أبواب منها: «صفة البحار، وعجائب حيواناتها، وما يخرج منها من العنبر والقار، وفي جزائرها من أنواع النفط والنار»، (63) ولخسرو الدهلوي أمير الكلام (ت: 725هـ) كتاب: «جواهر البحر»، (64) «وعجائب البحر» لعبد الرحمن بن صاجلي أمير الرومي الحنفي الشهير بعلمشاه، قاضي صفد (ت: 987هـ، 65) ولأحمد بن ماجد آثار عديدة، ويبلغ عدد الموجود منها نحو الأربعين، ومعظمها قد تمت صياغته شعراً، وفقاً للمنهج التذكيري أو التعليمي القديم، غير أن واحداً من مصنفاته الكبرى الهامة، قد كتب بالنثر، ويحمل عنوان: «كتاب الفوائد، في أصول علم البحر والقواعد»، وفيه يفصل المؤلف الكلام على الجانبين النظري والعملي للمشاكل الملاحية معتمداً من جهة على من سبقوه في هذا المضمار، ومن جهة أخرى على تجاربه الشخصية بصورة خاصة، وميدان هذا الكتاب الرئيسي، هو «البحر الأحمر، والخليج الفارسي، والمحيط الهندي، وأرخبيل الهند الشرقية (الملايو).

كما أن والده دَوّن تجاربه البحرية، في مصنف ضخم، هو: الأرجوزة الحجازية» التي كانت تضم أكثر من ألف بيت في وصف الملاحة على سواحل البحر الأحمر... (66) وقد أمكن للابن أن يستدرك بعض التصحيحات على أبيه اعتماداً على ملاحظاته الشخصية ويضيف إليه

(62) راجع: معجم المؤلفين، 12 / 105 - 106.

(63) مجلة العراق: «المورد» مج: 3، ع: 2، 1974.

(64) «هدية العارفين»: ج / 6 / ص 146.

(65) هدية العارفين ج: 5 ص: 547.

(66) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي العربي ص: 573 - 574 / 2.

بطريقة منتظمة... (67) وبقية مصنفات أحمد بن ماجد، (68) منظومة شعرا، وتحمل عادة «اسم الأراجيز»، رغما من أنها لم تنظم في كل الحالات ببحر الرجز، وتتراوح أحجامها بين عشرين وثلاثمائة بيت، إلى ألف ونيّف، فهي أشبه ما تكون «بمرشدات بحرية» بالنسبة لعصرها... وإحدى هذه الأراجيز، قد تم تأليفها قبل كتاب «الفوائد»، وتلك هي الأرجوزة الكبرى الواقعة في ألف بيت بالتقريب، والتي تحمل عنوان: «حاوية الاختصار، في أصول علم البحار»... (69) كما قدمنا سالفاً...

وقد اشتهر سكان حضرموت، (70) منذ القدم بالمهارة في الملاحة، وكانت لهم صلات عن طريق البحر بسواحل افريقية الشرقية، واربخيل الهند الشرقية على السواء، وأشهر ملاحها سليمان المهري من بلاد العرب، ومن مدينة الشَّحْر على الساحل الجنوبي لحضرموت، وإحدى مصنفاته يرجع تأليفه إلى عام 917هـ، ومصنفاته محفوظة بأجمعها في إحدى مخطوطتي باريس المشار إليها (رقم: 2559) له: «العمدة المهرية، في ضبط العلوم البحرية»، (71) والمصنف الثاني الكبير لسليمان المهري يحمل

(67) كراتشكوفسكي، ص : 573 / 2.

(68) كان أول من أثبت أن أحمد بن ماجد، هو المرشد الذي تتكلم عنه المصادر البرتغالية هو أحمد زكي باشا، وذلك في عام 1917. وفي ماليندي، وقرب مدينة ممباسا الحالية، أي في الساحل الشرقي الإفريقي، أقامت البرتغال نصباً تذكاريًا، اعترافاً بنبوغ أحمد ابن ماجد، وتفوقه، وتخليداً للذكرى التي تقول: «إنه هو الذي قاد الملاح البرتغالي» فاسكودي غاما» إلى مرفأ «كاليكوت» على الساحل الغربي للهند عام 1498.

(69) الأدب الجغرافي ج : 2 / ص : 575.

(70) الأدب الجغرافي العربي : ج : 2 / ص : 575. انظر «ربابنة الخليج العربي، ومصنفاتهم الملاحية» لخالد سالم محمد، «وعمان وتاريخها البحري» لعصام الدين عبد الرؤوف الفقي. و«دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية من القرن الرابع الهجري» لعبد الرحمن عبد الكريم العاني.

(71) «كشف الظنون» ج : 1 / 1172 - كراتشكوفسكي ص : 578 / 2.

عنوان: «كتاب المنهاج الفاخر، في علم البحر الزاخر» (72) ولعلي بن حرب العراقي «كتاب البحار»، نقل عنه الحافظ في الإصابة، ولبعض المعاصرين المصريين: «كتاب سفن الأسطول الإسلامي وتاريخها وأنواعها، وأوصافها»... (73)

وللمولى علمشاه عبد الرحمن بن هاجلي أمير (ت987هـ) «عجائب البحر»، (74) «وتاريخ الأسطول العربي» لحمد ياسين الحموي - دمشق... (75) «وعجائب البحر» لابن عفيون محمد بن أبي بكر الغافقي الشاطبي (76) (584هـ - 1189م) «وأسطول الأندلس» للمستشرق لُوفي بروفنصال، (77) ولسيدي إبراهيم التادلي الرباطي «زينة النحر، بعلوم البحر» تحدث فيها عن سير سفن الشراع والبواخر... (78) ولواقع الأسرار، في حديث البحر والأسفار، في توضيح الرسالة الفتحية... لعبد الله ميكاني الرباطي الذي عاش في عهد السلطان المولى سليمان، (79) وذكر «تاريخ الضعيف» البحرية والطبجية في الرباط (80)

[وصدر حديثاً : «قاموس المصطلحات البحرية» فرنسي - عربي، وعربي - فرنسي، إعداد الدكتور محمد بشير الكافي... وهو من بين

(72) المصدر السابق. ج 2 / 579.

(73) وهو مطبوع، التراتيب الإدارية ج : 1، ص : 373 - وانظر : «البحرية في مصر الإسلامية، وآثارها الباقية»، للدكتورة سعاد ماهر، وكذلك: التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي» لعلي محمود فهمي، ترجمة : د. قاسم عبده قاسم. بيروت 1981.

(74) كشف الظنون ج : 2 / ص : 1126.

(75) ص : 147 - مطبعة الترقى 1945.

(76) المناهل ع : 32.

(77) «إسبانيا المسلمة» ص : 135 - 248.

(78) الخزانة العامة - الرباط : 1747.

(79) مخطوط «في مكتبة المرحوم الأستاذ عبد الله الجارري».

(80) تاريخ الضعيف 470.

القواميس العديدة التي تهتم بها المؤسسات العربية للدراسات والنشر في بيروت.

تعليمات دينية وأخلاقية :

ونعثر في كتاب «الفوائد، في أصول علم البحر والقواعد» لابن ماجد، وهو أول كتاب على تعليمات يجب على الربان اتباعها لحظة ركوبه السفينة حتى نهاية رحلتها، والسلوك الواجب اتباعه حيال المواقف المختلفة، وتجاه طاقم السفينة والركاب، فقد اهتم ابن ماجد بالجانب الديني والأخلاقي، فنصح راكب البحر، وخصوصا الربان قائلا: «وينبغي إذا ركبت البحر، أن تلزم الطهارة، فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري عز وجل: فلا تغفل عن ذكره، فإنه شديد العقاب، وإنه لغفور رحيم، لأنه يمهّل ولا يهمل، فلا يغرنكم بالله الغرور»، ويذكر عدة آيات من القرآن الكريم، وبعض الأدعية تقرأ في حالة الكرب.

وهكذا... كان المعلم آخر من يصعد على السفينة، وقبل الخروج إلى عرض البحر، تقرأ سورة الفاتحة بصوت مسموع، ثم يتلوها دعاء بأن يسمعها الخضر حاكم أسفار البحر، وحامي المسافرين... ويقول ابن ماجد مخاطبا ربان السفينة: «اعتبر نفسك ضيفا من ضيوف الرحمن، والزم الطهارة...».

لقد كان من عادة الرّبابين العرب حين يجتازون مضيق «باب المندب» ويبحرون في المحيط الهندي، تلاوة الفاتحة، تنفيذًا لوصية ابن ماجد، الذين كانوا يلقبونه «بشهاب الدين والدنيا»، تشريفاً له، واعترافاً بصلاحه، وإخلاصه وتقواه التي تظهر واضحةً بوصيته التي كان يلقيها لأصحابه، ولكل بحار أو ربان، حفاظاً، من الله، على سلامته، وكما هو واضح في قصيدته المكية التي يقول فيها :

ركبت على اسم الله مُجْرَى سفينتي
وعجلتُ فيها بالصلاة مبادرا
بل إنه كان يخاطب أقرانه من البحارة بقوله :
اسأل الرحمان يا مُعْوانِي
إذا تَلَوْتَ النظم، والمعاني
اقرا لي الحمد، مع الإخلاص
تنفعني في العرض والخلاص

* * *

إن هناك مصطلحا مألوفاً لدى قادة السفن، عندنا - في المغرب أيضاً، ويتعلق الأمر بما يسمى «حزب البحر»، وقد كان أول من أنشأ حزباً للبحر، لتلامذته، هو الإمام الشيخ نور الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الحميد المغربي الشاذلي اليميني (ت: 656هـ) وهو دعاء مشهور سمي به، لأنه وضع في البحر وللسلامة فيه حين سافر في بحر القلزم، فتوقف عليهم الريح أياماً، فرأى النبي ﷺ في مبشرة، فلقنه إياه، فقرأه فجاء الريح... ويسمى أيضاً بالحزب الصغير، وله شروح منها: شرح الشيخ أبي سليمان داود بن عمر الشاذلي نزيل الاسكندرية (ت: 732هـ) أسماء: «الرسالة المرضية، في شرح دعاء الشاذلية»، وشرح الشيخ شهاب الدين أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الشهير بِزُرُوق (ت: 899هـ)، (81) انظر فوائده. وأسراره في كشف الظنون. (82)

وأن أبرز ما يلفت النظر في الابتهالات التي تميز بها «حزب البحر» هو ما يتصل بالقرصنة التي عرفت بها البحار عبر التاريخ، فإن هناك مقاطع

(81) كشف الظنون، ج : 2 / ص : 661.

(82) للشاذلي أحزاب أخرى، فلذلك يعرف هذا بالكبير، والحزب عندهم طائفة من الكلام في موضوع الذكر والدعاء كأحزاب القرآن.

من «الحزب البحري» تتوسل إلى الله في أن يحفظ المسافرين من قراصنة البحر، ومن المعتدين الأشرار الذين اعتادوا أن يضايقوا الأبرياء...

وأن مجرد الدعوة لملازمة «حزب البحر» يدل على أن طريق البحار لم تكن مأمونة من المعاطب والمهالك، وأنها علاوة على ما يحف بها من رواجف وروادف، وأهوال الطبيعة والمناخ، فإنها إلى جانب ذلك تزخر بقوم ظلوا محل شكوى من الجميع، وتذمر من الجميع، ألا وهم القراصنة الذين رأينا من موقف الأسطول الموحيدي من عدوانهم.

ونستعرض مثلاً، التعليمات الصادرة لقادة الأسطول المغربي من السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام الذي رأينا حفيده السلطان، عبد العزيز يقتفي أثر المتقدمين فيدعو الرؤساء البحريين إلى قراءة «حزب البحر»... (83)

ولقد اعتاد رجال البحرية، عندنا في بلاد المغرب، سواء منهم رجال الأسطول، أو المهتمون بصيد الأسماك أن يقيموا في يوم 26 من شعبان من كل عام ليلة المعراج موسماً للشيخ سيدي عبد الله الياثوري، يقدمون فيه الطعام للفقراء والمستضعفين على نحو ما نقرأه اليوم عن الاحتفال باليوم العالمي للبحر يوم 22 شتنبر من كل سنة بل إن رجال البحر يقومون عندما يشتد صياح المحيط بإحياء ليالي استثنائية توسلاً بالشيخ سيدي عبد الله الياثوري لكي يهدأ البحر. (84)

قال أبو القاسم الزياني: (85) ومما شافهني الولي الصالح أبو البركات سيدي امبارك ابن الفقيه العلامة سيدي الصائغي، به، بعد السلام عليه،

(83) «موقف المغرب من القرصنة في العصر الوسيط» - ندوة أبريل 1986 - الادعية المغربية الرباط. «الأسطول المغربي عبر التاريخ مجلة: «البحث العلمي» ع: 34 - 1984 - التاريخ

الدبلوماسي للمغرب للأستاذ عبد الهادي التازي ج: 2 ص: 206.

(84) «المناهل عدد 25، س: 9 - دجنبر 1982.

(85) الترجمانة الكبرى ص: 151.

والجلوس معه، وسؤاله: أن قال لنا: «إذا أردتم ركوب البحر، فعندما تضعون أرجلكم في زورق المركب، فاذكروا: «التعوذ بالله، والبسمة، والفاحة، واذكروا الفاتحة خصوصاً سبعا، فإنها أمانٌ من الغرق والحرق والأسر «ه» من لفظه.

أدب البحر...

لعل «الأوديسة» لهوميروس HOMERE (عاش في القرن 9 ق.م) الذي يعد من أشهر شعراء اليونان الأقدمين، وتصوره التقاليد كَهَلًا أعمى يطوف من بلد إلى آخر ينشد الشعر، وصاحبُ «الإلياذة» (iliade) تلك الملحمة اليونانية التي تضم أربعة وعشرين نشيدا تروي أخبار حرب طروادة بين الإغريق والطوروديين... كانت أول رواية، وأعظم قصة عن البحار وصلت إلينا من العصور القديمة، وهي ترسم لك صورة للطريقة التي كان يعيش بها رجال البحر المتوسط، ويحاربون في الماء...

وقد عرّبها سليمان البستاني في دار الهلال بمصر 1904 مصدرة بمقدمة في هوميروس وشعراء اليونان والعرب وآدابهم.

* * *

ولقد كان التجار العرب الذين يركبون شبح البحر، ويخوضون عُبابه، لهم قصص بحرية ومغامرات في مجاهل المحيطات كانت السبب في ظهور أخبار السندباد التي لها عظيم الأثر في أعمال أدب البحر، اكتمالا وتأثيراً في التراث الشعبي العربي، وفي الأدب العالمي كله... وقد أبرزت لنا تلك القصص البحرية في سلسلة متصلة الحلقات في فروع من فروعها أسفار السندباد التي طبقت شهرتها الآفاق، والتي وجدت كمجموعة مستقلة قائمة بذاتها قبل أن تدخل ضمن مجموعة: «ألف ليلة وليلة» الضخمة مع مجموعة من القصص البحرية العربية الأصل، وشكلت أكثر أعمال أدب

البحر العربي عبقرية، فنيا وعلميا، كما أفادت هذه القصص البحرية بدورها في تطور أدب البحر عند العرب فيما بعد على أيدي ابن ماجد، وملاحي الخليج في أدب الرحلات البحرية.

وإن أسفار السندباد البحرية انبعثت في نفس الوسط الذي نشأت فيه قصص التاجر سليمان الذي لا يعرف عنه أكثر من أن قصصه ترجع إلى حوالي 237هـ، وهو خير مثال للتجار العرب والفرس الذاهبين إلى الصين. (86)

ومعروف أن «ألف ليلة وليلة» من أهم أعمال الأدب الشعبي العربي، بالرغم من أصلها الهندي، وترجمتها الفارسية، إلا أنها بصياغتها العربية، وإضافاتها الكثيرة، وأسمائها العربية للمدن والملوك ووقائعها العربية، تعد عملا من أعمال العبقرية العربية في الأدب الشعبي العربي.

ويشير الدكتور رمضان بسطاويسي محمد، بأننا نجد في حكاية الرحلة للسندباد البحري، الجمع بين المغزى الفكري، وبين أدب البحر، وبين دعوة السندباد البحري إلى الكفاح والكد والمغامرة في الحياة، وبين التمرس بأسفار البحر وتجاربه وأنوائه ومغامراته، ويذكر السندباد بعض أبيات الشعر لتأكيد هذا المعنى:

بقدر الكد، تكتسب المعالي

ومن طلب العلا سهر الليالي

يغوص البحر من طلب الآلي

ويحظى بالسيادة والنوالي

فحكاية السندباد هي حصيلة لأدب الرحلات البحرية عند العرب، ومن أشهر روادها المسعودي وابن ماجد وابن بطوطة، وهذا الأدب يمتد ليؤثر في الأدب العربي المعاصر، فسنجد عند الدكتور حسين فوزي في كتابه:

(86) الأدب الجغرافي ص : 142 / ج : 2.

«سندباد عصري»، ونجده عند الروائي فتحي غانم عن «البحر» وصالح مرسى، وحناً مينا في سورية، ونجده في أدب الخليج العربي في كتابات الأدباء في السعودية والبحرين، والإمارات العربية المتحدة، وقطر، وسلطنة عمان...

ولا شك أن حكاية السندباد ورحلاته السبع، هي أعظم القصص في أدب البحر عند العرب، وأكثرها تعبيراً عن عالم البحر، أو كما يقول الدكتور حسين فوزي في كتابه [«حديث السندباد القديم» ص 356 – 357] إنها «القصة البحرية الكبرى في الأدب العربي، وهي فوق هذا كله، واحدة من أهم قصص البحار في آداب العالم...» وأنها «قصة جغرافية» تلخص المعارف البحرية عند العرب في القرون الوسطى»، لأن «البحر في قصة السندباد هو الغاية التي تنتهي إليها القصة، البحر هو ممثلها الأول، أو أنها حوار بين اثنين : البحر، والسندباد، حوار يتطور من الهدوء إلى الغضب، ومن تبادل الود إلى تداول اللكمات، والمناجزة والصراع...

وهناك أعمال أدبية كثيرة في الخليج العربي تجعل من البحر وكائناته هي موضوعها الأثير، فتبدو هذه الأعمال في البحر، وعالم البحارة، ويتحول البحر لديهم إلى كون خاص له مفرداته التي تعكس مفردات التاريخ الإنساني وصراعه من أجل الوجود. (87)

والقصص البحري بألف ليلة وليلة (88) هو خير وعاء احتفظ لنا بصورة حية حافلة توضح لنا حجم الاتصالات التي كانت بين الشعوب البحرية، حيث امتزجت فيها ثقافات المحيط الهندي وتجارته وبلدانه وجزره

(87) مجلة «المنهل» ع : 505، مج : 54 يونيه 1993.

(88) انظر الليلة 530 من قصص ألف ليلة وليلة.

ومياهه، وما بها من حيوانات بحرية، وعواصف وأنواء وثروات يمتلكها التجار، وهكذا، فقد انفرد هذا القصص بالمحيط الهندي، وتفرّد هو به... ونجد أن مجموعة القصص البحرية في «ألف ليلة وليلة» خصوصاً رحلات السندباد. وهي مجموعة من قصص البحار، لم يعرف مؤلفها، وكان مسرح حوادثها، هو المحيط الهندي، واختلط فيها خيال كاتبها أو كتابها بحقائق تاريخية، ومعارف بحرية، ومعلومات جغرافية، كانت شائعة في العصور الإسلامية، وقد أمدتنا هذه المجموعة من القصص البحري وجزره وبعض المنتجات الزراعية والمعدنية، وطريقة استخراجها... (89)

وفي الواقع أن السندباد، أو كاتب القصص استفاد من المعارف الجغرافية في كتب المسالك والمؤرخين، حيث يبدو بين أسفاره أنه اطلع عليها، ووعاها جيداً، حيث أحسن اختيار مكان الحدث حسب أحداث القصة، كما أحكم حبكتها القصصية والفنية، كما أنه نَمَّى خياله القصصي بكتب العجائب، ومزج بين هذين النوعين من الكتابة، الواقع والخيال، مزجاً رائعاً، بحيث يبقى القارئ أو المستمع مشدوداً إليه. (90)

وإذا كانت أسفار السندباد، وعجائب الهند، هي نبض البحر، فإن ابن بطوطة هو عين وعقل البحر والبر، فهو راصد الحياة، وجامع الأخبار والحكايات والكرامات في تلك المناطق.

هناك قصائد وقصص عربية وغربية في وصف البحر، وجماله وجلاله... كتبها كتاب وأدباء عرب وغير عرب، ولناخذ مثلاً من الشاعر «بابلُونيرُودا» في قصيدته: «زلزال البحر» التي هي أولى قصائد ديوان يحمل هذا العنوان نفسه، استوحاها أثناء نزهاته، سيراً على الأقدام، قرب

(89) «حديث السندباد القديم» للدكتور حسين مؤنس - انظر : «ألف ليلة، وليلة» ص 24 - 26
للدكتورة سُهير القَلَمَاوي.. و«ألف ليلة، وليلة، وفنّ الحكاية الشعبية» لأحمد رشدي صالح..

(90) «تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية» د. شوقي عبد القوي عثمان.

منزله في «إيسلا نيجرا» ISLA. Negre، وقضائه ساعات طويلة متأملاً في أمواج المحيط الهادئ... وقد أعيد نشر الديوان في كُتَيْبٍ صغير عام 1991.

* * *

لِكُلِّ بَحْرُهُ :

البحر من منظور الأدباء، يتخذ بُعداً فلسفياً عميقاً، فهو لُغْزٌ غامض ومنبع إلهام، وعلامة استفهام شاقة، وَمَحْطَةٌ لتأمل الكون في صَيْرُورَتِهِ وتحولاته، يُلَوِّذُونَ به كلما تَوَثَّرَتْ علاقَتُهُم باليابسة، يصفون إلى صمته وصخبه، ويستوحون من هديره بلاغةً لاتجودُ بها أمهاتُ الكتب..

لِكُلِّ بَحْرُهُ، هذا ما توجي به ذخيرة «أدب البحر»، فليس بَحْرُ الأمريكي «إرنست همنغواي» الملىء بالأهوال والمفاجآت، هو بحر الياباني «يوكيو ميشيما» الحامل للكثير من الآمال والأحلام، وعلاقات الحب النبيلة، أو بحر «حنّا مينة» الذي يمتحن فيه صبر الرجال، والذي يقول : «لَحْمِي سمك البحر، دمي ماؤه المالح، صراعي مع القروش، كان صراع حياة.. تعرف معنى أن يكون المرء بحاراً ؟ إنه يتعمّد بماء اللُجّة، لا بماء نهر الأردن على طريقه «يُوحَنّا»..

ألا نعرف البحر ؟ ألا نكتب عنه، ألا نغامر، والمغامرة احتجاج ؟ أن يخلو أدبنا العربي جديدهً والقديم، من صُورِ هذا العالم الذي هو العالم، وما عداه، اليابسة، جزء منه..

* * *

ولعل أحسن من وصف البحر من المعاصرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، فشوقي قال قصيدة في وصف مَصْرَع اللورد كيتشنر KITCHENER الذي غرقت سفينته إثر اصطدامها بلغم عام 1916م (91) وأخرى لشوقي في وصف الغواصة: «لوزيتانيا» حيث نسفتها غواصة ألمانية، (92) وانظر، أيضاً

(91) «الشوقيات» ج : 200 /

(92) الشوقيات ج 2 / ص : 133.

قصيدة لحافظ إبراهيم يهنئ فيها الشيخ محمد عبده بعودته من سياحته في بلاد تونس، إذ يصف فيها البحر وصفاً رائعاً، (93) وكذلك القصيدة الأخرى التي يصف فيها زلزال «مسينا» حيث يقول في مطلعها:

نبئاني إن كنتما تعلمان

ما دهي الكون أيها الفرقدان (94)

كما وصف البحر حافظ إبراهيم أثناء رحلته إلى إيطاليا حيث نشر القصيدة عام 1923، حيث يستهلها بقوله:

عاصف يرتمي، وبحرٌ يُغير

أنا بالله منهما مستجير (95)

وللكاتب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي مقال طريف بعنوان:

أيها البحر... (96)

(93) انظر القصيدة في الديوان ج : 1 / ص : 24.

(94) الديوان : ج : 2 / ص 216.

(95) الديوان ج : 2 / 227.

(96) «الرسالة» المصرية ع : 111 / غشت 19 / 1935، وانظر، أيضاً، «وحي القلم».

الباب الخامس :

وجعلنا من الماء كل شيء حي...

لقد انبثقت الحياة زاهية مباركة في الماء بقوله تعالى : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾، فهذه الآية الكريمة تعطينا في هذه الجملة الموجزة، فكرتين واضحتين عن علاقة الماء بالحياة، الفكرة الأولى : هي علاقة الماء بأصل الحياة على هذه الأرض، والفكرة الثانية، هي علاقة الماء بالفعاليات الحيوية التي تجري في «البُروْتُوبْلَازم» مادة الحياة.

ولجلالة الماء وسموه : اقتضت الحكمة العلية، أن يكون «العرش» على الماء، ﴿وكان عرشه على الماء ليلوكم أيكم أحسن عملاً﴾.

وحول هذه الآية الكريمة يدور البحث في هذا الباب على أربعة فصول :

الفصل الأول : مفهوم فريد للماء.

الفصل الثاني : ألم نخلقكم من ماء مهين.

الفصل الثالث : الماء .. والحياة..

الفصل الرابع : لا يأكلون .. ولا يشربون.

الفصل الأول :

مفهوم فريد للماء

إذا ذهبت إلى جزر «هاواي» HAWAI تجد لدى أهل «هاواي» أسطورة تعتبر من أروع وأبلغ ما عرف الإنسان، ولا يملك الإنسان أمامها ألا أن يقف مشدوها في ذهول...! من أين جاءتهم؟ كيف جاءتهم؟! تقول الأسطورة التي عمرها ألوف السنين، وربما كان عمرها ثلاثة آلاف سنة: «إن الماء كان أول كل شيء، ومن الماء خرجت كل الكائنات الحية... الأسماك... الطيور، الزواحف، والوحوش، والمرأة، والرجل... أما الأشجار، فقد اسقطتها السحب، وكانت السحب على شكل طيور، وفي منقار كل طائر بذرة...

* * *

ويقال : إنه ليس شيء إلا وفيه ماء... أو قَدْ أصابه ماء، أو خلق من ماء، والنفطة ماء، والماء يسمى نفطة... (1) وأخذ المسيح عليه السلام في يده اليمنى ماءً، وفي يده اليسرى خبزاً، فقال: «هذا أبي، وهذا أُمي» (2) فجعل الماء أباً، لأن الماء من الأرض يقوم مقام النفطة من المرأة. (3)

وقالوا : مد الشعبي يده، وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشراب، فلم يدر صاحب الشراب اللبن، أم العسل؟ أم بعض الأشرطة؟ فقال

(1) الحيوان 5/141.

(2) النص في إنجيل «متى» (26 - 28) : «وفيما هم ياكلون أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر، وأعطى التلاميذ، وقال: «خذوا وكلوا هذا هو جسدي، وأخذ الكاس وشكر، وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي»...

(3) الحيوان للجاحظ ج : 5/139.

له: «أيُّ الأَشربة أحبُّ إليك؟ قال: أعزها مفقودا، وأهونها موجودا... قال قتيبة: «اسقه ماء»... (4)

ونرى العرب حين يقارنون بين الحاجة إلى الماء، والحاجة إلى الطعام، يجعلون الماء عندهم مقدما على الطعام...

وقد قالوا: إن الحاجة إليه أشد، والصبر عنه أشق وأتعب، وكثيرا ما يموت الإنسان عطشاً، وقلما يموت جوعاً...

وحين يفاضلون بين حالة الجائع وحالة العطشان، يجعلون حاجة الماء وأهميته تسبق حاجة الطعام، ويقولون: إن العطشان إذا حصل له الري بالماء، تراجعت إليه قواه وحركته ونشاطه، وصبر عن الطعام، وانتفع بالقدر اليسير منه... أما العطشان، فإنه لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام، ولا يحدث له الاغتذاء والقوة... (5)

وفي القرن الأول الهجري دعي الحسن البصري إلى مَدْبَةِ حافلة بما لذ وطاب، من أنواع الطعام والشراب، وقد رافقه إليها أحد الزهاد المعروفين في منطقة الخليج هو فرقد السِّنْجِي... وقد حضرت المائدة فكانت تتوفر على ألوان من الطعام، يتصدرها لون يعرف في إيران باسم «الفالونج»، (6) وهو صحن فاخر، إنما يستطيع تقديمه أهل النعمة والثراء، إذ يعتمد على مواد غنية، فيها أحمر اللحم، ورفيع العسل، وطري اللوز، ونقي الدهن علاوة على البهارات والعمور المَكْلَمَة... (7) وعندما وقع بصر فرقد على المائدة، قام واعتزل ناحية في البيت... فَسَأَلَ الحسن البصري أصحابه: هل

(4) روى هذا في عيون الأخبار : 200/2، الحيوان : للجاحظ 137/5.

(5) د. جميل سعيد، مجلة المجمع العراقي. مج: 13، 1966.

(6) ضرب من الحلوى، يصنع من الدقيق والماء والعسل، فارسي معرب عن «بالودة» وفي اللسان (مادة فَلَدَ) الفالود والفالونج، معرب عن «بالودة» وفي اللسان (مادة فَلَدَ) الفالود والفالونج، معربان قال يعقوب، ولا يقال الفالونج: وانظر: المعرب ص 247.

(7) كتاب الطيب لابن الكريم الكاتب البغدادي - تصحيح وتعليق. د. داود الجبلي الموصول : 1353 - 1934، ص : 84.

إن فرقداً صائماً؟ فقالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان من الطعام، فأقبل الحسن على فرقد يسأله... فأجابه: إن لسانه إنما يستطيع أن يشكر الله على أكلة متواضعة، أما الفالوذج، فإنه غير قادر على أداء الشكر عليه. وهنا سأله الحسن البصري: أفتشرب الماء يا فرقد؟ أجابه: نعم، فقال الحسن: إن نعمة الله عليك في «الماء» أكبر من نعمته عليك في الفالوذج، ثم تلا قول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

وهكذا نجد الحسن البصري يعطي درساً على الطريقة القياسية المنطقية حول هذه «المادة» التي أودع الله فيها سر الحياة، واستمرار البقاء. (8) ولقد قال حماد بن سلمة لفرقد السنجي: دَعُ نصرانيتك.

* * *

السبب واحد، والمسبب كثير :

حين وصف القرآن الماء بأنه : آية، أظهر ذلك بالصورة العملية، التي تؤثر في الحس، وتستجيش الفكر، وتسمو بالإنسان إلى المعنى الرفيع الذي يكمن وراء كل محسوس، ولهذه الآية: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ التي تتسم بالظهور، وبال دلالة عما وراءه من القدرة مظاهر، منها أن السبب واحد، والمسبب كثير فالله يقول: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً، فأخرجنا به نبات كل شيء... فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبا متراكباً، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب والزيتون، والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره، إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾. (9)

(8) تفسير النسفي عند قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا: لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم...﴾ [سورة المائدة رقم الآية 81].

(9) سورة الأنعام - 99.

في هذه الآية نجد أن الماء شيء واحد، قد تسبب في أشياء كثيرة متباينة، النبات الأخضر المثقل بالحب، والنخل الداني العذوق، والجنت المكونة من الأعناب والزيتون والرمان، فهو لذلك آية... (10)

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : فأخرجنا بالماء نبات كل شيء، نبت كل صنف من أصناف النامي، يعني أن السبب واحد، وهو الماء، والمسببات صنوف مفتنة، كما قال : ﴿تسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾. (11)

فالماء في هذه الآية قد تسبب في جنات مختلفة يفضل بعضها بعضا في الخصائص والطعوم والألوان والروائح والأشكال...

* * *

والقرآن حين بين أن الماء سبب تتولد منه أنواع كثيرة متباينة من الزرع والأشجار والفاكهة، فإنه لم يجعله السبب النهائي في كل ذلك، بل رده إلى إرادة الله وقدرته، ذلك أن جميع الأسباب في القرآن تنتهي إلى الله وحده، «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ»، ولهذا كانت الآيات القرآنية صريحة في ذلك حتى إن القرآن ليلتفت في عدد من المواضع، فيقول: «فأخرجنا» باستعمال ضمير المتكلم الدال على التعظيم، بدلا من ضمير الغائب الذي بدىء به الكلام أولا، كما في قوله تعالى: ﴿وأنزل من السماء ماء، فأخرجنا به أزواجا من نباتٍ شتى﴾. (12)

فالالتفات في اصطلاح البلاغيين أن تعدل من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى التكلم، وهو ظاهرة أسلوبية واضحة جد الوضوح في القرآن، فإذا أمعنا النظر وجدنا أنه يفعل ذلك إظهارا لعظمة

(10) الكشف ص : 519 / 1.

(11) سورة الرعد رقم الآية 4.

(12) سورة طه رقم الآية : 53.

الله في مخلوقاته، وتفخيماً لقدرته على أن تستجيب لمشيئته، وتنصاع لسلطوته، وتنزل على أمره، وتبيناً لخصوصية أفعال معينة بذاته كما في الآية السابقة، فقد التفت بقوله تعالى: «أخرجنا» منتقلاً من الغيبة إلى التكلم مسنداً الفعل إلى الضمير «نا» بعد أن كانت الأفعال قبله مسندة إلى ضمير الغائب...

وقد ربط الشيخ رشيد رضا بين الالتفات في القرآن وبين الدلالة على القصد والتدبير، فضلاً عن التعظيم، فقال في تفسير الآية السابقة: «فحكمة الالتفات أن تلتفت الأذهان إلى ما يعقب ذلك من البيان، فتنتبه إلى أن هذا الإخراج البديع، والصنع الرفيع، من فعل الحكيم الخلاق، لا من فلتات المصادفة والاتفاق... ولما كان الماء واحداً، والنبات جمعاً كثيراً، ناسب إفراد الفعل الأول، وجمع الفعل الآخر، ومعلوم أن الواحد إذا قال «فعلنا» أراد إفادة تعظيم نفسه، إذا كان مقامه أهلاً لذلك...» (13)

وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَا كَانَ لَكُمْ، أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا...﴾ (14)

عدل من الغيبة إلى التأكيد، لتأكيد اختصاص الفعل بذاته، والشبيه على أنه إنبات الحدائق البهيجة المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع، من المواد المتشابهة، لا يقدر عليه غيره، كما أشار إليه بقوله: «ما كان لكم أن تنبتوا شجرها...» (15)

* * *

(13) تفسير المنار 4/ 644، ط : 1.

(14) سورة النمل آية : 60.

(15) تفسير البيضاوي 2 / 272، ط عام 1285 هـ.

مفهوم فريد للماء :

وهكذا نجد أن القرآن قد أعطى للماء مفهوما متميزا عما قبله، مفهوما يمكن أن نقول عنه إنه مفهوم فريد، فقد أظهر أن هذا الماء ليس إلهًا، بل هو دلالة على الإله الأحد، المتمكن، كما أنه ليس سببا في فناء الإنسان بمجرد ملامسته له، أو سببا في خلوده، كما هو في الأساطير القديمة، بل هو نعمة من نعم الله جعله سببا في الحياة والوجود، وأعطاه من الخصائص ما يحقق نفع الإنسان من ناحية، ويشعره بالقدرة الإلهية من ناحية أخرى... فمفهوم الماء في كتاب الله يجمع المعنيين، المادي والروحي... فالمعنى المادي يتجلى بكونه نعمة الإنسان ونفعاً له... فالمعنى الروحي يتجلى بكونه يتسامى بالفكر الإنساني إلى آفاق بعيدة أكثر من مجرد الانتفاع... آفاق تربط الإنسان بسبب هذا الوجود كله، وتستشعره المعاني السامية التي وراء هذا الكون، وتفتح أمامه سبلا للخير والتأمل المثمر البناء. (16)

* * *

إني إذا رأيتك، طابت نفسي :

منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله في الكون، ويلفت أنظارهم إلى ما في هذه الحياة من بديع صنع الله، ويستنكر الایومنون بها وهم يرونها في الوجود. قال الإمام أحمد، حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة قال: «قلت يا رسول الله: إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء؟ قال: «كل شيء خلق من ماء» إشارة إلى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وهي، أيضا،

(16) «الطبيعة في القرآن الكريم» ص : 90.

تقرر حقيقة خطيرة، يعد العلماء كشفها وتقديرها أمراً عظيماً، حيث يمجّدون «دارون» لاهتدائه إليها، وتقديره أن الماء هو مهد الحياة الأول، وهي، أيضاً، حقيقة تثير الانتباه حقاً، وإن كان ورودها في القرآن لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقيناً بصدق هذا القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق، في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشف العلمية له، وأقصى ما يقال هنا، كذلك، أن نظرية النشوء والارتقاء «لدارون» وجماعتهم لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات، فالماء أحد أركان العالم، بل ركنه الأصلي، فإن السماوات خلقت من بخاره، والأرض من زبده، وقد جعل الله منه كل شيء حي.

* * *

تعطينا هذه الآية الكريمة في هذه الجملة الموجزة : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» فكرتين واضحتين عن علاقة الماء بالحياة... الفكرة الأولى: هي علاقة الماء بأصل الحياة على هذه الأرض... والفكرة الثانية، هي علاقة الماء بالفعاليات الحيوية التي تجري في «البُرُوتُوبْلَازِم» «مادة الحياة»...

أما ما يخص علاقة الماء بأصل الحياة، فإن علماء البيولوجي يجمعون الآن من أن الحياة على الأرض بدأت في الماء، فمنذ أن جمع «أوبارن» المعلومات المتوفرة عن أصل الحياة، ونشرها في كتابه: «أصل الحياة على وجه الأرض سنة 1936» فإن جميع من خاض في هذا الموضوع، يقول إن بداية الحياة، حسب «النظرية الطبيعية» كانت في الماء....

* * *

أكثر العناصر الأربعة فعالية :

فمن المعروف أن «الهيدروجين» و«النيتروجين» و«الأوكسجين» و«الكربون» من العناصر الخفيفة، والتي بقيت بالطبقات العليا من جو الأرض، بعد أن انفصلت الأرض عن الشمس وبردت...

كما أن عنصر «الهيدروجين» هو أكثر العناصر الأربعة فعالية، وقد نتج عن ذلك أن اتحد هذا العنصر مع العناصر الباقية مكونا بخار الماء (H_2O) وغاز الأمونيا (NH_3) وغاز الميثان (CH_4)، وطالما كانت الأرض ساخنة، فإن بخار الماء بقي في أعالي الجو، ولكن بعد أن برد سطح الأرض، أخذ بخار الماء يتكثف ويتحول إلى ماء سائل، وقد ملأ هذا الماء السائل الوديان والمنخفضات مكونا البحار والمحيطات، وقد كانت هذه البحار والمحيطات المحل الأمثل لإذابة «الميثان» و«الأمونيا» والأملاح المعدنية، مما ساعد على تكوين المواد العضوية البسيطة مثل السكر، والحوامض الدهنية، والحوامض الأمينية...

فالماء كان هو الأصل في التفاعلات الكيميائية، وكان المحيط اللازم لحدوث التفاعلات المعقدة فيما بعد، حيث بدأت الحياة وتطورت...

* * *

وقد أشار سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» من أن الماء هو مهد الحياة الأول، وأن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته، لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات...

لولا الماء لما كانت هذه الحياة...

لولا الماء لما كانت هناك مادة تسمى «البروتوبلازم» أو مادة الحياة... وأن التركيب الحي للخلية يضطرب، وتموت الخلية إذا ما فقدت كمية الماء التي فيها...

إن الصفات والخواص الطبيعية والكيميائية للماء تعطيه هذه الأهمية الكبيرة في تركيب «البروتوبلازم» وتجعله يلعب دورا كبيرا في فعاليات الخلية الحيوية Metabolisme فالماء هو المحيط الأمثل الذي تختلط فيه المكونات «البروتوبلازمية» مثل الأملاح المعدنية، والبروتينات والسكريات، والدهون والحوامض النووية...

وبكلمة أخرى، فإن الماء هو السائل الذي تذوب، أو تتعلق أو تختلط فيه كل هذه المواد الأخرى الموجودة في الخلية.

ومن جهة أخرى - أيضا - فإن الماء يتميز بأن له القدرة الفائقة على إذابة العديد من المواد أكثر من أي سائل آخر معلوم، ولولا هذه الخاصية ما كان من المستطاع بقاء أي نوع من أنواع الحياة فوق الأرض. ولا غرو، فإن الكائنات الحية، كبيرها وصغيرها، تشبه في عملها المصانع الكيميائية، إذ تتمثل الحياة فيها عن طريق مجموعة متنوعة عجيبة، من التفاعلات الكيميائية، لا يتأتى حدوث الكثير منها إلا في حضور الماء، الذي يذيب المواد الداخلة في التفاعل فيهيئ لجزيئاتها فرض الاتحاد ببعضها البعض، وأكثر من ذلك، فإن الماء يدخل في تركيب كثير من المركبات الكيميائية الموجودة في الخلايا الحية، فيحتوي جسم الإنسان مثلا على سبعين في المائة من وزنه ماء، كما تحتاج صور الحياة كلها إلى الماء الذي يأتي أصلا من المحيطات كمصدر أساسي له، حتى بالنسبة للنباتات والحيوانات التي تعيش على اليابسة.

الماء مادة غذائية :

وقد قدر العلماء أن تسعة أعشار الحياة برمتها توجد في الماء، وهو أمرٌ يبدو غير معقول... ولكنك إذا أمعنت النظر قليلا لوجدت أن نحو 70٪ من سطح الأرض يغطيه الماء.

فَمِيَاهُ الْبَحَارِ مَلِئَتْ بِالطَّاقَةِ الْغَذَائِيَّةِ الَّتِي تَغْطِي حَاجَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، مَهْمَا بَلَغَ تَعْدَادُهَا، عَلَى شَرِيطَةٍ أَنْ لَا يَلُوثَ الْإِنْسَانُ مِيَاهَ الْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْوُدْيَانِ، وَيُفْسِدَهَا بِالنَّفَايَاتِ وَالْقَانُورَاتِ، وَيَسْتَنْزِفُهَا كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي الْعَصُورِ الْآخِرَةِ، وَمَا حُلَّ بِهَا مِنَ الرُّوَاغِفِ وَالرُّوَاذِفِ، وَالْكَوَارِثِ وَالْفَوَاجِعِ... وَقَدْ أَشَارَ خَبْرَاءُ الْأَحْيَاءِ وَالْإِحْصَاءِ أَنَّ فِي الْبَحَارِ عَشْرِينَ أَلْفَ نَوْعٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ، اصْطَادَ الْإِنْسَانُ مِنْهَا فِي عَامِ 1972، بِسَبْعِينَ مِليونَ طَنٍ، وَفِي عَامِ 1990 مِائَةَ مِليونَ طَنٍ...

وَذَكَرُوا، أَيْضاً أَنَّ فِي كُلِّ لِيْتَرٍ مِنْ مِيَاهِ الْبَحَارِ أَلْفَ نَوْعٍ مِنَ النَبَاتَاتِ الْمِجْهَرِيَّةِ، وَعَشْرَاتِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْأَحْيَاءِ الْحَيَوَانِيَّةِ، الْمِجْهَرِيَّةِ، وَمِليونَ خَلِيَّةٍ نَبَاتِيَّةٍ، كُلُّ خَلِيَّةٍ تَتَنَوَّلُ بِمَعْدَلٍ مِليَارِ خَلِيَّةٍ شَهْرِيّاً إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَعَمٍ وَأَلَاءٍ لِلَّهِ... وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا... صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ...

* * *

وَالْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ سَمَكَ الْمَنْطَقَةِ الَّتِي تَوْجَدُ بِهَا الْحَيَاةُ أَكْبَرَ كَثِيرًا فِي الْمَاءِ مِنْهَا فِي الْيَابِسَةِ...

وَلَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ الْأَهْمِيَّةَ الصَّحِيَّةَ وَالْحَيَوِيَّةَ لِلْمَاءِ، فَهُوَ مَادَّةٌ غَذَائِيَّةٌ أَوَّلِيَّةٌ، ثُمَّ هُوَ وَسِيلَةٌ لِنَتْنِظِيفِ الْبَيْتِ وَالثِّيَابِ وَالْأَجْسَامِ، وَوَسِيلَةٌ لَتَهْيِيءِ الطَّعَامِ، فَغِيَابُ هَذَا الْعَنْصَرِ يَتَسَبَّبُ فِي نَقْصِ صِحِّيٍّ، وَفِي تَفْشِي الْأَمْرَاضِ الْمُعْدِيَّةِ، وَانْتِشَارِ الْجَرَاثِمِ الْمُتَنَوِّعَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَالْأَهْدَافِ... خَاصَّةً مَعَ تَرَكَمِ النَّفَايَاتِ وَالْأَزْبَالِ...

وَالْمَاءُ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ حَامِلُ الْحَيَاةِ وَبَاعِثُهَا، إِذْ أَنَّ «الْبُرُوتُوبْلَازِمَ»، وَهُوَ مُحْلُولٌ لَعَدَدٍ مِنَ الْمَوَادِّ مُعْلَقٌ فِي الْمَاءِ، هُوَ الْوَسْطُ الَّذِي نَشَأَتْ فِيهِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْحَيَاةِ، وَارْتَكَزَتْ عَلَيْهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَوْجَدَ «بُرُوتُوبْلَازِمٌ» بِغَيْرِ مَاءٍ، وَلَا حَيَاةٍ «بِغَيْرِ بُرُوتُوبْلَازِمٍ»، وَلَيْسَتْ الْأَجْسَامُ الْبَشَرِيَّةُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَتَكُونُ أَسَاساً مِنَ الْمَاءِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَوْجَدَ بِغَيْرِهِ، بَلْ يَشَارِكُهَا فِي

ذلك، أيضاً، جميع أشكال الحياة التي وجدت في أي وقت من الأوقات فوق هذا الكوكب، سواء أكانت حيوانات، أو نباتات، أو بكتريا Bactérie. لذلك ينبغي علينا أن نضيف إلى مظاهر الماء وصوره كل ما يوجد من جمال وجلال في الكائنات الحية، والسنابل المتوجة، والأشجار المثمرة، والأزهار المتفتحة، والطيور المرفرفة، والأسماك القافزة... فلولا الماء ما وجد أي من هذه... (17)

* * *

إن هناك، اتفاقاً عاماً على أن الحياة بدأت في الماء، الواقع أن ما نعرفه عن الحياة قبل أن يبدأ الإنسان في تسجيل تراثه، يكاد يكون مستمداً كلية من الحفريات المحفوظة في الرواسب التي انفصلت من الماء في مختلف العصور الجيولوجية... ويعتقد أغلب علماء الأحياء أن الحياة بدأت في المياه الملحة للمحيطات الأولى، ولكن قليلاً منهم يعتقدون نظرية تقول: «إنها بدأت في الماء العذب»..

والحياة لم تترك الماء قط، ذلك أن جميع صور الحياة تستمر بفضل «البروتوبلازم»، وتمارس نشاطها داخله.

وقد عرّف أحد المعاجم «البروتوبلازم» Protoplasme بأنه: «مادة زُّلالية نصف سائلة تعد الأساس الأول للحياة الطبيعية التي تتطور منها جميع الكائنات الحية» كما عرفه معجم آخر بأنه: «المادة الأساسية لكل من جسم الخلية، ونواة الخلايا الحيوانية والنباتية... ويعد الآن، الشكل الوحيد للمادة الذي تظهر فيه أو عن طريقه ظواهر الحياة».

وتكون المواد الأخرى التي يتكون منها «البروتوبلازم» ذائبة في الماء، أو معلقة به، فالماء أساسي للبروتوبلازم والبروتوبلازم أساسي للحياة...

(17) طومسون كينج ص : 11.

الماء ونسبته في جسم الإنسان...

الإنسان إذا فقد نحو 5 ٪ من وزنه ماء، فقد صواب حكمه على الأمور، وجف حلقه ولسانه، وتغضن جلده، واهتلس عقله وأصيب بانهييار تام... أما إذا فقد نحو 10 ٪ من وزنه ماء صمّت أذناه، وخلط وهذى، وفقد إحساسه بالألم، ويشرف على الموت والهلاك، ولن ينقذه منها إلا جرعة ماء... أما إذا تجاوز فقده 12٪ من وزنه ماء، فَقَدْ قُذِرَتْهُ على البلع، فتستحيل عليه النجاة، حتى إذا وجد الماء إلا بمساعدة منقذيه، وهو في هذه الحالة لن يكون بينه وبين الهلاك المحتم سوى نحو ثلاثة أكواب من الماء...

والعجيب أن ازدياد كمية الماء في الجسم هي أيضا خطيرة بأنها تسبب الغثيان والضعف، ثم تؤدي بالتدريج إلى اختلاط العقل وفقد حاسة الاتجاه الصحيح والاختلاجات والتشنجات والغيوبة ثم الموت... ويقال إن بعض القبائل المتوحشة تعاقب مذنبيها بالشرب القسري للماء...

* * *

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ

نجد في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (18) ثلاث تاويلات، أحدها يقول، وهو لقطرب: «وجعلنا، من ماء الصلب كل شيء حي، كما قال عليه السلام: «كل شيء خلق من الماء» ولعل من ضمن إعجاز القرآن الكريم أن نجد هذه الآية تحمل أكثر من معنى، وتتضمن أكثر من حقيقة علمية، فإن النصوص تفيد كذلك طريقة الخلق ووسيلته، فإنها كذلك الماء... فكل الكائنات الحية تخلق من ماء، سواء بالتزاوج بين ذكر وأنثى، أو من البيضة، لأنها في الأصل والأساس ماء...

اللفظ العلمي لمادة «الخلق» من الذكر والأنثى تسمى بالماء... لغويا... وعلميا... فهذا ماء الرجل... وذلك ماء الأنثى... وقد بلغت دقة القرآن الكريم في لفظه، ما يجعله معجزا كذلك في بيانه حينما يقرر طبيعة درجة هذا الماء... فيقول النص الشريف: «أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ» (19) وهو تذكير للمكذابين، وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أن مَنْ خلقهم من ماء مَهِين بهذه الطريقة، لابد أن يكون قادراً على إعادة خلقهم للبعث والحساب ومراده بـ: الماء: «المويهة» التي يتكون منها «الإنسان»، و«مهين» على وزن فعيل، ومعناه حقير، أو ضعيف، أو قليل... وتأكيدا على أن هذ الخلق من الماء المهين هو في خلق النسل، أما أصل الخلق الأول، فهو من طين، وذلك في النص الكريم: «الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين»... (20)

(18) سورة الأنبياء. رقم الآية 30. ص : 284 - 285 / 11، القرطبي.

(19) سورة المرسلات رقم الآية 20.

(20) سورة السجدة رقم الآية : 7 - 8.

إذن، فأساس الخلق هو الماء، ووسيلته كذلك الماء، وهو ما سبق القرآن الكريم القول به، ومن إعجاز القرآن الكريم أن يقرر حقيقة هذا الماء، بأنه مهين، كمأ ومكاناً، فماء الرجل الذي يلقي الأنثى، إنما هو نصف خلية تافهة لا ترى إطلاقاً إلا تحت أقوى المجاهر... وكذلك ماء الأنثى، إنما هو نصف بويضة، لا ترى كذلك، فهذا الماء مهان في كميته، وقدره وحجمه ووزنه... أما مكانه، فإنه يخرج في الرجل من مجرى بوله، وفي المرأة من مسالك بولها وحيضها فهو مهان في مكان نزوله، وخط سيره، ومكان لقاءه...

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، فَقَدَرْنَا، فَنَعْمُ الْقَادِرُونَ﴾.
ومعنى كون الماء مكينا في الرحم أن يستقر فيه، بوضع محكم، ونظام ثابت، يحفظه من التغير والفساد، ويهيئه لقبول التطورات المختلفة، حتى يصبح جنينا، ثم يولد بشراً سوياً...

فالماء الذي جعل في الرحم يستمر بعد أن يستقر فيه إلى قدر معين محدد... وقالوا في تلك المدة إنها من 273 يوم، وهي عبارة عن تسعة أشهر شمسية أي 280، وهي عشرة أشهر من الشهور القمرية، أو أربعون أسبوعاً... ثم إن هذا الترتيب في جعل الماء المهين في الرحم، وضرب أجل معين له حتى ينضج، ويختمر، وينشأ خلقاً سوياً، وإنساناً مفكراً أحوذاً،(21) دال على ما للخالق جل شأنه من صفات الحكمة والتدبير والتقدير التي يستحق عليها سبحانه وتعالى أكرم ثناء، وأعظم مدح... ومن ثم قال تعالى: «فقدرونا» بالتخفيف، وهو بمعنى، قدرنا بالتشديد أيضاً... «فنعم القادرون» نحن، أي المقدرين، يقال: «قدر الشيء»، و«قدره» بمعنى

(21) أحوذاً : أي حاذقاً، مشمراً للأمور، قاهراً لها : يسوقها أحسن مساق بحيث لا يشذ عليه شيء منها.

واحد، هو تهيئة الشيء وضم أجزائه، والتأليف بينها على مقاييس ومقادير ونسب وأوضاع محكمة مدبرة، تبلغ بذلك الشيء درجة كماله، وإيفائه الوظيفة التي أوجد لأجلها... وهكذا الشأن في أمر التوليد والولادة وتكون الجنين في الرحم، وتطوره في الأشكال المختلفة - كل ذلك بترتيب عجيب، وتدبير غريب، يشهد بسمو الحكم الإلهية، وجليل النعم الربانية، التي يستحق مكذبها، والمماري فيها الويل والخسران.(22)

وتبلغ دقة ألفاظ القرآن مداها في هذه النصوص في بيان حالة خروج هذا الماء، وذلك في النص الشريف: «فليُنظر الإنسان مم خلق، خُلِقَ من ماء دافق».(23)

الله جل شأنه يقسم لنا أن كل نفس من الأنفس عليها رقيب، وليس في النفوس نفس أهلمت من رعاية ذلك الرقيب المدير لشؤونها... فإذا ارتاب مراتب في ذلك، «فليُنظر الإنسان مم خُلِقَ» فقله: فليُنظر الإنسان، بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها زيادة في التأكيد...

ووجه ذلك أن الماء الدافق من المائع الذي لا تصوير فيه، ولا تقدير للآلات التي يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها... ثم إن هذا السائل ينشأ خلقاً كاملاً كالإنسان، مملوء بالحياة والعقل والإدراك، قادراً على القيام بخلافته في الأرض...

فهذا التصوير والتقدير، وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية، وإيداع كل عضو من القوة ما به يتمكن من تأدية عمله في البدن، ثم منح قوة الإدراك والعقل، كل هذا لا يمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك ويدبره وهو الله جل شأنه.

(22) جزء «تبارك» تفسير المرحوم الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة ص : 129.

(23) سورة «الطارق» رقم الآية 5 - 6.

ويجوز أن يكون قوله : «فليُنظر الإنسان مم خلق» من قبيل التفريع على ما ثبت في القضية الأولى، كأنه يقول، فإذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب، فمن الواجب على الإنسان أن لا يهمل نفسه، وأن يتفكر في خلقه، وكيف كان ابتداء نشوئه، ليصل بذلك إلى أن الذي أنشأه أول مرة قادر على أن يعيده، فيأخذ نفسه بصالح الأعمال والأخلاق، ويعدل بها عن سبل الشر، فإن عين الرقيب لا تغفل عنها في حال من الأحوال...

وكنى الحق سبحانه في الآية : ﴿ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾.

فالصلب : هو كل عظم من الظهر فيه فقار... ويعبر عنه في كلام العامة بسلسلة الظهر، وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه إطلاقاً لاسم الجزء على الكل...

والترائب : موضع القلادة من الصدر، وكنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة... أي أن ذلك الماء الدافق إنما يكون مادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة، ووقع في المحل الذي جرت عادة الله أن يخلقه فيه، وهو رحم المرأة، فقوله تعالى: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ وصف لابد من ذكره لبيان أن الإنسان إنما خلق من الماء الدافق المستوفى شرائط صحة الخلق منه... (24)

وتدل المشاهدات... وتؤكد الدراسات أن لفظ القرآن الكريم الذي ينص على تدفق هذا الماء من الذكر والأنثى هو اللفظ الوحيد، ولا غيره الذي يؤدي إلى هذا المعنى الدقيق بهذا القول الدقيق... فإن الماء من الرجل والأنثى، لا ينهمر في مدرار... ولا يسيل في انكسار، ولا يندفع عنيفاً، ولا يتساقط رهيفاً ضعيفاً، ولكنه يتدفق... كما قال الحق سبحانه وتعالى بلفظته.

(24) جزء «عم» للإمام الشيخ محمد عبده ص : 49.

وصدق الله العظيم : فلقد كان المشركون يستهزئون ويتكبرون عليهم.... فقال لهم الحق سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾، من القَدَر، فلا يليق بهم التكبر، فإنما خلقت، يا ابن آدم من قدر، فاتق الله...
 روى أن مُطَرَفَ بن عبد الله بن الشَّخِير، رأى المهلبَ ابنَ أبي صُفْرة يتبختر في مطرفِ خَزٍّ، وَجَبَّةِ خَزٍّ، فقال له: يا عَدُوَّ الله، ما هذه المشية التي يُبَغِضُها الله! فقال له: أتعرفُنِي؟ قال نعم، أُولَئِكَ نُطْفَةُ مَذِرَةٍ، وَأَخْرُك جِيفَةً قَذِرَةً، وأنت، فيما بين ذلك، حَامِلٌ لِلْعَذِرَةِ، فمضى المهلب، وترك مشيته... نظم هذا الكلام محمود الوراق فقال.

عجبتُ من مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ
 وكان في الأصل نُطْفَةً مَذِرَةً
 وَهُوَ غَدَاءٌ، بعد حُسْنِ صورته
 يَصِيرُ في اللَّحْدِ، جِيفَةً قَذِرَةً
 وهو على تِيهِهِ وَنَخْوَتِهِ
 مَا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يَحْمِلُ الْعَذِرَةَ

* * *

الكراسة الرمادية :

تلتبس بعض الفهوم من الآيات البينات من كتاب الله الحكيم على بعض الجهلة الذين لا يدركون أسرار القرآن، ولا يعرفون كنه المفردات اللغوية، فيلجأون إلى الأكاذيب والمفتريات ولا غير ذلك، ولا سيما في موضوع خلق جميع الحيوانات من الماء...

ومن هؤلاء المارقين جماعة من الملحدين الشيوعيين الذين هاجموا القرآن الكريم فيما أسموه: «بالكراسة الرمادية» التي أعدوها في الموصل بالعراق ليتم توزيعها في أحد مواسم الحج، وكما هو الشأن منهم، وفيهم،

فلقد حوت تلك الكراسة الأكاذيب والأراجيف والبهتان والمفتريات على كتاب الله تعالى.

وكان مما هاجموا به القرآن ما جاء بها، ونصه :

«كتب في القرآن أن الله خلق جميع الحيوانات من الماء... وفي سبعة أماكن مختلفة يذكر القرآن كيف خلق الإنسان، ويناقض القرآن نفسه في هذا الخصوص إذ يقول في المرة الأولى: «إن الله خلق الإنسان من التراب... وفي الثانية: من الطين، وفي الثالثة من خلاصة الطين، وفي الرابعة من الطين اليابس، وفي الخامسة من طين لزج ورطب، وفي السادسة من طين نتن من تراب الفخار... وفي السابعة من الماء... وتدل جميع هذه المتناقضات على أن القرآن لم يؤلف في وقت واحد من قبل شخص واحد....!!»

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبا...

إن هذا الذي يهاجمون به القرآن الكريم هو ما أثبتته العلم الحديث، من سبق القرآن له بإيراد هذه الحقائق التي لم يكن يعرف العالم ولا العلماء عنها شيئا حتى سنوات النصف الأخير من القرن الحالي عندما دخل الجسم الإنساني إلى معمل التحليل، والفحص والبحث، ووجد أن جسم الإنسان لا يتكون كما كان مشاعا من عظم، يحس، ولحم يرى، ودماء تلاحظ، وماء يخرج، وإنما يتكون من عناصر الكربون، والأوكسجين، والإيدروجين، والفسفور، والكبريت، والأزوت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد، والمنغنيز، والنحاس، واليود، والفولورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمونيوم... وهذه هي نفسها العناصر المكونة للتراب تماما دون زيادة أو نقصان، وإن اختلفت نسبها في إنسان عن آخر، وفي الإنسان عن التراب، إلا أن أصنافها واحدة يقينا...

ألا يكون الإنسان الأول بذلك قد خلق تراب حيث إن الجسم الإنساني يتكون من عناصره... وهذا الذي وصل إليه العلم بعد استخداًمه أساليب التحليل الكيماوي، والفحوص المعملية في أيامنا المعاصرة قد قال به القرآن الكريم في ست آيات كريمة تقرر حقيقة خلق الإنسان من تراب في مثل النص الشريف: «ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون»، (25) ويشير النص إلى أن استمرار الخلق، إنما يكون كذلك من تراب... وليس أمر الخلق من تراب بقاصر على خلق آدم وحواء، ويؤكد ذلك النص الكريم: «هو الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم يخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم، ثم لتكونوا شيوخاً، ومنكم من يتوفى، من قبل، ولتبلغوا أجلاً مسمى، ولعلكم تعقلون». (26) ولما كان النص ينسحب على كل إنسان على وجه الإطلاق، واليقين، بدليل الخلق من النطفة، يقرر النص أن قبل النطفة يخلق الإنسان من تراب، فقد أثبت العلم كذلك سبق القرآن له في إعلان هذه الحقيقة العلمية، إذ أن النطفة، إنما تنشأ من اتحاد الحيوان المنوي الذي يفرزه الذكر بالبويضة التي تفرزها الأنثى... وهذه الحيوانات المنوية والبويضات الأنثوية تتولد جميعها من الدم، الذي يتكون من المادة اللبنية الناتجة من الكيلوس... وهو عبارة عن نواتج هضم الغذاء، الذي هو نبات وحيوان وماء... وكلها مكونة من عناصر التراب... فالإنسان الأول أول البشر خلق من تراب بدليل تحليل عناصر جسم الإنسان، والتي تتكون من عناصر التراب... ثم توالى خلق ذريته من النطفة التي هي خلاصة التراب، ولا شك أن تشكيل التراب ليطماسك ويصبح جسداً، لا بد أن يعالج بالماء، والتراب إذا أضيف إليه الماء أصبح طيناً... وهذا ما قرره القرآن الكريم، إذ ورد خلق الإنسان من الطين في

(25) سورة الروم رقم الآية : 20.

(26) سورة «غافر» رقم الآية : 67.

ست آيات أيضا بمثل النص الشريف: «هو الذي خلقكم من طين، ثم قضى أجلاً، وأجل مسمى عنده، ثم أنتم تموتون» (27) وهذا الطين ظل في الماء، ولكنه مصبوب على شكل الإنسان بالنص الكريم: «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون» (28).

وقد تكرر الحمأ المسنون ثلاث مرات في القرآن الكريم جاءت كلها في سورة الحجر، ومن صفات هذا الطين عند التشكيل التماسك فلا يزيد الماء فيه، ولا يفسد طول فتوته فيه بهذه الخاصية، فهو بذلك يكون طيناً لازباً، أي متماسكاً، وهذا ما نشاهده على الطبيعة، إذ أن الجسم رغم تكونه من عناصر التراب لا يذوب في الماء، ولا يتغير شكله، ولا تتبدل هيئة الإنسان به، وهذا ما تقرره الآية الشريفة: «إنا خلقناهم من طين لازب» (29) والطين إذا جف، ولا بد أن يجف، فإنه يصبح صلصلاً، أي له صلصلة إذا نقر عليه كالخار، وهذه حقيقة مشاهدة على كل تشكيل طيني يجف، ويقولها ويقررها القرآن الكريم كذلك بالنص الشريف: (30) ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ (31).

الإنسان من... تراب :

يقول أبو العلاء المعري بأن التراب يؤمن لمن فوقه الرزق، ولمن ينطوي فيه العون، فهو ملجأنا الأمين، أحياء وأمواتا، ففي اللزوميات:
ووالدُّنا هذا الترابُ، ولم يزلْ
أَبَرَّ يَدًا، من كلِّ مُنْتَسِبٍ بِهِ

(27) سورة «الأنعام» رقم الآية : 2.

(28) سورة «الحجر» رقم الآية : 26.

(29) سورة الصافات رقم الآية : 11.

(30) انظر : «افتراءات على آيات خلق الإنسان»، للدكتور عبد الرزاق نوفل.

(31) سورة الرحمن رقم الآية : 14.

يؤدي إلى مَنْ فَوْقَهُ رَزَقَ رَبُّهُ
أَمِيناً، وَيُعْطِي الصَّوْنَ مُحْتَجِبِيهِ

ومالنا نذهب بعيداً، وأمامنا آية صريحة في الموضوع، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً، ثُمَّ يَعِيدُكُمْ فِيهَا، وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ (32) ومعنى الآية أنكم وإن كنتم بشراً في حقيقتكم، فأنتم نبات، باعتبار اتكالكم في حياتكم الحيوانية على عناصر الأرض، كاتكال النبات في حياته النباتية عليها... فالله سبحانه الذي أنبتكم هذا الإنبات ويسر لكم من عناصر الأرض الأرزاق والأقوات، ثم خصكم تفضلاً منه وكرماً بالحياة الحيوانية، ثم زادكم كمالاً بإفاضة الحياة الإنسانية، ثم آثركم بمواهب النفس والعقل وسائر الحواس الظاهرة والباطنة... الإلاه الذي هذا مبلغ عنايته بكم، وذاك قدر إنعامه عليكم - يجدر بكم أن تعبدوه وحده، وترهبوا وعيده ووعده. (33)

و«نباتاً» مصدر «نبت» الثلاثي، لكنه أقيم مقام مصدر: «أنبت» الرباعي، وجاء تأكيداً له، فقيل: أنبتكم نباتاً مكان أنبتكم إنباتاً... وقال بعض المدققين: هو مصدر الثلاثي، وجعله من نوع الاحتباك البديعي، وقال: إن أصل الكلام هكذا: «والله أنبتكم من الأرض إنباتاً، فنبتم نباتاً» فهما فعلاً، لكل مصدره، لكنه حذف المصدر الأول لدلالة فعله عليه، وحذف الفعل الثاني لدلالة مصدره عليه، وبذلك جاء الكلام موجزاً في مبناه، موفراً وافياً في معناه... (34)

أما وقد ذكر سيدنا نوح لقومه عجيب صنع الله في إخراجهم من الأرض إخراج النبات... فقد تمهد له السبيل إلى تذكيرهم بأمر البعث،

(32) سورة «نوح» رقم الآية : 18.

(33) «ووعده» منصوب بفعل محذوف على حد : «علفتها تبنا وماء بارداً، أي وتأملوا وعده...»

(34) جزء «تبارك للمرحوم الأستاذ عبد القادر المغربي - دار مطابع الشعب.

والحشر والنشر الذي كان القوم ينكرونه، فقال: «ثم يعيدكم فيها، ويخرجكم إخراجاً».

فالإنسان إذا كان يشترك مع النبات في بعض الخصائص والأحوال، فإنه يفارقه بالمواهب السامية التي مازَّه الله بها... ومن تلك المواهب حريته في الانتقال والمشي على سطح الأرض من جهة إلى جهة، ومن رجا إلى رجا، ولم يخلقه سادكا (35) بمكانه كالنبات لا يبرحه إلى أن يموت...

يخلص مما سبق أن جميع الحيوانات مخلوقة من ماء، فلقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾، (36) ويعمم القرآن الكريم خلق كل حي من الماء في النص الشريف: «وخلقنا من الماء كل شيء حي»، وحتى يتأكد الإنسان أن هذه الحقيقة تشمل خلق البشر كذلك، فقد قالت آيات القرآن الكريم بذلك، وأكدت عليه بمثل النص الشريف: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾. (37)

* * *

وتقترن قدرة الله سبحانه وتعالى بتدبيره في مثال واحد من الطبيعة، وهو ما يتجلى في كون كل حيوان من ماء، ووقوعه على أشكال وأنواع مُتباينة، وتفاوته في المشي والانتقال تفاوتاً واضحاً...

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾... [سورة النور، آية : 45]

قال جمهور النُّظرة : أراد أن خلقه كل حيوان فيها ماء، كما خلق آدم من الماء والطين... وعلى هذا يتخرج قول النبي عليه السلام للشيخ الذي سألته في غزاة بدر: «ممن أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء» وقال قوم: لا يُسْتثنَى الجن والملائكة، بل كل حيوان خلق من الماء، وخلق النار من

(35) سَدِكَ به : كفَّرح. لزمه ولم يفارقه، ومنه قول الحريري: «فسدكت بمكاني، وجعلت شخصه قيد عياني».

(36) سورة «النور» رقم الآية : 45.

(37) سورة الفرقان رقم الآية : 54.

الماء، وخلق الريح من الماء، إذ أول ما خلق الله تعالى من العالم الماء... ثم خلق منه كل شيء... (38) عظيم...

وقد ناقش الألوسي المعنى المقصود من قوله تعالى : ﴿كل شيء حي﴾، حتى إنه اهتم باستبعاد الملائكة والجن على أساس منطقي، فَمَعَ أنهم أحياء، إلا أنهم، ليسوا مخلوقين من الماء ولا محتاجين إليه على الصحيح...

وَنَظَرًا لالتباس معنى «الحياة» عند الأوائل، مال إلى قصرها على الحيوان، لأنه متصف بالحياة الحقيقية، ونقل عنه البيضاوي هذا الرأي فيما بعد، ولكنه ذكر رأي قتادة بأن المعنى هو خلقنا كل نام من الماء، فيدخل النبات، ويراد بالحياة النمو أو نحوه.

خلق كل دابة من ماء : فمنه الزواحف على بطنه، ومنه الماشي على اثنين، ومنه الماشي على أربع، ومنه الماشي على أكثر من ذلك، وإن لم يشر القرآن إلى النوع الأخير، مع دلالته على القدرة دون شك... إنه لما كان الظاهر في الحيوان أن يعتمد على الأربع حذف من الكلام ما يمشي على أكثر، (39) أو أن كل حيوان، وإن تعددت قوائمه يعتمد في مشيه على أربع كما هو قول الفلاسفة... (40)

وعلى كل حال، فإن التفاوت بين هذه الأجناس المختلفة ينبىء بالقدرة الإلاهية التي أحدثته، ويدل على القصد والتدبير أيضاً... إذ لو كان الأمر مجرد صدفة، أو محض اتفاق، ولم يكن بفعل إله قادر مدبر لما اختلفت هذه الأجناس في أشكالها، هذا الاختلاف التي هي عليه، ولوقعت جميعها على صورة واحدة، وشكل واحد، أو كان التباين بينهما جزئياً خافياً، بحيث لا يلفت النظر، ولا يثير التأمل...

(38) القرطبي ص : 291 / 12.

(39) الطبرسي في مجمع البيان.

(40) المصدر السابق...

وليس من شك في أن الاختلاف بين الأشياء، أظهر للقدرة، وأدل عليها، ولذلك بينه الله سبحانه وتعالى في الآية ودل عليه... فالقرآن يقول: ﴿والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير﴾. (41)

وهذه حقيقة ضخمة دالة على القدرة والقصد في الخلق... حقيقة أن كل شيء من ماء، قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعاً، وهو الماء، وقد تعني ما ذكره بعض المفسرين من أن كل حيوان خلق من نوع من الماء خاص، وهو النطفة... (42)

وقد تعني ما ذكره بعضهم من أن كل مخلوق أصله من الماء، فطينة آدم من الماء، وكذلك الحيوان. (43)

وقد تعني ما يحاول العلم أن يثبته اليوم من أن الحياة نشأت في الماء، ثم تفرعت أجناساً وتنوعت...

وإظهاراً لهذه القدرة، فقد رتب القرآن الكريم هذه الأجناس المتفاوتة ترتيباً، فقدم ما هو أظهر منها لقدرة الله، وهو الزاحف، لأن الماشي بغير آلة مشي، أمره أعجب من غيره، ثم ذكر ما يليه في ذلك، وهو الماشي على رجلين، ثم ما يليهما، وهو الماشي على أربع، فكأنه يعرض هذا المنظر لتتملاه العين ببطء، ولتدرك ما فيه من آيات القدرة وبيانات التدبير...

قال الزمخشري : فإن قلت : لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب؟ قلت: قدم ما هو أعرف في القدرة، وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع... (44)

(41) سورة النور رقم الآية : 45.

(42) الزمخشري - الكشف ص : 392 / 2.

(43) المصدر السابق، والطبرسي في مجمع البيان.

(44) الزمخشري - الكشف 2 / 392.

الأسباب تنتهي جميعاً، إلى السبب الأول :

وإحياء الأرض الهامدة بنزول الماء عليها، ذلك أن الماء عنصر لا حياة فيه بذاته، وإنما هو سبب حياة، كما عبر عنه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. ثم مع أنه لا حياة فيه بذاته كان سبباً في إحياء الأرض التي لا حياة فيها أيضاً، فإذا هي تهتز بالنبات الحي الناضر الجميل...

فالماء هو السبب في خروج النبات، وإن كان بالطبع ليس هو السبب النهائي، لأن الأسباب تنتهي جميعاً إلى السبب الأول، وهو الله سبحانه... ومن الغريب أن عدداً من المفسرين ذكروا أن الله سبحانه يُمْطِرُ يوم القيامة مطراً تنبت به الأجسام، وصوروا ذلك الماء بصورة سَمْجَةٍ يجفوها الذوق كالذي ذكره الزمخشري(45) من أنه قيل: يحيى الله الخلق، بما يرسله من تحت العرش كماني الرجال تنبت منه أجساد الخلق!!! ومما يثير الاستغراب أن رجلاً محققاً مثل ابن كثير يذكر ذلك أيضاً(46) دون أن يعلق عليه بشيء، فكأنه من المسلمات عنده مع أنه تصدى بالرد والتفنيد لكثير من المسائل الدخيلة على التصور الإسلامي، وبخاصة الإسرائيليات... ولقد رد الرازي في تفسيره الكبير(47) على هذا الرأي الذي قالوه، وبين أنه لا داعي له مع القول بقدرة الله تعالى على إيجاد الحياة، وهو أمر نتلقاه بالتقدير والإعجاب...

ولا يستبعد أن تكون هذه الرواية من جملة الإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير للأسف الشديد... وحان الوقت لاستبعادها وتنقية تفسير كلام الله منها... أو أن هناك من أراد أن يطابق بين صورة البعث، وصورة إخراج النبات بالماء النازل من السماء... فابتدع خياله الماء النازل من تحت العرش الذي تحيا به الأجساد وتنبت كما هو زعمه...

(45) الكشف ص : 241 / 4.

(46) تفسر ابن كثير ص : 57 / 8.

(47) مفاتيح الغيب ص : 241 / 4.

تاليس يتفلسف :

كان تاليس (48) أول من تفلسف في ملطية، وكان يقول: «من كمال ذات الأول الحق، أَنَّهُ أبداع مثل هذا العنصر، الذي فيه صور الموجودات، والمعلومات كلها فما يتصوره العامة في ذاته تعالى أن فيها الصور، يعني صور المعلومات، فهو في مبدعه، ويتعالى الأول الحق بوحديته وهويته عن أن يوصف بما يوصف به مبدعه... ومن العجب أَنَّهُ نُقِلَ عنه أَن المبدع الأول هو الماء... قال: الماء قابل لكل صورة، ومنه أبداع الجواهر كلها من السماء والأرض وما بينهما، وهو علة كل مبدع، وعلة كل مركب من العنصر الجسماني، فذكر أن من جمود الماء تكونت الأرض، ومن انحلاله تكون الهواء، ومن صفرة الهواء تكونت النار، ومن الأبخرة والدخان تكونت السماء، ومن الاشتعال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب، فدارت حول المركز دوران المسبب على سببه، بالشوق الحاصل إليه، قال: والماء ذكر... والأرض أنثى، وهما يكونان سفلا... والنار ذكر، والهواء أنثى، وهما يكونان علوا... (49)

وقد عقب الأستاذ أحمد أمين (50) رحمه الله تعالى فقال: كان الماء عند طاليس هو المادة الأولى التي صدرت عنها الكائنات، وإليها تعود، وقد ملأ عليه شعاب فكره حتى خُيِّلَ إليه أن الأرض قرص متجمد يسبح فوق لجج مائية ليس لأبعادها نهاية...

ويرجح أرسطو أن يكون طاليس قد خلص إلى هذه النتيجة لما رأى أن الحياة تدور مع الماء، وجودا وعدمًا، فتكون الحياة حيث الماء، وتنعدم حيث ينعدم...

(48) 624 ق. م - 550 ق. م تقريباً... وتاليس "Thalès"، وُلِدَ في ميلات (اليونان) فيلسوف وحساب يوناني من المدرسة الأيونية - اشتهر بالنظرية الهندسية المعروفة باسمه.

(49) الملل والنحل، للشَّهْرَسْتَانِي تحقيق محمد سيد كيلاني رحمه الله ص : 62 - 63 / 2.

(50) قصة الفلسفة اليونانية ص : 20.

وإنما أراد طاليس - كما يظهر بهذه الإشارات بقوله : الماء هو المبتدع الأول، أي هو مبدأ التركيبات الجسمانية، لا المبدأ الأول، في الموجودات العلوية، لكنه لما اعتقد أن العنصر الأول هو قابل كل صورة، أي منبع الصور كلها، فأثبت في العالم الجسماني له مثالا يوازيه في قبول الصور كلها، ولم يجد عنصرا على هذا النهج مثل الماء، فجعله المبتدع الأول في المركبات، وأنشأ منه الأجسام والاعرام السماوية والأرضية، (51) وقد خالفه في المبدأ الأول أنكساغورس (52) فقال: إن مبدأ الموجودات هو أول متشابه الأجزاء، وهي أجزاء لطيفة لا يدركها الحس، ولا ينالها العقل... (53)

ويمكن أن نقول بأن «تاليس» الملطي قد تلقى مذهبه هذا من التوراة في السفر الأول منها: «إن مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى، ثم نظر إليه نظرة الهيبة، فذابت أجزاؤه، فصارت ماءً، ثم ثار من الماء بخارٌ مثل الدخان، فخلق منه السماوات، وظهر على وجه الماء زبدٌ مثل زبد البحر، فخلق منه الأرض، ثم أرساها بالجبال... (54)

لقد كان أنكساغورس ANAXAGORAS. تلميذاً لطاليس، لأنه عاصره، وعاش معه، وقد خالف أستاذه في كون الماء أصل الوجود، فمهما بلغ الماء من المرونة، وقابلية التشكل، فهو ذو صفات معروفة معينة تستطيع أن تميزه بها عن المواد الأخرى... ومعنى ذلك أن ثمة صفات تناقض صفات الماء، لأنك، لا تدرك الصفة إلا إذا أدركت نقيضها، فلا تفهم الحرارة إلا إذا اقترنت في ذهنك بالبرودة، فإذا انعدم هذا التقابل انعدمت كذلك

(51) الملل والنحل. ص : 64 / 2.

(52) انكساغوراس، ولد في كَلَّا زُمِينَة (ايونيا) من فلاسفة اليونان، قيل إنه أول من علم الفلسفة في أثينا بطريقة جلية، وقيل إن سقراط تأثر لقراءة أحد مؤلفاته، ارتكزت تعاليمه على وجود مبدئين، أحدهما: المجموع الأصلي، وهو اختلاط كل عناصر الكون، والآخر العقل، وهو كائن جسيمي يختلف عن الجموع اعتبره مصدرا لكل حركة (428. ق. م).

(53) الملل والنحل ص : 65 / 2.

(54) نفس المصدر ص : 64 / 2.

الخصائص والصفات، ومادام الأمر كذلك، فلا يعقل أن تكون المخلوقات جميعا على تناقض صفاتها مشتقة من أصل واحد ذي جهة معينة معروفة... وإنما أصل الكون مادة لا شكل لها، ولا نهاية... ولا حدود... (55)

* * *

العلوم يخدم بعضها بعضا :

لقد ورد في كتابنا المقدس، الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عن قضايا الكون والخلق والحياة ما يعتبر اليوم من الحقائق العلمية الثابتة المسلم بصحتها، ذلك لأن مثل هذه الحقائق إنما تنصاع للقوانين الطبيعية التي تتحكم في خواص المادة والطاقة، والنواميس المضبوطة البالغة الدقة والتعقيد...

لقد أضحى من الواضح الجلي في وقتنا المعاصر أن العلوم يخدم بعضها بعضا، وكلها في النهاية تؤدي إلى وحدة متماسكة مترابطة وهدف واحد... ولكي نصل إلى الحقيقة المجردة نجد ألا غنى لعلم من العلوم عن العلوم الأخرى... بل إن بعضها ليتداخل تداخلا غريبا في البعض الآخر، وليس أروع ولا أبعد من التدليل على هذا القول من الآية الكريمة التي نحن بصدد تحليلها وتفسيرها وهي قوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

فلقد جمعت هذه الآية الكريمة في مبناها ومعناها شتات العلوم كلها، وعلى هذا الأساس، فإن تفسيرها على ضوء المفاهيم العلمية الحديثة ليجتاج في الواقع إلى دراسات ومجلات وأبحاث... فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن ليس ثمة قيد أنملة من سطح الأرض أو من قشرتها أو من غلافها الجوي يخلو من الماء...

(55) قصة الفلسفة ص : 23.

فالماء يوجد في تركيب بلورات الصخور، سواء الموجودة منها على سطح الأرض أو في قشرتها حتى في الصخور النارية منها... التي قد لا يتصور إنسان أن الماء يدخل في تركيبها.

ويمكن أن نذكر العلوم الطبيعية التي لها علاقة واشجة بالماء، والتي منها: علم الجليد، علوم البحار والمحيطات، والغطاءات الثلجية، وعلوم المياه العذبة والبحيرات، وعلوم المياه الجوفية، والأرصاد الجوية، أو طبقات الأرض، وعلوم الهيدرولوجيا أو علم هندسة المياه والعلوم الطبية، والبيولوجية، مما سنذكره في بابه أن شاء الله وبتفصيل...

والواقع أن ليس ثمة علم من العلوم الحديثة لا يلعب فيه الماء دورا هاما، وحتى علوم الرياضة خصصت فروعاً منها لدراسة سلوك الماء والسوائل الأخرى من الناحية الرياضية، وفضلا عن ذلك فقد سخرت الطاقة الكامنة في الماء لتوليد البخار، وفي توليد الكهرباء من مساقط المياه والخزانات، وفي أعمال التبريد للآلات الحرارية وما إليها... بل إن هناك أسراراً كونية عميقة ذات رابطة وثيقة بين الحياة والماء، وهي تكمن في قوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

الماء... والحياة

يقول الدكتور أنور عبد العليم أستاذ البحار وعلومها والمحيطات وأسرارها بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية: إن القول بأن «الماء» و«الحياة» صنوان لا يفترقان، لقول تؤيده البراهين والأدلة العلمية الحديثة تأييداً تاماً... فالماء ضروري لإمكان قيام الحياة واستمرارها على سطح الأرض... وما من كائن حي نباتا كان أو حيوانا دقيقاً في تركيبه، كالميكروب الذي لا يرى إلا بالمجهر، أو فائق الحجم والجرم، كالفيل الذي يزن عشرات الأطنان، أو الحوت الذي يزن مئات الأطنان، إلا وكان الماء عاملاً أساسياً في حياته، بل سبباً في وجوده، وحيث لا يوجد ماء، لا توجد حياة...

إن وجود الماء في الخلية حيوي جداً، لأن مثل هذه العناصر تنتشر على صورة أيونات، (56) ويتم الاتحاد الكيميائي بينها على هذه الصورة عن طريق انتشارها خلال أغشية رقيقة يحدث التبادل من خلالها داخل الخلية الحية نفسها... والخلية الحية على هذا الأساس هي عالم صغير قائم بذاته تتم فيه التفاعلات الكيميائية وعملیات التحول الغذائي بمنتهى الكفاية، كما أن الماء عامل أساسي لاكتساب البروتوبلازم (57) Protoplasme، قوامه الهلامي

(56) إيون : ذرة أو مجموعة ذرات، ذات شحنة كهربائية، فإذا نقص عدد الكهيرات في الذرة، أصبحت الذرة «إيونا موجباً»، وإذا زاد، أصبحت «إيونا سالباً»، ويسمى شطراً...

(57) لو تصفحنا الخلية الحية تحت المجهر لوجدناها تتركب من مادة هلامية القوام محبة نصف شفافة تسمى البروتوبلازم تحتوي بداخلها على نواة صغيرة هي المركز الواعي في الخلية. والبروتوبلازمة أو المادة الأولية للحياة تحتوي في حد ذاتها على أكثر من 75٪ من وزنها الماء، ويوجد في هذا الماء مواد عضوية وغير عضوية دائبة، كما يوجد فيها دقائق صغيرة من المواد تبقى معلقة، ومن المواد العضوية التي تحتوي عليها البروتوبلازم، تلك المواد التي تنتمي إلى المواد الزلالية أو البروتينية، والمواد السكرية، والمواد الدهنية... وتوجد المواد غير=

المعروف الذي يتغير من آن لآخر، وبسرعة كبيرة من حالة الصلابة إلى حالة السيولة، ويتم هذا التحول تحت تأثير العوامل الطبيعية المختلفة التي يتعرض لها «البروتوبلازم» مثل تغير درجة الحرارة، أو امتصاص الماء من الخارج، وما إلى ذلك.

* * *

الأساس في الحياة :

لو أننا تدبرنا، بإمعان، نصوص الآيات الشريفة لوجودنا تشير إلى أساس الخلق، وأصل كل هذه الأحياء... ولقد وصل العلم أخيراً إلى هذه الحقيقة العلمية في خلق الكائنات الحية، وأساس حياتها... فتحت عنوان: «ما هو الأساس في الحياة؟» كتب «وليم فرجارا» في كتابه: «كنوز العلم» ما نصه :

إن أساس الحياة في «البروتوبلازم» مادة الحياة ذاتها، و«البروتوبلازم» بالتالي مرتب في وحدات صغيرة تسمى الخلايا، وهو الجزء الأساسي في كل خلية... والخلية هي التي تنظم جميع عمليات الحياة كامتصاص الماء والكيماويات، وصناعة الطعام، وعمليات التنفس، والنمو والتجديد، والهضم، وباختصار جميع الوظائف التي تكون الحياة، وهي الجزء الوحيد في المخلوق الحي الذي تدب فيه الحياة... ولقد قام علماء البيولوجيا بدراسات كثيرة على الخواص الطبيعية والتركيب الكيميائي «للبروتوبلازم»، وهم يعرفون أنه في العادة سائل لزج مطاط إلى حد ما... ويشبه بياض البيض في خواصه المرئية، ويختلف اختلافاً كبيراً باختلاف

= العضوية على هيئة أيونات سالبة، وأيونات موجبة لعناصر مختلفة... وعلى هذا الأساس فالبروتوبلازم الحي يتركب من عدد كبير من العناصر المعروفة، أمكن الكشف عنها وإثبات وجودها في الخلية: الأوكسجين، والهيدروجين، والكربون، والنيتروجين، والفوسفور، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكبريت، الكلور، واليود، والمغنيسيوم...

الكائنات، كما أنه يختلف باختلاف الأجزاء في الكائن الواحد... وعندما يرى تحت ميكروسكوب قوي، يظهر كأنه سائل صاف عالق به جسيمات دقيقة مختلفة في الحجم والشكل والكمية... وتتضاءل هذه الجسيمات أمام حبيبات الرمل أو الرواسب الطينية، بل حتى البكتريا الصغيرة تبدو كبيرة إذا وضعت بجانب إحداها... والمعتقد أن هذا المزيج من السوائل والجسيمات يملأ الفراغ بين جزيئات البروتين السلسلية المتصلة في تشكيل شبكي، ويكون الماء معظم ما تصل نسبته إلى خمسة وتسعين في المائة من المجموع الكلي...

إذن... فأصل الخلق، وأساس الحياة... هو الماء... وقد سبق القرآن الكريم علوم العصر بإيراد هذه الحقيقة بمدة تزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان...

الماء وسط للتفاعلات الكيميائية :

إن الجسم البشري لا يستطيع أداء وظائفه المختلفة بغير الماء، فهو المذيب لجميع المواد المهضومة، ووسط للتفاعلات الكيميائية التي تحدث في خلاياه، ويكون أكثر من نصف وزن الجسم، وينظم حرارته، إذ أن حرارته النوعية تمنع فقد حرارة الجسم بسرعة، كما أنه يعمل على ترطيب الأنسجة الداخلية... والماء من العوامل التي تربط أجزاء الجسم كالمفاصل والأنسجة بعضها ببعض، وهو مفتاح الهضم السليم، والامتصاص، كما أنه عامل مهم في عمليات التخلص من الفضلات الضارة، والنفايات السامة، إلى خارج الجسم على شكل عرق وبراز وبول!!

والماء شديد الحساسية لأبسط التأثيرات، يتمتع بقدر غريبة على التكيف بأكثر الظروف تغيراً مما لا يتوفر في أي سائل آخر... فالماء الذي بأجسامنا هو الذي ينقل إلينا التأثيرات القادمة من أبعد أرجاء الكون، يقول

عالم الظواهر البيولوجية الفرنسي «ميشيل جوكفاني»: يتسم الماء بخاصية مذهشة، فجزيئاته يتوثق بعضها ببعض من خلال رابطة حساسة جدا تتعرض للاضطراب إزاء أي تأثير خارجي...

ويرتبط الماء ارتباطا وثيقاً بحاسة الإبصار، كما لا يمكن أن يصل أي صوت إلى السمع بدون وجود ماء... والماء يرتبط بالبروتينات والكربوهيدرات... ويستفيد الجسم من الماء المنفصل من هذين المركبين، ولتأكيد أهمية الماء القصوى للجسم يكفي أن تعلم أنه إذا امتنع الإنسان عن شرب الماء، فإنه يموت بعد ثمان وأربعين ساعة...

على أن الماء، في كل الأحوال، يلعب دوراً أساسياً ورئيسياً في حياة الإنسان، سواء شرب الماء أم لم يشربه، فهو يستنشق الماء بنفسه وجلده على صورة «بخار الماء» لأن الهواء الجاف جدا، منهك للجسم، ولا بد من توفر حدٍّ أدنى من الرطوبة لكي يتمكن الإنسان من الحياة.

* * *

لا ياكلون... ولا يشربون

كان الطعام الدارج والشراب بين عامة الناس في المدينة هو الماء والخبز... وكانت لهما مكانة مرموقة بين سائر الأطعمة رغم بساطتهما... فلقد عرف المسلمون أن المسيح، قال في الماء: هذا أبي، وفي الخبز: هذا أمي... يريد أنهما يغذيان. الأبدان كما يغذيها الأبوان. (58)

قال أحمد بن أبي سليمان : قلت لواصل العابد الخمي: بلغني أنك لم تشرب الماء دهرا... فقال: لم أشربه ثمانية أشهر، ثم غلبت، وذلك أنني كنت أناله في البسيس والمرق. (59)

قال يزيد بن مرثد : أن رجلا جاع بمكان ليس فيه شيء، فقال: اللهم رزقك الذي وعدتني، فأتني به، فشبع وروي من غير طعام ولا شراب... (60)

ومن كرامات عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي المعروف بالزاهد ما حكاها المالكي أن سحنون بلغه أن عبد الرحيم أقام ستة أشهر لم يشرب ماءً، فأنكر ذلك سحنون، وركب مع جماعة من الشيوخ إليه، فبات عنده، وسأله عما بلغه، واستشنع عليه...!

فقال له : ومن لا ياكل ولا يشرب ؟ فلما انصرف عنه سحنون، رجعه، وقال له: «سألتني عن شيء، فكتمته، ثم حاسبت نفسي، والذي قيل لك

(58) العقد الفريد 6 / ص 290.

(59) المدارك، للقاضي عياض ج : 4 / ص : 201. يستطيع الإنسان أن يبقى عدة أسابيع بدون غذاء، وعدة أيام بدون الماء الذي يؤلف 73٪ من جسمه، فأغلب التفاعلات الكيميائية التي تحصل داخل الجسم وخارجه، تتطلب وجود الماء الذي يشكل المادة الرئيسية في كل مُختبر، سواء كان داخل الجسم أو خارجه...

(60) القرطبي ص : 42 / 17.

صحيح، ولي ستة أشهر لم أشرب ماء، وذلك أني كنت أصلي، فأصابني عطش شديد، فقلت: أفرغ من حزبي وأشرب، فلما فرغت مددت يدي للقسط، فانقلب، وذهب ما فيه من ماء، وكانت ليلة كثيرة الريح والبرد، والماجل أسفل القصر، فكبر عليّ النزول، وقلت: يارب، إن هذا شغلني عن حزبي، فاحمل عني المؤونة...

فأجابني من زاوية البيت، ولا أحد فيه، يقول : «أنا من مومني الجن، أصلى بصلاتك مدة، فمر هذه الليلة شيطان مارد، وهم علينا أمر مما هم عليكم، فحسدك، ورمى لك في القسط شيئاً، فلو شربته لعرض في جسمك ما لا طاقة لك به، فلما مددت يدك إلى القسط سبقتك إليه، فأهرقته!

قال عبد الرحيم : فاخلصت لله الدعاء، فحمل عني المؤونة، وأن احتجت الماء بعد شربته...(61)

قال ابن القيم الجوزية(62) وشاهدت من يتغذى بماء زمزم الأيام ذوات العدد، قريباً من نصف الشهر أو أكثر، ولا يجد جوعاً، ويطوف مع الناس...

وقال ابن خلدون : «ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصلاً وأكثر، وحضر أשיاخنا بمجلس السلطان أبي الحسن المريني، وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين، وشاع أمرهما، ووقع اختبارهما، فصح شأنهما، واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا...(63) ورأينا كثيراً من أصحابنا، أيضاً، من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار، أو عند الإفطار، ويكون ذلك غذاؤه، واستدام على ذلك خمس عشرة سنة... وغيرهم كثير، ولا يستنكر ذلك...

(61) المدارك - للقاضي عياض ج : 4 / 194.

(62) كتاب الطب النبوي من كتابه : «زاد المعاد، في هدي خير العباد» ص 307.

(63) المقدمة لابن خلدون ص : 499 / 1.

وقال ابن خلدون في موضع آخر : وكذا من عوّد نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات، فإننا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها. والسبب في ذلك، العادة، فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها، لأنها كثيرة التلون، فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة، فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها، ثم قال: وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك، فليس على ما يتوهمونه، إلا إذا حملت النفس عليه دفعة، وقطع عنها الغذاء بالكلية، فإنه حينئذ ينحسم المَعَى، ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك، وأما إذا كان ذلك القدر تدريجاً ورياضة بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً، كما يفعله المتصوفة، فهو بمعزل عن الهلاك، وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة...

وذكرهما أيضاً الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرئ في كتابه المسمى: «المحاضرات» قال: «وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رَنَدَة لا تاكل ولا تشرب، ولا تبول ولا تتغوط، وتحيض، فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام. وتلا: «كانا ياكلان الطعام» فأخذ الناس يبتشون ثقات نسائهم ودهاتهن إليها، فكشفوا عنها بكل وجه يمكنهن، فلم يقفن على غير ما ذكر... وسئلت هل تشتهين الطعام؟، فقالت: «هل تشتهون التبن بين يدي الدواب»... وسئلت هل يأتيها شيء، فأخبرت «أنها صامت ذات يوم، فأدركها الجوع والعطش، فنامت، فأثاهاآت في النوم بطعام وشراب، فأكلت وشربت، فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت، فهي على تلك الحال توتى في المنام بالطعام والشراب إلى الآن...» ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول، ومن يكشف عما عسى تجيء أمها به إذا أتت إليها أربعين يوماً، فلم يوقف لها على أمر، قال: «بيد أني أردت أن يزداد في

عدد العدول، ويضم إليهم الأطباء، ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم، ويوكل من نساء الفرق من يبالغ في كشف من يدخل إليها، ولا يترك أحد يخلو بها... وبالجمل، يبالغ في ذلك ويستدام رعيها عليه سنة لاحتمال أن يغلب عليها طبع، فتستغنى في فصل دون فصل، ثم يكتب هذا في العقود، ويشاع أمره في العالم، وذلك لأنه يهدم حكم الطبيعة الذي هو أضر الأحكام على الشريعة، ويبين كيفية غذاء أهل الجنة، وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء، ويبطل التأثير والتولد، ويوجب أن الاقتران بالعادة لا بالزوم، وعند الأسباب لا بها إلى غير ذلك، إلا أنني لما أشرت بهذا، انقسم من أشرت عليه بتبليغه إلى من لم يفهم ما قلت، ومن لم يرفع به رأساً لإيثار الدنيا على الدين...

قال المقرئ : وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة. وحدثني غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزرية أنها كانت كذلك، وأن عائشة بنت أبي بكر يعني زوجة السلطان أبي الحسن التي استشهدت في طريف، اختبرتها أربعين يوماً، أيضاً، وكم من آية أضيعت، وحجة نسيت مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة، وكذلك الوباء العام المريب فروطه، يوشك أن يطول أمره، فينسى ذكره، ويكذب المحدث به إذا انقضى عصره، وكم فيه من أدلة على أصول الملة» انتهى كلام الشيخ أبي عبد الله المقرئ... (64)

وقد شاهد أحمد بن إبراهيم الشيخ عز الدين الفاروقي بالعراق رجلاً مكث سنين لا يشرب ولا ياكل... قال الذهبي : وذكر لي عدد أثق بهم أن امرأة بالأندلس مكثت نحو من عشرين سنة لا تاكل شيئاً، وأمرها مشهور...

(64) «الاستقصا» للناصري ص : 180 - 181 / 3.

ثم ذكر قصة المرأة التي ذكرها الحاكم في تاريخ نيسابور، وفيها طول... وحاصلها: أنها امرأة بعض الشهداء من بعض مدن خوارزم اسمها رحمة بنت إبراهيم، وأن أبا العباس عيسى بن محمد الطهماني المروزي لقيها، وسألها عن خبرها، فأخبرته بما حصله: أن زوجها مات في بعض الغزوات، وكان نجارا فقيرا، معيشته من كديده يوما فيوما... ولها منه عدة أولاد، فلما مات، أدركها عليه من الحزن ما يدرك المرأة الشابة على زوج أبي الأولاد وجاء أولادها يطلبون الخبز، وليس عندها شيء فضاقت صدرها، قالت: فسمعت أذان المغرب، ففزعته إلى الصلاة، فصليت، ثم سجدت، أدعو وأتضرع، وأسأل الله الصبر، فذهب بي النوم، فرأيت كأنني في أرض حسناء، أطلب زوجي، فوجدته مع قوم من الشهداء ياكلون، فناولني خبزا، فأكلته، فقال: اذهبي، كفاك الله مؤونة الطعام والشراب ما حييت، فانتبهت من نومي شَبَعِي، ريا، لا أحتاج إلى طعام ولا شراب، ومكثت كذلك طول عمرها، وفي القصة طول اختصرناه... (65)

ولقد كان الكرجي (ت 343هـ - 954م) من الزهاد المتعبدين، وأنه كان لا يفطر إلا في العيدين، وفي يوم مولد النبي عليه السلام.... (66)

مُوريطاني عمره 65 عاماً لم يستخدم الماء في حياته :

يعتبر الموريتاني عبد الله الديلمي ظاهرة غريبة تستحق الدراسة بالفعل، فهو لا يستعمل الماء إطلاقاً إلا للشرب فقط وفي أوقات متباعدة جداً تصل إلى الأسبوعين في الصيف، والشهرين في فصل الشتاء. هذا الرجل (الديلمي) يسكن في منطقة صحراوية قريبة من العاصمة الموريتانية «نواكشوط» وعرف بين أهل قبيلته والمنطقة التي يعيش فيها بتلك السمّة

(65) «ماء الموائد» لأبي سالم العياشي ص : 59 / 2.

(66) آدم ميتز ص : 298 / 2.

التي يتسم بها، وهي عدم استعماله للماء، فهو لا يغسل، بل لا يستحم، ولا يقرب الماء، فهو قاطع علاقته بالماء إلا من كوب ماء يشربه في فترات متباعدة.

«الشرق الأوسط» التقت هذا الرجل الغريب، وسألته عن سبب كرهه الشديد وغير المبرر للماء، فرد يؤكد أن الماء ضار، ويصيب الإنسان بالأمراض، خاصة «أمراض الجلد» ولأن عبد الله مسلم، فكيف يتوضأ للصلاة؟ يجيب على هذه التساؤلات بقوله:

«أنا لا أستطيع استعمال الماء أبداً وينفر منه جسمي، وبالنسبة للصلاة فأنا أحمل معي دائماً كيساً صغيراً من قماش فيه تراب ناعم، فإذا أقبل وقت الصلاة اتجهت للمسجد، وقبل الدخول أفتح الكيس، وأتيمم بالتراب الموجود فيه ثم أصلي.

وعن كيفية التخلص من الأوساخ التي تصيب جسمه يقول عبد الله: التراب هو مائي وبواسطته أتخلص من جميع الأوساخ. فأنا مثلاً بعد انتهائي من الطعام أنظف يدي من الدهون بالتراب، وعند إصابة جسمي بأي وسخ أبعده بالتراب. ويؤكد عبد الله أنه لم يصب بأي مرض نتيجة تجنبه للماء ويقول: «باستطاعتكم سؤال جميع من يعرفني هل أصبت بمرض أم لا، فأنا أبلغ من العمر 65 سنة وأنا في كامل صحتي وقواي، ولم أصب منذ عدة سنين بأي مرض، والحمد لله، وهذا في رأيي. والكلام لعبد الله - سببه تجنبي للماء، والذي هو سبب الأمراض خاصة أمراض الجلد!!» (67)

* * *

على أن بالإمكان للإنسان أن يستغني عن الماء بصورة كلية، لأن الجسم يحصل على حاجته من الماء عن طريق الأطعمة التي يتناولها،

(67) «الشرق الأوسط» جريدة، 12 - 4 - 91، عدد 4518 انظر: «المعسول» ج: 8 / ص: 286.

فاللبن، مثلاً، يحتوي على 88٪ من وزنه ماء، والفواكه لا يقل محتواها من الماء عن 60٪. وحتى الخبز والأطعمة المختلفة الأخرى تحتوي على مقدار، قلَّ أم أكثر، من الماء.

حيوانات لا تشرب الماء...

ليس في الأحياء كائن واحد دق أو كَبُر، يستطيع الحياة دون ماء... إن بعض الكائنات الدنيا تستطيع تحمل الجفاف زمناً قد يطول بالأعوام، ولكنها لا تفعل ذلك إلا وهي كامنة لا نشاط لها، ومستترة بأغطية تحميها من أن تجف حتى الموت...

قال أبو العلاء المعري في «لزوم ما لا يلزم» :

كان الضب كان له سجيـرا

فحالفه على فقد الأوام (68)

قال ابن خالويه في كتابه : «ليس في الدنيا حيوان لا يسمع ولا يشرب الماء أبداً إلا النعام، ثم قال: والضب، أيضاً، لا يشرب ولكنه يسمع، وهي قوينة الصبر على ترك الماء...» (69)

فالضب حيوان بري، لا يرد الماء، ويلتزم الصحراء، وأكثر ما يكون في الكُدَى، كما قال خالد بن علقمة :

ترى الشر، قد أفنى دوائر وجهه

كضب الكُدَى أفنى براثينه الحفر

وقد قالت العرب : «لا أفعله حتى يرد الضب...»

ولما كان بين الحوت والضب هذا التضاد أشار إليه حاتم الأصم رحمه

الله بقوله :

(68) السجير : الصديق. والأوام : العطش.

(69) «حياة الحيوان»، للدميري ص : 257 / 2.

وكيف أخاف الفقر، والله رازقي
ورازق هذا الخلق في العسر واليسر
تكفل بالأرزاق للخلق كلهم
وللضب في البيدا، وللحوت في البحر
ومن كلام العرب : «لا أفعل ذلك حتى يرد الضب» ومن الكلام
الموضوع على السنة العجماوات، قالت السمكة: رديا ضبّ!! فقال :
أصبح قلبي صَـرْدَا
لا يشتهي أن يـصـرْدَا
وفي المثل : «جمع بين الضب والنون» فالنون حيوان بحري، لا يفارق
الماء أبدا، فلا يجتمعان، قال الصابي:
الضب والنون، قد يرجى اجتماعهما
وليس يرجى اجتماع المال والأدب

فالضب لا يشرب مطلقاً، وإذا «أريد إجباره على الشرب، وذلك بوضع
ماء في حلقه، فإنه يموت من ذلك على الفور [حسن الوزان ص: 652] ثم
قال «ليون الافريقي»، ولحمه لذيق الطعم كلحم الضفدع، وله نفس المذاق...
قالوا : وللاسد من الصبر على الجوع، وقلة الحاجة إلى الماء ما ليس
لغيره من السباع.

* * *

ويستطيع الجمل أن يتحمل العطش أياما طويلا يتوقف عددها - طبقا
على كثير من الظروف والأحوال، مثل بنيانه الموروث، ومدى إجهاده في
الحمل والسير، ودرجة حرارة الجو، ونسبة الرطوبة فيه...
ولعل نوع الغذاء الذي تقتاته الإبل، له أهمية خاصة في ذلك، فهي إن
كانت تطعم نباتا طريا غضا بعد أمطار الشتاء، استطاعت أن تصبر على

العطش شهرين متتاليين، بل ربما أعرضت عن الماء إعراضاً حين يعرض عليها، وذلك لأن الماء الذي كان في طعامها الرطب فيه الغناء. وأغرب القزويني في قوله : إن الببغاء لا تشرب الماء، وهو غلط البتة، وأكثر قوتها ببلادها الموز وقصب السكر، حيث قال: «من عجائبها أنها لا تشرب الماء أبداً، فإنها إن شربت هلكت...» (70)

ومن الحيوانات التي لا تشرب الماء، الصقر، فهو أصبر على الشدة، وأحمل لخليط الغذاء والأذى، ومزاجه أبرد من سائر ما تقدم، ولبرد مزاجه لا يشرب ماءً، ولو أقام دهرًا، ولذلك يوصب بالبخر وبتن الفم... (71) ومن الصقور اليؤيؤ، (72) ويسميه أهل مصر والشام «الجم» لخفة جناحيه وسرعتهم، لا يشرب الماء إلا ضرورة كما يشربه «الباشق»، إلا أنه أبخر منه. ومزاج الصقر بارد، لأنه لا يعيش إلا في البلاد الباردة، يوجد ببلاد الترك. (73)

* * *

الهدهد :

يحكى أن نافعا سأل ابن عباس رضي الله عنه، فقال له : سليمان عليه السلام، مع ما خوله الله تعالى من الملك، كيف عُنِيَ بالهدهد مع صغره؟ يعني حيث تفقد الطير، فسأل عن الهدهد وقال: «لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا، أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ...» فقال ابن عباس: إنه احتاج إلى الماء... والهدهد كانت له الأرض كالزجاج... فقال نافع: قف يا وقَّاف. كيف يبصر الماء من تحت الأرض، ولا يرى الفخ إذا غطي له بقدر أصبع من التراب؟

(70) عجائب المخلوقات للقزويني ص : 255 / 2.

(71) «حياة الحيوان» ص: 66 / 2.

(72) نفس المصدر والصفحة...

(73) «عجائب المخلوقات»، للقزويني ص : 272 / 2.

فقال ابن عباس: إذا نزل القضاء عَمِيَ البصر!! وقال أبو عمر الزاهد، في هذا المعنى :

إذا أراد الله أمراً بامرىء
وكان ذا عقل ورأى وبصر
وحيلة يفعلها في دفع ما
يأتي به محتوم أسباب القدر
غطى عليه سمعه وعقله
وسله من ذهنه سلّ الشعر
حتى إذا نفذ فيه حكمه
رد عليه عقله ليعتبر

وهو معنى ما في الحديث : «إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب عقول الرجال». (74)

وكذلك، «اليؤيؤ»، وهو نوع من الصقور لا يشرب الماء الا لضرورة، كما يشربه الباشق، إلا أنه أبخر منه... ويقال في المثل: «أخلف من صقر» وهو من خلوف الفم، وهو تغيير رائحته، ومنه قوله عليه السلام: «لَخُلُوفُ قَمِ الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». (75) وفي المثل أيضاً: «أبخر من صقر» قال الشاعر:

ولـه لحيـة تيس
ولـه منقار نسر
ولـه نكهة ليث
خالطت نكهة صقر

وقال ابن خالويه : ليس في الدنيا حيوان لا يسمع ولا يشرب الماء أبداً، إلا «النعام» ومتى دميت رجل واحدة له لم ينتفع بالباقية... وكل ذي رجلين

(74) «زهر الأكم»، لليوسي ص : 76 / 1.

(75) «حياة الحيوان» ص: 68.

إذا انكسرت له إحداهما استعان بالأخرى في نهوضه وحركاته ما خلا
النعامة، فإنها تبقى في مكانها جاثمة حتى تهلك جوعاً... قال الشاعر:

إذا انكسرت رجل النعامة، لم تجد
على أختها نهضاً، ولا بِاسْتِهَابُوا (76)
وقال الزجاجي : سئل ابن دريد عن معنى قول الشاعر :

هَجَرْتُكَ لَا قِلَىٰ مِنِّي... وَلَكِنْ
رَأَيْتُ بَقَاءَ وَدَّكَ، فِي الصَّدُودِ
كَهَجَرِ الْحَائِمَاتِ (77) الْوَرْدِ لَمَّا
رَأَتْ أَنَّ الْمَنِيَّةَ فِي الْوَرُودِ..
تَغِيظُ نَفْسَهَا ظَمًا، وَتَخْشَى
حَمَامًا، فَهِيَ تَنْظُرُ مِنْ بَعِيدٍ
تَصُدُّ بِوَجْهِ ذِي الْبَغْضَاءِ عَنْهُ
وَتَرْمِقُهُ بِالْحَاضِ الْوُدُودِ

ومعنى الأبيات كما فسرهما ابن دريد أن الأيائل (78) تاكل الأفاعي في
الصيف، فتحمي وتلتهب لحرارتها، فتطلب الماء، فإذا رآته امتنعت من
شربه، وحامت حوله وعليه تتنسمه، لأنها لو شربته، في تلك الحالة،
فصادف الماء السم الذي في أجوافها، هلكت، فلا تزال تمتنع من شرب
الماء حتى يطول بها الزمان، فيذهب ثَوْرَانُ السم، ثم تشربه، فلا
يضرها... فيقول هذا الشاعر: أنا في تركي وصالك مع شدة حاجتي إليه
بمثابة الحائمات التي تدع شرب الماء مع شدة حاجتها إليه على إبقاء
حياتها...

(76) المصدر السابق ص : 357 / 2.

(77) الحائم : الذي يدور حول الماء... ولا يصل إليه...

(78) الأيائل : ج : ايل. ذكر الأوعل، وهو مولع بالصيد، واكل الحيات يطلبها حيث وجدها...

وفي ميدان الطب أن المريض إذا أُجريت له عملية جراحية، فإنه يمنع عنه شرب الماء، استجابة لنصائح الطبيب، كما في المثال السابق، وهذا معجزة لحديث شريف محفوظ عن الصادق المصدوق الذي يقول: «إن الله إذا أحب عبداً، حماه من الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه عن الطعام والشراب» وفي لفظ: «إن الله يحمي عبده المومن من الدنيا...» (79)

* * *

وقد جاء خبر من «سيدني»، بأنه أفرج مسؤولو الحجر الصحي في «اديليد» بأستراليا عن قط عاش 48 يوماً، بلا ماء أو طعام أو رفيق في إحدى الحاويات التي وجد فيها نفسه وحيداً تماماً مع سيارة «مرسيدس بنز».

وقال مسؤولو الحجر الصحي إن القط الذي أطلق عليه اسم «مرسيدس»، إشارة إلى رفيقة رحلته من لندن، قد أفرج عنه قبل الموعد المحدد بثلاثة أشهر بعد أن قدم أصحابه ما يثبت خلوه من الأمراض، خاصة مرض الكلب، وكان القط المغامر قد وصل إلى أستراليا في يونيو 1993 بعد أن دخل الحاوية مستكشفاً أثناء عملية تحميلها...

والنار المحرقة من الماء...

كان العرب في الجاهلية يخشى قسماً من الأشجار، وكان يرى فيها روح الشر، مثل: «الحماطة» وهي شجرة التين، وهو أحب الشجر إلى الحيات، أو «العشر» التي كانت العرب تظنها مسكن الشياطين قبل الإسلام، فإن في مثل هذه تدل نفسها على أن تلك الأشجار كانت ذات حيوية عند العرب... (80)

(79) «الطب النبوي» لابن القيم ص : 82.

(80) «الأساطير العربية قبل الإسلام»، ص : 52.

وقد استدل القرآن على إمكان البعث والنشور بأحوال الشجر، ذلك النبات اللين الطري، الذي تشعر طراوته ونداوته بأنه لا يمكن أن تضطرم فيه النيران، ولكن القدرة الإلهية التي تحكم هذا الكون، وتتحكم في نواميسه، فتجعل من ذلك النبات الرطب الطري ناراً تتوقد، ولهيباً يتجدد. فالذي أخرج من الشجر ناراً، لم يكن تتوقع أن تخرج منه، قادر على أن يخرج الإنسان - الذي يظن المشركون أنه لن يخرج، من مرقدته الذي ثوى فيه، بعد أن غيبه البلى بين ظهرانيه...

نعم صدق الله العظيم، فقد قال في كتابه المبين : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» كل شيء من الماء حتى النار الملتهبة المحرقة، «وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب، ومنه شجر» (81) وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَنَّكُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا، أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ؟﴾ (82) ويقول تعالى: ﴿وَضَرْبَ لَنَا مِثْلًا، وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ، وَهِيَ رَمِيمٌ، ؟!.. قُلْ: يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ (83) الْأَخْضَرِ نَارًا، فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَفَّدُونَ﴾ (84).

والمراد بالشجر الأخضر، زناد العرب، وهو شجر المرخ والعفار، (85) فإنه يقطع بكل منهما غصنٌ أخضر يقطر منه الماء، فيحك المرخ على العفار، فتقدح النار منهما، فأخرج الله منه النار، فهو القادر على إخراج الضد من الضد، وهو على كل شيء قدير، ويعني بالآية ما في المَرخ

(81) سورة النحل رقم الآية : 10.

(82) سورة الواقعة رقم الآية 72.

(83) قوله تعالى : من الشجر الأخضر : ولم يقل الخضراء، وهو جمع، لأنه رده إلى اللفظ ومن العرب من يقول : الشجر الخضراء [القرطبي ص : 60 / 8].

(84) سورة «يس» رقم : الآية : 80.

(85) العفار الزند، وهو الأعلى، والمرخ : الزنده، وهي الأسفل، يوخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماءً، فيحكم بعضهما إلى بعض، بتخرج منهما النار.

والْعَفَّار، وهي زنادة العرب، ومنه قولهم: استمجد المرخ والعفار». (86) قال
الأعشى يمدح قيس بن معد يكرب الزبيدي في تضاعيف قصيدته:
زناده، خير زناده الملو

ك، صادف منهن مرخ عفاراً (87)
ولو بت قدح في ظلمة
صفاء، بنبع، لأوريت ناراً

قال الزمخشري: «ثم ذكر من بدائع خلقه انقذاح النار من الشجر
الأخضر مع مضادة النار الماء، وانطفائها به، وهي الرماد التي تدرى بها
الأعراب، وأكثرها من المرخ والعفار، وفي أمثالهم: «في كل شجر نار»
واستمجد المرخ والعفار، يقطع الرجل منهم غصنين مثل السواكين، وهما
خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ، وهو ذكر، على العفار وهي
أنثى، فتندح النار بإذن الله... (88)

وقد ذكر أبو حنيفة الدينوري في «كتاب النبات» صفة الزند والزنده
وكيفية الفتل، فلا بأس بإيراده هنا. قال: أفضل ما اتخذت منه الزناد
شجرتا المرخ والعفار بفتح العين المهملة بعدها فاء، فتكون الأنثى، وهي
الزنده السفلى مرخا، ويكون الذكر، وهو الزند الأعلى عفاراً...

أخبرني بعض علماء الأعراب أن العفار شجر يشبه صغار شجر
الغبيراء (89) منظره من بعيد كمنظره... وأما المرخ فقد رأيت نباتاً قصبانياً
سمحة طويلاً لا ورق لها، ولفضل هاتين الشجرتين في سرعة الوري، وكثرة
النار، سار قول العرب فيهما مثلاً، فقالوا: «في كل الشجر نار، واستمجد
المرخ والعفار» أي ذهباً بالمجد، فكان الفضل لهما.

(86) استمجد المرخ والعفار: أي استكثر وأخذ من النار ما هو حسبهما، وهو مثل يضرب في
تفضيل بعض الشيء على بعض.

(87) تاج العروس 2 / 278، مرخ. الأعشى - الديوان: ص: 53.

(88) الكشف. ص: 95 / 2.

(89) قال المجد: الغبراء نبات كالغبيراء، أو الغبراء ثمرته، والغبيراء شجرته أو العكس.

ومن فضيلة المرخ في كثرة النار، وسرعة الوري ما ذكر أبو زياد الكلابي، فإنه قال: «ليس في الشجر كله أوري زنادا من المرخ، قال: وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً وهبت الريح فحك بعضه بعضاً، فأورى فاحترق الوادي كله... ولم نر ذلك في شيء من الشجر.

وأما وصف الاقتداح بها، فإن المقتدح إذا أراد أن يقتدح بالزناد، وضع الزندة ذات الفراض بالأرض، ووضع رجليه على طرفيها، ثم وضع طرف الزند الأعلى في فرضة من فراض الزندة، وقد تقدم، فهيأ في الفرضة مجرى للنار إلى جهة الأرض بحز، وقد حزه بالسكين في جانب الفرضة، ثم قتل الزند بكفه كما يفتل المثقب، وقد ألقى في الفرضة شيئاً من التراب يسيراً يبتغي بذلك الخشنة ليكون الزند أعمل في الزندة، وقد جعل إلى جانب الفرضة عند مفضى الحزيرة تأخذ فيها النار، فإذا قتل الزند، لم يلبث الدخان أن يظهر، ثم يتبعه النار، فتتصدر في الحز، وتأخذ في الرية، وتلك النار هي السقط. (90)

* * *

وكان العرب يضربون المثل بنار الغضا في الحرارة، لأن الغضا من بين سائر العيدان لا يصلح الا للوقود، فكأنه خلق للنار، إن جمره يبقى أكثر من يوم.

«ونار الحلقى» يضرب بها المثل في سرعة الإيقاد والانطفاء.. «ونار العرفج»، وتسمى: «نار الزحف» وذلك لأن العرفج إذا التهب فيه النار أسرع وعظمت، فمن كان يقربها يزحف عنها... ثم لا يلبث أن تنطفئ من ساعته، فيحتاج الذي زحف عنها إلى أن يرجع إليها من ساعته، فلا يزال المصطفى بها كذلك، ويضرب بها المثل، فيمن لا يستقر على حال: ومن

(90) انتهى كلام أبو زياد الكلابي من كتابه: «لب الباب» نقلاً من كتاب: «بلوغ الأرب، في معرفة أحوال العرب» لمحمود شكري الألوسي ص: 168 / 2 تحقيق محمد بهجت الأثري رحمه الله. ط: 3.

الاستعارات في النار «نار الشرف» و«نار الحرب» وقد أولع الشعراء بوصفها في أشعارهم قديما وحديثا... (91)

فالمرخ والعَفَّار ورد ذكرهما كثيرا في شعر العرب، وفي مجال الكتابة على نحو ما نجد عند علباء بن أرقم في اعتذاره للنعمان إذ يقول:

وَزَنَدَيَّ عَفَّارٍ فِي السَّلَاحِ وَقَادِحٍ
إِذَا شِئْتُ أَوْرَى قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ السَّامُ (92)

والمراد بالآية الكريمة، أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء، حتى صار خضراً نضراً، ذا ثمر وفاكهة... ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابساً توقد به النار، كذلك هو، سبحانه وتعالى فَعَّالٌ لما يريد ويشاء، لا يمنعه مانع، ولا يصده رادع...

لقد أتى سبحانه بهذا التمثيل لمنكري البعث والنشور... قال قبل هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ، فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ: مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ. وَهِيَ رَمِيمٌ!؟ قُلْ: يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا، فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوْقِدُونَ﴾ قال قتادة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا...﴾ يقول الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه... وقيل المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قدح نار، وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء، وروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما... وقال الحكماء: «في كل شجر نار إلا العناب، وللعرب شجرتان أحدهما المرخ، والأخرى العَفَّار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران، فحك أحدهما بالآخر تناثر من

(91) «نهاية الأرب» للألوسي ص : 167.

(92) الأصمعي : الأصمعيات ص : 179.

بينهما شرر النار... وفي المثل: «استمجد المرخ والعفار» أي كثر في هذين النوعين من الشجر، لأنهما رخوان كالكلخ عندنا يحك بعضه ببعض، فتخرج بينهما النار بقدرة الله تعالى، وفيهما الرطوبة التي هي ضرب من الماء... كذا فسرہ الإمام المہدوی...

وقد أخطأ إبليس، لعنه الله، بقياسه الفاسد، قال الله حكاية عنه: «قال أناخير منه خلقتني من نار، وخلقته من طين» يعني آدم عليه السلام، وغاب عن إبليس اللعين، أن آدم إن كان نقل من الطين مرة، فقد نقل الملعون مرتين، لأن النار من الشجر، والشجر من الطين.

وفي هذا يقول «المفتي» الشاعر بشار :

إبليس خيّر من أبيكم آدم

فتبينوا يا معشر الأشرار

إبليس من نار، وآدم طينة

والطين لا يسمو سمو النار

وقد عارض هذين البيتين المرحوم الأستاذ الشاعر عمر بهاء الدين

الأميري وهو يزورني في مكتبي، فقال :

إبليس من نار، وآدم طينة

والنار لا تسمو سمو الطين

النار تفني ذاتها ومحيطها

والطين للإنبات والتكوين

فبشار يقول : إن جوهر إبليس أفضل واسمى من جوهر آدم، لأن الله

خلقه من نار... وخلق آدم من صلصال، وهو الذي أراد للصلصال ألا

يسمو سمو النار...

ولم يكن بشار «مفتيا» في هذا المجال حتى تقول : والطين لا يسمو سمو النار» فالطين مادة أولية، تشكلت، ونفخ فيها من روح الله، وقيمة المادة في القدرة على تشكيلها، فإذا شكلت في أحسن تقويم، وكرمت، فلا وجه لتفضيل النار عليها، ثم إن إبليس اللعين يدعى هذه الدعوى، وليس من يقره عليها إلا أمثاله من الأبالسة...

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله : (93)

«وينبغي أن تعلم أن إبليس الذي شغله التلبيس أول ما التبس عليه الأمر، فأعرض عن النص الصريح على السجود، فأخذ يفاضل بين الأصول، فقال: «خلقتني من نار، وخلقته من طين...» ثم أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم، فقال: «أرايتك هذا الذي كَرَّمْت علي» والمعنى، أخبرني لِمَ كَرَّمْت علي، عزز ذلك الاعتراض أن الذي فعلته ليس بحكمة... ثم اتبع ذلك بالكبر، فقال: «أنا خير منه...» ثم امتنع عن السجود، فأهان نفسه التي أراد تعظيمها بالعنة والعقاب.

* * *

وعود على بدء، فقد استدل الحق سبحانه بهذه الآية: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا﴾ على البعث في الدار الآخرة... ففي النار هدى لمعرفة الحكمة، والقدرة الإلاهية، وتبيان أن هذه الأجسام التي نسكنها الآن ستندهم، وتكون الروح أشبه بالنار، والأجسام أشبه بالأشجار، والنار ترتفع إلى العلى... «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ...»

* * *

إن الذي قدمته في هذه الدراسة العلمية من موافقة العلم للقرآن في كشوف العلم، وإن الدين سبق تلك الاختراعات والكشوف العلمية الحديثة منذ خمسة عشر قرنا، هو ضرب من الادعاء الذي يقدمه العلماء على

(93) في باب : «التحذير من فتن إبليس ومكايده»، ص : 24.

أسبقية علومنا على علوم الآخرين، وهو ضرب من الوثنيات، وأن لكل عصر وثنيات، ووثنية هذا العصر المبالغة في تقدير العلم، إنهم يقولون كما قال الأولون: «إنما أوتيته على علم عندي»...

وما العلم؟ أليس العلم معرفة قوانين الله في الوجود؟ وما الذي بلغه علم العلماء؟ كشفوا قانون الجاذبية؟ ولكن هل عرفوا ما هي الجاذبية؟ وإني أقول كما قال السيد علي الطنطاوي في ذكرياته: (94) لأعجب من بعض الدعاة حين يقولون: إن من مزايا القرآن أنه سبق العلم، إنهم كمن يأتي إلى رجل بنى بيته على هيئة الكعبة، فيقول له: إن الكعبة قد سبقت بيتك، وجاءت على هذا الشكل من قبله...

إن مثل القرآن والعلم كمثل سائق سيارة يمشي بها في السهل الواسع، يرى القمر أمامه مطلا عليه من فوق الجبل، فيسرع ليدرك القمر، والقمر في مكانه...

إن القرآن لا تبلى جدته، ولا ينفذ معينه، فكلما ازددنا علما، وجدنا تفسيراً للقرآن جديدا لم يعرفه الأولون، لأن الذي أنزل القرآن، هو الذي خلق الأكوان كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، ويعلم ما يجد فيها وما يؤول إليه حالها...

(94) ذكريات الشيخ علي الطنطاوي - الحلقة 229 / الخميس 16 / 10 / 1986. «الشرق الأوسط» الجريدة.

الباب السادس :

تقديس الماء عند الشعوب والأمم...

منذ القديم، والإنسان يرى أنه محاط بعناصر الطبيعة، وظواهرها المختلفة، فكان يقف أمامها حائراً، ساهما واجماً، لا يدرك كنهها، ولا حقيقة العلاقة التي بينه وبينها، فاشتط به الخيال، وتصور أن فيها، أو وراءها قُوى حَيَّة، يمكن أن تصيبه بِشَرٍّ مُسْتطير، أو خيرٍ نافع، ثم راح يغلو به الخيال، حتى جعل لكل مظهر من مظاهرها، إلهاً، في زعمهم في الغالب، ونتيجة لهذا المفهوم الميثولوجي صار يعبُدها، ويتقرب إليها طمَعاً في خيرها ودفعا لشرها...

وذلك ما سنراه في هذه الفصول من اقتران الماء بالتصور الإنساني القديم بالصفات الميثولوجية التي أضفاها عليه الإنسان الأول نتيجة لما يراه من نفعه، أو خيره، أو اتساعه وشُموله..

ويدور محور هذا الباب حول الفصول التالية :

الفصل الأول : الماء عند القدماء.

الفصل الثاني : العناصر الأربعة في القرآن.

الفصل الثالث : التصور الميثولوجي للماء عند العرب.

الفصل الرابع : الحوريات حيوانات خرافية.

الفصل الخامس : القرآن، وثق الصلة بين الإنسان ونعمة الماء.

الفصل السادس : تقاليد الفرس يوم النيروز.

الفصل السابع : حفلة زفاف النيل...

الماء عند القدماء،

[كان النبي عليه السلام : إذا بايع النساء، دعا
بِقَدَحٍ من ماء، فغمس يده فيه، ثم أمر النساء،
فغمسن أيديهن فيه...].

[القرطبي ج : 18 / ص 71]

اعتُبر الماءُ، خلال عصور طويلة وإلى اليوم، ينبوعَ الحياة، وسر الوجود، ومعجزةَ الطبيعة، كما ارتبط منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الآن بالشعائر الدينية، وأساطير الآلهة والأبطال، وتلقت الفلاسفة حواليتهم، على الطبيعة تنضح بأسرارها، وتُفصح عن مخبأاتها ومكنوناتها، لتُعلن عن أصل المادة، وتفسّر ظواهرها وردّها إلى جذورها وأصولها...

واهتم الفكر الإنساني منذ أكثر من ألفي عام بالبحث عن المكونات الأساسية للكائنات، فظهرت نظريات ومفاهيم كثيرة، في حضارات متعددة، استقرت في النهاية إلى نظرية العناصر أو الأركان أو الجذور الأربعة، وهي: الماء، التراب، النار، الهواء... كما ذهب بعض حكماء الشرق إلى أن الكائنات ترجع إلى عنصر واحد، إما الماء، أو الأرض، أو الهواء، أو النار، كما نحا البعض الآخر إلى تكونها من عنصرين، أو من أربعة عناصر، أو من عدد غير محدود من العناصر، وكان مردُّ هذا كله إلى المشاهدة والنظر إلى العالم المحيط بنا...

* * *

فطاليس (Thalès) الفيلسوف اليوناني الحكيم وعالم الرياضيات (624 - 547، ق.م) الذي عاش في آخر القرن السابع ق.م، والذي يعتبر أحد الحكماء السبعة لليونان، يَرى في الماء العنصر الأول في هذا الكون وينظر إليه على أساس أنه أهم مولد للكون حيث إن له نظرية تتلخص في الأسس الآتية:

- (1) الأرض محمولة بالكلية على الماء.
 - (2) الماء هو العنصر الأساسي لكل الكائنات، أي أن الماء هو السبب الأول للكون.
 - (3) يحوي الماء قوة غريزية، وروحاً حية، كتلك المتواجدة في حجر المغناطيس بدليل أنه يجذب الحديد. كذا الكهرمان وجذبه للقش.
 - (4) كل الكائنات تكمن فيها الآلهة حسب زعمه.
 - (5) المادة متصلة لآ فَرَاغَ فيها، وهي قابلة للقسمة دون حد.
 - (6) الحرارة منشؤها الرطوبة، والموت سببه الجفاف...!
- أما أرسطو، فقد كان يرى فيه هو والهواء، والتراب والنار العناصر الأساسية في تكوين هذا العالم المادي، وقد سادت هذه النظرية لمدة عشرين قرناً...

* * *

ولقد كانت المكوّنات الأساسية في فكر الحضارة الصينية القديمة، ولا سيما ما وجد في كتاب «شوشينج»⁽¹⁾ أن كل كائن لابد وأن يكون مركباً من : الماء، الأرض، المعدن، الخشب...

كما تعتمد العناصر في الحضارة الهندية ما أخذت به الحضارة الصينية القديمة، وقد أشار. «ج. هُولْمِيَّارْد»⁽²⁾ في كتابه: «مؤسس علم الكيمياء»،

(1) شوكينغ : Chou - King، أو كتاب الحوليات، وهو كتاب قديم صيني كتب قبل مولد السيد المسيح بعدة قرون، وهو مجموع الوثائق الصينية القديمة لصاحبه كونفوشيوس.

(2) E.J Holmyard : "Makers of Chemistry", Oxford 1964.

إلى أن فكرة أصل المادة، وتفسير ظواهرها تعود إلى العالم الهندي الكبير «كَانَادَا» الذي قال بأن أصل الكون يمكن رده إلى عناصر أربعة: الماء. الهواء. النار. التراب... (3)

هذا، ويذكر أبو الريحان البيروني، (4) في كتابه «في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة، في العقل أو مردولة»... (5) «ومن البين أن كل مركب، فله بسائط منها يبدو التركيب، وإليها يعود التحليل». والموجودات الكلية في العالم هي العناصر الخمسة، وهِيَ على رأيهم: السماء. والرياح. والنار. والماء. والأرض... وتسمى «مهابوت»، أي كبار الطبائع... ولا يذهبون في النار إلى ما يُذهب إليه من الجسم الحار اليابس عند تقعير الأثير، وإنما يعنون بها هذه الموجودة على وجه الأرض من اضطرام الدخان...

وفي «باج سبران» أن في القديم، كان الأرض والماء، والرياح والسماء، وأن «براهم» رأى شرارة تحت الأرض، فأخرجها وجعلها أثلاثاً. ويشير أبو الريحان البيروني في كتابه إلى بعض أقوال حكماء الهند في قضية العناصر فيقول: (6) وقال «بلسن» في «سد هاندة»: إن كلية العالم هي جملة الأرض والماء والنار. والرياح، والسماء، خلقت فيما وراء الظلمة..

(3) ليس بصحيح ما يدعيه علماء الاغريق بأنهم أول من وضع هذه النظرية، بل إن حقيقة الأمر أن هذا المفهوم انتقل من الهنود إلى الإغريق.

(4) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (362 - 440 هـ - 973 - 1051 م) نسبة إلى «بيرون» في السند... ولد بضاحية خوارزم، مؤلف عربي من أصل فارسي درس الفلك والرياضيات والطب والتقويم والتاريخ والعلوم اليونانية والهندية، وكانت بينه وبين ابن سينا مراسلة، من مؤلفاته: «الآثار الباقية، من القرون الخالية»، طبع قديماً في «لايبزك» 1838، وقد عني المستشرق الألماني «سخاو»، بترجمة كتاب تاريخ الهند إلى الانجليزية وطبع في الأصل في لندن عام 1887 والترجمة فيها 1888.

(5) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند عام 1377 هـ - 1958 م السلسلة الجديدة رقم 11، أعادت بالتصوير دار: «عالم الكتب» بيروت ص: 31، وقد طبع، أيضاً في «لَيْبَزْكَ»

(6) نفس المرجع السابق ص 182.

ويمضي البيروني في موضع آخر فيقول: (7) و«أَرْجَبُهُد» يبحث عن العالم، ويقول: «إنه الأرض والماء والنار والريح، وهي كلها مدوّرة، وكذلك يقول: «بَسِشْتُ» و«لات»: إن العناصر الخمسة التي هي الأرض والماء والنار والريح والسماء مستديرة، و«براهمهر» يقول: إن الأشياء الظاهرة المحسوسة تشهد لها بالكُرَيَّة، وتنفي عنها سائر الأشكال.

* * *

أما العناصر في الحضارة الإغريقية : فذهب القوم في كنه الكائنات ومكوناتها مذاهب شتى، فهذا الفيلسوف أنكسيمندر (8) Anximandre الذي يعتبر أول من توهم وجود أربعة أزواج متضادة للعناصر، أو الأركان الأربعة، وذهب أنكسيمنس (9) الفيلسوف الإغريقي إلى أن مبدأ الأشياء لا نهاية له، وأنه جوهرٌ أبدي، وأن الكائنات تعود في أصلها إلى الهواء... فإن خف الهواء صار، في رأيه ناراً، وإن تكاثف تحوّل إلى ريح، ثم سحب، ثم ماء. ثم أرض، ثم حجر...

ـ العناصر والمكونات في الفكر الإسلامي :

انتقلت هذه العناصر الأربعة إلى الفكر الإسلامي من مدرسة الأسكندرية ومن بلاد الروم وعبر الحضارات القديمة. ويمكن أن نشير إلى ما جاء في أرجوزة الشيخ الرئيس ابن سينا في العناصر الأربعة، حيث يقول:

(7) نفس المرجع السابق ص 223.

(8) أنكسيمندر 610 - 547 ق.م. فيلسوف يوناني علم أن مبدأ الأشياء لا نهاية له وأنه جوهر أبدي، وقالوا إنه أول من رسم الخرائط الجغرافية.

(9) أنكسيمنس : 585 - 528 ق. م فيلسوف يوناني قال إن الهواء هو أصل الأشياء كلها، وأنه مادة غير متناهية، وأنه من جنس النفس البشرية. أما السبب في تكوين العالم، فهو تخلخل الهواء وتكاثفه.

تقوم من مزاجها الأبدان
أما الطبيعيات فالأركان :
ماء. ونار. وثرى. وريح.
وقول بقرات بها صحيح

ومن عجب أن الحضارة الإسلامية، كما يقول د. جلال شوقي. قد ورثت هذه النظرية دون جدل أو مناقشة أو تحرُّ أو تقصُّ، وإنما أخذت بها، وكأنها من المسلمات التي لا تقبل الفحص أو التحقق، وهذه ولا شك سمة غريبة على الحضارة الإسلامية التي كان طابعها المميز، إعمال الفكر، وتحري الحق، والسعي الجاد في تحصيل المعرفة بمنهج علمي سليم، ولعل ما يتوصل إليه في هذه الدراسة يُقدِّم تفسيراً مقبولا لصمود نظرية العناصر الأربعة طيلة فترة تزيد على ألفين من السنين، وقد أفلت هذه النظرية، تماما، في القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، وذلك مع نشوء علم الكيمياء، دَحَضَها العالم «روبرت بويل» (10) الذي عاش في الفترة من عام 1627م حتى عام 1691م، وأثبت أن الأركان الأربعة: الأرض. والماء. والهواء. والنار، ليست عناصر لا تنقسم، وإنما هي مركبات، وكان ذلك إيذانا بأفول مدرسة العناصر الأربعة التي كان رائدها «أَمْپِدُوكْلِس» (11) Empédocle، ويعتبر «روبرت بويل» أول عالم كيميائي بالمفهوم العصري، حيث إنه انتقد النظريات القديمة لصناعة الكيمياء... ويعد كتابه الموسوم «الكيميائي المدقق»، حداً فاصلا بين صناعة الكيمياء، وعلم

(10) روبرت بويل ROBERT BOYLE (1627 - 1691 م)، فيزيائي، كيميائي، اكتشف وظيفة الأوكسجين في الاحتراق، وُلِدَ بإرلاندة وتوفي في لندن، أدخل مبدأ التحليل في الكيمياء.

(11) أَمْپِدُوكْلِس : ولد 483 ق.م، من فلاسفة اليونان قبل سقراط، اصطبغت تعاليمه بصبغة دينية، وكان عالما بالطب والفيزياء، فاتهمه معاصروه بالسحر... زاد على العناصر الأربعة (الماء الهواء، النار، التراب) التي قال بها الفلاسفة الإيونيون عنصرين جديدين، هما المحبة، والبغض، اعتبرهما مصدراً لكل حركة... عرفه فلاسفة العرب، ونسبوا إليه تعاليم صوفية ممزوجة بالآراء الفلسفية.

الكيمياء... وقد أثبت «بُويل» بطريق التجريب، أن الماء والتراب والنار والهواء ليست عناصر، بل مركبات، وهو أول من أدخل مفهوم «التحليل» في مجال الكيمياء، وقد فرّق بين الأخلاط والمركّبات، كما أنه توسّع في دراسة الغازات، ولا سيما الهواء... وهكذا حازت مدرسة العناصر الأربعة قصب السبق، وقدّرت لها الغلبة، وهي المدرسة التي أخذ عنها علماء العرب والمسلمين واتبعوها، وأحاطوها بالتبجيل والتسليم والانقياد، وخلعوا عليها ثوب التصديق والتأمين...

وقالوا في صحة الجسم بتوافق عناصره، ومرضها بتنافرها، إذ صحة الأبدان، بتوافق الأركان، أشار إلى هذا المعنى أبو العلاء المعري :

وَأَرَى الْأَرْبَعَ الْغَرَائِزَ فِينَا،
وَهِيَ فِي جُثَّةِ الْفَتَى خُصَمَاءُ
إِنْ تَوَافَقْنَ صَحَّ، أَوْ لَا فَمَا يَنْفُـ
لُكَ عَنْهُ الْإِمْرَاضُ وَالْإِغْمَاءُ

الفصل الثاني :

العناصر الأربعة في القرآن الكريم

لقد ذكرت العناصر الأربعة في غير ما آية من آيات الخلق. ونشوء الكون في القرآن الكريم، حيث ترد الكلمات الآتية: ماء. تراب. هواء. نار، مما يفسر تسليم علماء المسلمين والعرب بصحة نظرية العناصر الأربعة، وذلك استناداً إلى ورود هذه العناصر مرتبطة بأمور وكيفيات الخلق والتصريف في بعض آي الذكر الحكيم، مما كان له الأثر الحاسم في إحجام المسلمين - بغير حق - عن التصديق لهذه النظرية ومناقشتها... ولهذا فإننا سناخذ بعض الآيات التي لها ارتباط بهذه العناصر :

عنصر الماء :

يقول الحق سبحانه وتعالى :

- ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾، (12)
﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، (13)
﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، (14)
﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، (15) ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾، (16) ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (17) ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، (18) ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ. اهْتَزَتْ

(12) سورة البقرة، رقم الآية : 22.

(13) سورة البقرة، رقم الآية : 164.

(14) سورة الأنعام، رقم الآية : 99.

(15) سورة هود، رقم الآية : 7.

(16) سورة إبراهيم رقم الآية : 32.

(17) سورة النحل رقم الآية : 65.

(18) سورة الأنبياء، رقم الآية : 30.

وربت ﴿١٩﴾ ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾، (20) ﴿ولئن سألتهم من
نزل من السماء ماءً، فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾، (21)
﴿وينزل من السماء ماءً، فيحيي به الأرض بعد موتها﴾. (22)

عنصر التراب والطين والصلصال :

يومن أبو العلاء المعري بأن الجسم مَكُونٌ من التراب.. فَعَلَامَ نرجو
عودة الأمس، ونحن مُذْ خُلِقْنَا من التراب، إلى أن عُذْنَا إليه في شقاء دائم؟!
وما زال هذا الجسم مُذْ فَارَقَ الثُّرَى
على تَعَبٍ، حتى أُعِيدَ إلى الرُّمُسِ..
فمن الآيات التي تشير إلى عنصر التراب، قوله تعالى :

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾، (23) ﴿أكفرت
بالذي خلقك من تراب﴾، (24) ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من
البعث. فإننا خلقناكم من تراب﴾، (25) ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب،
ثم إذا أنتم بشرٌ، تنتشرون﴾، (26) ﴿والله خلقكم من تراب، ثم من
نطفة، ثم جعلكم أزواجاً﴾، (27) ﴿هو الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة
ثم من علقه﴾، (28) ﴿هو الذي خلقكم من طين، ثم قضى أجلاً﴾، (29)
﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار، وخلقته من طين﴾، (30)

(19) سورة الحج، رقم الآية : 5.

(20) سورة النور رقم الآية : 45.

(21) سورة العنكبوت : رقم الآية 63.

(22) سورة الروم، رقم الآية 24.

(23) سورة آل عمران، رقم الآية : 59.

(24) سورة الكهف، رقم الآية : 37.

(25) سورة الحج، رقم الآية : 5.

(26) سورة الروم، رقم الآية 20.

(27) سورة فاطر، رقم الآية : 11.

(28) سورة غافر، رقم الآية 67.

(29) سورة الأنعام، رقم الآية 2.

(30) سورة الاعراف، رقم الآية : 12. وسورة : ص : 76.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾، (31) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾، (32) ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾، (33) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾، (34) ﴿فَسَجِدُوا، إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ: أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، (35) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، (36) ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، (37) ﴿قَالَ: لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، (38) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾، (39) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبَت الْأَرْضُ﴾، (40) ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا، فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، (41) ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ﴾، (42) ﴿هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ، وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، (43) ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، (44) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى، كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى، مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. (45)

- (31) سورة المومنون، رقم الآية : 12.
(32) سورة السجدة، رقم الآية : 7.
(33) سورة الصافات، رقم الآية : 11.
(34) سورة ص، رقم الآية : 71.
(35) سورة الإسراء، رقم الآية : 61.
(36) سورة الحجر، رقم الآية : 26.
(37) سورة الحجر، رقم الآية : 28.
(38) سورة الحجر، رقم الآية : 33.
(39) سورة الرحمن، رقم الآية : 14.
(40) سورة يس، رقم الآية : 36.
(41) سورة هود، رقم الآية : 61.
(42) سورة النجم، رقم الآية : 32.
(43) سورة الملك، رقم الآية : 24.
(44) سورة نوح، رقم الآية : 17.
(45) سورة طه، رقم الآية : 53 - 54 - 55.

عنصر النار :

﴿قال أنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين﴾، (46)
﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾، (47) ﴿وخلق الجان من
مارج من نار﴾... (48)
دخان : ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾. (49)

الهواء، والرياح، والرياح...

﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره﴾، (50) ﴿ولسليمان الريح
عُدُوها شهر، ورواحها شهر﴾، (51) ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره
رُخاء حيث أصاب﴾، (52) ﴿وتصريف الرياح المسخر بين السماء
والأرض لآيت لقوم يعقلون﴾، (53) ﴿وأرسلنا الرياح لواقح، فأنزلنا من
السماء ماءً فأسقيناكموه﴾. (54) ﴿والله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً
فيبسطه في السماء﴾، (55) ﴿والله الذي أرسل الرياح، فتثير سحاباً
فسقناه إلى بلدٍ ميت، فأحيينا به الأرض بعد موتها، كذلك
النشور﴾، (56) ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح آيات
لقوم يعقلون﴾. (57)

(46) سورة الاعراف، رقم الآية : 12.

(47) سورة الحجر، رقم الآية : 27.

(48) سورة الرحمن، رقم الآية : 15.

(49) سورة فصلت رقم الآية : 11.

(50) سورة الأنبياء، رقم الآية : 81.

(51) سورة سبأ، رقم الآية : 12.

(52) سورة ص، رقم الآية : 36.

(53) سورة البقرة، رقم الآية : 164.

(54) سورة الحجر، رقم الآية : 22.

(55) سورة الروم، رقم الآية : 48.

(56) سورة فاطر، رقم الآية : 9.

(57) سورة الجاثية، رقم الآية : 5.

فلسفة الأرقام :

وتحديد العناصر بأربع، يرجع إلى ما كان لهذا الرقم من مكانة عند الفيثاغوريين، فقد كانت له مكانة خاصة عند الفلاسفة الطبيعيين، فكانوا لا يتكلمون عن شيء من العلويات أو السفليات، أو يكتبون عنه، إلا بكلام ذي جمل أربع، وبرسائل ذي أرقام أربع... (58)

كان فيثاغورس PYTHAGORE (59) يرى الكمال في الأعداد الأربعة الأولى، وكان أتباعه يسمون الرباعية، وكان يرى أن الأربعة أصل الأشياء، فأشياء ما بعد الطبيعة أولها الله، ودونه العقل، ثم النفس، ثم الهولي، والمكونات أربعة: هي الحيوان، والنبات، والمعدن والإنسان. (60)

وقد أدت فلسفة الأرقام بابقرات - في رأي غاليلونجي (61) GALLIANUS إلى أن يحدد أياما حاسمة بالنسبة للأمراض لمقابلتها بعض الأرقام التي لها خواص معينة... (62)

وهناك قول في الأصول الطبية عند اليونان، وهي أصول ثلاثة:

(1) نظرية الأخلاط.

(2) القوى الطبيعية السامية.

(3) الأيام البحرانية (البحران)، فنظرية الأخلاط تبنى على الاعتقاد بأن الأشياء تتكون من أربعة عناصر رئيسية، هي الماء، والهواء، والتراب، والنار...

(58) ديبور - تاريخ الفلسفة في الإسلام ص : 110 - انظر خواص العدد : «رسائل إخوان الصفا ص: 1/56.

(59) أحد حكماء اليونان، تفرغ من صغره إلى درس الحكمة، فجال يطلبها في مصر والشام وبابل، إليه يعزى تقدم الحساب المعروف بجدول فيثاغورس في الضرب. قال بتناسخ الأرواح توفي في جزيرة ساموس (نحو 600 ق، م).

(60) سانتلانا : تاريخ المذاهب الفلسفية ج : 1/143.

(61) ولد : 235، امبراطور روماني : تزين بالعلم والأدب - غاليلونجي (بول) ابن النفيس ص : 17.

(62) عالم الفكر : ج : 9، ع : 1/1978.

والجسم الإنساني مزيج متناسب من هذه العناصر، إن امتزجت امتزاجا محكما في الكيفية والكمية كانت هذه حالة الكرايس CRASIS، أي الامتزاج، ولكن إذا زاد أحد العناصر، أو نقص، أو امتنع عن الامتزاج بالعناصر الأخرى حدثت الأمراض...!

وقد أخذ ابقرات فكرة تكون الجسم الإنساني من أربعة عناصر من الفيلسوف اليوناني «امباد وقليدس» (63) EMPEDOCLE، بل إن فكرة توقف الصحة على توازن العناصر الأربعة تعود هي الأخرى إلى «امباد وقليس»... (64)

* * *

وعن الأمزجة الأربعة يقول الشيخ الرئيس ابن سينا في أرجوزته الألفية في الطب:

احكامه يعين في العلاج
وبعد، ذاك العلم بالمزاج
يُفردُها الحكيم، أو يجمع
أما المزاج، فقواه أربع
ولين ينال حس الالامس
من سخن وباردٍ ويابس

* * *

(63) ولد : 483 ؟ ق. م. من فلاسفة اليونان قبل سقراط، اضطبغت تعاليمه بصبغة دينية. وكان عالما بالطب والفيزياء، فاتهمه معاصروه بالسحر. زاد على العناصر الأربعة: «الماء، الهواء، النار، التراب» التي قال بها الفلاسفة الإيونيون عنصرين جديدين هما المحبة، والبغض اعتبرهما مصدرا لكل حركة... عرّفه فلاسفة العرب، ونسبوا إليه تعاليم صوفية ممزوجة بالأراء الفلسفية، كما تقدم في التعليق رقم : 11.

(64) الطب والأطباء / جلال محمد موسى - «عالم الفكر» مجلد : 9 / العدد الأول ص: 553 / 1978.

ونسوق، بالمناسبة لغزا في البسائط الأربعة، وهو قول الشاطبي ملغزا
في دولب السانية:

يا أيها الحبر الذي،
علم العَروض به امتزج،
بيّن لنـ_____ دائرة
فيها بسيط، وهـ_____زج.

ووجه اللغز أن البسيط، في علم العروض، من دائرة المختلف، والهزج
من دائرة المشتبه، فكيف يجتمعان في دائرة؟
وقد أجاب شيخ الجماعة بالحضرة الرباطية العلامة أبو حامد البطاوري
الشرشالي، عن هذا اللغز بقوله :

يا ملغـ_____زا في دولب
نلتَ المرادَ. ولا حـ_____رَج
فالماء منه، والبسيـ_____ط
ط، وصوته : هو الهـ_____زج

والمراد بالبسيط في اللغز الماء، لأنه من البسائط الأربعة، التي لا
تركيب فيها عند الحكماء، وهي العناصر المرموز لها بـ: «نَهْمَتْ»: النار،
والهواء، والماء، والتراب، ومنها تتركب المركبات الثلاثة: المعدن، والنبات،
والحيوان... والهزج لغةً: الصوت...

وقد وقف المحبي(65) لعلي بن أحمد بن محمد الدمشقي الشافعي
المعروف بابن بجع على مجموع بخطه فيه كل ذخيرة من نفائس الأدب
ومحاسنه، ورأى فيه من آثاره هذا الجواب عن اللغز وهو:

يا أيها المولى الذي،
علم العَروض به امتزج.

(65) خلاصة الأثر ص : 147 / 3.

بين لنا دائــــرة،

فيها : بسيط وهــــزج

قال سألني عنه بعض الإخوان، فأجبتّه بديها، بأن المراد بالدائرة الدوّلاب، وأراد بالبسيط فيها الماء، وأراد بالهزج: صوت الدوّلاب، فيكون المعنى: بين لنا دائرة جمعت بين البسيط والهزج، لا المذكورين في علم العروض، وإن ساعده قوله : «علم العروض به امتزج»، لما بينهما من البعد، إذ البسيط ثماني الأجزاء، والهزج سداسيها، وهما لا يجتمعان، قال المحبي: والمعروف أن بعض العلماء سئل عن هذين البيتين، ففكر ساعة، ثم أجاب فقال له السائل: أجبت الجواب الحق، ولكن درتَ في الدوّلاب كثيرا...

* * *

عاش الإنسان منذ القديم، وهو محاط بعناصر الطبيعة، وظواهرها المختلفة: نجوم تترجرج في أديم السماء، وسحاب متراكم، وغيث ينزل من السماء مدرارا، وشمس وهاجة تتكبد في السماء، ورعد قاصف يصك الأذان، وريح صرصر عاصف عاتية يقتلع جذوع الشجر... كل هذه الظواهر كان يقف الإنسان أمامها حائرا، لا يدرك كنهها، ولا حقيقة العلاقة التي بينه وبينها، فاشتط به الخيال، وتصور أن فيها، أو وراءها قوى حية، يمكن أن تصيبه بشر مستطير، أو خير نافع، ثم راح يغلو به الخيال، حتى جعل لكل مظهر من مظاهرها إلهًا، في زعمهم، في الغالب... ونتيجة لهذا المفهوم الميثولوجي صار يعبدها، ويتقرب إليها طمعاً في خيرها، ودفعاً لشرها...

* * *

فالإنسان الأول كان يرى عناصر الطبيعة وظواهرها حية مثله تماما، ولذلك راح يتقرب إليها، ويطلب ودها، ويمكننا أن نجد هذا المفهوم مثلا،

في قصيدة لأحد البابليين، وهو يخاطب: نهر الفرات في تعويذته طالبا منه البرء من مرضه، وراجيا منه الرحمة في ما أصابه، مما يدل على تصور هذا الشاعر لوجود حياة أو قوة في النهر، يمكن أن تنفعه في إزالة ما به من الأسقام، فهو يطلب إليه أن يفرج غمته، ويتقبله برأفة، وأن يَرْمِي ما في جسمه من الأوجاع، بين شطآنه، وأن يغرق في أعماقه ما به من تلك الآلام... فهو يقول:

تعويذة - يا أيها النهر، يا خالق كل شيء...
حينما حفرك الآلهة العظام.
أقاموا لك أشياء طيبة على شطآنك...
وفي طيات عُمرِكَ، بنى «أيا» (66) ملك العمر مقامه...
وأنعموا عليك بفيض من المياه لا نظير له...
والنار والغضب، والجلال والرغبة.
قد وهبها لك «أيا» و«مردوخ» (67).
وأنت الذي تقضي في قضايا الناس.
فيا أيها النهر العظيم... أيها النهر المجيد... يا نهر المعابد المقدسة...
مياهاك تفرج الغُمة، فتقبلني برأفة...
وخذ ما في بدني، وارم به على شطآنك...
وغرقه عند ضفا فك، وغطسه في أعماقك (68)

* * *

(66) «أيا» : رب المياه في زعمهم.

(67) مردوخ : إله المريخ في زعمهم.

(68) مجلة : «سومر» م : 5. ج : 2 / 1949 ص : 201، للأستاذ طه باقر، وبشير فرنسيس.

إن إزالة الخطايا بواسطة الماء من مظاهر المذهب الحيوي، فقد كان هذا المفهوم معروفا لدى كثير من الأمم القديمة، إذ كان الرومانيون يعمدون⁽⁶⁹⁾ أولادهم بالماء، ويرون إن العمادة واسطة لازالة الخطايا.⁽⁷⁰⁾ وكان المكسيكيون يعمدون أولادهم بدهن أفواههم، وصدورهم بماء، ويتوسلون بآلهتهم كي تسمح لنقط الماء أن تزيل الخطيئة التي لحقت بالطفل، قبل تكوين العالم، لكي يلد الولادة الثانية.⁽⁷¹⁾

* * *

وإننا لنرى في الأساطير البابلية التي تصف إله الشمس، في زعمهم، بأنه «قدير» وأنه نور «جلجامش» وأتمه، ذلك الكوكب الذي كان سيد القوى الطبيعة⁽⁷²⁾ في الأساطير المصرية سببا في انبثاق النيل الذي يحيي الأرض، ويسقى الزرع، حتى إن «امنحتب» الرابع ينشد مخاطبا إياه :

يا شمس النهار، يا من تخشاه البلاد القاصية...

أنت موجه حياتهم...

أنت الذي خلقت في السماء نيلا...

لك تنزل عليهم ولهم...

يتساقط الفيضان على الجبال كالبحر الزاخر

فيسقى مزارعهم وسط ديارهم

ما أبدع تدابيرك يا إله الأبدية⁽⁷³⁾

* * *

(69) عمّد الولد : غسله بماء المعمودية، وهي أول أسرار الدين المسيحي، وباب النصرانية، وهي غسل الصبي وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس، واللفظة سريانية الأصل، أو مولدة مأخوذة من العمّد أي البلل.

(70) «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» ص : 127، محمد طاهر التنير...

(71) المصدر السابق ص : 128.

(72) محمد الحوت : «في طريق الميثولوجيا عند العرب» ص : 93.

(73) الشعور الديني عند الطفل...

ونجد الماء قديما في الفكر البابلي، هو إله ومادة في الوقت نفسه... ويتبين ذلك لنا من بعض أساطيرهم، وهي قصة «الخلقة» فهذه الأسطورة تقول: بأنه في البدء كان الماء، ولا شيء قبله، فهو العماد المظلم الذي قُصل بعد ذلك إلى سماء وأرض...

وهذا الإله المزعوم : الماء مؤلف من عنصرين هما : «الماء العذب» وهو العنصر المذكور، و«الماء الأجاج» وهو العنصر المؤنث... وقد جسم البابليون هذين العنصرين وجعلوهما إلهًا، وإلهة، هما: «أبسو» (74) «تيامة» وعدوهما أصل جميع عناصر الطبيعة... (75)

ولقد عبر الشاعر البابلي في قصة الخلقة عن هذا المفهوم بقوله :

حينما في العلا، لم يكن للسماء اسم
وفي الدنى لم تكن الأرض شيئاً مذكوراً...
ولما لم يكن في البدء غير «أبسو» أبوهم...
والأم «تيامة» التي ولدتهم جميعاً...
ولم تكن اليابسة، ولا ضحضاح يرى
ولم يكن أي من الآلهة قد ولد بعد.
بل، ولا ذكرت أسماؤهم، ولا كتبت مقاديرهم
ثم خلقت الآلهة في وسطها... (76)

ويشبه هذا المفهوم ما رآه المصريون القدماء، فالعالم عندهم، عيلم واسع من الماء طفت عليه بيضة خرج منها رب الشمس، (77) ومثله أيضا مفهوم الهنود القدماء في أصل العالم وتكوين الخلقة. (78)

(74) أبسو : تيامة : إلهان في زعمهم، ويمثلان المياه الأولى، وتغلب «مردوخ» عليهما في الحرب بين الجيلين من الآلهة، وتيامة يعني البحر في اللغة البابلية... انظر رقم : 100 من هذا البحث.

(75) مجلة : سومر : م 5/ ج 1 / ص : 8 / طه الباقر.

(76) قصة الخلقة البابلية - ترجمة طه الباقر، وبشير فرنسيس م : 5/ ج 1 / ص : 11، 12 - الرقم الأول الأبيات من : 1 - 9.

(77) عباس محمود العقاد : كتابه : الله - ص : 52.

(78) العقاد : «الله». ص 63، الملل والنحل 2/ 122 للشهرستاني.

ويتبين من الأساطير القديمة أن الماء غير مخلوق في معبدهم دول الحضارات الأولى... (79)

* * *

ومفهوم الماء ارتبط بالإحياء، كما ارتبط بالإماتة في الفكر القديم، وليس الإحياء هنا هو الإحياء الذي نفهمه نحن الآن من إطلاق اللفظة، وكذلك الإماتة، فإنها لا يقصد بها في ذلك المفهوم الإغراق مثلاً، بل يراد بالإحياء، الإحياء الأبدي، أو الخلود الذي يسببه الماء للإنسان... ويقصد بالإماتة، انقطاع حياة الإنسان بمجرد ملامسته للماء، ويفهم، مثلاً، من إحدى الأساطير البابلية، أن استعادة الحياة حصل بواسطة ماء عجيب، أطلق عليه في الأسطورة: «ماء الحياة». ونفهم من الأسطورة أنه تسبب في إحياء إحدى الآلهات المسماة «إينانا»، إذ بعثها من الموت بمجرد أن لامس جسدها بعد بثره عليها...

وتروي الأسطورة أن إلهين من الآلهة؛ في زعمهم، قد قاما بهذه العملية العجيبة، فالأسطورة تقول في عدد من أبياتها:
نثرا ستين مرة طعام الحياة....
وستين مرة ماء الحياة...
لقد قامت «إينانا».

وصعدت : إينانا «من العالم السفلي». (80)

والعالم السفلي الذي تتحدث عنه الأسطورة هو عالم الأموات، الذي تصوره الأساطير البابلية بأنه تحت الأرض في مكان سحيق، «وإينانا» هذه هي «عشتار» كانت قد نزلت إلى العالم السفلي، أو عالم الأموات، فأسرته

(79) «الطبيعة في القرآن الكريم». د. كاسد ياسر الزبيدي ص : 29.

(80) مجلة سومر : م : 10 / ج : 1 / ص : 18.

أختها، ثم جعلتها جثة هامدة بعد ذلك، ولم تستطع النجاة من هذا الموت إلا بماء الحياة، وطعام الحياة.

أما الخلود بسبب الماء، فيفهم من إحدى الأساطير العربية قبل الإسلام... إذ تروي تلك الأسطورة أن الملك ذا القرنين كان يفكر في أن يملك الأرض ومن عليها، وأنه وَصَلَ إلى «عين الحياة» ليشرب الماء الذي يهبه الخلود، غير أنه منع من ذلك، فلم يخلد. (81)

فالمياه الأولى، والصراع والاحتراب بين الإلاه : «مردوخ» وبين «تيامة» و«أبسو»، وهما الإلاهان اللذان يمثلان المياه الأولى... وتغلب مردوخ عليهما في الحرب بين الجيلين من الآلهة... (82) كما يزعمون.

لقد كانت عدة قوى متصارعة ومتحاربة فيما بينها، ولذلك، فإن بوسعنا أن نستشف من وراء الإطار الأسطوري لرواية الخليقة البابلية أحوال العراق القديم، ولا سيما الأحوال الجغرافية في بداية تكوين أولى الحضارات البشرية...

فقيامة ربة الأغوار هي «البحر» ذلك أن اسم: «تيامة» يعني البحر في اللغة البابلية، (83) وهي قريبة من «التَّهْمَة» التي تعني: الأرض المتصوبة إلى البحر في العربية. (84)

* * *

وقد اقترن الماء بالتصور الإنساني القديم بالصفات الميثولوجية التي أضفاها عليه الإنسان الأول، نتيجة لما يراه من نفعه أو خيره أو اتساعه وشموله...

(81) «الأساطير العربية قبل الإسلام» ص : 34، محمد عبد المعيد خان، وانظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي في قوله تعالى: في عين حمئة... ووجد عندها قوما» ص : 49 - 50 / ج : 11.

(82) «مقدمة في تاريخ الحضارات الأولى» طه باقر، ص : 457 - 458 / 1.

(83) المصدر السابق ص : 458 / 1.

(84) القاموس المحيط - ولسان العرب - مادة تهم.

فتصوره شيئاً قائماً بذاته في الوجود غير مسبوق بقوة يمكن أن تكون سبباً في وجوده، ولذلك حسبته ازلياً... فالماء في تصور الإنسان القديم يمكن أن يكون سبباً في إحياء الميت، وإعادة الحياة إليه من جديد، ويمكن أن يكون سبباً في مواصلة الحياة وتجديدها وذلك هو الخلود...

التصور الميثولوجي للماء عند العرب

لم تكن طائفة من عرب الجاهلية بمنأى عن التصور الميثولوجي للماء، فقد قدسوا مواطن المياه القديمة، وتصوروا أن فيها سراغامضا، فكأنها كانت في تصورهم مواطن الآلهة أو الأرواح، وكانوا إذا غُمَّ عليهم أمر الغائب جاؤا إلى بئر قديمة بعيدة الغور، ونادوا ثلاثاً... يا فلان!!... فإذا كان ميتاً، لم يسمعوا في اعتقادهم صوتاً، قال شاعرهم معبراً عن هذا المفهوم :

دعوتُ أبا المغوار في الحَفَرِ دعوةً
فما آخَ صوتي بالذي كنتُ داعياً
أظن أبا المغوار في قعر مظلم،
تجر عليه الذارياتُ السوافيا

وقال آخر : (85)

وكم ناديته في قعر ساجٍ
بعادي البئر فما أجابا

وقال ثالث :

الم تعلمي أني دعوت مجاشعا
من الحفر والظلماء باد كسورها (86)
فجاوبني حتى ظننتُ بأنه
سيطلع من جوفاء صعب حدورها

* * *

(85) «بلوغ الأرب، في معرفة أحوال العرب» محمود شكري الألوسي ص : 3/3.
(86) البلاذري. فتوح البلدان / 48. - والكسور : الأرض ذات صعود وهبوط والجوفاء : شجرة ذات جوف، وأراد بها البئر التي صاح ونادى فيها.

كان العرب في فجر تاريخهم البعيد ينظرون إلى المياه نظرة تقديس، لأنها مورد الخصب والنماء، وواهبه البركة والخير، فكانوا ينشدون الأراجيز في أثناء حفر الآبار، ويتبين من الأراجيز التي وصلت إلينا، أن نار المنافسة اشتعلت بين بطون قريش المختلفة، كي يحفر كل بطن منها بئراً خاصة به، ويسقى منها حجاج مكة، فقد حفر قصي بن كلاب أبو القبيلة كلها بئراً سماها العجول، وفيها يقول بعض رجاز الحاج:

نُروى العَجُول، ثم ننطلق
قبل صدور الحاج من كل أُفُق
إن قصيا قد وَفَى وقد صدق

بالشبع للناس، وريّ مُغْتَبَق
بل نظم كل فريق منهم الأراجيز التي تثني على بئره، وتمدح وتقديس ماءه، وقد تعيب ماء غيره من الآبار... حتى إننا نجد بينها ما يشبه النقائض المعروفة، فاكتمى بنوسهم، وبنو عدي، بوصف آبارهم بغزارة الماء، قال شاعرهم: (87)

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا
بحرا يجيش مأؤه غزيرا

ولعل الحرمان، وندرة المياه، وجذب الأرض، هو الذي جعلهم يبالغون في تقديس الماء، وتقدير الخصب، ويرون له رونقاً خاصاً في هذه البيئة الجرداء، ومن هنا وجدنا القصص الطويلة التي دارت حول الآبار والمياه، وما ورد حول حفرها من روايات دليل على ما ذكرنا. (88)

بل إنهم قدسوا مواطن الماء القديمة، واعتقدوا فيها أسراراً غامضة، وأضفوا عليها من القوى الخفية ما لم يصفوه على غيرها من الأماكن، حتى

(87) البلاذري، معجم البلدان / 49 وسيأتي هذا الموضوع في الباب السابع عشر من هذا الكتاب.

(88) ابن هشام - السيرة - ص : 1/154.

إِذَا غَمَّ عَلَيْهِمْ أَمْرُ الْغَائِبِ، جَاؤُوا إِلَى بَيْتِ قَدِيمَةٍ، بَعِيدَةِ الْغُورِ، وَنَادَوْا يَا
فُلَانُ أَوْ أَبَا فُلَانٍ كَمَا قَدَمْنَا أَنْفَاءً. (89)

وافتخرت بها بنو مناف على قريش كلها، وعلى سائر العرب، فقال
مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو يفحز على
قريش بما وَلَّوْا عليهم من السقاية والرفادة: (90)
ورثنا المجد من أبنا

ثنا، فنمى بنا صعدا
ألم نسق الحبيج وننحـ
ر الدلالة الرقدا
وزمزم في أرومتنا
ونفقا عين من حسدا

* * *

نُدْرَةُ الْمَاءِ كَانَتْ سَبَبًا فِي خَلْقِ الْخُرَافَاتِ وَالْأَسَاطِيرِ :

وندرة المياه وقلتها كانت سببا من أسباب خلق الخرافات والأساطير
وكثرتها حول هذه الندرة وأسبابها، ولهذا وجدنا حكاية التضرع والدعاء
للمطر، والروايات والأخبار التي تتحدث عن سنوات الجذب التي حلت
بأرض الحجاز وعروضها منشورة في مصادرنا القديمة... (91) وكذلك
وجدنا حكاية نار الاستمطار، وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في
الجاهلية، وما حيك حولها من أساطير، فقد كان العرب يزعمون أنه إذا
أمسكت السماء قطرها، ومنعت دَرَّها، وتتابعت عليهم الأزمات، وركد عليهم
البلاء، واشتد الجذب، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا، وجمعوا ما قَدَرُوا

(89) «الطبيعة في الشعر الجاهلي». للدكتور نوري حمودي القيسي ص : 47.

(90) ابن هشام، السيرة. ص : 1/164.

(91) انظر صفة جزيرة العرب للهمذاني / 214 (لیدن 1884).

عليه من البقر، ثم عقدوا في أذنابها، وبين عراقبيها السلع والعشر، (92) ثم
صعدوا بها في جبل، واشتعلوا فيها النيران، (93) وضجوا بالدعاء والتضرع،
فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا، ولذلك قال أمية بن أبي الصلت، (94)
إن صح أنها له:

سنة أزيمة تخيل بالنا
س، ترى للعضاه فيها صريرا
إذ يسفون بالدقيق وكانوا
قبل، لا ياكلون شيئا فطيرا
ويسوقون باقراً (95) يطرد السهل
مهازيل خشية أن يبور
عاقدين النيران في شكر (96) الأذنا
ب، عمدا كيما تهيج البحورا
فاشتوت كلها، فهاج عليهم
ثم هاجت إلى صبير صيرا (97)
فراها الإلاه ترشم بالقطر
وأمسى خيامهم ممطورا
فسقاها نشاصه (98) واكف الغيث
منه، إذ رادعوه الكبير

(92) السَّلْع، والعُشْر : ضربان من الشجر، كان العرب يأخذون حطبهما للغرض الذي ذكرنا.

(93) حياة الحيوان الكبرى للدميري ص : 1/150.

(94) الجاحظ - الحيوان ص : 4/466.

(95) الباقر : البقر.

(96) الشكر جمع شكير، وهو الشعر القصير بين الشعر الطويل.

(97) الصبير : السحاب يثبت يوما وليلة ولا يبرح.

(98) النشاص : السحاب المرتفع.

سلع ماء، ومثله عشرين،
عائل ماء، وعالت البيقورا (99)

* * *

الواقع أن الإنسان لم يتفطن طَوَّال حياته إلى أهمية المياه الكبرى، فقد كان يعتبره هبة من الهبات الطبيعية التي لا تنضب ولا تغور أبداً، وأخيراً بدأ يعي أهمية هذا المصدر الحيوي الخطير، فاعتبره أحد العناصر الأربعة الكيميائية، وواحداً من عناصر الحياة المهمة...
وفي تأليه الماء وعبادته، أشار المرحوم أمير الشعراء أحمد شوقي إلى هذا المعنى بقوله:

دين الأوائل فيك دين — روعة
لَمْ لَا يُؤْلَهُ مِنْ يَقُوتٍ وَيَرْزُقِ ؟
لو جن مخلوقاً يُؤْلَهُ لم تكن
لسواك مرتبة الألوهة تُخلق
جعلوا الهوى لك، والوقار عبادة
إن العبادة خشية وتعلق

* * *

ومن عجائب العقول، وتناقضها، فإن طائفة تعبد الماء من دون الله، وتسمى: «الهللانية» وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء، وبه كل ولادة، ونموً ونشوء وطهارة وعمارة... وما من عمل في الدنيا إلا يحتاج إلى الماء...

ومن شريعتهم في عبادته، أن الرجل منهم، إذا أراد عبادته، تجرد، وستر عورته، ثم دخل فيه، حتى يصير إلى وسطه، فيقيم هناك ساعتين

(99) البيقور : بمعنى البقر... عال الشيء فلانا ثقل عليه، يقول : أثقلت البقر بما حملته من السلع والعُشْر. [حياة الحيوان للدميري ص 1/150، الطبيعة في الشعر الجاهلي] ص: 66. - وانظر بحثاً مهماً جداً في موضوع السلع والعشْر في: «خلاصة الأثر» للمحبي ص: 382 - 2/383.

أو أكثر، بقدر ما أمكنه، ويكون معه ما يمكنه أخذه من الرياحين، فيقطعها صفارا، فيلقِيها فيه شيئاً فشيئاً، وهو يسبِّحه ويمجده، فإذا أراد الانصراف، حرك الماء بيده، ثم أخذ منه، فيضعه على رأسه وجسده، ثم يسجد وينصرف(*) قال ابن قتيبة في كتاب المعارف :

وكانت المجوسية في تميم، منهم زرارة بن عدس التميمي، وابنه حاجب بن زرارة، وكان تزوج ابنته، ثم نديم، ومنهم الأقرع بن حابس، كان مجوسياً، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان كان مجوسياً...

* * *

وفي روع الشعوب السامية القديمة أن الأرباب (100) لها بيوت تستقر فيها، هي الواحات، ومواضع المياه في الغالب في نظر أهل الوبر... (101) وقد اعتقد اليونانيون أن «زيوس» ZEUS (102) كبير آلهتهم هو إله الرعد والبرق، وأخاه «يوزيدون» إله العواصف والبحار، أما الرياح الغربية فكان إلهها «زفيروس»، ويخبرنا «تيرتوليان» (103) TERTULLIEN وهو واحد من آباء المسيحية القدامى أن اتباع: «إيزيس» و«متراس» كانوا يبدأون الانضمام إلى عقيدتهم بالتعميد من ينبوع، وأن الناس في عبادات «أبولو» «واليوزيس» الخاصة كانوا يعمدون، وهم يفكرون في الخلاص والتحرر من وزر الحنت في إيمانهم ويقول أيضاً: كان أيُّ شخص من القدامى يلطخ يديه بالقتل يذهب للبحث عن الماء الذي يمكن أن يطهره من ذنبه...

(*) بلوغ الأرب - محمد شكري الألوسي ج : 2 / 235.

(100) لم تختلف الآلهة، في نظر الاغريق عن البشر كثيراً، فهي ذات أبدان مثلهم، وإن كانت أجسامها أكبر، وأبدع صنعا... وهي مخلوقة مثلهم، وتخوض الحروب بدافع الجشع أو الحسد، ولأسباب أخرى لا تختلف كثيراً عن الأسباب التي تؤدي إلى إشعال نيران الحروب بين بني الإنسان... وآلهة اليونان لا تتدخل في شؤون البشر الا بقدر محدود.

(101) «تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جواد علي. ص : 214 / 5.

(102) اعتقد اليونانيون أن زيوس كبير آلهتهم، هو إله الرعد والبرق.

(103) «تيرتوليان» كان داعياً للمسيحية، وأول كاتب مسيحي باللغة اللاتينية، ولد (155 م. ت 222 م) إلا أن تعصبه آل به إلى الألحاد، كان له دور مهم في تكوين اللغة اللاهوتية اللاتينية.

وبلغ من تمسك اليونانيين بتلك المعتقدات، وتصديقهم إياها، أنهم كثيرا ما أمضوا الساعات الطويلة، وهم يصلون لتلك الآلهة لعلها تفرق أعداءهم بمياه الأمطار، أو تفرقهم، وتفرق شملهم بالبرق والرعد، وما إلى ذلك... جاء أرسطو، فسَفَّ أحلامهم، كما هو معلوم...

* * *

تقديس الأفارقة للماء :

يحدثنا التاريخ أن الأفارقة القدماء، قدسوا البحار والأنهار، والسلافيين اعتقدوا بوجود الأرواح في الينابيع والعيون، والهنود الحمر، والمتوحشون في مناطق: «كلومبيا» «وماياس» «وأكناس» و«قبيلة «سيو»، فقد كانوا يقدمون عدة قربان لآلهة المطر والبحيرات ومازال الهنود يتطهرون بمياه «الكانج»، مما يدل دلالة قطعية على رسوخ عبادة المياه في نفوسهم... فهذا النهر هو أقدس الأنهار بالنسبة إلى الهنود، وفي كل عام يذهب آلاف الحجاج منهم إلى «الله آباد» «وبيناريس»، لإزالة خطاياهم بالاستحمام في مياهه المقدسة...

وقد أشاروا أنه في الهند تبدأ أولى خطوات الزواج بتقديم برج ميلاد العريس لأسرة العروس لحساب نجم، ورؤية طالعها، فإذا ثبتت حسابات النجوم صلاحية العريس، تعقد الخطبة، وتغسل قدما العريس بالماء المقدس، وتناولته العروس ثمرة جوز الهند تفاؤلا بحياة زوجية سعيدة... وفي ليلة الزفاف يذهب العريس إلى قاعة الاحتفال في موكب من مواكب الخيول، ثم يتناول العروسان عقود الورد، ويقوم أحد الشباب من الأسرة بربط ملابس العروسين ربطا جيدا، يؤدي إثره العروسان رقصة دائرية، وحينما يذهبان في نهاية الحفل إلى بيت الزوجية، تقوم العروس بقلب إناء الأرز الموضوع على باب الشقة تفاؤلا بحياة سعيدة...

وقد أشار ابن بطوطة، في رحلته، إلى تقديس الهنود لنهر «الكنج»، وهو الذي إليه يحجون، وهم يقولون إنه من الجنة، وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه، يقول لمن حضره، لا تظنوا أنني أغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا، أو لقلة مال، وإنما قصدت التقرب إلى «كساي»، اسم الله عز وجل بلسانهم، ثم يغرق نفسه، فإذا مات أخرجوه، وأحرقوه، ورموا برماده في النهر المذكور...

وفي يوم الثلاثاء 18 - 2 - 92 لقي مائة شخص مصرعهم خلال احتفال ديني تقيمه طائفة الهندوس، مرة كل اثني عشر عاماً، وقد وقع الحادث أثناء قيام حوالي خمسة ملايين من الهندوس بالتسابق على الاستحمام في مياه بحيرة «كومبركونام» المقدسة لديهم، والتبرك بمياهها، كأحد الطقوس الهامة في هذا المهرجان الديني الكبير.

* * *

تسربت هذه العادة إلى العرب، فقد كانت القابلة عندهم تغرق المولود في «ماء السلى» عام القحط، ذكراً كان أو أنثى، حتى يموت، وإلى ذلك أشار الشاعر الجاهلي الأعشى قيس بن مسعود الشيباني:

أَطَوْرَيْنِ فِي عَامِ غَزَاةٍ وَرَحْلَةٍ
أَلَا لَيْتَ قَيْسًا غَرَّقَتْهُ الْقَوَابِلُ
وَالْتغْرِيقُ هُوَ الْقَتْلُ، (104) وَمِنْهُ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ :
إِذَا غَرَّقْتَ أَرْبَاضَهَا تَنْبِي بَكْرَةٍ
بَتِيهَاءَ، لَمْ تُصْبِحْ رَوْوَمَا سَلُوبُهَا (105)

* * *

(104) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ج : 1 / 388 - 389.

(105) الأرباض : الحبال - البكرة : الناقة الفتية. - ثنيها : بطنها الثاني، وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب.

العَرَافَة في دلتا النيجر :

في أواخر عام 1984 عقدت في : «مدرسة لندن للدراسات الشرقية» حلقة دراسية عن «العَرَافَة في دلتا النيجر»، وكان المتحدث في هذه الحلقة أحد الدارسين الأفارقة من قبيلة «الايجو» التي تسكن في المنطقة، وقد عرض الباحث الموضوع ضمن إطار من الثقافة والنظم الاجتماعية التي تسود هناك، وأعطى بعض المعلومات الإنسانية عن تلك القبيلة التي يصل تعدادها إلى حوالي نصف مليون نسمة، يكاد نشاطهم الاقتصادي ينحصر في صيد السمك من الجداول والأنهار حول «دلتا النيجر»... وقد أوضح الكاتب، كيف ينظر الناس هنالك إلى مجاري المياه في شيء من الرهبة التي تصل إلى حد التقديس، ليس فقط للدور الاقتصادي الذي تلعبه في حياتهم، ولكن أيضا، لأنها هي مأوى أرواح الماء التي تسيطر على حياتهم، والتحكم في حظوظهم وأقدارهم، وتقضي بما يصادفهم من خير أو شر، ولذا... يحرص «الايجو» على التقرب إلى أرواح الماء بالأضحيات والقربان في مناسبات معينة حتى تشملهم برعايتها، وتبعد عنهم الشر والأذى، ويشرف على هذه المراسيم والطقوس فئة من العرافين الذين يتمتعون بمكانة دينية واجتماعية عالية باعتبارهم الوسطاء بين مجتمع البشر، ومجتمع الأرواح... (106)

* * *

عين بادَحَاني :

كانت هذه الموضوعات تحظى دائما بإقبال الباحثين ليس فقط لطرافتها وغرابتها بالنسبة للقارئ الغربي، وإنما، أيضا، وهذا هو الأهم، لأنها تعطي صورة واضحة عن طريقة تفكير الإنسان الإفريقي، ونظرته إلى الحياة

(106) «عالم الفكر» مج : 18 - ع : 4 - يناير - فبراير - مارس 1988.

والكون، وأسلوب تعامله مع الظواهر الطبيعية، والكائنات المختلفة التي
تعمر الكون.

وفي الصين يزور موكب من الناس أحد الينابيع في عيد منتصف
الخريف، ويركعون حوله، في دائرة شاكرين الماء على إحيائه
لمحصولهم...

يقول صاحب : «تحفة الغرائب» (107) حسبما نقله زكريا القزويني في
كتابه : «عجائب المخلوقات» : إن هناك عيناً تسمى بعين : «بادحاني» إذا
أراد أهل الضيعة هبوب الريح عند الدياس لتنقية الحبوب، أخذوا خرقة
الحيض، ورموها في تلك العين، فيتحرك الهواء، ومن شرب من مائها،
ينتفخ بطنه، ومن حمل معه شيئاً من ذلك الماء إذا فارق منبعه يصير
حجراً... (108)

ونجد في تاريخ العبرانيين القديم أسماء آبار عديدة نظر إليها نظرة
تقديس، كما كانوا يعمدون المنضمين إلى دينهم قبل ظهور المسيحية
بوقت طويل، كما اتبعت كثير من الديانات الأخرى طقوساً مشابهة...

* * *

وقد كان القدماء يرون في أعماق الآبار والينابيع قوى خفية مؤثرة
تمنح مياه تلك المواضع قدسية خاصة... وقد أدت قدرة الماء على
تنظيف الأجسام البشرية، والأشياء المادية، منذ أقدم العصور، إلى جعله
رمزاً عاماً، ووسيلة شائعة للتطهير، وللطقوس الدينية الخاصة بغسل
الذنوب...

(107) «تحفة الغرائب» فارسي للمولى علمشاه عبد الرحمن ابن صاجلي أمير، (ت 987هـ) وهو كتاب
في خواص الأشياء، وأنواع الحيل، مشتمل على خمسة وثلاثين باباً [كشف الظنون ص
1/371].

(108) عجائب المخلوقات للقزويني ص : 295.

والواقع أننا مازلنا نرى هذا التقديس باقيا حتى الآن عند كثير من الشعوب حتى الأنهار... منها أنهار مقدسة يحج إليها ليغتسل فيها، وليتطهر أصحابها، ويدفعوا عنهم النجاسات، وليس هذا التقديس للمياه... ولكن للقوى الخفية التي كان القوم يتصورون وجودها في هذه المياه، والتي تظهر في بعث الحياة للأرض الميتة، وللإنسان نفسه، فلو لا الماء لمات بالطبع كل مخلوق حي... (109)

* * *

آبار وينابيع مقدسة في البلاد العربية :

إننا لنرى كثيرا من الأماكن المقدسة قد أقيمت في جزيرة العرب عند الينابيع والآبار حيث تروى الأرض بالماء، فتتمو به المزروعات، ويستقي منه الناس، وقد صور هذا الخصب لسكان تلك المناطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين، كانت السبب في نظرهم في بعث الحياة للإنسان، ولهذه الأرض... (110)

وفي الأخبار المروية عن الجاهليين وغيرهم من تقديس بعض الآبار والعيون والجداول والتبرك بشرب الماء، دليل على نظرة التقديس التي نظرتها الشعوب السامية وغيرها إلى الماء...

وقد أثارت الوديان العميقة في نفوس العرب الهواجس والتصورات لتفردهم في السير فيها، وإذا استوحش الإنسان، تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب، وتفرق ذهنه، وداخلته الظنون، ومثلت له الأشخاص فكانت حكايات الجن، وماحيك حول عزيقها من أساطير... فكانوا يتصورون أشكال الجن، ويسمعون أصواتها، ويحسون بها، وهي

(109) «تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جواد علي ص : 5/167.

(110) المصدر السابق ص : 6/406.

تتشكل بأشكال الحيوانات، وقد حفل الشعر بأمثال هذه الحكايات، وخاصة إذا توسطوا الصحراء والوديان والمهامه المقفرة... (111) قال زهير: (112)

وبلدة، لا تُرام، خائفة
زوراء مُغبرة جوائبها
تسمع للجنّ عازفين بها
تضبح من رهبة ثعالبها
يصعد من خوفها الفؤاد ولا
يرقد بعض الرقاد صاحبها
وقال بشر بن أبي حازم: (113)

وخوق تعزف الجنان فيه
فيافيه، يطير بها السهام
وقال الأعشى الأكبر: (114)

ويهماء تعزف جنانها
مناهلها، آجنات سُدُم (115)

وقال لبيد بن ربيعة: (116)
غُلِبَ تَشَذُّرُ بالذخول، كأنها
جنّ البديّ، رواسياً أقدامها (117)

(111) «الطبيعة في الشعر الجاهلي» د. نوري حمودي القيسي ص : 33.

(112) الديوان 265.

(113) بشر : الديوان / 203.

(114) «الروائع» منتخبات شعرية / فؤاد افرام البستاني ص : 42 / الديوان : 37.

(115) اليهماء : الفلاة لا يهتدى فيها. - الجنان : الجن. - آجنات : الأجن والأجن : الراكذ المتغير طعمه ولونه ورائحته. - مياه سُدُم : متغيرة من طول المكث.

(116) «الروائع» رقم : 24 ص : 13 - الديوان / 317.

(117) غُلِبَ : خبر لمبتدأ محذوف راجع إلى : «غرباؤها» أي هم غلب. والأغلب : الغليط الرقبة، وهي من صفات الأسد، تشذر : تتوعد وتهود... الذخول : ج : الدخل : الحقد. البديّ : اسم واد لبني عامر، يزعمون أنه فيه تتخاصم الجن - يقول : هؤلاء رجال غلظ الرقاب كالأسود يتهددون بعضهم بعضا بسبب العداوات كأنهم جن وادي بديّ في حال ثبوت أقدامهم في الخصام.

ولابد أن تكون هذه النظرة التقديسية هي التي حملت الجاهليين على تقديس، بئر زمزم ولا يقدر أهمية البئر حق قدرها إلا قُطَّانٌ هذا البلد الكائن في واد غير ذي زرع وماء...

فقد حفر بنو عبد شمس خُماً ورُماً والطَّوى... وحفر بنو أسد شُفَيْةً، وحفر بنو عبد الدار أم أحراد... وحفر بنو جمع السنبلة، وحفر بنو سهم العَمر، وحَفَرَ بنو عدي الحفير... (118)

وما تلك النظرة التي نظرها أهل مكة إلى «السقاية» إلا صفحة من صفحات ذلك التقديس الجاهلي للماء، فقد كانت للسقاية منزلة محترمة في مجتمع مكة...

وما «ماء بئر زمزم» إلا دليل من هذه الأدلة، فقد انصرف إليها الناس لفضلها على سواها من المياه، لجلال قدرها، وكان يتمثل بشرفها على سائر المياه... فكانوا يتفاخرون في المقام عليها، والشرب منها، والاعتسال بها لمكانها من المسجد الحرام، ولأنها بئر إسماعيل عليه السلام، (119) وقد بلغت منزلة من يشرب منها درجة الشرف والفخر، حتى قال الأعشى يهجو رجلاً ويؤنبه ويخبره أنه مع شرفه لم يبلغ مبلغ قريش الذين هم مكان حرم الله، ولهم حظ الشرب من زمزم... (120)

* * *

وليس الاعتقاد في مثل «ماء زمزم» خاصاً بالمسلمين، فإن للهند اعتقاداً عظيماً في نهر «الكانج»، وبحيرة «مادن»، والنصارى يعتقدون في ماء الأردن الذي يبعد بنحو 20 كيل إلى شرق بيت المقدس، ويسمونه «نهر

(118) انظر ابن هشام ص: 159 - 1/62، والبلاذري فتوح البلدان ص: 49. وقد ألف ابن الأعرابي كتاباً في «البئر» مخطوط في مكتبة الدراسات الإسلامية ببغداد، ولم يشر إليه بن النديم في الفهرست، ومنه نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي.. كما ألف أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم، نديم المتوكل كتاباً في أسماء الجبال والمياه والأودية..

(119) انظر الثعالبي: ثمار القلوب ص 444 - وانظر ياقوت: زمزم.

(120) ديوان الأعشى ص: 123.

الشریعة»، لذلك ترى حجاجهم یذهبون إلیه، ویبتركون بالاستحمام به فی المكان الذی تعمد فیهِ المسیح، ویأخذون من مائه فی أنیه من الصفیح یتهادون بها عند عودتهم إلی بلادهم، وأكثر النصارى اعتقادا فی ذلك الروسیون والاقباط، أما الافرنج، فاعتقادهم فی ماء لورده Lourdes فی جنوب فرنسا لا یقل عن اعتقادهم فی ماء الأردن...

فنهر الأردن ینساب من بحر «الجلیل» حتی بحر المیت مسافة طولها سبعون میلا، ولكن مجراه المتعرج یزید هذه المسافة إلی حوالي المائتی میل، وهو نهر صغیر جدا... ولكنه النهر الوحید فی فلسطین الذی یتحق هذا الإسم، وقد نظر المسیحیون المخلصون إلی ماء هذا النهر، طوال قرون عدیده، علی أنه یتمیز بقدرة خاصة علی التطهر والشفاء، وذلك لأنه كان فی الأراضي المقدسة، ولأنه ذكر كثیرا فی الإنجیل، وخاصة لأن السید المسیح عمد فیهِ، وقد ظل الحجاج، كما ذكرنا سابقاً، یحملون میاه الأردن فی الزجاجات والقواریر إلی جمیع أرجاء العالم.

* * *

فالماء یعد مقدسا، لا سیما إن كانت ینابیعه من أرض مقدسة، لذلك یتبرک به، ویستشفی بالشرب منه.

وكانت فی المعابد سقايا، یتقی منها للشرب والتطهر، كانت تغسل الأوجه والأیدی والأرجل بالماء لیسمح للزائر بدخول المعبد، أو لتحل له إقامة الشعائر الدینیة...

وكان علی کل یزیدی، اشترى ثوبا جدیدا، أن یعمده بماء زمزم المبارک الموجود بحضرة الشیخ عادی... وإذا لم یفعل ذلك، فقد كفر... (121)

(121) الیزیدیة، أو عبدة الشیطان : ذیل : «الملل والنحل» للشهر ستانی تألیف : محمد سید کیلانی ص: 2/38.

وقد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم، وعند أداء الشعائر الدينية، «وبئر زمزم» هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية... (122)

ان الملك «سابور» من المومنين الحجاج للبيت الحرام، المتبركين «بماء زمزم» المقدسة...

ويذكر ابن جبير احتفال الناس في مكة بليلة النصف من شعبان فيقول: إن مراكبهم تزدهم في كل مكان في المسجد، والجهلة يعتقدون أن «زمزم» تفيض في هذه الليلة حتى تطفح، فيزدحمون على التبرك بمائها... (123)

وقد قضي على هذا التخريف الذي ظل ساريا في مكة يعتقد عوامها طوال الأجيال، ولم ينفع فيه إنكار جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في العهد الأخير. (124)

وكان جبل : «أبو قبيس» من المواضع المقدسة التي كانت جزءاً من شعائر الحج، وكان مقصودا عند نزول الشدة والبلاء، وأهل مكة يجدونه محلهم المفضل للدعاء عند انحباس المطر لنزول الغيث. (125)

ونجد عند العرب أساطير تشبه من بعض الوجوه الأساطير التي كانت معروفة عند اليونان القدماء، فكثيرا ما آمنوا بأن بطلا من الأبطال ولدته الآلهة التي تحيط بجزيرتهم، وترفرف فوق مياهها، وقد أعار هوميروس HOMERE في قصته الأوديسة ODYSSEE إلى ساحرات يسمين «سيرين»

(122) «تاريخ العرب قبل الإسلام» ص : 418 - 419 / 6.

(123) ص : 115.

(124) «تاريخ مكة» للعلامة أحمد السباعي رحمه الله، ج : 1 / 247.

(125) مجلة المشرق، س : 39 / ص : 255 / عام : 1941.

Sirènes، يقمن بأعلى الصخور في بعض الجزائر، ويغنين غناء رائعاً ساحراً، ويسمعن البحارة، فيذهلون عن سفنهم، ويتركونها تجري مع الرياح إلى أن ترتطم ببعض الصخور، وتتحطم تحطيماً، حينئذٍ يؤبون إلى رشدتهم، ويعلمون أنهم وقعوا في حبال مكر هؤلاء الساحرات وكيدهن!!!...

* * *

لقد كان الإغريق القدماء الذين نسبوا كل شيء طبيعي لإلاه، أو «حورية» على الأقل مسرفين بصفة خاصة في ألتهتهم المائية، وسار الرومان على منوالهم، فقد نصبوا على كل كتلة مائية ملاكها الحارس، ابتداء من المحيطات والبحار، الخاضعة «لبوزيدون» (126) POSEIDON الاغريقي أو نبتون، (127) NEPTUNE الروماني، أو الأمطار التي يسقطها: «زيوس» ZEUS، أو جوبتير (128) بلوفيروس JUPITER، أي جوبتير الممطر حتى أصغر ينبوع أو مجرى...

وفي اسكنديناوة، كان المبشرون الرهبان يشملون برعايتهم بعض الينابيع الخرافية، التي كان يغسل فيها الضحايا قبل التضحية بهم على مذبح أحد الآلهة الوثني... كما كانت هذه الينابيع توضع في حماية مختلف القديسين...

وهكذا بورك بئر : «ثور» THOR وأصبح في رعاية القديسة «هلينا» (129) Sainte HELENE... واستحوذ القديس: «بريدجيت» على ينبوع كان ينتمي إلى

(126) البوزيدون : إلاه البحر.

(127) نبتون : إلاه البحر والملاحة عند الرومان الأقدمين، صوروه وبيده حربة مثلثة الأسنة دليلاً على أن من تسلط على البحر تسلط على العالم «ميتولوجيا».

(128) جوبتير : معبود الرومان الأقدمين، وهو عندهم أب الآلهة وسيدها، ورب السماوات الرامي بالصاعقة، ويسميه اليونان: زفز ZEUS (ميتولوجيا) وجوبيتار أيضاً: أحد الكواكب السيارة سماه العرب المشتري.

(129) هيلانة : والدة قسطنطين القديسة. زارت أورشليم نحو : 324، قيل أنها اكتشفت فيها صليب المسيح، بذلت مالها ونفوذها في سبيل الإيمان.

إلاه صغير في عقيدة «درويد»... وقد وجد بعض العلماء كانوا يحرمون عبادة هذه المناهل والينابيع، بل لقد وجد الأسقف أنسلم (130). ANSELME حتى بعد الغزو النورماندي لانجلترا... إن من الضروري إصدار قانون يمنع عبادة الينابيع...

* * *

وهكذا تشترك الأمم القديمة في أساطير مائية، فهي، مثلاً، تجعل البحار غاصة بأحياء، صورتهم بين الإنس والحيوانات المائية... وقد أُلّهت بعض الشعوب تلك الصور الخيالية... ولما تحول الإنسان من حياته الوثنية إلى حياته الدينية السماوية رافقته أساطيره القديمة... وتمتزج هذه الأساطير عند العرب بأخبارهم في مجاهل البحار، وما يقصّونه عن هذه المجاهل... وأننا لنجد نتفا من هذه الأخبار منشورة في كتب الجغرافيا، مثل: كتاب «البلدان» الذي ألفه ابن الفقيه الهمداني بعد موت المعتضد 279هـ ووصف فيه البحار والأرض، وفيه هذا الخبر عن الاسكندرية يقول: «كانت الاسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار، وكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته، ومن خرج اختطف، وكان لهم راع يرعى الغنم على شاطئ البحر، وكان يخرج من البحر شيء، فيأخذ من غنمه، فيمكن له الراعي في بعض المواضع، حتى خرج، فإذا جارية، فتشبت بشعرها، ومنعته، فذهب بها إلى منزله، فأنست بهم ورأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس، فسألته عن ذلك، فأخبروها أن من خرج في ذلك الوقت، اختطف، فعملت الطلسمات، وكانت أول من وضع الطلسمات.

* * *

(130) انسلم : القديس، اسقف كالتربري KANTERBURY ولد في 1033، توفي 1109، ولد في «استا» بإيطاليا، اشتهر بعلمه اللاهوتي، وهو من مؤسسي الفلسفة المدرسية scolastique ينسب إليه البرهان الوجودي للوصول إلى معرفة الله.

وقد جعلت الديانة المسيحية، منذ البداية، الماء واحداً من الطقوس الأساسية في أسرارها المقدسة، ومع انتشار المسيحية في أوروبا اختفت الآلهة، وأنصاف الآلهة الوثنية، أو تحولت من آلهة إلى أساطير... على أن كثيراً من الأرواح المائية الأقل شأناً، والعادات المرتبطة بها، استمرت فترة طويلة... كما أن بعض الحوريات، وجنيات الماء، قد تحولت إلى الديانة المسيحية، واستمرت تؤدي عملها بوصفها راعية للينابيع والآبار الخاصة بها... ولكن مع تحويل أسمائها إلى أسماء قديسين...

* * *

الحوريات حيوانات خرافية

«الحوريات» Sirènes حيوانات خرافية تتناقلها الأساطير الشعبية، وهذه الحيوانات الشبيهة بالبشر تقطن، كما جاء في هذه الأساطير، البحار والأنهار، كما تستطيع الحياة، أيضاً، فوق اليابسة حيث تدخل في علاقات اجتماعية مع البشر العاديين، تكون نتيجتها وخيمة على هؤلاء... وعروس البحر في هذه الأساطير لها وجه وجسم امرأة على جانب كبير من الجمال حتى الخُصْرُ أما النصف الأسفل فيتخذ جسم سمكة بزعانفها وحراشيفها وذيلها...

عيشة قنديشة :

وهناك جانب أسطوري يتعلق بعبادات وتقديس المياه، وهو ما يتحدث به بعض الناس عن شخصية يقال لها «عيشة قنديشة» وقد كتب عنها مواطن مغربي في الجيش الإسباني، يسمى «عليو المستاري» في مجلة دورية محلية كانت تصدرها جماعة من الجنود في ثكنة عسكرية إسبانية في المنطقة الخليفية سابقاً...

وتتلخص الأسطورة في أن أميرة برتغالية كانت مدللة لدى أبيها، واسم هذه الأميرة «لُويسَا كُونتيسا» وقد بنى لها أبوها قصراً «بوادي الحلو» قرب مدينة أصيلا، وكانت هذه الأميرة تعشق الشباب والفتيان، وتلتقط الرعاة ذوى السواعد المفتولة، والأعصاب المجذولة من كل مكان... وبعد أن تقضى منهم وطرها تخنقهم، وترميهم في الوادي المذكور.

وقد أصبح الناس يخشون هذا المخلوق الغريب الذي يسكن بجوار البحر، ويفتك بالسابلة والمارة والمبتدئين... حتى إن بعض الفلاحين كانوا يتحدثون عنها مدعين بأنهم رأوها قرب الشواطئ، فيفرون منها، لأنها كانت تدعوهم... ثم تخنقهم!!

بل إن كثيرا من المغاربة يتصورون «عيشة قنديشة» بأنها جنية تستقر بجوار البحر أو الأنهار...!

وللحقيقة والتاريخ، فإن هذا الاسم: «عيشة قنديشة» له كيان في التاريخ، ووجود واقعي في عالم الناس، ودنيا المغاربة، فقد كانت هذه السيدة «عيشة قنديشة» تعيش أيام المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن العلوي في خلافته الصغرى، وكانت ولية صالحة شهيرة، وكان السلطان، المذكور، يأتيها للتبرك بها، لأنها كانت من الصالحات وقد توفيت، ودفنت بمقبرة «باب آغمات» بمدينة مراكش...

كانت هذه السيدة تغزل «الشتب» وتعمله حبلا تخاط به البرادع، وتقتات من ذلك، وما فضل ترميه في محلها، فلما ماتت وجد «الشتب» الذي كانت تغزله كله حرير...

وقد سئلت السيدة المذكورة عن «القطب»؟ فأجابت: «بأنه سيدي الزوين المجذوب الذي كان يلقط المخ، ويطبخه ويأكله، وكانت تقول: «الصماري والغماري، وحكامه الدراري، واللبن في الحفاري، مغطي بالشواري» «وتدخل الثيران، وتخرج الفيران» تشير إلى الغلاء الذي حدث بعد انحباس الماء والمطر، «وموت كبراء الولاة، وتولية الأحداث»، وذهاب الأخيار، وظهور الأشرار». (131)

* * *

(131) «الاعلام، بمنّ حل بمراكش وأغمات من الاعلام» للمراكشي ص : 9/416.

ولعل أكثر الناس رواية لهذه القصص هم البحارة، وهو يتغنون في وصف هذه الحيوانات المائية أو البرمائية، ويذكر الكاتب المصري أنيس منصور في كتابه: «التاريخ أنياب وأظافر» أنه عندما ذهب إلى البصرة بالعراق، مهد ألف ليلة وليلة، أعلن كثير من الأدباء أنهم شاهدوا: «عروس البحر»، شاهدوها واقفة وجالسة، وأنهم يقسمون على ذلك...

وكان بحارة القرن السادس عشر قد أقسموا على ذلك أيضاً...

وقد ظلت «عرائس البحر» لقرون طويلة مرتعا خصبا لخيال الكتاب والشعراء، ومصدرا رحبا للأساطير والخيالات الاغريقية والهندية والعربية أيضاً... على السواء...

وقد وضع العلم حداً لأساطير عرائس البحر في السنوات الماضية. وأكد أنها ليست حوريات يحلم البحارة بلقائها، والزواج منها، وليست امرأة حسناء، على شكل سمكة، كما تخيلها العالم القديم، وإنما هي مجرد حيوان عادي يرجع في أصله إلى الفيل، ويتجمع قبائل على شطآن عدد من دول العالم ليعيش حياة خاملة يقضيها بالأكل والاسترخاء...

وقد تحدث، عنها الرحالة البرتغالي «مريولافين» في كتابه : «الرحلة الزرقاء» قائلاً :

«...وعندما اقتربت سفينتنا من هذه الجزيرة ذات التراب الزمردي، فوجئنا بمنظر لا يمكن إلا أن يكون قطعة من الخيال: عشر مخلوقات نصفها الأعلى على شكل امرأة باهرة الجمال، والنصف الأسفل على شكل سمكة فضية اللون أو ذهبية».

«...وخلنا بادئ الأمر أن هذه المخلوقات لا تعدو كونها فصيلا من بنات الجن، خاصة حين بدأت بإطلاق الزغاريد بشكل يشابه جنيات «أوليس»، إلا أن هذا الاعتقاد سرعان ما تبدد لأن تلك المخلوقات كانت تتحدث إلينا بلغة غريبة جدا هي أقرب ما تكون إلى اللغات الافريقية

القديمة، ولو كانت من الجن فعلا لاستطاعت التوجه إلينا باللغة البرتغالية حسبما نعرف عن بني الجن الذين يتقنون كل لغات بني الإنس»... و«ماريو لافين» ليس الوحيد الذي تحدث بهذه «الواقعية» عن «عرائس البحر» إذ أن هناك بحارا ألمانيا يدعى «هانز راخت» زعم، في بداية هذا القرن، أنه عندما نجا من السفينة «شتارت» التي غرقت في ذات يوم من شهر نوفمبر 1907 مضى القارب الذي كان يمتطيه إلى جزيرة ذات نباتات وصخور غريبة، وحين نزل إلى اليابسة فوجيء بعشرات من حوريات البحر يحدقن به... وهو يقول في مقال طويل نشره في مجلة «كونستلايشن» إن الحورية تملك قلب امرأة حقيقية، وقد تبادل هو وإحدى الحوريات حبا عنيفا... والطريف أن الحوريات لسن غيورات، إذ أنهن أحطن «صهرهن» بالعناية الفائقة وكن يمضين به إلى عرض البحر حيث يلتقين بصديقات لهن من جزيرة أخرى...

ويقول «راخت» إن الحوريات اطلعن على عالم آخر مختلف عن عالمنا، حيث لا مكان البتة للحزن، فالفرح هو اللغة السائدة، والحياة هي أقرب ما تكون إلى الخيال... لكن البحار الألماني ما لبث، بعد قضاء أقل من سنة في ذلك «العالم الآخر»، أن استبد به السأم وراح يبني زورقا عاد به من «الخيال».

حيوانات مائية بحتة...

إن العلم، كما يبدو، ارغم الخيال على أن يخلع ثيابه المزركشة ويتحول إلى معادلات يابسة... وفظة أحيانا.

فـ «حورية البحر» لم تعد كتلة من خيال، والدكتور «خلف حنون»، مدير متحف التاريخ الطبيعي في جامعة البصرة، يقتلع هذه المخلوقات من جزر الزمرد ويقدمها لنا على أنها حيوانات مائية بحتة لا تخرج مختارة

إلى اليابسة، وإذا خرجت فإنها لا تتحرك بسهولة لضعف أطرافها الأمامية... ومع أنها تحذق السباحة والغوص إلا أنها تتجنب الأغوار... وقد يعود السبب في ذلك إلى أنها قد لا تملك القدرة على الصعود والهبوط بسهولة في مسابحها، ولأن الاناث لابد وأن ترضع صغارها فوق سطح الماء، فتطفو من حين لآخر وفي فترات متقاربة (من دقيقة إلى عشر دقائق)...

و«عرائس البحر»، كما يقول الدكتور حنون، تعيش في المياه الضحلة ذات النباتات البحرية، وقرب الشواطئ، وفي الخلجان الدافئة ومصببات الأنهار، بل وفي الأنهار ذاتها أحيانا... وهي ذات ميول «اجتماعية»، إذ تحتشد في «قرى» مائية وتتبادل فيما بينها السراء والضراء.

أكولة... وفقيرة المواهب...

و«عروس البحر» هي حيوان أكل يبدو عليه الخمول والحياء وفقير المواهب، إذ لا يتعدى نشاطها دائرة الأكل والراحة للهضم... والسمع واللمس هما أرهاف الحواس عندها، أما النظر فضعيف.

ويلاحظ الدكتور «حنون» أن بين الأنثى والذكر تعلقا وودا كبيرين، إذ يلزم أحدهما الآخر في مواسم التزاوج والحمل والرضاعة ورعاية الصغار، ويتعاونان بشكل مثالي على مجابهة متطلبات العيش.

والأنثى، التي تختلف عن الذكر في كونها لا تملك القواطع التي تستعمل في حفر القيعان، تحيط صغارها بكمية مثيرة من الحنان، فهي ترفع صغيرها إلى صدرها في أثناء الرضاعة فوق سطح الماء وتستعمل إحدى زعانفها لتضم صغيرها كما تفعل النساء المرضعات... ولعل هذا السلوك الإنساني «هو الذي ادخل» عروس البحر عالم الأساطير...

وهي إذ تخرج ليلا للرعي، منتصبه كالمرأة، لا تترك مجالا للشك في أنها امرأة حقيقية.

دموع «عروس البحر»...

وهناك شائعة واسعة الانتشار عن بكاء «عرائس البحر» وعن الدموع التي تذرفها حزنا على موت أطفالها أو فراق أزواجها... ويقول الدكتور حنون إن موضوع الدموع ظاهرة أكدها له الصيادون في إحدى جزر الخليج العربي التابعة للإمارات العربية المتحدة لدى قيامه بمسح بيولوجي للمنطقة، وأكد هؤلاء الصيادون أن دموع «عروس البحر» تبدو واضحة لدى اصطيادها...

والذي حفز العلماء على دراسة «عروس البحر» من الناحيتين البيولوجية والتشريحية هو اكتشاف أنواع بائدة من العصرين (الايوسيني) و(الاليجوسيني) في سلسلة متصلة تنتهي إلى الحيوان البائد «المورتيروم» والذي يعد السلف المباشر للفيلة.

وهذا الاكتشاف أكد أن «عروس البحر» كانت حيوانا أرضيا رباعي الأطراف وأنها أقرب الحيوانات إلى رتبة الفيلة بعد أن نسبت خطأ إلى رتبة الحيتان، وأطلق عليها سابقا اسم «الحيتان آكلة النباتات».

تشابه مع الحيتان...

وفي الحقيقة، فإن بينها وبين الحيتان شبيها مورفولوجيا ظاهريا من حيث شكلها الدلفيني وغياب الأطراف الخلفية وتحور الأطراف الأمامية في ما يشبه الزعانف الصدرية، ثم الوضع الأفقي لزعنفة الذيل التي تماثل زعنفة ذيل الحيتان والدلفينات... تضاف إلى ذلك ندرة الشعر على الجلد وما تحته من طبقة شحمية، وغير ذلك من وجوه التشابه الخارجي والتي

لا تعدو، في الواقع، أن تكون متطلبات تشريحية لملاءمة الحياة المائية وما تقتضيه أساليب العيش في بيئة واحدة...

ويضيف الدكتور «حنون» قائلاً في دراسته، أنه بالرغم من كل هذا فإن المقارنة والاختلاف بين الحيتان و«عرائس البحر» لا يزالان قائمين حتى في المظهر الخارجي، فالعرائس تختلف عن الحيتان بغياب زعنفة الظهر عادة (ولو أن بعض الدلفينات لا تملك زعنائف ظهرية أيضاً)، كما أنها تختلف في الزعنفة الأمامية التي تستطيع العين أن تتبين في قطاعها العرضي جزءاً مستديراً من الذراع ومفصل المرفق المتحرك... ويصل الاختلاف أيضاً إلى شكل الرأس وتكوين الأسنان التي تشابه أسنان الحافريات.

وقرابة مع الفيلة...

وتشارك العرائس مع الفيلة، من الناحية التشريحية، بوجود حلمتين ثدييتين في منطقة الصدر، كما تشترك وإياها في الغذاء النباتي وكيفية تبدل الأسنان... لكن الفيلة، خلافاً للعرائس، لا تبدل أضراسها إلا بعد طور البلوغ.

وتقسم فصيلة «عرائس البحر» إلى عائلتين أساسيتين هما عائلة «خروف البحر» وتستوطن البحار والأنهار الدافئة في المحيط الأطلسي، ويتراوح طول الواحدة منها بين 3 و6 أمتار، وهي تختلف عن «عرائس» الخليج العربي في أن ذيلها دائري وغير مقعر أما وزنها ففي حدود الأربعمئة كيلوغرام...

والعائلة الثانية هي عائلة «بقر البحر»، ويبلغ طول الواحدة منها 5.2 متراً إلى 5.3 متراً... أما وزنها فهو في حدود الـ 275 كيلوغراماً... وينتشر أفراد هذه العائلة على سواحل المحيط الهندي وشمال استراليا والبحر الأحمر وجنوب الخليج العربي...

بعد كل هذا نعتذر منكم لأننا اقتطعنا من خيالكم ذلك الجزء الجميل الذي يحيط بـ «عروس البحر»..
إنها ليست جنية، ولا امرأة خارقة، بل مخلوق ذو صفات حيوانية بحتة، وإن حاول أن يقترب من الإنسان عبر الدموع... ويالها من قرابة بائسة وحزينة.

الدميري يتحدث عن إنسان الماء :

تحدث الدميري (132) في كتابه عن «إنسان الماء»، فقال بأنه يشبه الإنسان، إلا أن له ذنبا... قال القزويني: وقد جاء شخص بواحد منها في زمامنا مقدر كما ذكرنا... وقيل إن في بحر الشام، في بعض الأوقات مَنْ شكله شكل إنسان، وله لحية بيضاء، يسمونه: شيخ البحر، فإذا رآه الناس استبشروا بالخصب... وحكي أن بعض الملوك حمل إليه «إنسان ماء»، فأراد الملك أن يعرف حاله، فزوجه امرأة، فأتاه منها ولد يفهم كلام أبويه، فقال للولد: ما يقول أبوك؟ قال: «يقول: أذنب الحيوان كلها في أسفلها، فما بال هؤلاء، أذنبُهم في وجوههم!!»

* * *

وقد ارتبط مفهوم الماء، في الفكر القديم الوثني والفلسفي بجانب الشر ارتباطه بجانب الخير، وهذا ما تظهره عدد من الأساطير القديمة، «فتيامه» في أسطورة الخلق البابليين التي تعنى البحر، كانت رمز العماء والفوضى... وحيثما ذكر البحر في الأساطير البابلية ذكرت معه الخلائق الأسطورية المهلكة، وبخاصة «التنين»، ذلك الحيوان الأسطوري المخيف في التصور الأول الذي كان رمز الشر والإيذاء في مفهوم القدماء...

(132) «حياة الحيوان» ص : 43/1، انظر : ص : 157/1.

بل إننا لا نعدم أثر هذا المفهوم في الفلسفة، أيضاً، ويتبين ذلك من قول أحد الفلاسفة، مثلاً، حين رأى امرأة يحملها الماء، ويذهب بها بعيداً لتغرق... «دع الشر يغسله الشر»، (133) فالماء شر عند هذا الفيلسوف، وَهُوَ حَرِيٌّ أَنْ يَغْسِلَ الشر الآخر الذي حمله، وهو المرأة في عرف ذلك الفيلسوف. (134)

وجميع الأسفار التي ضمها العهد القديم، نجد فيها أن الوشيعة التي تربط الإنسان بالطبيعة فيه، وشيعة الرهبة والخوف من عناصرها المختلفة،... فالبحر يرتبط بالشر، ويقرن بالمخلوقات الأسطورية المخيفة، ويظهر ذلك في هذا الكلام الذي جعله كاتب العهد القديم على لسان النبي أيوب، وهو يخاطب الإلاه قائلاً: أبحر أنا أم تنين Dragon حتى جعلت علي حارساً... (135)

ويتكرر هذا المعنى على لسان أشعياء أيضاً حين يقول: «في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد «لويathan» الحية الهاربة، «لويathan» الحية المتحوية، ويقتل التنين الذي في البحر. (136)

ولا يزال العهد القديم يذكر البحر بصفاته المخيفة المؤذية، ولذلك تكرر فيه وصف الإلاه بأنه هو الذي يسكنه ويخمد اضطرابه وغضبه، فمن مثل ذلك ما ورد في المزامير: «يارب إلاه الجنود من مثلك قوي، وحققك من حولك، أنت متسلط على كبرياء البحر عند ارتفاع لججه، أنت تسكنها... أنت سحقت رَهَبَ القَتِيل». (137)

(133) الشهرستاني، الملل والنحل» ص : 2/39.

(134) «الطبيعة في القرآن»، للأستاذ كاصد الزيدي ص : 36.

(135) أيوب : 7 - 12.

(136) أشعياء : 1/27.

(137) المزمور الثامن والثمانون : 8/9. الطبيعة في القرآن ص : 115.

القرآن .. وثق الصلة بين الإنسان، ونعمة الماء

وثق القرآن الصلة بين الإنسان، ونعمة الماء، فراح يقربها إلى نفسه بالأوصاف الدالة على المنفعة والخير....
فالبحر الذي كان يخشاه الأول، ويحسبه مصدراً للرغبة والشر والغموض، وحكماً للحيوانات الأسطورية المخيفة صار في القرآن محبباً إلى النفس مقرباً إليها، فعبر عنه «باليم» في عدة مواضع إشعاراً بالمنفعة التي فيه، ذلك أن اليم مشتق منه التيمم، وهو القصد، لأن المستنفعين به يقصدونه.(138)

كما عبر عن ماء السماء «بالغيث» لأن فيه إغاثة الناس في الجذب والقحط، ثم راح القرآن يعرض للحس مظاهر تلك المنفعة في البحر...
فالفلك التي تجري فيه بما ينفع الناس «مسخرة» بأمر الله، والأنهار التي لا تنقطع صلتها بالبحر، لم تكن كما كانت في التصور القديم قوى وآلهة مستعلية على الإنسان، بل هي في القرآن مسخرة كذلك... ونجد ذلك في قوله تعالى: «وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار»...(139)

وقد جعل القرآن هذا التسخير منوطاً بقدرة الله وحده، ولذلك قدم لفظ الجلالة في هذه الآية إشعاراً بذلك، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِي فِيهِ فُكُكُهُ﴾.(140)

* * *

(138) الكشف : الزمخشري ص 571 / 1.

(139) سورة إبراهيم : 32.

(140) سورة الجاثية : 12.

سيدي عبد الله الياهوري :

ولتقريب الناس إلى الماء نجد بجوار ضريح أبي عبد الله محمد الياهوري بئراً يغتسل بمائها تيمناً واستشفاء، من أضرار كالفزع، حسبما يقال للرجال حصتهم، وللنساء كذلك... (141)

ويعتقد الزائرون أن ذلك الماء يولد العاقرات، ويزوج البائرات (142) وقد اشتهر أبو عبد الله الياهوري دفين مدينة الرباط الولي الصالح عند العامة أنه ولي يتبرك به للنجاة من هيجان البحر، فهو أذن سيد المحيط... (143) ولقد اعتاد رجال البحرية سواء منهم رجال الأسطول أو المهتمون بصيد الأسماك أن يقيموا في 26 من شعبان من كل سنة ليلة المعراج موسماً للشيخ الياهوري، يقدمون فيه الطعام للفقراء والمستضعفين على نحو ما نقرأه اليوم عن الاحتفال باليوم العالمي للبحر يوم 22 شتنبر من كل سنة... (144) بل إن رجال البحر يقومون عند ما يشتد صياح المحيط بإحياء ليالي استثنائية توسلاً بالشيخ سيدي عبد الله الياهوري لكي يهدأ البحر... (145)

* * *

وكان من العادة المتبعة بمدينة فاس أن فقهاء الكتاتيب يبعثون التلاميذ عندما يتعسر الوضع على الحامل، فيطلقون رداءً يمسكون بأطرافه ويسيروا به منشوراً في طريق المدينة، وهم يرددون بصوت مرتفع:

(141) «ورقات في أولياء الرباط ومساجده وزواياه» ص : 25. للأستاذ عبد الله الجارري. يَابُرة Evora، مدينة من كورة باجة، أي هي من البرتغال، تقع على بعد 117 كلم بالسكة الحديدية من «لشبونة».

(142) «المناهل» عدد : 25. د. عبد الهادي التازي، س : 9 / دجنبر : 1982.

(143) المناهل نفس العدد.

(144) المناهل ص : 145، س : 9 - عام 1982.

(145) نفس المصدر ص : 145، انظر : «المعتقدات الشعبية المرتبطة بالبحر لدى أهل الرباط» للأستاذ محمد منصور.

«آ النفيسة طال بها النفاس، يا رب اعطها الخلاص، حرمة طه ويس، والقرآن الحكيم» وأصحاب الدكاكين والمارة يلقون التين والدراهم والتمر والبيض في وسط الرداء... ويزور الصبيان أشهر أضرحة الصالحين بالمدينة، ويغطسون الرداء بما فيه في سقاياتها وخصاتها، ولا يزالون يفعلون ذلك إلى أن تتكسر بيضة واحدة، أو عدد من البيض الموجود في الرداء، فيعتقدون حينئذ أن الحامل وضعت حملها، أو أَلقت سلاها، إن كان الأمر يتعلق بالسلا (الخلاص) وحينئذ يعودون إلى المسيد، ويحوز الفقيه ما تجمع في الرداء. (146)

وأما نهر «سبو» فإنه ينبعث من عنصر في مغارة مهولة في شعراء غامضة من بلاد فازان، إلى أن يمر على بني «وَرَّائِن»، وهذه العين التي ينبعث منها لا يدرك لها قعر... وللبربر المجاورين لها فيها تجاريب، فمنها ما حكى صاحب «الاستبصار» أن المريض إذا أرادوا أن يعلموا هل يموت من مرضه، أو يحيا حملوه إلى العين، وغطسوه في مائها حتى يقرب إلى أن يطفو، ثم يخرجونه، فإن خرج على فمه دم، فيستبشرون بحياته، وإلا أيقنوا بهلاكه، وهذا عندهم متعارف لا ينكر، وهذا لا يفعله إلا جاهل، فإن فعله أحد بأحد ومات، يقتص منه. (147)

ومن ملح محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي من أهل المرية، ودخل فاس (ت: 771هـ) قال: بت بحمام الخندق من داخل المرية يوم الجمعة الثامن من شهر محرم عام اثنين وثلاثين وسبعمئة منفرداً، فطفئ القنديل، وبقيت مفكراً، وخطر ببالي ما يقول الناس من تخيل الجن في الأرحا والحمامات، وعدم إقدام كافة الناس إلا من شذ على دخولها

(146) 1/59 تعليق ع. ص. على كلام أحمد ابن القاضي في جذوة الاقتباس.

(147) ص : 1/47 جذوة الاقتباس.

منفردين بالليل، لاسيما بالظلام، واستشعرت قوة نفس عند ذلك، فقلت
مرتجلاً رافعا بذلك صوتي :

زعم الذين لهم عقول قدرها
أن عرضت للبيع غير ثمين
إن الرحى معمورة والحرى
مام عندهم كذا بيقين
إن كان ما قالوه حقاً فاحضروا
للحرب، هذا اليوم من صفين
فلئن حضرتم فاعلموا بحقيقة
إني مصارع قيسنا المجنون (148)

* * *

ذكر الإمام أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى في الأذكياء، عن
بشر بن الفضل، قال: خرجنا حجاجاً، فمررنا بماء من مياه العرب، فوصف
لنا فيه ثلاث جوار أخوات، بارعات في الجمال، وأنهن يتطيبن، ويعالجن،
فأحببنا أن نراهن، فعدنا إلى صاحب لنا، فحككنا ساقه بعود، حتى أدميناه،
ثم حملناه، وأتيناه به إليهن، فقلنا: هذا سليم!! فهل من راق؟ فخرجت إلينا
الأخت الصغرى، فإذا جارية كالشمس الطالعة، فجاءت حتى وقفت عليه
ونظرت، فقالت: ليس بسليم... قلنا: وكيف ذلك؟ قالت: إنه خدشه عودٌ بالت
عليه حية ذكر... والدليل على ذلك، أنه إذا طلعت عليه الشمس مات! قال:
فلما طلعت الشمس، مات، فعجبنا من ذلك وانصرفنا... (149)

* * *

(148) ج : اقتباس ص : 295 / 1.

(149) حياة الحيوان الكبرى للدميري ص : 278 / 1.

وهناك نساء يغتسلن بماء معين يوجد في بعض الأضرحة من أجل الإنجاب، وهذه الأماكن موجودة في بعض المدن المغربية... ففي الرباط، مثلاً، هناك سيدي العربي بن السائح، وسيدي عبد الله الياهوري، وسيدي عبد الله الحويشي، وهذا الأخير يشرب من خابيته فقط. (150)

* * *

وقد اعتاد الإلغيون أن يعمدوا بعضهم في عشية التاسوعاء إلى الغناء الذي تتركه السيول، ضفاف مسيلات الماء، فيأخذون منه، وهو يضم ما يضم من أبعاد وأعواد صغار، فيبخرون به الديار، في صبيحة عيد عاشوراء دفعا لتأثير الجن... وقد رأيت عجوزا تفعل هذا أول ما نفيت إلى «إلغ»، فكان ذلك هو السبب حتى صرت أبحث عن مثل هذه العادات...

* * *

وكذلك يعمد في سحر عاشوراء إلى استقاء الماء من الآبار، ظنا من الساقين أن الآبار تستمد من «ماء زمزم» في ذلك الوقت، ومن ذلك اليوم، فيرش بذلك الماء جميع زوايا الديار تبركا، خصوصا أهراء الزرع، وحظائر المواشي. (151)

وكان الشيخ الوالد سنّ لقريّة آل سليمان أهله الأخصاء في أعراسهم عرسا يخلو من كثير من هذه العوائد، حتى إن العروس تجلى تحت الظلام، وفي صبيحة الجلوة، يذهب بالعروس إلى أقرب بئر لتستقي الماء، فيجعل الماء في إناء نحاس يكون من جملة ما تأتي به من عند أهلها، فيتجاذب الإناء المملوء بالماء بين أهل الزوج، وأهل الزوجة، فمن غلبوا سقوا صاحبهم وصاحبته، ويرون أن من سقى أولا من الزوج أو الزوجة لازال يغلب صاحبه. (152)

* * *

(150) 102 / التراث الشعبي : العراقية. ع : 9 - 10، س : 12 / 1981.

(151) «المعسول» للعلامة سيدي محمد المختار السوسي ص : 30 / 1.

(152) المصدر السابق ص : 33 / 1.

وكان يعقوب المنصور الموحيدي يتمتع بسمعة في المشرق والمغرب، حتى إنه كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية العظمى، فقد انطلقت الروايات الشعبية تتحدث عن آثاره وعظمته... وكان مما ذكرته أنه أرصد عفريتتين اثنتين يُوقدان النار تحت حمة مولاي يعقوب التي تمتاز بشدة الحرارة باستمراره... وأن الله سبحانه وتعالى يكتب الشفاء للمرضى والزمنى ببركة يعقوب المنصور...

وتحدث محمد بن عبد السلام الناصري، (153) عن «عين ماضي» بأنها: «...تسقي الجنان كلها من عين واحدة خارجة من سفح جبل بقربهم، عذبة باردة، يزعمون أنه يورث الشقوق في الأيدي والأرجل في زمن الشتاء... ثم قال: «ونساء عين ماضي» لا يغتسلن من جنابة ولا من حيض أو نفاس، يزعمن أن الاغتسال بمائهم يُعَقِّمهن، فتركن ذلك لذلك.

فقلت لمن حدثني بذلك : ما هي إلا عقوبة من الله لهن على ترك الواجبات...

وأعظم من ذلك اعتيادهم للطهارة الترابية من غير عذر حتى من وسم بالفقه منهم، تراه يضرب عند كل صلاة، اتكلوا في ذلك على زعمهم أن ماءهم يضر بالبصر... ولقد توضينا منه مرارا، وما رأينا منه ضرراً، فإن كان ذلك يحدث بكثرة الاستعمال، أو في فصل دون آخر، وتحقق الضرر، وتعدر الوضوء بغير من مياه الآبار... فلا شك أن ذلك يبيح الانتقال إلى التيمم. (154)

وعلى مسافة ثلاث رميات حجر من مدينة قسنطينة تقريبا، بالجزائر، يوجد حمام، مؤلف من نبع ساخن، يتدفق بين جلاميد كبيرة، يسمى حاليا «حمام سيدي مسيد» وتوجد كمية كبيرة من السلاحف التي يعتبرها

(153) في رحلته الحجازية الكبرى [مخطوط بالمكتبة الحسنية بالرباط رقم : 5658، بخط المؤلف].

(154) الاعلام، بمن حل بمراكش وأغमत من الاعلام ص : 199/5.

النسوة أرواحا شريرة، وعندما تصاب على سبيل الصدفة إحدى تلك النساء بالحمى، أو بأي مرض آخر، فإنها تعتبرها خطيئة السلاحف، وتعالج مرضها بأن تذبج حالا دجاجة بيضاء تضعها في وعاء مع كل ريشها، ثم تحملها إلى العين، وتتركها بعد أن تربط حول الوعاء بضع شمعات مصنوعة من شمع العسل...

ويقوم بعض الفطنين بمتابعة المرأة عندما يرونها تتجه نحو عين الماء مع الوعاء والدجاجة، كي يأخذوها بمجرد أن تقفل راجعة، ثم يطبخوا الدجاجة ويأكلوها... (155)

* * *

وهكذا استمر عند الشعب البربري الاعتقاد الأصلي في الجن والأرواح، وخاصة الشريرة منها التي يعتقدون أنها تعيش تحت الأرض، وفي الغيران، أو الأماكن المرتفعة، والتي ينبغي اتقاء شرها بطقوس سحرية، فأصبح الاعتقاد في «الجنّيوس» Genius اللاتيني، وأصبح الاعتقاد في الجن عند المسلمين منهم، وتولدت عنه عبادة الحيوان، وبالأخص عبادة المياه والكهوف... والطقوس الفلاحية القديمة الرامية إلى تسيير ازدواج الروحي بين الأرض، وهي العنصر المؤنث، وبين الماء المتمثل في المطر، وهو العنصر المذكر، قد بقيت في الاحتفالات الرمزية ذات الصبغة العتيقة التي يحتفل فيها اليوم بزفاف الأرض المتمثلة بعروس تزليت إلى المطر، وهو زوجها: «آستي» Asti. فتراهم اليوم في المغرب الأقصى يحملون مغرفة كبيرة ألبسوها ثياب عروس ويجوبون بها الشوارع، كما تتجسم عادة في قتل إله النبات في المهرجانات المثالية، فلا تراهم يذبحون إلهها مذكرا كما في الشرق، ولكن يذبحون آلهة مؤنثة تمثل الأرض. (156)

(155) الحسن بن محمد الوزان / وصف إفريقيا، ص : 430 - 431.

(156) إفريقيا الشمالية تسيير Charle André Julien L'Afrique du Nord en Marche ص : 22.

وهناك خرافة من أكثر الخرافات المتعلقة بالماء انتشاراً، وأكثرها تاصلاً، مازالت باقية في صورة «بئر الأمانى» ففي أيام الوثنية عندما كان البئر مملوكة لحورية أو لجنية، كانت الهدايا تقذف في داخله، أو توضع بالقرب منه... وكان مقدم الهدية يصلي لجنية الماء من أجل قضاء خدمة أو مساعدة في مقابل هويته، ومع تناقص الإيمان بالآلهة القديمة أصبحت الهدية منحة رمزية، مليماً، أو دبوساً، وتحولت الصلات إلى أمنية... (157)

* * *

وتوجد بالقاهرة بئر يقال لها «بئر العظمة» عند الركن المخلق، يقال إنها من آثار موسى عليه السلام... وحكى أبو القاسم الزيانى حكاية مفادها أن طاسة لفقير وقعت في بئر زمزم، وعليها منقوش اسم الفقير، فرجع الفقير مع الركب المصري إلى القاهرة، فجاء إلى البئر المعظمة ليتوضأ منها للتبرك، فطلعت الطاسة بعينها في المستقى، وشهد له جماعة من الحجاج أنهم شاهدوا وقوعها في بئر زمزم... قال الزيانى: وهذا من عجائب الآبار...! (158)

* * *

الجن تصد البقر عن الماء :

للغرب في البقر خيال آخر، وفي الأساطير الجاهلية أن البقر إذا أوردت، فلم ترد، ضربوا الثور ليقحم الماء، فتقحم البقر بعده، ويقولون: إن الجن تصد البقر عن الماء، وأن الشيطان يركب قرني الثور... وقال قائلهم:
إني وقتلي سُلَيْكاً، حين أعقله
كالثور يُضربُ لما عافت البَقَرُ

(157) الماء معجزة الطبيعة «طومسون كينك» ص 223.

(158) الترجمانة الكبرى ص : 327.

غضبت للمرء إذ ... حليته
وإذ يشد على وجعائها التفرد (159)

وقال آخر :

كالثور يضرب للورو
د، إذا تمنعت البقر

وقال الأعشى :

فإني، وما كلفتموني وربكم
لأعلم من أمسى أعق وأحدباً
لكالثور و«الجنّي» (160) يضرب وجهه
وما ذنبه أن عافت الماء مشرباً
وما ذنبه أن عافت الماء باقر
وما أن تعاف الماء الا ليضرباً

وقال نهشل بن جري :

كذلك الثور يضرب بالهراوى
إذا ما عافت البقر الظماء (161)

* * *

لقد كان تقديس الماء منتشراً في الشرق والغرب، وعند جميع الشعوب،
ولا سيما الشعب المصري والعراقي والمغربي حيث تذكر الأساطير القديمة

(159) هما لرجل اسمه أنس، يقول أهل الأخبار إنه قالهما عند قتله السليك ابن السلكة، وكان السليك
مر بامرأة في بيت وحدها، فاغتصبها، فلما علم بذلك هذا، تبعه فقتله، وأبى أن يعطي دينه.
فقال: إني وقتلي سليكا... وقوله ثم: أعقله بالنصب على تقدير أن المصدرية عطفاً على:
وقتلي... ولما عافت البقر: أي لما كرهت شرب الماء... يقول: إن قتل سليك كان بحق، فالعقل
يكون ظلماً كضرب الثور عند امتناع البقر [بلوغ الأرب، للأوسي ص: 2/303].

(160) أَرَادَ بالجنّي : اسم راع.

(161) الهراوى بفتح الهاء، جمع هراوة بكسرها. وهي العصا. [بلوغ الأرب ص: 2/303، حماسة
البحثري 352].

أن أسلحة الإلاه «أشور» كانت تبارك بغطسها في الماء، وتذكر كذلك أن دجلة كان نهرا مقدسا عند الناس.

وقد ثبت أن المغاربة قديما كانوا يؤدون طقوسهم، ويقدمون القرابين قريبا من ينابيع الماء... ليس فقط لأن الماء رمز الحياة، وإنما كذلك للاعتقاد في أن هذه الينابيع كانت مركز قوى ومأوى الآلهة والأرواح...

وهكذا لو تتبعنا كثيرا من العادات لألفيناها أثراً من آثار المعتقدات والمقدسات التي عرفها المغاربة في العهود القديمة، والتي انحدرت إليه من الشرق في الغالب، والتي وجدت في البيئة المغربية مجالا خصبا لرعايتها وتثبيتها في النفوس، وهي بطبيعتها بيئة تساعد على تغذية تخيل الإنسان لما وراء الكون...

* * *

تقاليد الفرس يوم النيروز

كان للفرس في عيد النيروز عادات غريبة، منها أن يرش الناس بعضهم بعضا بالماء.

قال بعض الحشوية : (162) أن سليمان بن داود عليهم السلام، لما افتقد خاتمه، وذهب عند ملكه، ثم رد إليه بعد أربعين يوما، عاد إليه بهاؤه، وأتته الملوك، وعكفت عليه الطيور، فقالت الفرس: «نُورُوزَ آمَد»، أي جاء اليوم الجديد، فسمي النوروز... وأمر سليمان الريح فحملته، واستقبله خطاف فقال: أيها الملك، إن لي عشا فيه بيضات، فاعدل لا تحطمها، فعدل، ولما نزل حمل الخطاف في منقاره ماء، فرشته بين يديه، وأهدى له رجل جرادة، فذلك سبب رش الماء، والهدايا في النيروز...

وهذه أسباب ضاربة، كما ترى في الاختلاق والانتحال...

ويذكر النويري : (163) إنه كان من عادة عوامّ الفرس رفع النار في ليلته، ورش الماء في صبيحته، وفي ذلك يقول المعرج :

كيف ابتهاجك بالنيروز ياسكني

وكل ما فيه يحكيني وأحكيه

فناره، كلهيب النار في كبدي،

وماؤه كتوالي عبرتي فيه...

ونجد في كتاب التاج للجاحظ (164) بعضا من تقاليد الفرس وصنيعهم

في يوم النيروز قال: «... منها استقبال السنة، وافتتاح الخراج، وتولية

(162) الآثار الباقية ص : 215.

(163) نهاية الأرب : ص 186 - 187/2، خطط المقرئ ص : 391/2، صبح الأعشى ص : 419/4،

التاج : للجاحظ : ص : 146.

(164) كتاب التاج : ص : 146.

العمال، والاستبدال، وتذكية النيران، وصب الماء، وتقريب القربان، وإشادة
البنيان.

وفي مصر، كان الخلفاء المصريون، ولا سيما الفواطم يحتفلون بعيد
النيروز(165) احتفالا كبيرا...

قال المقرئزي : عند الكلام على أعياد الفاطميين : «كان النوروز في
أيامهم من جملة المواسم، فتتعلط الأسواق، ويقل فيه سعي الناس في
الطرق...»(166)

قال ابن زولاق : «وفي هذه السنة، يعني ثلاث وستين وثلاثمائة - منع
المعز لدين الله من وقود النار ليلة النوروز في السكك، ومن صب الماء
يوم النوروز.

وقال في سنة 364 : وفي يوم النيروز زاد اللعب بالماء ووقود النيران،
وطاف أهل الأسواق وعملوا فيه، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم، ولعبوا
ثلاثة أيام، وأظهروا السماحات والحلي في الأسواق، ثم أمر المعز بالله
بالكف... ولا توقد نار، ولا يصب ماء، وأخذ قوم، فطيف بهم على
الجمال...

قال القاضي الفاضل في تعليق المتجددات لسنة 584 : في يوم الثلاثاء
رابع عشر رجب يوم النيروز القبطي، وقد كان بمصر في الأيام الماضية،
والدولة الخالية - يعني دولة الفاطميين من مراسم بطالاتهم ومواقيت
ضلالتهم، فكانت المنكرات ظاهرة فيه، والفواحش صريحة في يومه،
ويتجمع المؤمنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة،
وبأيديهم الملاهي، وترتفع الأصوات، وتشرب الخمر، ويتراش الناس
بالماء، وبالماء والخمر، وبالماء ممزوجاً بالأقذار، فإن غلط مستور، وخرج

165) النيروز عند الفرس : أول يوم من أيام السنة الشمسية، يوم الفرخ عموماً فارسية.

166) الخطط : 389 - 2/390.

من داره لقيه من يرشه، ويفسد ثيابه، ويستخف بحرمة فأما فدى نفسه،
وأما فضح...

ولم يجر الحال في هذا النوروز على هذا، ولكن قد رش في الحارات،
وأحيا المنكر في الدور، وأرباب الخسارات.

وفي عام 592 : وجرى الأمر في النوروز على عادة من رش الماء
واستجد فيه هذا العام التراجُم بالبيض، والتصافع بالانطاع، وانقطع الناس
عن التصرف، ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة وخرق به...

تلك صورة لما كان عليه الحال في عيد النيروز بمصر أيام الفاطميين
يرسمها لنا المقرئزي وغيره من المؤرخين...

وهي تدلنا على مبلغ ما كان عليه التآخي والمشاركة، وطيب المجاملة
بين المسلمين وإخوانهم المسيحيين.

العنصرة - الماء - والعادات

العنصرة : هو عيد تذكار حلول الروح القدس على التلاميذ يقع بعد عيد
الفصح بخمسين يوما...

وعند اليهود هو عيد تذكار نزول الشريعة في طور سيناء، واللفظة
عبرانية، معناها اجتماع أو محفل.

والعنصرة أو العصرة كلمة عربية، (167) وهي عند الأندلسيين عيد
المهرجان، وكانوا يحتفلون به في يوم 24 يونيو. (168)

والعنصرة، أو عيد المهرجان، لا يحتفل به في شهر شتنبر كما هو
الحال في المشرق، ولكل في 24 يونيو...

نقل ابن خلكان عن بعض الأندلسيين ما يلي :

(167) دوزي ص : 2/181.

(168) تقويم قرطبة : ص 65، والبيان المغرب ص : 3/84.

«يوم العنصرة يوم مشهور ببلاد الأندلس، وهو موسم للنصارى كالميلاد ونحوه، وهو اليوم الرابع والعشرون من حزيران فيه ولد يحيى بن زكريا عليهما السلام». (169)

وإلى تاريخ العنصرة يرمز صاحب «المقنع» في أرجوزته :

في «كَدَّ» يونيه تكون العنصرة...

وقد اشتهر يوم العنصرة بشعلة النار التي كانوا يقيمونها، ويقفزون فوقها...

وقد سجل الأدب الأندلسي الفصيح هذه العادة التي ماتزال موجودة إلى اليوم في إسبانيا، فمن ذلك قول أبي بكر بن أبي العلاء الشاطبي يصف عندما يقفز نارا من هذه النيران التي تكون في مناسبة العنصرة:

مريلقي النار في ضرم

كفؤاد الصَّبِّ محتـرق

ومضى يجتاب جاحمها

كانصلات النجم في الأفق (170)

وقال الوزير حسان بن مالك بن أبي عبَّدة في المهرجان: (171)

أرى المهرجانَ قد استبشرا

غداةً بكى المزنُ واستعبرا

وسربلت الأرضُ أمواها

وجللت السندسُ الأخضر

وهزَّ الرياحُ صنابيرها

فضـوعت المسك والعنبرا

(169) وفيات الأعيان ص : 7/227، تحقيق احسان عباس - الأمثال : ص 1/239.

(170) المغرب، لابن سعيد ص : 2/383.

(171) المطمح : 26 - 27.

تهادى به الناس الطافه
وسامى المقل به المكثرا (172)

* * *

عيد الغطاس في مصر :

وفي مصر كان يحتفل بعيد الغطاس احتفالا كبيرا، وهو يسمى عيد الغطاس، لأن كثيرا من النصارى كان يغطس فيه في النيل، وفي هذا اليوم نفسه، لا تزال الكنيسة الرومية في عصرنا تحتفل بعيد الماء المقدس، وكان من الرسوم القديمة بمصر أن يركب متوَلّي الشرطة السفلانية ليلة الغطاس في موكب كبير، وتوقد بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل فيطوف الشوارع، وينادي في الناس الا يختلط المسلمون بالنصارى في تلك الليلة، والا ينكدوا عليهم عيدهم، وذلك أن النصارى كانوا في سحر تلك الليلة يخرجون إلى شاطئ النيل، ويغطسون فيه. (173)

ويقول المسعودي في ليلة الغطاس : «ليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام الناس فيها، وهي ليلة عشر تمضي من «كانون» الثاني...

ولقد حضرتُ سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس في مصر، والأخشيذ محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة، في الجزيرة الراكبية للنيل، والنيل مطيف بها، وقد أمرَ فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر النيل في تلك الليلة ألوف من الناس من المسلمين والنصارى، منهم في الزوارق، ومنهم في الدور الدانية للنيل، ومنهم على الشطوط، لا يتناكرون

(172) نفح الطيب ص : 547/3 تحقيق إحسان عباس.

(173) آدم ميتز ص : 289/2.

الحضور، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب، والملابس وآلات الطرب والذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف، وهي أحسن ليلة تكون بمصر، وأشملها سرورا، ولا تغلق بها الدروب، ويغطس أكثرهم في النيل، ويزعمون أنه أمان من المرض، ونشرة من الداء. (174)

وفي عام 415 هـ 1025 م نزل أمير المومنين الظاهر لنظر الغطاس ومعه الحرّم، وضرب بدر الدولة متولي الشرطتين، خيمة للخليفة وحرمه، وأمر الخليفة بأن توقد النار والمشاعل في الليل، وكان وقودا كثيرا... (175)

ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد في الثامن من ماي، وكان النصارى يلقون في النيل في هذا العيد تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى، ويزعمون أن النيل لا يزيد في كل سنة إلا بهذا...

وكان اجتماع الناس لهذا العيد بناحية شبرا، وكان يرحل إليه عالم عظيم للفجور واللهو والفسق، وفيه يصرفون أموالا لا تحصى، ولا يبقى مغنّ ولا مغنية، ولا صاحب لهو، ولا بغى، ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا نحو ذلك إلا خرج لهذا العيد، وكان يباع فيه من الخمر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم فضة، وأبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون في القرن الثامن. (176)

وكانت العادة في رأس السنة الفارسية والقبطية أن يرش الناس بعضهم بعضا بالماء، وقد منع ذلك في المشرق عام (282هـ - 895م) (177) على أن البيروني يتكلم عن الرش ووجوده عام 400هـ. (178)

(174) «مروج الذهب»، للمسعودي ص : 364 - 365/2.

(175) الخطط للمقريزي.

(176) المقريزي ص : 68 - 69/1.

(177) تاريخ الطبري. ص 2144/3 - وقد بقي من آثار الاحتفال برأس السنة الفارسية الماء حتى عام 400هـ [الآثار الباقية : للبيروني 260].

(178) الآثار الباقية ص : 215 - 218.

ويحكي لنا الرحالة الصيني (وانج ين تي) الذي طاف بالمشرق بين عامي 981 - 983م عن أهل مدينة طرفان (كانت شانج) أنهم يعملون أنابيب من الفضة والنحاس، ويملئونها بالماء، ويرش بعضهم بعضاً، وقد يمزجون أحياناً، فيرشون الماء بأيديهم، وهم يزعمون أنهم بذلك يضعفون حرارة المزاج، ويدفعون الأمراض. (179)

وكان العامة بمصر في النيروز ينتخبون رجلاً يسمونه أمير النيروز، فيطلي وجهه بالدقيق أو الجير، ويركب في الشوارع على حمار، وعليه ثوب أحمر، أو أصفر، ويسير معه جمع كبير، فيتسلط على الناس في طلب رسم رتبته، وفي يده دفتر مثل دفتر المحتسب، فمن لم يدفع الرسم يرش بالماء ممزوجاً بالأقذار!!

وكان الناس يضرب بعضهم بالجلود والانطاع، الفقراء في الشوارع والأغنياء في دورهم، ورجال الشرطة لا يعترضون على ذلك، وأن غلط مستور، وخرج من بيته لقيه من يرشه، ويفسد ثيابه، ويستخف بحرمته، فإما أن يفندي نفسه، وأما أن يفضح، وكان يرش الناس الماء في الحارات، ويحي المنكر في الدور أهل الحارات.

وكان التلاميذ في مكتبهم يهجمون على معلمهم، وكثيراً ما يرمونهم في البئر حتى يفدي نفسه بالمال...

وفي 335 هـ - 945م منع السلطان من رش الماء... وفي عام 363 هـ - 974م أبطل الخليفة هذا العيد، ولكنه عمل في العام التالي على أكبر صورة، وقد استمر يؤدب الناس ثلاثة أيام، فلم ينفع التأديب. (180)

والنيروز بمصر في غشت حيث يوقد الناس النار ويرشون الماء. (181)

* * *

(179) آدم ميتز ص : 294/2.

(180) الولاة للكندي ص : 294، والمقريري في الخطط ص : 267/1.

(181) انظر تاريخ قرطبة لسنة 961، ط : دوزي ص : 58.

الشيخ أحمد حسن الباقوري... وعمامته...!

لما سافر الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف المصري، ورئيس «جمعية الشبان المسلمون» رحمه الله إلى الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا مع وفد هام من أقطاب مصر تحدث عن منظر مثير للضحك حيث قال: «ولما انتهت الزيارة للهند، اتخذنا طريقنا إلى أندونيسيا، وكان وفد الهند المؤلف من «البائديت جواهر لال نهرو» وابنته السيدة «أنديرا غاندي» وآخرين معنا على الطائرة نفسها... وقد رغب هؤلاء السادة أن ننزل في «بورما» ليوم أو يومين رغبة منهم في مشاركة أهل بورما عيدهم الذي يجيء مع فيضان الأنهار، ولم نكن نعلم أن من تقاليهم المقدسة رش الماء على الضيوف تحية لهم، وما كان أشد دهشتنا حين رأينا رئيس وزراء «بورما» «إينونو» يستقبل الوفود، وفي يده إناء ملىء بالماء، فيرشه على أعضاء الوفود، وكان في مقدمة هؤلاء عبد الناصر، ونهرو، وبعد انتهاء هذا الاستقبال، نقلتنا السيارات إلى المكان المعد لنزول الوفود، وكان الجو شديد الحرارة، وكان أهل «رانجون» في أيديهم خراطيم من الماء يصوبونها إلى المارة مهما تكن منزلتهم...

قال السيد الباقوري : وهنا كنا بين أحد أمرين، كلاهما شر، فإما أن نغلق نوافذ السيارات، فنختنق من شدة الحرارة، وإما أن نفتحها، فنغرق بالماء من الخراطيم...!!

وقد كان موقف السيد الباقوري في ذلك اليوم يسر العدو، ويسوء الصديق، ذلك أن سائر الوفود كانت مكشوفة الرأس، فلا يؤذيها الماء، أما السيد الباقوري فقد كان يرتدي العمامة، فإذا أصابها الماء، كان المنظر مثيرا للضحك، أو باعثا على السخرية... (182)

(182) جريدة «المسلمون» عدد : 24. السبت 4 ذو القعدة عام 1405 / يوليو 20 / 1985.

ولهذا أثر أن يغلق نوافذ السيارة اتقاء للماء ومهما كان الحر شديدا خائناً... ومازال في هذا الجو الخائق حتى بلغ الضيوف الدار التي أعدت للضيافة، وقد كانت مدرسة للتلاميذ غير مستعدة لنزول مريح، والمشكل هو إذا تركت النوافذ مغلقة فالحر خانق، وإذا فتحت الشبابتك، فهناك متربصون بالجميع يوجهون خراطيمهم إلى سائر الضيوف، وهم داخل المدرسة.

ولم يكن نوسع أحد من ذوي النفوذ في البلاد أن يمنع السكان من رش الماء، لأن اليوم عيد، والحرية في الأعياد مكفولة لا يجوز الاعتداء عليها مهما تكن الأسباب...

ولا ريب أن منظر القوم في ثيابهم المبتلة بالماء كان مثيرا للضحك، وداعيا إلى المرح الذي هو أخص خصائص الأعياد...

* * *

قال الشيخ أحمد حسن الباقوري وهو يتذكر ارتساماته اللطاف: «اذكر أننا حين جلسنا في هذه المدرسة إلى حديث السمر نستعين به على قضاء الوقت الذي كان يمر في ببطء شديد، وكان من الأحاديث التي ذكرتها للسيد محمود فوزي وزير الخارجية، والسيد عبد الخالق حسونة أمين الجامعة العربية حديث يتصل بمصر القديمة في بعض أعيادها إبان فيضان نهر النيل، وكأن الأعياد تشترك في معنى لا بد منه للبهجة والمرح، بغير ضوابط، وفي غير حدود، وذلك أن العلامة القلقشندي قد ذكر أن من أعياد الأقباط المشهورة بالديار المصرية عيد النيروز، وهو أول يوم في سنتهم، مع أن لفظة النيروز فارسية معربة، وقد كانوا في هذا العيد يظهرون من المرح والسرور، ما تضيق به الصدور، وينافي معنى العيد، ذلك أنهم كانوا يصبون الماء غزيرا على كل من يمشي في طريق، وربما لجأوا إلى التصافع بالأكف، ويقطع من

الجلود، وهم في ذلك العمل يتركون الاحتشام حتى يستوي في تقديرهم
سواد الشعب، والرجل المطاع في قومه، ولولا أن ولادة الأمر يردعونهم
لمنعوا الطريق، فلا يمر بها أحد، وهم في ذلك لا يتركون من ظفروا به إلا
إذا أَرْضاهم بما يشاءون...

* * *

نعم، أعياد الطبيعة تدعو إلى المساواة بين الناس في مشاعرهم مهما
اختلفت بهم الديار، ومع أن هذا اليوم في «رانجون» كان يوم فرح تنشرح
له الصدور لكنه بالنسبة إلى الضيوف كان يوماً شاقاً يستلزم المبادرة إلى
الرحيل...

ومن اللطائف التي حدثت في هذه الرحلة أن الوزير الباقوري رغب إلى
أخيه وزميله المرحوم الدكتور محمود فوزي وزير الخارجية أن يركب علي
اليمين تكريماً له، ولكنه أجابه إلى رغبته مشروطاً أن يتنازل السيد
الباقوري لمحمود فوزي عن عمامته... وقد كان هذا الشرط غريباً في نظر
السيد الباقوري، ولكن فوزي قال له في أدب جم، وإصرار حاسم، أن هذه
الألوف التي تكاد تقبل الأرض التي تسير عليها، - احتراماً للأزهر، وهتافاً
له - سوف تتسارع إلى الفتك بي إذا رأيتني جالساً في السيارة على
اليمين، ورأسي مكشوف، وأنت بعمامتك الأزهرية تجلس على اليسار ولهذا
يقول فوزي، رغبت إليك أن تعطيني عمامتك لكي تكون التحية للأزهر
الشريف ماثلة في العمامة...

والحق، يقول الباقوري، إن هذه الآلاف التي كانت تستقبل الوفود إنما
كانوا يتجهون بتحاياهم وهتافاتهم إلى الأزهر الشريف في العمامة التي
تعلو رأسي...

* * *

أنهار الجنة :

لقد بلغ من تقديس المياه عند بعض الشعوب حدا لا يوصف، حتى إنهم وصفوها تنبع من الجنة... ولعلها حينما يكتمل فيها وصف الجودة والبرودة والعذوبة، ولا نجد هذه الأوصاف بكاملها إلا في الأنهار الأربعة: الفرات، النيل، وسيحان، وجيحان في آسيا الوسطى ويعرف سيحان باسم نهر الشاش، أي مدينة طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان...

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان، وجيحان والنيل والفرات كلها من أنهار الجنة».

ولقد استلذ ماء دجلة واستعذبه واستطابه كل من شرب منه، واستعلن ذلك في إشعار الشعراء، وكان أكثرهم إفصاحاً عن ذلك وشهادة بأنه «خير ماء»، الشاعر الفيلسوف أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري حيث يقول في القصيدة الثالثة والستين من ديوانه «سقط الزند»:

كلفنا بالعراق، ونحن شَرَحُّ
فلم تُلِمَّ به إلا كهـولا
وردنا ماء دجلة «خير ماء»
وزرنا أشرف الشجر النخيل !
وزلنا بالغليل، وما اشتفينا
وغاية كل شيء أن يزول...

وقوله، أيضا، في القصيدة الثانية والستين يودع بغداد :

أودعكم، يا أهل بغداد، والحشا
على زفراتٍ، ما ينين من اللذع
وداع ضنٍّ، لم يستقل، وإنما
تحامل - من بعد العثار - على ظلع

إذا أظَّ نِسْعٌ، قلت والنوم كـاربي
أجِدُّكُمْ، لم تفهموا طرب النَّسْعِ
فبئس البديل الشَّامُ، منكم وأهلُّه
على أنهم قـومـي، وبينهم رَبْعِي
ألا زودوني شـرـبـةً، ولو انني
قدرت إذن، أفنيت دجلة بالجَزْعِ
وأنتى لنا من ماء دجلة نَغْبَةٌ
على الخمس من بعد المفاوز والربع (183)

وللفرات فضائل كثيرة : روي أن أربعة أنهار من الجنة: النيل،
والفرات وسيحان، وجيحان ...

وعن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : «يا أهل الكوفة، إن
نهركم هذا ينصب إليه ميزابان (184) من الجنة».

وعن السدي (185) رضي الله عنه : أن الفرات مَدَّ في زمن عمر رضي
الله عنه، فألقى رُمَانَهُ عظيمة، فيها كُرٌّ من الحب، فأمر عمر المسلمين أن
يقتسموه بينهم، وكانوا يرونها من الجنة». (186)

(183) «المورد العذب الزلال، فيما ورد في الماء من الأقوال» محمود شكري الألوسي ص : 35
تحقيق الأستاذ الشاعر : محمد بهجت الأثري.

(184) الميزاب، والميزاب : ج ميازيب ومآزيب... المثعب، وهو قناة أو أنبوبة يصرف بها الماء من
سطح بناء، أو موضع عالٍ، ومنه مئزاب الكعبة الشرقية.

(185) السدي نسبة إلى السدة وهي الباب عرف به جماعة منهم... السدي الصغير محمد بن مروان
بن عبد الرحمن... روى عن الكلبي، وداود بن أبي هند، وهشام بن عروة... وقال علماء الجرح
والتعديل: كان ضعيفاً منكر الحديث وهذا هو صاحب الخبر المذكور كما جاء في أخبار بغداد»
للمؤلف نفسه نقلاً عن ياقوت.

(186) الكُر : مكيال : خصه بعضهم بأهل العراق، غير أنه ورد في حديث بن سيرين: إذا بلغ الماء
كُرّاً... لم يحمل نَجْساً» [انظر محمد بهجت الأثري ص : 59].

حفلة زفاف النيل

كان ماء النيل، ومازال، أعظم قنية تحرص عليها مصر، ومنذ فجر التاريخ، تشعر مصر، بحق، أن حياتها تتوقف على مياه هذا النهر الخالد، وبأن كل ماحبتها به الطبيعة من الخصب والنعماء إنما هو من فيضيه وجريانه، وَكَمْ نُكِبْتُ مصر، وعانت أهوال القحط والوباء، وفقدت من أبنائها الملايين، لأن النيل لم يسعفها بوافر فيضه... ومصر تعمل منذ أقدم العصور للفوز بأكبر قسط من هذا الغيث المبارك، وتسعى بكل ما وسعت لضبطه واستثماره، وكثيرا ما سيرّ الفراعنة الحملات إلى أعالي النيل للوقوف على أسرار هذا النهر العظيم، واستقصاء منابعه، والسَّهْر على سلامة مجراه...

ويقال إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن العالم خلق من الضحك، لأن الضحك من الماء، فحين أراد الإلاه الأكبر أن يخلق العالم أطلق ضحكة قوية، فكانت أرجاء العالم السبعة... ثم أطلق ضحكة أخرى، فكان النور، وأطلق ضحكة ثالثة، فكان الماء... وهكذا حتى تم خلق الروح من الضحكة السابعة... من أجل ذلك كان الضحك عنصرا أساسياً في الحياة، وصفة هامة من صفات البشر، وعاملا قويا في الربط بين الناس. (187)

وقد عبد المصريون النيل الذي يَهَبُ مصر الحياة، وكان يمثل عندهم في شكل ذكر وأنثى في آن واحد، فله من الأنثى ثدياها، ومن الذكر لحية طويلة، تكتنف وجهه، ولباسه لباس بحار مصري. (188)

(187) عالم الفكر، ع : 3، مج : 13 - 10 - 11 - 12، 1983.

(188) ديانة قدماء المصريين : ترجمة الدكتور سليم حسن، ط : المعارف عام 1922.

والمصريون اعتقدوا أن الإلاه المحلي يظهر لعباده في شكل واضح جلي، فكما أن روح الإنسان تأوي جسده الظاهر، كذلك يتخذ الإلاه له مأوى خاصا يكون له مظهراً له...

وقد جرت العادة أن يتخذ الإلاه سكناً له الأحجار والعمد والحيوانات، وكان الأثر شيوعا أن يتصوروا الإلاه في هيئة حيوان...

فكان «سُبُك» إلاه الماء بجهة الفيوم يظهر في شكل تمساح، و«خُنْم» معبود الشلال في شكل «تيس». (189)

قال احمد بن يوسف التيفاشي: (190) وقد ذكرت العرب النيل في إشعارها، وضربت به الأمثال:

قال قيس بن معد يكرب، فيما أورده الجاحظ في كتاب الأمصار :

ما النيل أصبح زاخرا بحدوده

وجرت له ريح الصبا، فجرى بها

ابن نباتة المصري :

زادت أصابع نيلنا

وطعنت وطافت في البلاد

وأنت بكل مسطرة

ماذي أصابع ذي أيادي

ناصر الدين حسن بن النقيب :

كأن النيل ذو فهم ولب

لما يبدو لعين الناس منه

فيأتي عند حاجتهم إليه

ويمضي حين يستغنون عنه (191)

(189) ذيل : «الملل والنحل» للشهرستاني، تأليف محمد سيد كيلاني.

(190) «سجع الهديل، في أخبار النيل» لأحمد بن يوسف التيفاشي (تـ 651هـ كشف الظنون ص : 979).

(191) «حسن المحاضرة» لجلال الدين السيوطي.

والنيل فيضان مهول ياتي، فيهلك الحرث والنسل، وهناك طريقة لمعالجة فيضان نهر النيل، وهي في غاية البساطة، وتتلخص في تركه فيفيض، وقد اتبعت هذه الطريقة في مصر منذ أقدم العصور، إذ كان الأهالي يتراجعون إلى مناطق عالية، كلما فاض النيل على أراضيهم كل عام...

وكان الغرين(192) المترسب يرفع مستوى المناطق المغمورة بأكملها فضلا عن قاع النهر نفسه، بحيث كان النهر لا يعلو عن الأراضي وقد أفادت طريقة المصريين هذه إلى حد كبير في حالة أراضيهم الجافة المرتفعة الحرارة التي يمكن التنبؤ فيها بارتفاع النيل المنتظم، على أنه لا يمكن اتباع طريقتهم السلبية هذه في أغلب وديان الأنهار...(193)

مكانة النيل، وقداسته في نفوس المصريين معروفة، بل إن مصر الفرعونية كانت تؤلهه، وتسميه «حابي»، ومازالت باقية حتى اليوم بعض آثار الطقوس والاحتفالات التي تقام له، وأهمها حفل عروس النيل.

وملخص هذه الأسطورة التي نشأت على الأرجح في عصر متأخر أن قدامى المصريين كان من عاداتهم أن يحتفلوا، كل سنة، بزفاف فتاة صبية إلى النهر، إقرارا بفضله، وتعبيرا عن شكرهم له فيضانه على أراضيهم وإخصابها... بيد أن جل الباحثين على أن هذه العروس المهداة إلى النهر الجبار، إن صحت حفلة الزفاف، لم تكن من البشر، وإنما كانت تمثالا من الطين على شكل صبية يلقي في وسط أليم، فيذوب على مهل، ورمزا إلى الاتحاد بين الماء واليابسة في سبيل إنعاش مصر...

وقد روى هذه القصة كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين(194) وسنكتفي بإيراد ماساقه ابن عبد الحكم، ننشره لشهرته، لا لصِحَّته:

(192) الغرين : الطين.

(193) الماء معجزة الطبيعة / طومسون كنج ص : 199.

(194) المقرئزي، في خطه، ص : 1/58 والنجوم الزاهرة ص : 1/35، «تاريخ الخلفاء». ص : 49. كتاب : «التشوف، إلى رجال التصوف» ص : 64 لابن الزيات، تحقيق : د. أحمد التوفيق.

قال عبد الرحيم بن عبد الرحمن ابن عبد الحكم : «لما فتح عمرو بن العاص مصر، أتى أهلها إليه، حين دخل إليه بُؤنة (من أشهر العجم) فقالوا له: «أيها الأمير، أن لنيلنا(195) سُنّة لا يجري إلا بها، فقال لهم: «وما ذاك؟» فقالوا: «إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عَمَدنا إلى جارية بكر من عند أبويها، فأرضينا أبويها، وأخذناها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في النيل، فيجري... فقال لهم عمرو: «إن هذا لا يكون في الإسلام، وأن الإسلام يهدم ما كان قبله... فأقاموا، بُؤنه. وأبيس، ومسري، وهو لا يجري قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى عمرو ذلك... كتب إلى عمر ابن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر، أما بعد، فقد أصبت، إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة... فَأَلْقِهَا فِي دَاخِلِ النِّيلِ، إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي... فلما قدم الكتاب إلى عمرو، فتح البطاقة، فإذا فيها: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت تجري من قبلك، فلا تجري. وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك... فعرفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين والبطاقة، ثم ألقى عمرو البطاقة في النيل، قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب، وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة، وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر...»(196)

كــان النـيل ذو عقلٍ وفهمٍ
لما يبدو، لِكُلِّ الناسِ مِنْهُ

(195) لهذا النهر حظ عظيم من جهد الجغرافيين الأولين والآخرين من عند اليونانيين الذي كان جغرافيوهم أسبق المتحدثين عن منابعه إلى اليوم... وأهم ما ألفه جغرافيو مصر إلى اليوم كتاب: «نهر النيل» للأستاذ محمد عوض محمد.
(196) «عجائب المخلوقات» للقزويني... ص: 291 - 292 / 1.

فيأتيهم إذا احتاجوا إليه،
ويذهب حين يستغنون عنه...!

* * *

وقد عدوا قصة جريان النيل من كرامات سيدنا عمر رضي الله عنه...
وفي الطبقات لابن السبكي بعد ذكر هذه القصة ما نصه: «فانظر إلى عمر
كيف يخاطب الماء ويكاتبه، ويكلم الأرض ويؤدبها... وإذا قال لك المغرور،
أين أصل ذلك في السنة؟ قل: «أيها المتعثر في أذيال الجهالات... أيطالب
الفاروق بأصل، وأن شئت أصلا، فهاك أصولا، لا أصلا واحدا... أليس قد
حَنَّ الجَدْع إلى المصطفى عليه السلام حتى ضَمَّه إليه؟ أليس شكا إليه
البعيرُ ما به؟ أليس في قصة الظبية حجة؟ والأصول في هذا النوع لا
تنحصر...».

ويرحم الله الشيخ المختار الشنقيطي في قوله :
كرامة الولي حق، وظهر
منها كثير، كرسالة عمر
لنيل مصر، وَسَمَاعُ سَارِيَه
منه الكلام في البلاد النائية

* * *

وإلى قصة حفلة زفاف النيل، يشير أمير الشعراء أحمد شوقي إلى
تفاصيلها بأسلوب رائع، وصياغة فنية بديعة، وشاعرية أخاذة ولنقرأ هذه
الصورة... ونرى أي حد تعاون الحدث الدرامي مع الموسيقى الصوتية.
والتشكيل البنائي في خلق مشهد مُفَعَّم بالحياة يجسد المشاعر المتضاربة
والأحاسيس العارمة، وطبيعة الموقف الحافل بالرهبة. والخطر. والفرح.
والتضحية. والقداسة. والصراع، اسمعه يقول:

وَنَجِيبةٍ بين الطفولة والصبا
عذراء، تشرَّبُها القلوبُ وتعلّق
كان الزفافُ إليك غايةَ حظّها،
والحظُّ إن بلغ النهايةَ مُوبق... (197)
لا قيتَ أعراسا، ولا قت مأثماً !!
كالشيخِ ينعمُ بالفتاة، وتزهقُ
في كل عام درّةً، تلقى، بلا
ثمنٍ إليك، وحرّة لا تُصدّق
حول، تُسائل فيه كلّ نجيبةٍ
سبقت إليك، متى يحول؟ فتلحق
والمجد عند الغانيات رغبةٌ
يبغى، كما يبغى الجمال ويُعشق
إن زوّجوك بهنّ، فهي عقيدةٌ،
ومن العقائد ما يلبّ ويحمق (198)
ما أجمل الإيمان، لولا ضلّةٌ
في كل دين، بالهداية تلصقُ
زفّت إلى ملك الملوك، يحثّها
دينٌ... ويدفعها هوى وتشوق
ولربما حسدتُ عليك مكانها
تربُّ تمسّحُ بالعروس وتُحذق...
مجلوةٌ في الفلك (199) يحدو فلكها
بالشاطئين، مزغرّد، ومصفّق

(197) موبق : مهلك.

(198) يلب : من لب إذا صار لبيبا.

(199) يحدو : يغني.

في مهرجان هزت الدنيا به
 أعطافها ! واختال فيه المشرق...
 فرعونٌ تحت لوائه، وبنائمه
 يجري بهن على السفين الزورق
 حتى إذا بلغت مواكبها المدى
 وجرى لغايته القضاء الأسبق
 وكسا سماء المهرجان جلاله
 سيفُ المنية، وهو صلت (200) يبرق
 وتلفتت في اليم كل سفينة
 وانثال (201) بالوادي الجموع، وحدقوا
 ألفت إليك بنفسها ونفيسها
 وأنتك شقيقة، حواها شيق...
 خلعت عليك حياءها وحياتها،
 أأ عز، من هذين شيء يُنفق...!!
 وإذا تنهى الحب، واتفق الفدى...
 فالروح في باب الضحية أليق
 ما العالم السفلي إلا طينة
 أزلية، (202) فيه تضيء، وتغسق (203)
 هي فيه للخصب العميم خميرة
 يندى بما حملت إليه، ويبثق (204)

(200) الصلت : الصقيل الماضي.

(201) انثال : انصب.

(202) أزلية : قديمة.

(203) تغسق : تظلم.

(204) يبتق : يحرق ويشق.

ما كان فيها للزيادة موضع
وإلى حماها النقص لا يتطرق...

* * *

وهكذا كان الماء رمزاً شعرياً إنسانياً وظفه الكثير من الشعراء
في مختلف الآداب العالمية، قديماً وحديثاً، وما يزال يملك من الغنى
والثراء الرمزي والأسطوري ما يجعله قابلاً لتوظيفات إبداعية، لا نهائية...
إنه عالم رمزي متعدد الأبعاد، وهو يُكوّن، كما قدمنا، إلى جانب النار
والتراب والهواء أحد العناصر الأولى التي اعتبرها بعض الفلاسفة القدماء
أصل كل الأشياء في العالم... وله حضور قوي ومتجدد في اللاشعور
الفردى والجماعى للإنسان... ولذلك لا تخلو أية تجربة شعرية من رمزية
الماء...

إلا أن نسبة حضور هذا الرمز تختلف باختلاف تجارب الشعراء،
وظروفهم الخاصة وبيئاتهم واتجاهاتهم الفكرية والفنية.

* * *

نعم: لقد تحولت أشعار أحمد شوقي أمير الشعراء، وحافظ إبراهيم
شاعر النيل إلى صور ولوحات تشكيلية، وقام الفنانون في مصر برسم
هذه القصائد وتجسيمها في عدة أعمال ليتم التلاحم بين الفنون التشكيلية
والتعبيرية...

ففي إطار الاحتفال بشاعري العربية الكبيرين : شوقي وحافظ،
والذي بدأ بمهرجان كبير ضم المبدعين العرب، قامت وزارة الثقافة
المصرية بإقامة مسابقة جعلت موضوعها استلهام أشعارهما في
أعمال تشكيلية تضم النحت والتصوير والحفر، وشارك
التشكيليون في هذه المسابقة، وتم عرض الأعمال الفائزة في قاعة
اخناتون...

وقد فاز بالجائزة الأولى في النحت الفنان عبد المجيد الفقي من تمثال استوحاه من قصيدة حافظ: «مصر تتحدث عن نفسها»... وفاز في التصوير الفنان صبري منصور عن لوحته: «عُروس النيل».

أيها النيل :

يقول الدكتور صبري منصور عن لوحته الفائزة :

اللوحة الفائزة عبارة عن تصور زيتي على الخشب، وهي مقاس 125 × 140سم... وقد اخترت قصيدة أحمد شوقي التي كتبها عن النيل باسم: «أيها النيل»، وهي قصيدة مطولة اخترت من بين أجزائها الجزء الذي يصور فيه مهرجان «عروس النيل» التي كانت تقدم قربانا للنهر كل عام عند قدماء المصريين، محاولا ترجمة الإيقاع الشعري عند شوقي إلى إيقاع تشكيلي فيه التزام بتصوير روح النصر، دون التقيد بتفاصيله...

والأبيات المختارة هي :

ونجية بين الطفولة والصبا
عذراء، تشربها القلوب وتعلق
كان الزفاف إليك غاية حظها
والحظ إن بلغ النهاية موبق
لاقيت أعراسا، ولاقت مأتما !!
كالشيخ ينعم بالفتاة، وتزهق !!
في كل عام «درة» تلقى بلا
ثمن إليك، وحررة لا تُصدق (205)
حول، تُسائل فيه كل نجية
سيقت إليك متى يحول؟ فتلحق

(205) تُصدق : من أصدق الرجل المرأة، أي سمى لها صداقا.

والمجد عند الغانيات رغبة يبغى، كما يبغى الجمال ويعشق

* * *

يصور شوقي في هذه الأبيات الفتاة المقبلة على الموت، وكأنها تزف إلى حبيبها، يحثها الشوق والرغبة... فهو مجد بالنسبة لها، تحسدها عليه قريناتها... والروح المقدمة هنا، هي أثمن ما تستطيع أن تقدم الضحية لحبيبها... ورغم أن شوقي قد عبّر عن حالة الرضا التي تقدم بها الفتاة نفسها قرباناً إلى النيل، فإن جوّ الموت وهوله يخيمان على الأبيات...

فهو يشير، مثلاً، إلى المأتم الذي تلاقيه الضحية في مقابل البهجة التي يلاقيها النيل، وينكر القضاء المسبق وسيف المنية الذي يبرق...

وهكذا التناقض بين الفرح والموت، وبين العرس والمأتم ومن حالة الرضا عند الفتاة التي تقدم نفسها قرباناً، وبين الفجيعة المسيطرة على المشاهدين المصدقين... هذا التناقض هو الذي حاولت أن أصوره في اللوحة التي بنيت بشكل هندسي متتابع، كي تشير إلى هذا الطقس... ووضعت الشخصية الرئيسية: «الفتاة» في منتصف الصورة، وقد غطت نفسها بطرحة الزفاف عاقدة يديها على صدرها في حالة استسلام وتقبل ورضا بالمصير، وقد أحيطت بشكل الهلال الذي يظهر هنا كانعكاس في المياه ليضفي على اللوحة حناناً ورقّة... فهو هنا رمز للصبا والبكارة والرقّة والحب، وفي شكله المقوس، احتواء، كما أنه يكمل الدائرة غير المتطورة مع السيدة في المنتصف السفلي من اللوحة...

أما الشخصيات الموضوعة في صفين متماثلين تقريبا فقد روعي في إيماءات حركاتهم التعبير عن فجيعة الموت، والترحيب به في الوقت نفسه... واستعملت الظلال والأضواء بطريقة مبسطة...

ولون اللوحة العام يميل إلى الرّماديّات التي تشيع جوا مشحوناً
بالتوتر، فيما عدا المستطيل الأرجواني الذي يمثل النيل والذي يوحي
بالغموض...

* * *

يقول ابن عانم المقدسي، وقد كتب عند ورود البشائر بوفاء النيل بيتين
وهما:

قَسَمًا لَيْسَ نَيْلٌ كَفَّكَ كَالنَّـ
ـيل، إِذَا رَايَةُ الْمَكَارِمِ تُنْشَرُ
أَنْتَ عِنْدَ الْوَفَاءِ طَلَقَ الْمَحْيَا
وَأَرَى النِّيلَ فِي الْوَفَا يَتَكَدَّرُ (206)

* * *

واننا في الأخير، لنسترجع كلمات كتبها «نيكوس كازانتزكيس» الكاتب
اليوناني الشهير صاحب: «زوربا اليوناني» عندما عمل في مصر مراسلاً
لإحدى الصحف اليونانية عام 1927...

«ومن الأنهار الثلاثة القديمة الكبيرة، وهي النيل والفرات والكانغ، يبقى
نهر النيل أكثرها عطاءً، فالنيل هو الذي نقل التربة، وأغنى الأرض، والنيل
هو الذي غمر الأرض في ما بعد بالماء، وجعلها مثقلة بالثمار، هو الذي
أنجب النباتات والحيوانات والفلاحين، وهو في النهاية الذي أجبر الناس
على العمل معاً من أجل تنظيم واكتشاف العلوم الأولى».

كان أجدادنا أكثر إدراكاً منا لأهمية النيل، واستمرار الحياة، ولهذا
السبب كان الكهان يثنون على النيل قائلين:
مرحباً أيها النيل المتجسد في الأرض...
القادم بسلام...

(206) «خلاصة الأثر» للمجبي ج : 183/3.

كي يحي مصر...
إنك تخفي عبورك في ثوب الظلام...
وتمد أمواجك إلى الحداثق...
وتعطي الحياة لكل شيء ظامى...
إذا توقفت أصابعك عن العمل
فإن آلاف المخلوقات سوف تهلك...!
وتصاب الجموع بالجنون...!
لكن حين تكشف لهم عن نفسك...
فإن الأرض تطلق صيحات البهجة
ويحسن كل بطن بالمتعة
وتدغدغ الضحكات كل نفس...
حيث تجد كل سن ما تلوكه وتمضغه...

* * *

وأخيراً، فإن كتاب الاستراتيجية في العالم، يؤكدون أن المياه سوف
تكون مصدراً من أهم مصادر الصراع في المستقبل... فإننا نعود إلى النيل
نؤدي واجب الوفاء والاحترام، ونذكر شعر أحمد شوقي عنه:

والماء تسكبه، فَيُسَبِّكَ عَسْجَداً
والأرض تغرقها، فيحيا المَغْرَق

الباب السابع :

الناس شركاء في ثلاث

المياه الطبيعية تعد شرطاً حيوياً للحياة على الأرض، لذلك اعتبرها الإسلام من المشتركات العامة التي لا يجوز لفردٍ بعينه، أو فئةٍ بعينها الاختصاص بها، إنما يسمَحُ لأفراد المجتمع المسلم من الاستفادة بها، وعلى ذلك فكل ما يحوزه الفردُ منها بجهده وعمله يعتبر مِلْكاً خالصاً له... أما أصل المصدر والرَّقَبَة، فتحتفظ بصفة الاشتراك والعموم، فهي من قبيل الملكية العامة.

وحول هذه الأفكار والمعاني يتمحور هذا الباب حول الفصول التالية:

الفصل الأول : ما الشيء الذي لا يجوز منعه ؟

الفصل الثاني : الوقف مرغوبٌ فيه للحاجات الاجتماعية.

الفصل الثالث : الماء والكأ - والنار - والملح.

ما الشيء الذي لا يجوز منعه ؟

يقول زكرياء بن محمد القزويني في كتابه : «عجائب المخلوقات» :
«ومن عجيب لطف الله تعالى أن كل مأكول ومشروب يحتاج إلى تحصيل أو معالجة حتى يصلح للأكل، إلا الماء، فإن الله تعالى أكثر منه، ولا حاجة إلى معالجته لعموم الحاجة إليه، فإن الله تعالى، كفى الخلق معالجة إصلاح الماء بتأثير الشمس في مياه البحر، وارتفاع البخار منها... ثم إن الرياح تسوق ذلك البخار إلى الموضع التي شاء، وينزلها مطراً، ثم يخزن ذلك في الأوشال والكهوف في جوف الجبال تحت الأرض، وتخرج منها شيئاً بعد شيء، وتجري الأنهار والأودية، وتظهر من القني والآبار بقدر ما يكفي العباد لعامهم، فإذا جاء العام المقبل أتاهم مطر، وهكذا مثل الدولار يدور حتى يبلغ الكتاب أجله...» (1)

إسقى أخاك النَّمْري :

من أجل هذا قال عليه السلام : «أفضل الصدقة سقي الماء»... (2) وقصة كعب بن مامة الإيادي (3) التي آثر فيها رفيقه بالماء على نفسه فمات عطشاً، مما يدور في كتبهم، ويضرب بها المثل عندهم، وإليها يشير حبيب في قوله: (4)

(1) «عجائب المخلوقات» ص : 183 - 1/184 على هامش : «حياة الحيوان» للدميري.

(2) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي، وغيرهم عن سعد بن عباد، ورواه أبو يعلى عن ابن عباس [كشف الخفاء، ص : 1/178].

(3) «بلوغ الأرب، في معرفة أحوال العرب» ص : 1/81.

(4) الديوان ص : 1/293.

يجود بالنفس إذ صَنَّ الجواد بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وإلى خَبَرِ كعب بنِ مَأمَة هذا، أشار أبو تمام في قوله :
كعب، وحاتم، اللذان تقاسما
خَطَطَ العلا من طارف وتليد،
هذا الذي خَلَفَ السحابَ، ومات ذا
في الجود مِيتَةً خُضِرِمَ (5) صِنْدِيد
أن لا يكن فيها الشهيد، فقوْمُه
لا يسمحون به بألف شهيد
وقصة كعب بن مَأمَة هي التي أيضاً، أشار إليها حازم في مقصورته،
فقال:

فَقَدْ تَصَدَّى لِلرَّدَى بِجُودِهِ
كَعْبٌ، إِلَى أَنْ مَاتَ، مِنْ فَرَطِ الصَّدَا
وَلَمْ يُغِثْ مُهْجَتَهُ بِالرِّيِّ، بَلْ
أَرَوَى أَخَاهُ النَّمْرِيَّ، وَسَقَى...

وكعب هذا أيضاً، هو الذي عناه جريرُ بقوله :
فما كعبُ بنُ مَأمَة، وابنُ سَعْدَى
بأجودَ منك، يا عمرُ الجوادا
وقد وصف النجاشي أنه اصطحب ذئباً في فلاة مُضِلَّة، لا ماء فيها،
وزعم أن الذئب ردَّ عليه، فقال: لست بأت، مادعوتني إليه من الصحبة، ولا
أستطيعه، لأنني وحشي، وأنت إنسي، ولكن اسقني، إن كان ماؤك فاضلاً
عن رَيِّكَ... يقول النجاشي:

(5) الخُضِرِم : الكثير من كل شيء والواسع والجواد المعطاء، والسيد الحمول.

فلست بـآتيه، ولا أستطيعه
ولأك، إسقني، إن كان مأوك ذا فضل (6)
وكما يقول حاتم :
إنَّ الجوادَ يَرَى في مالِه سُبلًا...

* * *

ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ :
ذكر أئمة التصوف في أصول مذهبهم السديد أن أول الأصول لديهم
اكتساب الحلال واستعماله، وقالوا: أصل الحلال، ماء الغدران، ونبات
الأرض، والفيء إذا قسم بعدل، والصيد في البر والبحر، ونحو ذلك مما لم
يجر عليه ملك لاحد. (7)
وقد استأذن عُمر الفزاري النبي عليه السلام، كما روته ابنته بهية،
فدخل بينه وبين قميصه، فجعل يقبل ويلتزم، ثم قال: «يا رسول الله:
حدثني: ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: الماء، قال: ما الشيء الذي لا
يحل منعه؟ قال: الملح... قال: ثم ماذا؟ قال: النار... قال: يا نبي الله: ما
الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: أن تفعل الخير خير لك». (8)
وهذه ناحية رائعة من نواحي العلاقة الإنسانية التي تجلت في حياة
وسلوك رسول الله عليه السلام، وهي تبين مدى المحبة التي انطبعت في
قلوب أصحابه رضوان الله عليهم... فعُمير الفزاري يجيء إلى الرسول
ليستفيد منه علماً، ولكنه مع هذه النية البريئة يريد أن يتلمس جسم رسول
الله قصد إشباع عاطفته الروحية الدافقة لرسول الله...

(6) عن شرح الشواهد للشنتمري، «الجامع لأحكام القرآن» ص : 3/265. - وفيه أنه يجوز حذف
النون من: «لكن» في غير القرآن.

(7) «الفريد، في تقييد الشريد» ص : 55، للفجيجي بن عبد الجبار، تقديم ع: التازي.

(8) رواه أبو داود.

إنه أعرابي على سلامة الفطرة، وسَجَاحَةِ الطبع، وصدق العاطفة ورهافة الحس التي تجعله يشعر بالبركة والري العاطفي في لمسه جسد رسول الله، فيستأذنه أن يدخل يده بين قميصه وجسده، أو أن يدخل هو فيما بينها، ويقينا أن عورة رسول الله كانت مستورة، وإن سلامة فطرة الرجل الأعرابي تجعله ينفر من الاقتراب منها، ولكنه يتلمس جسد رسول الله ويبحث عن موضع خاتم النبوة ليقع عليه تقبيلًا واحتضانًا للرسول... إنها صلة قامت بين رسول الله وأصحابه... صلة المودة والمحبة والاعزاز والتكريم، إنها نعمة الله وفضله وبركته على رسوله والمومنين من حوله... بعد هذا يستفيد عُمير من فقه رسول الله وتوجيهه، فيسأل عن الشيء الذي لا يصح له أن يمنعه عن الناس، فبين رسول الله عليه السلام شيئاً، ثم استزاد فزاده شيئاً آخر، ثم استزاد فزاده ثالثاً، وأخيراً عمم له فعل الخير، وأن فعل الخير كفيل بأن يعود عليه بالخير في الدنيا والآخرة... والأمور الثلاثة المذكورة في الحديث جاءت زيادة عليها في روايات أخرى هي الكأ، مجموعها أربعة: الماء - والكأ، والنار، والملح، وهي أمور ضرورية يحتاج إليها الناس كلهم.

وفي معنى قوله تعالى : ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، أنه الماء والكأ؛ أو الماء وحده، وقد قال الشعراء : سمعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء، وأنشدني فيه: يَمُجُّ صَبِيرُهُ الْمَاعُونَ صَبًا.

الصبير : السحاب...

* * *

إذا كنت على الماء، فلا تبخل بالماء :

وقد رويوا أثرًا عن النبي عليه السلام يقول: «إذا كنت على الماء، فلا تبخل بالماء» قال في التمييز، قال شيخنا: لم أقف عليه، لكن ما في صحيح

البخاري من حديث: «ورجل كان على فضل ماء فمنعه، فيقول الله: اليوم امنعك فضلي، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك، يشهد له...
لكن في المعجم الأوسط للطبراني عن عائشة مرفوعاً: «من سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء، فكأنما أعتق رقبة، أو في موضع لا يوجد فيه الماء، فكأنما أحياه...».
ونحوه للدارقطني في الأفراد عن أنس مرفوعاً بلفظ: «مَن سقى الماء من موضع لا يُقَدَّر فيه على الماء، فكأنما أعتق رقبة».
وأخرجه الخطيب عن أنس بلفظ: «إذا كثرت ذنوبك، فاسق الماء على الماء تتناثر ذنوبك، كما يتناثر الورق من الشجر في الريح العاصف...» (9)

* * *

من أجل ذلك حرص الإسلام على أن يكون كل ما هو ضروري لحياة الناس ملكية عامة، فقال رسول الله ﷺ:
«المسلمون شركاء في ثلاث: الماء، والكلاء، والنار...»
ولاشك أن هذا النص لم يكن للحصر، بل قاعدة شرعية تقضي بأن كل ما كان مثل هذه المواد ضرورياً للمجتمع لا يصح أن يترك لفرد أو أفراد تملكه، لا سيما إذا نشأ عن احتكارهم استغلال لحاجة الجمهور... وهذا ما فهمه الصحابة والتابعون وأئمة المسلمين، فقد ورد بكتاب الخراج لأبي يوسف: أن غلاماً لعبد الله بن عمر كتب إليه: «أما بعد، فقد أعطيت بفضل مائتي ثلاثين ألفاً درهماً» بعدما أرويت زرعني ونخلي وأرضي، فإن رأيت أن أبيعته، وأشتري به رقيقاً استعين بهم في عملك، فعلت... فكتب إليه عبد الله بن عمر: «جاءني كتابك، وفهمت ما كتب به إليّ، وإنني سمعت رسول

(9) «كشف الخفا» ص : 1/104.

الله عليه السلام يقول: «ومن منع فضل ماء ليمنع به، منعه الله فضله يوم القيامة، فإذا جاءك كتابي هذا، فاسق نخلك وزرعك وأرضك، وما قُضِل، فاسق جيرانك الأقرب فالأقرب، والسلام...»

كما ذكر أبو يوسف عن جرير بن عثمان الحمصي عن زيد بن حبان الشرعي قال: كان منا رجل بأرض الروم نازلاً، وكان قوم يزرعون حول خبائه، فطردهم، فنهاهم رجل من المهاجرين عن ذلك، وزجره فامتنع، فقال الرجل: «لقد غزوت مع رسول الله ﷺ ثلاث غزوات، اسمعه فيها يقول: «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء، والكلاء، والنار... فلما سمع الرجل ذكر النبي عليه السلام رق، فأتى الرجل، فاعتقه واعتذر إليه...» (10)

ومن رائع الإيجاز قوله تعالى في صفة الأرض: «أخرج منها ماءها، ومرعاها» (11) فقد أغنت لفظتا، الماء والمرعى عن أشياء كثيرة في الطبيعة...

قال السيوطي: «دل بهاتين الكلمتين على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والحب والعصف والحطب، والنار، والملح، لأن النار من العيدان، والملح من الماء...» (12)

* * *

وقد أخرج الإسلام في نطاق الملكية الفردية الأشياء التي لا يتوقف وجودها، ولا الانتفاع بها على مجهود خاص، وتكون ضرورية لجميع الناس، فأوجب أن تكون ملكيتها ملكية جماعية، حتى لا يستبد بها فرد، أو أفراد، أو هيئة، أو جماعة، فيضار المجتمع من جراء ذلك.

(10) «كتاب الخراج» ص: 144 - 115.

(11) سورة «النازعات» آية: 31. انظر «الأحكام السلطانية» لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت458هـ) ص: 219 - 221 - وانظر: أيضاً، الأحكام السلطانية، والولايات الدينية للماوردي (ت450هـ) ص 184.

(12) «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي ص: 2/55.

فالمياه الطبيعية، سواء كانت مياه الأنهار أو الآبار أو البحار أو البحيرات تعد شرطاً حيوياً للحياة على الأرض، ولذلك اعتبرها الإسلام من المشتركات العامة التي لا يجوز لفرد بعينه، أو فئة بعينها الاختصاص بها، إنما يسمح لأفراد المجتمع المسلم من الاستفادة بها، وعلى ذلك فكل ما يحوزه الفرد منها بجهد وعمله يعتبر ملكاً خالصاً له... أما أصل المصدر والرقبة فتحتفظ بصفة الاشتراك والعموم، فهي من قبيل الملكية العامة...

فقول الرسول عليه السلام : «الناس شركاء في ثلاث : الماء، والكلاء، والنار» يفيد أن كل إنسان له حق الاستفادة من هذه المواد الطبيعية لحاجة الناس جميعاً إليها، وقد قرر الفقهاء أنه لا يجوز أن يستأثر بها إنسان دون بقية الناس، إلا بعد إحرازها في الآنية، وما أشبهها، فإذا أدت الملكية الشخصية لهذه الأشياء إلى أن تحبس عن الناس، أو يتحكم مالكها في ثمنها أو توزيعها بحيث يتضررون من ذلك، وهم في حاجة إليها، كان للدولة أن تحول دون هذا الاحتكار، وجاز لها أن تتخذ الوسائل الكفيلة لاشتراك الناس جميعاً في الاستفادة منها تحقيقاً لمعنى الشركة الواردة في الحديث، وذلك يعني التأميم، أو تدخل الدولة في تحديد الأسعار، ولا شك في أن النص على تلك المواد الثلاث ليس للحصر، بل يلحق بها كل ما كان مثلاً في حاجة الناس جميعاً إليها... بدليل إضافة الملح إليها في بعض الروايات، وهذا يعني أن كل ما كان ضرورياً للناس من طعام أو غيره يأخذ ذلك الحكم، وهو جواز التأميم من الناحية التشريعية.

الوقف مرغوبٌ فيه للحاجات الاجتماعية

من المعلوم أن الوقف جائز في الإسلام، بل هو مرغوب فيه للحاجات الاجتماعية في قوانين التكافل الاجتماعي، والوقف كما عرفه الفقهاء هو «إخراج العين الموقوفة من ملك صاحبها إلى ملك الله أي أن تكون غير مملوكة لأحد، بل تكون منفعتها مخصصة للموقوف عليهم...» وهذا هو التاميم... (13)

ويعلق الشوكاني (14) على حديث : «المسلمون شركاء في ثلاثة: الماء، والكلاء، والنار...»

الماء : فيه دليل على أن الناس شركة في جميع أنواع الماء من غير فرق بين المحرز وغيره...

ومعلوم أن الماء في الجرار ونحوها ملك إجماعاً، ومن لازم الملك الاختصاص، وعدم الاشتراك بين غير محصورين، كما يقضي به الحديث، فإن صح هذا الإجماع كان مخصصاً لأحاديث الباب...

والنار : قيل المراد بها الشجر الذي يحطبه الناس، وقيل المراد منها الاستصباح منها، والاستضاءة بضوئها، وقيل المراد بها الحجارة التي توري النار، إذا كانت في موات الأرض، وإذا كان مراد بها الضوء، فلا خلاف أنه لا يختص به صاحبه، وكذلك إذا كان المراد بها الحجارة المذكورة، وإذا كان المراد بها الشجر، فالخلاف فيه كالخلاف في الحطب... وسيأتي...

(13) «اشتراكية الإسلام» مصطفى السباعي ص : 99.

(14) «نيل الأوطار» ص : 258 وما بعدها ج : 5.

الكلاء : هو أعم من الحشيش لأنه مختص بالرطب من اليابس، والحشيش مختص باليابس، والكلاء يعمها... قيل المراد بالكلاء هنا هو الذي يكون في المواضع المباحة كالأودية والجبال والأراضي التي لا مالك لها، وأما ما كان قد أحرز بعد قطعه، فلا شركة فيه بالإجماع كما قيل... وأما النابت في الأرض المملوكة والمتحجرة، ففيه خلاف، وقيل مباح مطلقا، وإليه ذهب الهادوية، وقيل تابع للأرض فيكون حكمه حكمها، وإليه ذهب المؤيد بالله...».

قال القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب أبي حنيفة في تأليفه القيم الذي يبحث في النظم المالية للدولة الإسلامية:

«كل من كانت له عين، أو بئر، أو قناة، فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها، ويسقي دابته وبعيره وغنمه منها، وليس له أن يبيع من ذلك شيئا للشفة، والشفة عندنا الشرب لبني آدم والبهائم والنعم والدواب، وله أن يمنع السقي للأرض والزرع والنخل والشجر، وليس لأحد أن يسقي شيئا من ذلك إلا بإذنه، فإن أذن له فلا بأس بذلك، وإن باعه ذلك لم يجز البيع، ولم يحل للبائع والمشتري، لأنه مجهول، غرر لا يعرف. وكذلك لو كان في مصنعة يجتمع فيها الماء من السيول، فلا خير في بيعه أيضا. ولو سمى له كيلا معلوما أو عدد أيام معلومة لم يجز ذلك أيضا، للحديث الذي جاء في ذلك والسنة.

قال : ولا بأس ببيع الماء إذا كان في الأوعية، لأن هذا ماء قد أحرز، فإذا أحرزه في وعائه فلا بأس ببيعه، وأن هيا له مصنعة فاستقى فيها بأوعيته حتى جمع فيها ماء كثيرا ثم باع من ذلك فلا بأس إذا وقع في الأوعية، فقد أحرزه وقد طاب بيعه. فإذا كان إنما يجتمع من السيول فلا خير في بيعه، وإن كان في بئر أو عين، يزداد ويكثر أو لا يزداد ولا يكثر، فلا خير في بيعه، ولو باعه لم يجز البيع، ومن استقى منه شيئا فهو له

ولو كان يجوز بيعه ما طاب للذي يستقيه حتى يستطيع نفس صاحبه. إلا ترى أنه لا يطيب لرجل أن يأخذ ماء من سقاء صاحبه إلا بإذنه وطيب نفسه؟! إلا أن يكون حال ضرورة يخاف فيها على نفسه.

قال : وليس لصاحب العين والقناة والبئر والنهر أن يمنع ابن السبيل، لما جاء في ذلك من الحديث والآثار. وله أن يمنع سقي الزرع والنخل والشجر والكرم، من قبل أن هذا لم يجيء فيه حديث، وهو يضر بصاحبه، فأما الحيوان والمواشي والإبل والدواب فليس له أن يمنع من ذلك. ألا ترى لو أن رجلا صرف نهر رجل إلى أرضه فاختصما لقضت به لرب النهر ومنعت الذي قهره من صرف مائه إلى أرضه، من نهر كان أو قناة أو عين أو بئر أو مصنعة؟ إلا ترى أن هذا يهلك حرث صاحب الماء، وليس ما ذكرنا من سقي الحيوان يجحف بصاحب الماء؟ ألا ترى أن صرف الماء في نهر الغاصب يقطع عن حرث أرضه، وعن سقي زرعه ونخله وشجره، وأن شرب الشفة لا يقطع عن ذلك ولا يضر وفصل ما بين هذين، الأحاديث التي جاءت في ذلك والسنة».

* * *

يخلص مما سبق أن «التاميم» وقع في الإسلام «تشريعا» كما في الوقف، ووقع في تاريخ الإسلام «عملا» كما في «الجمي» وأن نزاع الملكية رغما عن صاحبها، وقع من الرسول «قضاء» كما في قصة سمرة بن جندب، (15) فإذا كانت المصلحة العامة تحتم التاميم، وفيه دفع الظلم والضرر عن الناس، أو عن فئة كبيرة منهم، كان التاميم واجبا في تلك الحالات...

* * *

(15) كان لسمرة بن جندب نخل في حائط رجل من الأنصار، فكان يدخل عليه هو وأهله فيؤذيه، فشكا ذلك الأنصاري إلى رسول الله ﷺ ما يلقاه من سمرة، فقال الرسول لسمرة: بعه، فأبى، قال: فاقلعه، فأبى، قال: هبه، ولك مثلها في الجنة، فأبى وكان يظن أن الرسول يقول له ذلك على سبيل النصح لا على سبيل القضاء والالزام، فقال له رسول الله: أنت مضار، وقال للأنصاري: «أذهب فاقلع نخله».

لقد كانت جزيرة العرب تعد بقاعها من الأرضين الجافة، فالأمطار قليلة شحيحة بصورة عامة، ولا سيما أقسامها البعيدة عن البحر، والأنهار الكبيرة معدومة فيها، والعيون قليلة أيضاً، ولم تعتمد الزراعة فيها على الأمطار، كما تعتمد البلاد الأروبية، وإنما تعتمد على النهرات والآبار والعيون، وهذه الأحوال أثرت أثراً كبيراً في حياة أهلها الاجتماعية، فحول قسماً منهم إلى بدو رُحَّل، ينتقلون من مكان إلى مكان طلباً للماء، وانتجاعاً للكلأ والمرعى... هدفهم في هذه الحياة الحصول على الماء والكلأ والمرعى والحطب والنار.

فالماء والكلأ هما العِزُّ والجاه والثراء، وأغلى شيء في هذه الدنيا، فقاتل بعضهم بعضاً من أجل الحصول عليها، وقطعوا مسافات شاسعة بحثاً عنهما، ولم يتمكن الروم والرومان من منعهما من دخول بلاد الشام بحثاً عن الكلأ والماء والحطب، ولم يتمكن الساسانيون من منعهم من الوصول إلى هذه الثروة العظيمة... كذلك هذه الثروة التي سببت اقتتال القبائل فيما بينها من أجل الحصول عليها...

لذلك كان الماء يُعدُّ أعظم ثروة ينالها الإنسان... ثم على الدنيا العَفَاء... ففي الدوحة... أنه لما امتحن السلطان أبو عبد الله الشيخ زوايا المغرب، قيل لأبي علي الحسن بن عيسى المصباحي دفين الدعادي التي على وادي مضى، من عمل القصر: «ألا تخشى من هذا السلطان؟» فقال: «إنما الخشية من الله، ومع هذا، فالماء والقبلة لا يقدر أحد على نزعهما، والباقي متروك لمن طلبه...» (16) ومعنى هذا أن الماء لا يملك إذا كان عاماً، مثل منابع الماء التي لا يحوزها مالك، بل هي تكون مشاعة لكل وارد، وبين الجميع، لا يملكها أحد من أهل القرية أو الحي، وليس لرقبتها مالك... فماؤها للجميع، وقد ورد، كما قدمنا، أن الناس شركاء في الماء، ماء

(16) الاستقصا : ص : 26 / 5.

الأرض، وماء السماء، إذا كانا في أرض عامة، أي مشاعة ينتفع منها كل إنسان... (17)

ولما لجج السلطان أبو الحسن المريني وجيشه الراكب البحر معه، احتاجوا إلى الماء، فدخلوا مرسى بجاية لخمس ليال من إقلاعهم عن تونس، فمنعهم صاحب بجاية الحفصي من الورود، وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم، فزحفوا إلى الساحل، وقتلوا من صدهم عن الماء إلى أن غلبوهم، واستقوا، وأقلعوا... (18)

وفي عام 1060 هـ قطع القائد أبو بكر التاملي من فاس الجديد المرينية الماء عن فاس الإدريسية... (19)

وفي عام 1061 هـ من الثالث والعشرين من صفر قطع أهل فاس الجديد الماء، ووقع قتال عظيم مات فيه عبد الكريم الليريني الأندلسي... (20)

كما رفع أبو الحسن المريني عن تلمسان من المغارم ما كان شائعاً خسيساً ويجتمع فيه أموال كالمغرم على الحطب... وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف، واجحاف الضعيف بها أشد، وغير ذلك من المغارم، ومما رفع أبو الحسن المريني رضي الله عنه، وظيفة مغرم الماء، وكان سقى الجنات يضطر فيه إلى مغرم للبرادة، ولصاحب الحوز والحراس، ويجري فيه من المصائب والخسارات والغبن ما لا يدخل تحت حصر... (21)

* * *

(17) تاج العروس ص : 10/99 مادة حمى.

(18) الاستقصاء ص : 3/171.

(19) نشر المثنائي ص : 2/51.

(20) النشر : ص : 2/53.

(21) المسند الصحيح، لابن مرزوق، ص : 285.

الفقهاء أدخلوا جميع المرافق العامة :

لقد خصت الأحاديث الماء، والكلاء، والنار، والحطب والملح، بالتحديد والتعيين، لأنها كانت من ضروريات الحياة الاجتماعية في البيئة العربية... والضرورات في حياة الجماعة تختلف باختلاف البيئات والعصور، والقياس، وهو أحد أصول التشريع الإسلامي ينفسح لسواها عند التطبيق مما تتوافر فيه صفاتها... (22)

ولذلك ادخل الفقهاء في هذا الباب جميع المرافق العامة كالطرق والجسور والخزانات والآثار القديمة... وما إلى ذلك...

وهكذا يمكن استخدام القوى الطبيعية كالرياح والشلالات في توليد الطاقة، وهذه أيضا يعتبر من المباحات العامة التي لا يجوز استحوان عليها من قبل فرد، أو فئة، بل هي ملك عام لجماعة المسلمين، ويعود للدولة أمر تنظيم استغلالها والإفادة منها...

فالمصادر الطبيعية للطاقة تعتبر أساسا لكل انطلاق اقتصادي ومن شأن الاختصاص بها والسماح بتملكها ملكية خاصة تعزيز للمركز الاقتصادي والاجتماعي للفئات التي تستأثر بها، ودعم لسيطرتها الاقتصادية مما يؤدي في النهاية إلى الاخلال بتوزيع الثروة... وبالتالي الأضرار بمصالح المجتمع...

لقد أخرج الإسلام في نطاق الملكية الفردية الأشياء التي لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص، وتكون ضرورية لجميع الناس، فأوجب أن تكون ملكيتها ملكية جماعية، حتى لا يستبد بها فرد أو أفراد، فيضار المجتمع من جراء ذلك...

(22) «المساواة في الإسلام». د. علي عبد الواحد وافي من ص : 80 - 82.

الماء . الكأ . النار . الملح

يمكن أن نتحدث، بعد هذه المقدمة عن أهم هذه العناصر التي تعد من المباحات، والمعادن وموارد ما تحت التربة... في الفصل الآتي:

الماء :

الماء خلقه الله في الأصل مشتركا بين العباد والبهائم، وجعله سقيا لهم، فلا يكون أحد أخص به من أحد، ولو أقام عليه، وبنى عليه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ابن السبيل أحق بالماء من الباني عليه». ذكره أبو عبيد عنه، وقال أبو هريرة: «ابن السبيل أول شارب».

وقد ورد المنع من بيع الماء الذي يشترك فيه الناس، فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن بيع فضل الماء» كما نهى سيدنا محمد عليه السلام عن بيع ضراب الفحل، وعن بيع الماء والأرض لتحترث...

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنع فضل الماء، لتمنعوا به الكأ» وعن النبي عليه السلام قال: «من منع من فضل مائه أو فضل كآله منعه الله فضله يوم القيامة» وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة ولا يزكهم، ولهم عذاب أليم»: رجل كان له فضل ماء بالطريق، فمنعه ابن السبيل، ورجل بايع إمامه لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعة بعد العصر، فقال: والذي لا إله غيره، لقد أعطيت

بها كذا وكذا، فصدقه رجل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وخرج الخطيب أبو بكر في ترجمة القاضي صالح بن بيان أحد أصحاب سفيان الثوري قال: «حدثنا سفيان عن علي بن أبي عبيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: من سقى الناس في موضع لا يقدر على الماء فيه، فله بكل شربة يشربها البر والفاجر عشر حسنات، تكتب له، وعشر درجات ترفع له، وعشر سيئات تحط عنه... ومن سقى الماء في موضع لا يقدر على الماء فيه، فكأنما أحيا الناس جميعا، فقال: إذا أحييت نفسك، فتوابع الجنة، وكذا من أحيا الناس جميعا. فتوابع الجنة...»

وعن سعد بن عباد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصدقة سقي الماء».

ومن حديث لأبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ: ليس من صدقة أعظم أجراً من ماء...

وقديما عير العرب من كان يمنع فضلة ماء على العطشى والمحتاجين إليه، بل شددوا النكير على من كان يبيعه للناس، ويتاجر فيه، فقد وَقَدَ عَلِيْمُ بْنُ خَالِدِ الْهُجَيْمِيِّ عَلَى هِشَامٍ، وَعِنْدَهُ الْأَبْرَشُ الْكَلْبِيُّ، فَقَالَ لَهُ الْأَبْرَشُ الْكَلْبِيُّ: يَا أَخَا بَنِي الْهُجَيْمِ، مِنَ الْقَائِلِ...

لَوْ يَسْمَعُونَ بِأَكْلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ

بُعْمَانٍ، أَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُعْمَانٍ

ألكم يقوله ؟ قال : نعم لنا يقوله، ولكنكم يا معشر كلب تُعَيِّرُونَ النساء، وتجزون الشاء، وتكثرون العطاء، وتؤخرون العشاء، وتبيعون الماء... (24)

(24) «الإمطاء والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي ص : 173/3.

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى : أن صاحب عين ماء أتى عمر بن الخطاب، وعنده كعب بن سور بن بكر الأزدي، فقال: «يا أمير المؤمنين: إن لي عينا، فاجعل لي خراج ما تسقى...! فقال: «ولم؟ قال: لأنه لا يفيض ماؤه عن أرضه فيسقي الناس، ولو حبس ماءه في أرضه لغرقت، فلم ينتفع بمائه، ولا بأرضه، فَمُرّه، فليحبس ماءه عن أرض الناس إن كان صادقاً. فقال له عمر : أتستطيع أن تحبس ماءك؟ قال: لا، قال عمر: هذه لكعب

مع الأولى...

وذلك لأن موقف كعب تطبيق لقاعدة إسلامية مكية هي: «الخراج بالضمان»، ومعنى الخراج ما يخرج من القلة والنتاج والمنفعة، ومعنى الضمان: ما يصرف من النفقات أو يتحمل من الأضرار...

* * *

إن أحاديث اشترك الناس في الماء دليل ظاهر على المنع من بيعه، وهذه المسألة التي سئل عنها أحمد رحمه الله، وهي التي ابتلى الناس بها في أرض الشام وبساتينه وغيرها، فإن الأرض والبستان يكون له حق من الشرب من نهر فيفُضُّل عنه أو بينيه دورا أو حوانيت، ويؤجر ماءه، فقد توقف أحمد، ثم أجاب بأن النبي ﷺ نهى عن بيع الماء... فلما قيل له: «إن هذه إجارة» قال: «هذه التسمية حيلة، وهي تحسين اللفظ، وحقيقة العقد البيع، وقواعد الشريعة تقتضي المنع من بيع هذا الماء فإنه إنما كان له حق التقديم في سقي أرضه من هذا الماء المشترك بينه وبين غيره، فإذا استغنى عنه لم يجز له المعاوضة عنه وكان المحتاج إليه أولى به بعده، وهذا كمن أقام على معدن فأخذ منه حاجته لم يجز له أن يبيع باقيه بعد نَزْعِهِ عنه، وكذلك من سبق إلى الجلوس في رحبة أو طريق واسعة فهو أحق بها مادام جالسا، فإذا استغنى عنها، وأجر مقعده لم يجز، وكذلك الأرض المباحة إذا كان فيها كلاً أو عشب، فسبق بدوابه إليه، فهو أحق

برعيه مادامت دوابه فيه، فإذا طلب الخروج منها وبيع ما فضل عنه لم يكن له ذلك، وهكذا هذا الماء سواء، فإنه إذا فارق أرضه لم يبق له فيه حق، وصار بمنزلة الكلاء الذي لا اختصاص له به ولا هو في أرضه...

قال ابن تيمية: (25) ما نصه : «وأما قوله: الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلاء، والنار، فهو حديث معروف، رواه أهل السنن، وقد اتفق المسلمون، على أن الكلاء النابت في الأرض المباحة مشترك بين الناس، فمن سبق إليه، فهو أحق به...»

وأما النابت في الأرض المملوكة، فإنه إن كان صاحب الأرض محتاجا فهو أحق به، وإن كان مستغنيا عنه ففيه قولان مشهوران لأهل العلم، وأكثرهم يجوزون أخذه بغير عوض، لهذا الحديث، ويجوزون رعيه بغير عوض...

وكذلك الماء، إن كان نابعا في أرض مباحة، فهو مشترك بين الناس، وإن كان نابعا في ملك رجل، فعليه بذل فضله لمن يحتاج إليه، للشرب للآدميين والدواب بلا عوض، لهذا الحديث، ولقوله عليه السلام في الحديث الصحيح، ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم... رجل على فضل ماء يمنع ابن السبيل، يقول له: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يدك، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن منعه سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال والله الذي لا إله إلا هو لقد أعطيت بها كذا وكذا... كما تقدم...

* * *

كَرِهَ الْإِسْلَامُ أَنْ يَكُونَ الْمَالُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ :

إن الإسلام لا يكلف الناس فوق طاقتهم، ولا يحملهم مالا يطيقون مهما تسامى بهم عن الضرورات الأرضية، فهو يشيد بالقيم المعنوية، ولا يغفل

(25) «الفتاوي» ص : 219 - 220 / 29.

أثر القيم الاقتصادية، لذلك كره أن يكون المال دُولَةً بين الأغنياء فحسب، وجعل هذا أصلاً من أصول نظريته في سياسة المال، وأوجب رد بعض هذا المال للفقراء ليكون مورد رزق مملوك لهم، يضمن لهم الكرامة والذاتية، ويجعلهم قادرين على القيام بأمانة هذا الدين في التغيير عن المنكر من الحكام والمحكومين على السواء... لذلك كان هناك نوع من الأموال التي لا يجوز احتجازها للأفراد عدد الرسول منها ثلاثة، وفي رواية أربعة بوصفها مورداً من موارد الرزق، ومرفقاً عاماً ضرورياً لحياة الجماعة في البيئة الإسلامية... فالانتفاع بها للجماعة كلها على وجه الشروع، والمشاركة العامة... والضروريات لحياة الجماعة تختلف من بيئة إلى بيئة، وفي عصر عن عصر... والقياس، وهو أحد الأصول الأولى في التشريع الإسلامي، يفسح لسواها عند التطبيق مما هو في حكمها، على أن لا يؤثر ذلك في القواعد الإسلامية للنظام الإسلامي...

الكَلَأ :

إذا أمطرت السماء مطراً كافياً، كان ذلك خيراً للقبيلة، وفرحة عظيمة، إذ تغيث الأرض، وتكسوها حلة سندسية جميلة، وتزول الغبرة من وجهها، وتظهر الأرض فرحة مستبشرة بعد كآبة وعبوس، وإحباط ويأس، فتهيج الأرض، ويخضر نبتها، ويقال للخضرة التي تكسو وجه الأرض: «الكَلَأ» وهو العشب رطبه ويابس، وأرض كليئة ومكلأة، كثيرة الكَلَأ. (26)

فالمراد «بالكَلَأ» ما يظهر وحده في أرض غير مملوكة لأحد، والمباح الذي لا يخص به إنسان، وهو العشب وما تنبته الأرض مما تأكله المواشي من غير أن يزرع في الأرض، فإن كان في الصحاري والفيافي التي لا ملك لأحدٍ عليها، فالناس فيه سواء لا يمنع أحدٌ منهم الآخر منه،

(26) تاج العروس، مادة : كَلَأ : ص : 1/111.

وإن كان بأرض مملوكة لمعين، فإنما لمالكها أن ينتفع به ويحميه لرعيه خاصة...

فالمراعي العامة هي ذات الكلاً، وهي بالتالي لا تدخل في ملك أحد، وإنما يرمى فيها كل أبناء الحي، وجميع أبناء القبيلة، لأن أرض القبيلة ملك للقبيلة مادامت عزيزة فيها، مالكة لرقبتها، يرمى فيها كل أبنائها، فإذا ذلت واستخذت طمعت فيها القبائل المجاورة القوية، فشاركها في أرضها، وربما أجلتها عنها.

واختلف هل يجوز بيع الكلاً ؟ ومنع الناس منه؟ أم لا؟ قالوا: لا يجوز للفرد بيع الكلاً أصلاً، لأنه كالماء الذي أجراه الله على وجه الأرض، إلا إذا حجزه وحضره، فحينئذٍ يجوز له بيعه، والا فلا يجوز له بيعه، وهذا هو قول أشهب من الفقهاء المالكية...

وقال الإمام مالك رضي الله عنه، وابن القاسم في العتبية بالتفصيل،. يجوز بيعه عندهما إذا كان في مروجه، وهي الأراضي التي تكون فيها دوابه أو كان في حماه الذي يوره من أرضه لأجل الرعي فيه، فله منع غيره من رعي كلاً هذين الموضعين، وله بيعه، وإذا كان في غيرهما من خصب فدأدينه، فيجبر على إباحته للناس أن استغنى عنه، إلا أن يكون في وصوله المواشي إليه ضرر عليه، مثل فدآن فيه خصب للرعي وحوله زرع له، فيتضرر بمرور المواشي إليه في زرعه، فيكون حينئذٍ المنع، وإن لم يحتج إليه...

يخلص مما سبق أن الكلاً إذا كان في أرض عامة، فإنه يكون، أيضاً ملكاً للجميع، فهم فيه شركاء، أي مشاعاً بينهم، فلا يجوز لأي أحد منع آخر في الاستفادة منه لأنه مشترك بين الجميع، فلا يكون أحد أخص به من أحد، ولو أقام عليه، وبني عليه، وباستثناء الأحماء، فإن الكلاً النابت في موطن قبيلة هو لكل أبناء القبيلة ليس لأحد صد ومنع أحد عنه إلا إذا كان

غريباً عن القبيلة، دخل أرضها بغير إذن من أبنائها، وهو ليس في حماية أحد منها، فالكلأ في البادية لا يعود لمالك فرد، وإنما هو ملك القبيلة، أبناء القبيلة فيه شركاء، يرعون فيه سواء... (27)

النار :

لا تبتنى المدن إلا على الماء والكلأ والمحتطب، فدخلت النار في المحتطب، إذ كان كل عود يُوري...

والمراد بالنار مواد الوقود التي لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص كالحطب في الغابات، وبين الأشجار البرية غير المملوكة لأحد، والذي تبقىهِ الريح في فلاة ونحوها... وقد افتخر العربي بأنه يقدم النار للضيوف الذين تضطربهم الحاجة إلى الغير ولذلك قال شاعرهم:

وإنك إذ ما تآتينا تستجربنا،
تجد حطباً جزلاً، وناراً تأججاً
ويقول الحطيئة من قصيدة يمدح فيها بغيض بن عامر :
متى تآتته تعشو (28) إلى ضوء ناره
تجد خير نار، عندها خير موقد

ويقول الآخر :

لنعم الفتى يعشو إلى ضوء ناره
إذا الريح هبت، والمكان جديب

وهذا امرؤ القيس بن حجر الكندي يمدح طريف بن مالك، بأنه رجل كريم، وأنه يوقد النيران ليلاً ليراها السائرون، فيقصدوا نحوها... ويفعل ذلك إذا نزل القحط بالناس، واشتد البرد، وهو الوقت الذي يضمن فيه الناس

(27) تاج العروس ص : 10/99، مادة : حمى.

(28) قال الخليل : العشو : النظر ببصر ضعيف - عشي بالنار، كرسي ودعا : ساء بصره، ومصدره العيشا، أي تجيئه على غير هداية. وهذا البيت من شواهد الألفية، في باب «عوامل الجرّم» والشاهد فيه : «متى تآتته ... تجد».

ويبخلون، وهو إن فعل ذلك في هذا الوقت، فهو في غيره أولى بأن يفعله،
اسمعه يقول:

لِنَعْمَ الْفَتَى تَعَشَوْا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ
طَرِيفُ بْنُ مَالٍ، لَيْلَةُ الْجُوعِ وَالْخَصَرُ (29)

أي طريف بن مالك، كما أشار إليه ابن مالك في باب الترخيم حيث قال:
ولا اضطرار رَحْمُوا، دون نِدَا
مَا لِلنَّدَا يَصْلُحُ نَحْوَ أَحْمَدَا

* * *

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى النار، وامتن بها على أهل الأرض، فقال:
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا، فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوْقِدُونَ﴾. (30)
فجعلها من أعظم الماعون معونة، وأخفها مؤونة...
والماعون الأكبر : الماء، والنار، ثم الكلاً والملح...
قال الشاعر في الماعون بيتاً جامعاً، أحسن فيه التأدية حيث قال:
لَا تَعْدِلَنَّ أَتَاوِيَيْنَ، قَدْ نَزَلُوا

وَسَطُ الْفَلَاةِ بِأَصْحَابِ الْمُجَلَّاتِ (31)
والمُجَلَّات هي الأشياء التي إذا كانت مع المسافرين حَلُّوا حيث شاءوا،
وهي القَدَّاحَة، والقَرَبَة، والمسحاة، (32) فقال: إِيَّاكَ أَنْ يَعدِلَ، إذا أردت
النزول، مَنْ مَعَهُ أَصْنَافُ الْمَاعُونِ بِأَتَاوِيَيْنَ، يعني واحداً أتى من هاهنا،

(29) تعشو : ترى ناره من بعد فتقصدها، الخصر : شدة البرد.
وطريف بن مَالٍ: أي مالك. حيث رَحَّم من غير أن يكون مُنَادِي مع اختصاص الترخيم في
اصطلاح النحاة بالمنادى، واركب هذا للاضطرار إليه، والذي سهّل هذا صلاحية الاسم للنداء.
(30) سورة «يس» آية : 80.

(31) «الأتاوي» بفتح الهمزة : الغريب في غير وطنه.
(32) المسحاة : في المخصص : «إنها القدر، الرحي، والشفرة، والفأس» وفي البيان، أنها: «الدلو،
والمقدحة، والقربة، والفأس» وفي اللسان: «القدر والرحي والدلو والقربة، والجفنة والسكين
والفأس والزند».

وآخر أتى من هاهنا... كأنهم جماعةُ التَّقَوُّا من غير تعريف بنسب ولا بلد...
 وإذا تجمعوا أفذاذا لم يكمل كل واحدٍ منهم خصال المَحَلَّات. (33)
 فالنار من أكبر الماعون، (34) وأعظم المرافق، ولو لم يكن فيها إلا أن
 الله، عز وجل، قد جعلها الزاجرة عن المعاصي لكان ذلك مما يزيد في
 قدرها، وفي نباهة ذكرها... (35) قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ،
 أَنَّكُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا، أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ (36) ثم قال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا
 تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ (37) فقف عند قوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً
 وَمَتَاعاً﴾ فإن كنت بهذا القول مؤمناً، فتذكر ما فيها من النعمة أولاً، ثم
 آخراً، ثم توهم مقادير النعم وتصاريها.

فالنار فأكهة الشتاء، فمن يرد
 أكل الفواكه شاتياً، فليصطل

ومما زاد في تعظيم شأن النار في صدور الناس قول الله عز وجل:
 ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى... إِنْ رَأَى نَاراً، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: امْكُثُوا، إِنِّي آنَسْتُ
 نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ، أَوْ أَجْدَ عَلَى النَّارِ هَدًى، فَلَمَّا أَتَاهَا، نُودِيَ:
 يَا مُوسَى: إِنِّي أَنَارُ بكَ، فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ، إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ (38)

(33) الحيوان : للجاحظ ص 97 - 5/98.

(34) الماعون : ما ينتفع به.

(35) «الحيوان» للجاحظ : ص : 4/463.

(36) سورة «الواقعة» : آية : 71 - 72.

(37) سورة الواقعة : آية 73. ومتاعاً للمُقْوِينَ، أي منفعة للمسافرين، سموا بذلك لنزولهم القَوَى، وهو
 القفر، ومنزل قَوَاء: لا أنيس به، يقال: أقوت الدار، وقويت أيضاً: أي خلت من سكانها، قال
 النابغة:

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعِلْيَاءِ. فَالْسَّنْدِ
 أَقَوْتُ، وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

ويقول عنتره :

حَبِيبَتٍ مِنْ طَلَلٍ تَقَادِمُ عَهْدُهُ
 أَقْوَى، وَأَقْفَرُ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْتِمِ

(38) سورة طه : آية : 9 - 10.

وقال عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِهِ: إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا سَآتِيَكُم مِّنْهَا
بَخِيرٌ، أَوْ آتِيَكُم بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ، فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن
بُورِكَ مَن فِي النَّارِ، وَمَنْ حَوْلَهَا، وَسَبَّحَانَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (39)
كان ذلك مما زاد في قدر النار في صدور الناس.

وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، قيل الماعون: «ما لا
يحل منعه كالماء والملح والنار»، لأن عائشه (ض) قالت: قلت يارسول الله
ما الشيء الذي لا يحلُّ منعه؟ قال: «الماء والنار والملح»، قلت: «يا رسول
الله، هذا الماء، فما بال النار والملح؟ فقال: يا عائشة، مَنْ أعطى نارا فكأنما
تصدق بجميع ما طُبِّخَ بتلك النار، وَمَنْ أعطى ملحاً، فكأنما تصدق بجميع
ما طَبِبَ به ذلك الملح، ومن سَقَى شربة من الماء، حيث يوجد الماء،
فكأنما أعتق ستين نسمة، ومن سقى شربة من الماء حيث لا يوجد، فكأنما
أحيا نفساً، وَمَنْ أحيّاها، فكأنما أحيا الناس جميعاً، كما ذكره الثعلبي
في تفسيره.

* * *

الملح: (40)

ويراد به ذلك النوع الذي يظهر وحده في القفار والجبال والصحاري
ونحوها، ويمكن الحصول عليه بغير عناء ولا مشقة أو نصب ولا علاج
خاص... يؤيد ذلك ما ورد في كتب السنة أن أبيض بن حمال وفد من
اليمن على رسول الله ﷺ. وطلب إليه أن يقطعه الملح الذي يبيع بعض الجهات
في بلاده، فأقطعه له رسول الله ﷺ، فلما خرج بصفقتة، قال رجل:

(39) سورة النمل: آية: 7 - 8.

(40) الاسم الكيماوي لملاح الطعام هو: «كلورور الصوديوم»، وهو ذائع الاستعمال في جميع أنحاء
الدنيا، حتى إن الأطفال في بعض القبائل الأفريقية يمسون قضبان الملح كما يمس أطفالنا
أعواد قصب السكر.

«يارسول الله، إن هذا الملح بأرض ليس فيها ماء» بمعنى أنه يستخرج بدون عنت أو نصب، وليس كالمح الذي يستخرج من الملاحات بعلاج خاص، ومن ورده من الناس أخذه، وهو مثل الماء العِد «بكسر العين» أي مثل الماء الجاري الذي تنقطع مادته، فقال عليه الصلاة والسلام لما سمع ذلك: «فلا إذن» وانتزع الملح من أبيض ابن حمال.

وقد وضع العلامة السُّدِّي في شرحه لهذا الخبر «بسنن ابن ماجه» الأصل الذي بنى عليه عمل رسول الله عليه السلام فقال: «أعطاه ذلك ظنا منه بأنه معدن يحصل منه الملح بكد وتعب، فلما ظهر خلافه رجع، ثم قال: «وفيه دليل على أن المعادن إذا كانت ظاهرة يحصل المقصود منها من غير تعب وكد، ولا يجوز إقطاعها، بل الناس فيها سواء كالمايه والكلاء، وقال ابن قدامة في كتابه «المغني» وهو من أهم المراجع في مذهب الإمام أحمد بن حنبل، معلقا على هذا الخبر: «لأن هذا الملح تتعلق به مصالح المسلمين العامة، فلم يجز إقطاعه...».

وكان العرب يتحالفون ويتعاقدون على الملح... والملح شيئان: أحدهما المَرْقَة، والأخرى اللَّبَن... وأنشدوا لِشُتَيْم بن خويلد الفزاري. (41)

لَا يُبْعِدُ اللَّهَ، رَبُّ الْعِبَادِ
وَالْمَلْحُ، مَا وَلَدَتْ خَالِدَةً (42)

وأنشدوا فيه، أي في الملح، قَوْل أَبِي الطَّمْحَان: (43)
وَإِنِّي لَأَرْجُو مِلْحَهَا فِي بَطْنِكُمْ
وَمَا بَسَطَتْ مِنْ جِلْدٍ أَشْعَثَ أَغْبَرًا (44)

(41) شتيم : بالتصغير شاعر جاهلي، منسوباً إلى نهيكَة بن الحارث المازين من مازن فزارَة.

(42) خالدة : بنت أرقم، أم كردم وكريدم ابني شعبة الفزاريين...

(43) أَبُو الطَّمْحَان : هو حنظلة بن الشرقي، كان نديماً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية، ثم أدرك الإسلام، وهو أحد المعمرين.

(44) البيت يقوله لقوم نزلوا عليه، فشربوا من البانها، ثم أغاروا عليها فأخذوها.

وذلك أنه كان جاورهم، فكان يسقيهم اللبن، فقال: «أرجوا أن تشكروا لي رَدَّ إبلي، على ما شربتم من ألبانها، وما بسطت من جلدٍ أشعتَ أغبر... كأنه يقول: كنتم مهازيل، والمهزول يتكشف جلده، وينقبض، فَبَسَطَ ذلك من جلودكم...» (45)

* * *

إن الكاتب الألماني «كارل شتيدي» شاء أن يستعمل تعريفاً جديداً للذهب الأبيض، أطلقه على: «ملح الطعام»، وذلك في معرض وصفه لرحلة مثيرة، اشترك فيها في قلب القارة الإفريقية لنقل الملح على ظهور الجمال سيراً على الأقدام، وفي فصل الصيف الحارق عبر مسالك طولها 500 كيل، في درجة حرارة تجاوزت نهائياً حوالي 70° مائوية...

والحقيقة أن الملح يستحق هذه التسمية، إذ أن ضرورته للحياة تعادل ضرورة الماء العذب... وأن دور الملح في حياتنا أثمن وأعلى من جميع أنواع الذهب المعروفة...

ولوفرة هذه المادة الغذائية والصناعية، وعلى الرغم من أهميتها، فإننا ننظر إليها على أنها عنصر يتمتع بهذا القدر من الأهمية، أننا كنا نرى، دائماً، كمياته الوفيرة محيطة بنا، كما أننا لا نشعر بأية صعوبة في الحصول عليها، وبالكميات التي نحتاجها...

ففي الصحراء مثلاً، لا يقوم الملح بحفظ الأغذية أو تحسين نكهة الطعام فحسب، وهي الاستعمالات المألوفة لملح الطعام في المدن، بل إن ضرورته للحياة تعادل ضرورة الماء العذب كما قلنا سابقاً...

فالإنسان يتفصد عرقاً، يومياً أثناء عمله، حوالي 10 + 15 كراما من الملح، ولا بد من تعويض هذه الكميات، ولا فرق في ذلك بين الإنسان

(45) «الحيوان» ص: 4/472.

والحيوان، وهذا يعني أن كل ساكن في الصحراء يحتاج سنوياً إلى كمية من الملح تقدر بـ 5.3 - 5 كيلوكرامات كي يحافظ على حياته... وقد اجتمع الاختصاصيون على أن الملح ضروري لاستمرار الحياة، كما أن انعدام الملح في الطعام يؤدي إلى الصداع وقلة الشهية للطعام، وضعف العضلات وتشنجهما، وإذا نقصت كمياته عن حد معين، فقد يؤدي ذلك إلى الوفاة... (46)

والملح يقوم بالاحتفاظ بالماء في أنسجة الجسم علماً أن كل 10 غرامات إضافية من الملح قادرة على حجز لتر كامل من الماء، وبالعكس، فإن نقص تزويد الجسم بالملح يؤدي إلى طروح كميات من الماء التي يحتاجها الجسم البشري. (47)

والأبحاث أثبتت أن الجسم بحاجة إلى مقدار معين من الملح لتأمين وتنظيم دورة السوائل فيه، ويمكن تأمين هذه الكمية الضئيلة عن طريق الأطعمة العادية، كاللحم الذي يحتوي على الملح بصورة طبيعية أو الخضار التي تستعمل الأسمدة الكيماوية في تسميدها...

* * *

ضريبة الملح :

لقد ظلت للملح قيمته الكبيرة، لدرجة أن فرنسا فرضت ضريبة على الملح، الذي جعلها الإسلام مشاعاً بين أفراد المجتمع الإسلامي... ففرضت سلطاتها احتكارها له، وقد تسبب ذلك في حدوث نقمة شعبية عامة،

(46) يعتقد كثير من العلماء والأطباء أن الإكثار من تناول الملح، يسبب انهياراً عاماً للجسم، وانحطاطاً شاملاً في القوى الجنسية، وقد دلت الدراسات الأولية فعلاً، على أن الإفراط في استعمال الملح قد يضعف البنيان الجسدي العام، ويجعل الجسم مستعداً للإصابة بالأمراض، سواء منها السرطان أو سوء التكلس.

(47) مجلة «الفصل» ع : 66 / س : 6 / عام 1982.

واضطرابات دامية، حتى جاء عهد لويس السادس عشر... وبينما كان هذا يدرس موضوع إلغاء ضريبة الملح، عاجلته ثورة 1789، فألغت الملكية، وألغت معها ضريبة الملح، ولكن الحكومات المتعاقبة أعادت ضريبة الملح مرة أخرى، ثم ألغتها، ثم أعادتها، وأخيراً ألغيت هذه الضريبة، وكان ذلك فيما يبدو لا يزيد عن مائة عام خلت...

* * *

إن موضوع هذه الدراسة، في هذا الفصل، تهتم بإباحة واشتراك الخلق في أشياء حديدها رسول الله ﷺ، وكلها تعود إلى الماء أصلاً فمن الماء ما يكون منه الملح والبرد، والثلج، فيجتمع الحسن في العين، والكرم في البياض والصفاء، وحسن الموقع في النفس... (48)

فحرارة الشمس، والذي يخرج إلى البحر من الأرض من أجزاء النيران المخالطة يرفعان لطائف الماء بارتفاعها وتبخيرها، فإذا رَفَعَا اللطائف، فصار منها مطر، وما يشبه المطر، وكان ذلك دأبهما، عاد ذلك الماء ملحاً، لأن الأرض إذا كانت تعطيه الملوحة، والنيران تخرج منه العذوبة واللطافة كان واجبا أن يعود إلى الملوحة، ولذلك يكون ماء البحر أبداً على كيل واحد ووزن واحد... (49)

* * *

يستفاد مما تقدم أن ملكية المرافق الأساسية كالمياه أو الكهرباء، وضروريات الحياة كالمح، تكون ملكية عامة استناداً إلى قول الرسول السابق، وفي حديث آخر: «الملح وما يقاس عليه» وهو حديث مشهور، أخرجه أبو داود، واستندت إليه مختلف كتب الفقه، وأخصها الخراج لابن يوسف كما قدمنا، والأموال لأبي عبيد، وقد ورد في رواية أخرى: الماء لا

(48) «الحيوان» ص : 147 / 5.

(49) «الحيوان» ص : 39 / 5.

يحل منعه، والملح لا يحل منعه، وأيضاً: «لا تمنعوا كلاً ولا ماءً، ولا ناراً» فهذه النصوص تعني في نظر الباحثين المحدثين أن كل ما كان ضرورياً لحياة الناس مجتمعه، لا يصح أن يكون مَحَلًّا للملكية خاصة، بل تستقل به الدولة أو الجماعة... (50)

وقد الحق الشافعي رضي الله عنه بذلك ما يوجد في الأرض مما ترى منفعته بادية، وفي متناول من يطلبها دون جهد منه أو عمل... ومن كل معدن ظاهر كالذهب والتبر وغيرهما... والنبات والماء مما لا يملكه شخص معين، ولا يحتاج في إظهاره وإدراكه إلى مؤونة، فإن الناس جميعاً يكونون في ذلك سواء لا يختص به واحد من الناس بإحياء أو إقطاع من ولي الأمر، بل يكون شأنه شأن الكلاً والماء والنار، والقاصد إليه شريك فيه كشركة في الماء والكلاً الذي ليس في ملك أحد، قال الشافعي: ومثل هذا كل عين ظاهرة كنقط أو قارٍ أو كبريت أو حجارة ظاهرة في غير ملك لأحد، فليس لأحد أن يحتجزها دون غيره ولا لسلطان أن يمنحها لنفسه ولا لخاص من الناس. (51)

* * *

والفقهاء القدامى مجمعون بأن الماء في بئر حفرت، أو في مجرى عين تفجرت، يثبت حق الشفعة فيها لكل الناس بشرط عدم إلحاق الضرر بصاحبها، فليس لصاحبها أن يمنع عنها الناس، فإن منع أجبر بغير سلاح، فإن لم يفد، فبالسلاح، بل إن الماء المحجوز في آنية، ولو أنه

(50) انظر فضيلة المرحوم الشيخ علي الخفيف : «الملكية الفردية وتحديداتها في الإسلام» - كتاب المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية مارس 1964 ص: 112، وانظر أيضاً: «اشتراكية الإسلام» مصطفى السباعي ط: الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة (1965) ص: 147، وكذا للدكتور علي عبد الواحد وافي «التكامل الاقتصادي في الإسلام» ص: 141 / مارس 1971، كتاب المؤتمر 6 لمجمع البحوث الإسلامية.

(51) «الام» للشافعي ص: 3/265 وما بعدها...

مملوك لحائزته، لا يجوز منعه عن الناس عند الضرورة الشديدة للمحتاج إليه... (52)

ويلاحظ أخيراً، بأن هذه الأشياء الماء والنار والكلأ والملح تعتبر سواء ضرورية لحياة الجماعة، وخاصة سكان الصحراء في عهد الرسول عليه السلام وقبلة، وليس النص على هذه الأشياء للحصر، كما تقدم بيانه، بل قواعد الشريعة تقتضي بأن كل ما كان مثل هذه المواد ضرورياً للمجتمع، لا يصح أن يترك لفرد أو أفراد تملكه، إذا كان ينشأ عن احتكارهم له استغلال حاجة الجمهور إليه، بل يجب أن تشرف الدولة على استثماره، وتوزيعه على كافة الناس...

وتوحي مضامين هذه الشركة في أبعادها القريبة والبعيدة صحة التأميم، والسياسة التي ينبغي نهجها في الموضوع، إذ بالإضافة إلى ما في الحديث من التنصيص على أن هذه الأمور يجب أن تكون في متناول الجميع لأنها مشتركة بينهم جميعاً...

ومن المعلوم من التشريعات الإسلامية أن كل سياسة أو عمل يضمنان المحافظة على هذه الشركة ذات النفع العمومي، وذات الضرورة القصوى للجميع يكون إنتاجها وتطبيقها واجباً.

* * *

ولما كان مبدأ التأميم كنظرية اقتصادية محل نقاش بين علماء الاقتصاد، وخاصة غير الاشتراكيين منهم، فيجب أن لا تلجأ الدولة إلى تأميم صناعة أو مرفق من المرافق العامة إلا بعد أخذ رأي الخبراء الاقتصاديين والاجتماعيين...

(52) انظر بحث أستاذنا الدكتور جميل الشرقاوي الأستاذ سابقاً بكلية الحقوق بجامعة محمد الخامس «قيود الملكية للمصلحة العامة في الشريعة الإسلامية». والمقدم لأسبوع الفقه الإسلامي المنعقد بالرياض في المدة من 5 - 10 نوفمبر 1977 بإشراف المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة.

بيد أن «تأمين الكهرباء والماء» وبعض المواد الغذائية مما يحتمه الحديث: الناس شركاء في ثلاث: الماء والكأ والنار والملح... والماء هو مصلحة المياه اليوم، والنار: هي مؤسسة الكهرباء في عصرنا الحاضر، والكأ والملح أمثلة للمواد الضرورية التي لا يستغني عنها إنسان ما.... ومن القواعد الأصولية، أيضاً، في الفقه الإسلامي، أن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، ومن هذه الرؤية، يلاحظ أن الحديث دعوة ضمنية لتأمين هذه المرافق الثلاث، ذات الخطورة القصوى في حياة الناس والكائنات، كونها مشتركة بين الجميع يقتضى أن يعمل على ضمانها لهذا الجميع، كل على قدر حاجته وضرورياته، ثم يدخل ضمن تلك المحافظة عليها أمر توزيعها ورعايتها، ووسائل التوزيع والرعاية.

وإذا كانت بعض المذاهب الاقتصادية ترى تأمين وسائل الإنتاج جميعاً كالمناجم والأرض والمصانع لتصبح ملكاً للدولة، فإن الإسلام قد نظم هذا التوزيع للملكية بين الدولة والأفراد، أو بين القطاع العام والقطاع الخاص تنظيماً دقيقاً، فجدد ما يجب أن يكون ملكاً عاماً للشعب كله، وما يباح للأفراد امتلاكه...

ويمكن بلغة العصر فيما يتعلق بالمعادن وسبب تأمينها أن الثمرة غير متكافئة مع العمل الذي تم لاستخراجها، فلو تركت للأفراد لأصبحت الأمة بضرر شديد، وربح الآحاد أرباحاً فاحشة تؤدي إلى الاحتكار أو التمييز الطبقي الذي يأباه الإسلام. (53)

يقول الإمام أبو بكر بن مسعود الكاشاني (ت 587هـ) في كتابه : «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» وهو من أهم المراجع في مذهب الإمام أبي حنيفة: «وأرض الملح والقار والنفط والبتروك ونحوها مما لا يستغنى عنها

(53) «نظرية الإسلام الاقتصادية» ص : 69، عبد السميع المصري...

المسلمون، لا يجوز للإمام أن يعطيها لأحد، لأنها حق لعامة المسلمين، وفي الاقطاع إبطال لحقهم، وهذا لا يجوز». ماشاء الله...!!

وقال ابن قدامة في كتابه «المغني»: «وجملة ذلك أن المعادن التي ينتابها الناس، وينتفعون بها من غير مؤونة كالمح والماء والكبريت والقار، والمومياء، والنفط والياقوت، وأشباه ذلك لا يجوز احتجازها دون المسلمين، لأن فيه ضرراً بهم، وتضييقاً عليهم». (54)

ويعتبر المالكية المعادن بأنواعها عامة لمصالح المسلمين جميعاً سواء في ذلك ما إذا كانت المعادن في أرض مملوكة لمالك، أو مملوكة لأحد... وعللوا ذلك بأن المعادن، وإن كانت من الأرض، وجزء منها، إلا أنها لا تملك بامتلاكها، لأن القصد من تملك الأرض استعمالها للزرع أو للبناء... أما ما خفي في باطنها من معادن، فهي لم تكن معلومة ولا مقصورة للتملك، وقت التملك، ومادامت المعادن لم تدخل في ملك أحد، وبقيت على ملك المسلمين حتى رغم ملكية الأفراد للأرض، فإن ولي الأمر يتولاها، ويديرها لصالح المسلمين عامة، بأي طريق يراه بشرط أن تبقى على ملك الدولة، فليس لولي الأمر كما يرى المالكية أن يقطع هذه المعادن بأعيانها لأحد. (55)

ويرى المالكية، أيضاً، في أشهر أقوالهم: «أن ليس شيء من المعادن في محالها» مناجمها، ما لا مباحا حتى يملكها من يستولي عليها، وإن كان استيلاؤه عليها لم يحدث إلا بعمل قام به، أو بنفقة أنفقها في سبيله، وإنما هي ملك للمسلمين جميعاً، نتيجة قيامهم على ما وجد فيها من الأرض قيام ولاية وحماية، ولا تعد تابعة لأرضها، مملوكة لأصحابها، نتيجة لتملك أرضها، إذ ليس لمثل هذا طلب الأرض، أو ملكة، وعلى ذلك

(54) «المساواة في الإسلام» على عبد الواحد وافي ص : 24 - 25.

(55) «كتاب الفقه الإسلامي» لمحمد سلام مذكور ص : 123.

يكون أمرها إلى الإمام يستغلها بعماله لمصلحة المسلمين، إن رأى المصلحة في ذلك، أو يقطعها من شاء إقطاع انتفاع مؤقت بمدة أو بحياة من أقطعها نظير مال يصرف في مصالح المسلمين، فإذا انتهت المدة رد الأمر فيها إلى الإمام، لا فرق في ذلك بين ما يوجد في أرض مملوكة، وما يوجد في أرض غير مملوكة ولا بين نوع ونوع... (56)

وجاء في «منح الجليل» للشيخ عlish «أن أساس هذا الحكم هو المصلحة العامة، إذ أنها تقتضي ذلك...».

أما ما يحتاج إلى عمل ومؤونة في إظهاره واستخراجه فإن منفعته تكون لمن كان ذلك منه بما استحدثه من مال... (57)

* * *

وإذا كانت النظم الجماعية في شكلها الحالي تملك مصادر المواد الأولية للجماعة، فإن هذا السلوك لا يتفق في كثير أو قليل، مع النظرة الإسلامية، فالتشابه بين النظريتين ظاهري محض، لأن الملكية بأسرها في النظم الجماعية تعتبر مرحلة انتقالية لا بد أن تنتهي وتسقط ببلوغ مرحلة الشيوعية، وعلى ذلك فملكية الدولة لهذه المصادر وضع مؤقت ناتج عن مرحلة تاريخية ومرتبطة بها... ولا بد أن يتلاشى بدخول المجتمع في مرحلة جديدة من مراحل تطوره...

وغنى عن البيان أن الإسلام لا يؤمن بالمادية التاريخية ولا بالتطور التاريخي على الصورة التي قال بها اليهودي «ماركس» ومن بعده، فارتباط الملكية بشكل الإنتاج وتبعيتها له يرفضها الإسلام، وتنفيها التجربة...

* * *

(56) «الملكية الفردية، وتحديدها في الإسلام» للشيخ علي الخفيف أستاذ الشريعة بحقوق - القاهرة سابقا...

(57) «الام» ص : 3/265.

وأخيراً... نقرأ في «أمثال للعوام في الأندلس» لأبي يحيى الزجالي: (58)
أربعة أشياء جعلها الله رخيصة مع جلالة قدرها وعظم خطرهما: الماء،
والمالح، والزجاج، والشَّعْرُ أهونها!!!

أما هَوَانُ الشعر، فطالما شكّا منه شعراء الأندلس وغيرهم، ومن ذلك
على سبيل المثال قول أبي الحسن الفخري:

صناعة هان عند الناس صاحبها
وكان في حالٍ مرجوٍّ ومُرْتَقَبٍ (59)

وانظر ما ورد في ذم الشعر وهوانه عند الأندلسيين «زاد المسافر»، (60)
وقد لقب أحد شعرائهم بالكساد لقوله:

«وبيع الشعر في سوق الكساد» (61)

ولمّا أنشد ابن جاح (62) قصيدته أمام المعتضد ابن عبّاد، وهو لا يعرفه،
وبعدما ضحك منه الشعراء وازدروهُ، وتنادروا عليه. في قصةٍ طويلةٍ، وصلَّ
إلى هذا البيت :

إنَّ القَرِيضَ لكاسدٌ في أرضنا
ولهُ، هُنا، سُوقٌ بغيرِ كَسَادٍ.

قال له الملك : «أنت ابن جاح»، فقال : «نعم»، فقال : اجلس، فقد وليتك
رئاسة الشعراء»، وأحسن إليه.

(58) ص : 2/120، تحقيق د. محمد بنشريفة...

(59) جذوة الاقتباس ص : 190.

(60) ص : 4/10.

(61) أصل البيت لأبي الطيب المتنبي الذي يقول : إلى كَمْ أَشْغَلُ نَفْسِي عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي بِنَظْمِ
الشعرِ في مدح مَنْ لَا قِيَمَةَ عِنْدَهُ لِلشَّعْرِ، فقال:

وَشُغِّلَ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي

بَبَيْعِ الشَّعْرِ فِي سَوْقِ الْكَسَادِ

[الديوان ج : 2/ ص : 77]

(62) النفح : ج : 4 / ص : 244.

فهرس المحتويات

3 تقديم
7 مقدمة المؤلف
61 - 17	الباب الأول
17	الماء .. صنو الحياة
	الفصل الأول :
19	الماء عنصر الحياة وسر الوجود
29	الحياة ظاهرة مائية
31	الماء جوهر الكائنات جميعا
33	المحيطات المائية مخزن هائل للطعام
34	المحيطات المائية هي صانعة الطقس
	الفصل الثاني :
37	الماء .. والأرض
	الفصل الثالث :
41	العيون والأنهار ترتبط بالنعيم
55	غياب عنصر الماء : معناه الذبول والفناء
57	الحياة بالماء .. والتعذيب بالماء
120 - 63	الباب الثاني
	الفصل الأول :
63	اللغة العربية، أغنى لغات العالم
65	مادة «ماء» اللغوية
71	حقيقة الماء
76	تفصيل أسماء المطر
77	أسماء الآبار وأوصافها

79	أجناس الأقداح.....
81	أوعية الماء.....
83	الصوت الذي يُحدثُهُ الماء.....
84	مناقع المياه.....
84	الفرق بين الغيث والمطر والرياح.....
86	الغيث الربيعي... والغيث الشتوي.....
91	فَجَرَ.. وانجس.....
93	الحوض الذي يحوي المياه.....
96	ألفاظ لها صلة بالبحر.....
99	من أسماء السحاب.....

الفصل الثاني :

104	التراكيب والاستعمالات المجازية للماء.....
-----	---

الباب الثالث 157 _ 121

121	الماء في القرآن ظاهرة فريدة في كتاب الله.....
-----	---

الفصل الأول :

123	التركيز على نواميس الوجود وأسراره.....
136	الأمير شكيب أرسلان في مصر.....

الفصل الثاني :

150	القرآن، ومظاهر الكون البيولوجي.....
-----	-------------------------------------

الباب الرابع 234 _ 159

159	الكوكب المائي.....
-----	--------------------

الفصل الأول :

161	علوم البحار.....
165	المطر.. أو البحر ؟.....
176	عمر المحيطات.....

177	ظلمات في بحر لجي
180	هذا عذب قُرات سائغ شرابه.. وهذا ملح أُجَاج
182	المياه المالحة
184	خصائص مياه البحر
186	من أين يجيء الملح الموجود في البحار ؟

الفصل الثاني :

187	الصلة بين الإنسان.. ونعمة الماء
188	البحر في حياة الرسول والعهد الإسلامي

الفصل الثالث :

حديث البحر في الأدب العربي :

197	تقدم العرب في علوم البحار
219	دراسة المصطلحات البحرية العربية
219	علم السُّماكة
221	مؤلفات في عجائب البحر وغرائب
226	تعليمات دينية وأخلاقية
229	أدبُ البحر
233	لكل بحر

الباب الخامس :

288 - 235	وجعلنا من الماء كل شيء حي
-----------	---------------------------------

الفصل الأول :

237	مفهوم فريد للماء
239	السبب واحد، والمسبب كثير
242	إني إذا رأيتك طابت نفسي
244	أكثر العناصر الأربعة فعالية
245	الماء مادة غذائية

الفصل الثاني :

249	ألم نخلقكم من ماء مهين
253	الكراسة الرمادية

256 الإنسان من تراب
261 الأسباب تنتهي جميعا إلى السبب الأول
262 تأليس يتفلسف
264 العلوم .. يخدم بعضها بعضا

الفصل الثالث :

266 الماء والحياة
267 الأساس في الحياة
268 الماء وسط للتفاعلات الكيميائية

الفصل الرابع :

270 لا يأكلون.. ولا يشربون
274 موريطاني عمره 65 عام لم يستخدم الماء في حياته
276 حيوانات لاتشرب الماء
278 الهدد
281 والنار المخرقة.. من الماء

371 _ 289 الباب السادس

289 تقديس الماء عند الشعوب والأمم
-----	-------------------------------------

الفصل الأول :

291 الماء عند القدماء
294 العناصر في الحضارة الإغريقية
294 العناصر والمكونات في الفكر الإسلامي

الفصل الثاني :

297 العناصر الأربعة في القرآن الكريم
297 عنصر الماء
298 عنصر التراب والطين والصلصال
300 عنصر النار
300 الهواء. والريح. والرياح
301 فلسفة الأرقام

	الفصل الثالث :
311	التصور الميثولوجي للماء عند العرب
313	نُدْرَةُ الماء كانت سبباً في خَلْقِ الخرافات والأساطير
317	تقديس الأفارقة للماء
319	العُرَافَة في دلتا النيجر
319	عين بادحاني
321	آبار وينابيع مقدسة في البلاد العربية

	الفصل الرابع :
329	الحوريات حيوانات خرافية
329	عيشة قنديشة
332	حيوانات مائية بحثة
333	أكولة... وفقيرة المواهب
334	دموع «عروس البحر»
334	تشابهه مع الحيتان
335	قرباة مع الفيلة
336	الديري يتحدث عن إنسان الماء

	الفصل الخامس :
338	القرآن.. وثق الصلة بين الإنسان ونعمة الماء
339	سيدي عبد الله الياهوري
345	الجن تصد البقر عن الماء

	الفصل السادس :
348	تقاليد الفرس يوم النيروز
350	العنصرة - الماء - والعادات
352	عيد الغطاس في مصر
355	الشيخ أحمد حسن الباقوري.. وعمامته
358	أنهار الجنة

	الفصل السابع :
360	حفلة زفاف النيل

407 - 373 الباب السابع
373 الناس شركاء في ثلاث

الفصل الأول :

375 ما الشيء الذي لايجوز منعه ؟
375 إسْقِ أَخاك النَّمْرِي
378 إذا كنت على الماء، فلا تبخل بالماء

الفصل الثاني :

382 الوقف مرغوبٌ فيه للحاجات الاجتماعية
387 الفقهاء أدخلوا جميع المرافق العامة

الفصل الثالث :

388 الماء - الكلاً - النار - الملح
391 كَرِهَ الإسلام أن يكون المال دُولَةً بين الأغنياء
392 الكلاً
394 النار
397 الملح
400 ضريبة الملح
409 فهرس المحتويات

